334
2006
عالم المعرفة

كامي وسارتر

تأليف: رونالد أرونسون
ترجمة: شوقي جلال

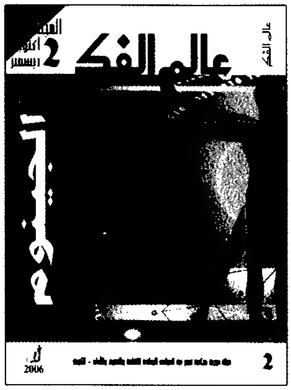
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الكويت

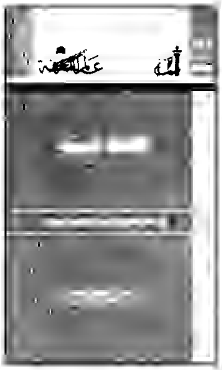
إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



الفنون



عالم الفكر



عالم المعرفة



الثقافة العالمية



إبداعات عالمية

الإصدارات الدورية

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923-1990

334

كامي وسارتر

تأليف: رونالد أرونسون

ترجمة: شوقي جلال

عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	**15** د.ك
للمؤسسات	**25** د.ك

دول الخليج

للأفراد	**17** د.ك
للمؤسسات	**30** د.ك

الدول العربية

للأفراد	**25** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**50** دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	**50** دولارا أمريكيا
للمؤسسات	**100** دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: *28613* ـ الصفاة ـ الرمز البريدي*13147*

دولة الكويت

تليفون: ٢٤٣١٧٠٤ (٩٦٥)

فاكس: ٢٤٣١٢٢٩ (٩٦٥)

الموقع على الإنترنت:

www.kuwaitculture.org.kw

ISBN 99906 - 0 - 203 - 4

رقم الإيداع (٠٢٦/٢٠٠٦)

العنوان الأصلي للكتاب

CamuSartre

The Story of a Friendship and the Quarrel That Ended it

by

Ronald Aronson

The University of Chicago Press, Chicago and London

طبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ذو القعدة ١٤٢٧ - ديسمبر ٢٠٠٦

المحتوى

مقدمة المترجم I

استهلال 7

الفصل الأول: **اللقاءات الأولى** 19

الفصل الثاني: **الاحتلال.. المقاومة.. التحرير** 37

الفصل الثالث: **التزامات ما بعد الحرب** 63

الفصل الرابع: **نقطة التحول عند كامي** 93

الفصل الخامس: **نقطة التحول عند سارتر** 129

الفصل السادس: **العنف والشيوعية** 155

الفصل السابع: **الانفجار** 175

الفصل الثامن: **تدبير أمور كثيرة وأداء أعمال حقيقية** 205

الفصل التاسع: **كل يستعيد دوره وإنتاجه** 231

الفصل العاشر: **لا مفر** 269

خاتمة 293

تذييل 305

سلسلة إصدارات «عالم المعرفة» 311

مقدمة المترجم

الصراع صعودا إلى القمم كاف وحده ليملأ قلب الإنسان. لذا حري أن نتصور سيزيف سعيدا.

ألبير كامي

من دون ثقافة وما تعنيه ويقترن بها من حريات يغدو المجتمع غابة، حتى إن بدت صورته كاملة. لذلك فالإبداع الأصيل هبة للمستقبل.

ألبير كامي

أن أكون يعني أن أفعل، ونحن دائما نختار كيف نفعل.

سارتر

الحرية ليست في ذاتها مسألة اختيار، إنها لزوم ما يلزم، إنها ما لا يمكن اجتنابه. وهي جوهر وجود الإنسان.

سارتر

القرن العشرون قرن الصراع السياسي والفكري في ذروة احتدامه داخل إطار الفكر الغربي الحداثي الذي مثله قطبان: الفكر الليبرالي الديموقراطي، والفكر الراديكالي المتمثل في الفكر الماركسي تحت اسم الاشتراكية. واحتدم الصراع نظريا بعد الحرب العالمية الثانية، وانتصر «الحلفاء»... ولم يكن الحلفاء سوى حزمة جامعة للقطبين النقيضين: الليبرالية بزعامتها الجديدة تحت لواء الولايات المتحدة الأمريكية، والماركسية بزعامة موسكو. وأخذ الصراع أشكالا عدة ما بين توسع إقليمي لمناطق النفوذ في ضم ولاء الدول، وبين توسع لمناطق نفوذ الفكر بالدعاية والترويج لفكر أي من القطبين أو الدعاية المضادة. وتجسد الصراع في صورة ما اصطلح على تسميته الحرب الباردة بين معسكرين.

وكان النصف الثاني من القرن العشرين ملحمة متداخلة المشاهد للصراع الفكري. وبرز خلال هذه الملحمة بطلان فكريان استقطبا جماعات المثقفين في الشرق وفي الغرب.

ناقشا قضايا الإنسان والشعوب على خلفية جديدة محورها الحرية أو التحرر في إطار جديد غير إطار المحورية الغربية. ولم نكد نجد مثقفا أو ناشطا سياسيا إلا ويناقش قضايا الحرية والاشتراكية من منطلق فكر أحد هذين المفكرين: ألبير كامي وجان بول سارتر. كان كلاهما بحق مصداقا لمقولة أن الكاتب/المفكر شاهد على عصره، بل صانع منسق «مايسترو» لفكر العصر الذي يشهده ويشارك في بنائه بحيث نطالع مسرح الحياة على صفحات كتاباته.

ودار الفكر الفلسفي والسياسي التحرري في فلكيهما... والقضية الخلافية دائما هي: «الغاية أم الوسيلة... الأنا أم النحن، وكيف؟» وكان صراعهما نبوءة وإرهاصا بانهيار المنظومات الفكرية الحديثة، والفراغ الفكري، وأزمة الإنسانية، والجحيم العصري.

وبدا المثقفون في العالم الثالث تجسيدا لهذا الجدل السجالي الساخن الذي نقرأ تاريخه حيا بين صفحات هذا الكتاب. وها نحن نجد أنفسنا من جديد في خضم مراجعة فكرية غربية لما كان كخطوة لتصحيح الطريق أو للتحايل على التاريخ.

كامي وسارتر، القطبان النقيضان داخل دائرة الحرية والتحرر، اللذان حددا اختيارات جيلهما في العالم. عشنا معهما أو مع فكرهما الذي رأيناه صرعة أو «موضة» العصر دون نفاذ إلى الأعماق... دون حياة الفكر ذاته منغمسا في الواقع... ناقشنا في عالمنا العربي باسميهما وفي ضوء أفكارهما معاني جديدة... الالتزام، المسؤولية، الأصالة، الثقافة والحياة، الإنسان موقف... الإنسان فعل واختيار حر... إلخ. ناقشنا بألسنتنا هذا كله دون أن يتحول النص إلى ثقافة اجتماعية راسخة في الأذهان وإطار فكري فاعل للتغيير، ومرجع للتفكير... ودون أن نثري التجربة الإنسانية التي جسدها تناقض سارتر وكامي بفكر جديد نابع من حياتنا، ولا أقول تجربتنا.

ألبير كامي وجان بول سارتر مفكران مبدعان في تنوع: في الأدب والفلسفة، في الرواية والمسرح، في السياسة والصحافة، وكذا في المقاومة. صاغا إطار الفكر الثقافي الذي دار في فلكه المثقفون في العالم إبان الحرب العالمية وبعدها على مدى الحرب الباردة. اتفقا وتحالفا، واختلفا وتباعدا. ودارت بينهما معارك فكرية هي شهادة على ثقافة عصر، وعلى كل ما

عاشته ثقافة العالم من توتر وأمل وإحباط. وظلت قصة الصداقة والإعجاب المتبادل ثم الخصومة والقطيعة والصراع قصة غير معروفة بالكامل. إنها قصة الصراع السياسي والفكري على الصعيد العالمي... وقصة الصراع بين السياسة والأخلاق... بين متغيرات السياسة وثوابت الأخلاق. تقاسما معا مواقف مثقفي العالم: سارتر أم كامي... مع السياسة والوسيلة أم الأخلاق والمبادئ... مع العنف طريقا للحرية، أم مع الحرية وسيلة وغاية للبناء والتقدم... أم هناك موقف ثالث؟ المثقف الملتزم ومعنى الالتزام: للمبادئ أم للأخلاق... للغاية أم الوسيلة أيضا... التمرد أم الثورة...؟ وأين تقع مسؤولية المثقف في خضم هذا الصراع: مسؤوليته عن الحرية... عن التمرد... عن المبادئ... عن الأهداف والوسائل... عن العنف والقسر من أجل الهدف، وإن أدى إلى التضحية بالحرية... عن الإنسان بعيدا عن قيود العصبية والتعصب... إلخ.

ولا نزال نعيش هذه التوترات... إذ لا تزال هذه هي قضايا ثقافة العصر على الرغم من أن الحرب الباردة باتت من ذكريات الماضي... ولا تزال الحرب قائمة... إذن هناك دلالات وأسباب أعمق... رحل كامي وسارتر وبقيت القضية معلقة.

وها هنا قصتهما في التحالف وفي الصراع في ضوء الوثائق والسيرة الذاتية وشهادات كتاب ومفكرين، وشهادة كتبهما.

الكتاب دراما واقعية... دراما الإنسان الملتزم متعدد الأبعاد في توتر بين الغاية والوسيلة... والكتاب مراجعة واقعية لتاريخ الثقافة والسياسة على مدى عقود لا تزال أصداؤها ممتدة في إلحاح... والكتاب سؤال أو استجواب إلى كل مثقف: أين كنت وأين أنت الآن، ولمن الموقف والفعالية والالتزام؟ الكتاب ساحة للمراجعة وللمشاركة في المراجعة... إنه قصتنا أيضا.

* * *

وإذ نقدم الترجمة العربية لكتاب «كامي وسارتر»، إنما نقدم دعوة ملحة وصادقة لغائب أبدا في حياتنا الثقافية والفكرية والسياسية... أعني المراجعة النقدية للذات من منطلق اجتماعي في إطار أفق اجتماعي يتعالى على الأفق الذاتي المحدود، مراجعة لرصيدنا الثقافي ودوره الفاعل إيجابا وسلبا؛ مراجعة للفعل الاجتماعي... للإنسان... لانحيازاتنا الفكرية.

تمضي الحياة، حياتنا، اطرادا عشوائيا والتماسا لمصالح أنانية أو محورية ذاتية من دون أن نتأملها صادقين بحثا عن المعنى والدور وتحقيق الذات... وتمضي الحياة دون مراجعة للذات فردا ومجتمعا، وهل تساوي المعاناة؟ أم نراها بعيون العاجزين القاصرين ابتلاء من دون أن نسأل كيف ولماذا؟ تمضي الحياة وكأنها شأن سطحي، وإشباع غريزي فردي لأفراد تقطعت أواصر الصلة والتضامن والتكافل بينهم... غابت الفعالية المجتمعية، وغاب معها الفكر الإبداعي النقدي... ويضيق مع هذه الحياة الأفق، ويظل كل امرئ محصورا داخل ذاته جيلا بعد جيل، وعودا على بدء.

ولذلك نجد مجتمع اليوم وهمومه هو عين مجتمع الأمس وهمومه، ولا معنى في الأذهان لكلمات: التطور... التغيير... الارتقاء... التقدم... المسؤولية... الالتزام... التمرد على الواقع المعيش تطلعا إلى أفق جديد يدحر هموم الحاضر وصولا إلى واقع جديد وهموم أو مسؤولية حراكية جديدة دافعة إلى إبداع مستقبل غير مسبوق.

نعيش حياة غاب عنها الاختيار... حياة مفروضة هي حياة القسر والطاعة في خضوع... خضوع لسلطة خارج الذات، وليست حياة الاختيار والالتزام النابعين من داخل ذات حرة مستنيرة، ومن تفاعل الذات مجتمعيا نحو هدف هو معلم التضامن ووحدة المسار... وغابت عنا في ثقافتنا وفكرنا قيمة إبداع الحياة حين تكون اختيارا مسؤولا قرين التزام بفعل داخل إطار جمعي.

ما هي دراما أو تراجيديا حياتنا في الواقع... في التاريخ... في المستقبل؟ هل من إجابة؟ هل من سبيل للمراجعة والاعتراف والنقد وعقد العزم على التصحيح؟ نظرة نقدية إلى النفس وإلى الحياة... إلى الواقع... إلى رصيدنا الثقافي الفاعل... هذا كله لكي يتحقق يحتاج إلى جرأة: جرأة الانتصار على النفس... جهاد النفس... جرأة ومعاناة سيزيف الذي يرى أن النضال صعودا إلى القمم هو جوهر معنى الحياة والانتصار على عبثيتها... هل نفتقدها؟ هل نشعر بالذنب دون الأسى لأننا كذلك؟ الشعور بالذنب شعور بالخطأ والمسؤولية مع عزم وإرادة للتصحيح... والأسى حالة تعتري نفس العاجز مؤقتا، وتمضي.

نحن قنعنا بأننا نعيش حياة مفروضة قسرا علينا. إذن كيف نعيش؟ كيف نراجع وننقد؟ أنى لنا الادعاء بأننا صناع حياة باختيارنا؟ وهل نجد بين «مفكرينا» وكتابنا من فكره وكتاباته شهادة على العصر؟ وهل نجد من بينهم

من تواتيه جـرأة المراجعة والنقد لنعيد قراءة الذات: الفعل والفكر، ونكشف مـواضع القصور والخلل أو التزييف والكذب؟ أو نكشف منطق الفكر والتاريخ في حياتنا؟

* * *

الآن أحداث القرن العشرين مبسوطة أمـامنا بكل أصدائها وتفـاعـلاتها المحلية والعالمية، فهل تواتينا، نحن المثقفين، جـرأة المراجعة النقدية الصادقة لثقافتنا ومواقفنا وانحيازاتنا لنستكشف حقيقة الأسباب التي قادتنا إلى ما نحن فيه؟ مثل هذه المراجعة النقدية إبداع فكري، والإبداع الأصل، كما يقول كامي، هبة الإنسان/المجتمع للمستقبل. إنني أومن بأن المثقفين بقدر ما هم منارة التنوير والتقدم، بقدر ما هم المسؤولون أولا وأساسا عما يصيب المجتمع ويعوق مسيرته إذا ما غيبوا الحقيقة وهم يعلمونها، وتذرعوا بافتقاد الحرية.

والمراجعة النقدية سبيلنا إلى الحقيقة... والحقيقة هي الطريق والمنطلق إلى الحرية. والتزييف هو الطريق إلى العبودية أو الاستعباد والضلال... وغني عن البيان أن المعاناة الحقة والآثار الجنائية تقع على كاهل من سلبناهم الحقيقة وزيفنا تاريخهم، فهؤلاء دائما في التاريخ هم الضحية.

شوقي جلال

القاهرة ٢٠٠٦

استهلال

إلى رئيس تحرير مجلة «الأزمنة الحديثة»...

«عزيزي كامي: لم تكن صداقتنا سهلة يسيرة، بيد أنني سأفقدها. إذا أنهيتها أنت اليوم فذلك يعني دون شك أن كان ضروريا أن تنتهي. أمور كثيرة جذبتنا كلينا للآخر، وقليل منها فرَّق بيننا. ولكن هذا القليل على قلته كان ولا يزال كثيرا جدا...».

«إلى رئيس التحرير»: بيد أن الكل كان يعرف أن هذا صديق طيب يتحدث إلى الآخر. «إذا أنهيتها»: فيلسوف الحرية الأشهر يضع المسؤولية على عاتق صديقه دافعا به إلى مسار ينطوي على إساءة عنيفة أنهت بالفعل الصداقة.

هذه الكلمات التي لا سبيل إلى نسيانها، كلمات شخصية جدا، لكنها عامة للغاية، أصيلة جدا، لكنها مشبعة للغاية بسوء الطوية، تشير في آن واحد إلى نقطتي تحول، إحداهما علاقة شخصية والثانية حقبة تاريخية. بلغت الصداقة بين ألبير كامي وجان بول سارتر ذروتها فور تحرير فرنسا. وكان كلا الرجلين وصداقتهما تجليا لروح

«كان لابد لرواية القصة أن تنتظر ليس فقط من أجل تجميع المادة. إذ حيل بيننا وبين رؤية ما حدث بينهما لأسباب أخرى أكثر جوهرية: الحرب الباردة ذاتها»

المؤلف

التفاؤل اللانهائية التي سادت مع نهاية الحرب. وحملت صداقتهما على مدى سنوات عديدة، وعلى الرغم من الاختلافات المتنامية، مناخ حملات التطهير التي أعقبت الحرب والحروب الاستعمارية التي خاضتها فرنسا، والعودة المحلية الأليفة إلى السياسة المعتادة، وقبل هذا وذاك التأثير المتعاظم للحرب الباردة وضغوطها لكي يلتزم كل منهما جانبا محددا واضحا. لكن مع تفاقم الصراع السوفييتي الأمريكي الذي أفضى إلى حرب كوريا، تلاشت الساحة الوسطى التي تجمع بين الرجلين. وافترق في النهاية كامي وسارتر، ليس فقط لأنهما اتخذا موقفين متضادين، بل لأن كلا منهما أصبح الرائد الأخلاقي والفكري للموقف الذي التزم به.

وفي إطار حجة فلسفية انفعالية وموجعة شخصيا. نجد الصوتين الرئيسيين المعبرين عن الحياة الفكرية الفرنسية في ما بعد الحرب وقد دمرا بالكامل تقريبا صداقة عمرها عشر سنوات. أجهزا عليها في البداية في وجل وتردد ثم باندفاع، بدا أن لا سبيل إلى التحكم فيه. ودمر سارتر وكامي أيضا الوسط السياسي لكل منهما، كما أطاحا بكل أثر دال على أنه كان لهما يوما ما مشروعهما المشترك لخلق يسار مستقل.

ودارت أحداث دراما تاريخية كبرى فوق ساحة غير متوقعة: بضع مقالات شديدة التركيز منشورة في صحيفة باريس التي توزع أكثر قليلا من عشرة آلاف. ونلحظ أن قضية أغسطس ١٩٥٢، التي نشرتها مجلة «الأزمنة الحديثة»، بيعت ونفدت فورا، وأعيد طبعها ونفدت للمرة الثانية. وأعيد، في هذه الأثناء، عرض تبادل الآراء في ضميمة من صفحتين داخل صحيفة «كومبا» اليومية التي كان كامي يرأس تحريرها. وعرضت الصحيفة السابقة على «لانوفيل أوبزرفاتور» مقتطفات مطولة من خطاباتهما. وأضحت القطيعة حديث باريس تناقشها مقالات عديدة في ما لا يقل عن عشر صحف أو مجلات. وتضمنت العناوين الرئيسية عناوين مثل: «القطيعة بين سارتر وكامي هي الشغل الشاغل» في صحيفة «ساميدي سوار»، وأيضا: «سارتر ضد كامي» في صحيفة «فرانس ألستراسيون». واتفقت آراء الأنصار والمشايعين على أن النزاع يوجز ما سماه فرنسيس جينسون في عرضه لكتاب كامي «المتمرد»: «قضايا عصرنا

الملتهبة». ونجد، كما قال ريمون آرون صديق المدرسة القديم لسارتر، أن الاختلافات التي تضمنتها هذه المقالات: «تحمل على نحو مباشر طابع النزاع القومي». ورد كامي على جينسون بالهجوم عليه وعلى سارتر. وعقب هذا وجه سارتر وجينسون ردودا عنيفة إلى كامي. وبعدها كانت القطيعة ولم يتحدث سارتر أو كامي أبدا إلى الآخر.

بدأت علاقة سارتر ـ كامي من جانب كامي في العام ١٩٣٨، ومن جانب سارتر في العام ١٩٤٢، مع اكتشافهما الحماسي لكتب كل منهما الصادرة في باكر حياتهما الفكرية. وأفضى الاكتشاف إلى صداقة مباشرة في العام ١٩٤٣ مع أول لقاء جمع بين الاثنين. وتحادثا معا، وهما المتماثلان في الرأي فلسفيا وسياسيا، عن مجالات تعاون مشتركة ومتباينة، كما جمعت بينهما طموحات وتطلعات مشتركة. وغالبا ما كانا شريكين معا في التحرير وأصبحا أشهر كتّاب فرنسا على الإطلاق مع تحول الوجودية عقب الحرب إلى حالة من الهوس الثقافي. وجاهد كامي ليتحاشى الظهور في صورة مساعد لسارتر، لهذا أنكر كامي هذا التصور مرة بعد الأخرى بينما اتخذه صديقه نموذجا للالتزام بنظريته الجديدة. وكان الاثنان مثقفين نشيطين، ملتزمين دربين متوازيين... كان كامي رئيسا لتحرير مجلة «كومبا»، صحيفة المقاومة التي أصبحت إحدى يوميات باريس، وسارتر مؤسس ومدير مجلة «الأزمنة الحديثة» التي سرعان ما أصبحت أهم صحيفة سياسية وثقافية في فرنسا.

وواصلا السير على الدرب والشهرة الاجتماعية، واقترن موقفهما اليساري غير الشيوعي ببدايات الاستقطاب بين الشرق والغرب. وتحددت معالم هذا التقسيم في ضوء خطاب تشرشل «الستار الحديدي» في مطلع العام ١٩٤٦. وأصبح هذا التقسيم موضوعا مطروحا داخل دائرتهما مع وصول آرثر كويستلر إلى باريس في خريف هذا العام وهو المناهض بشراسة للشيوعية. وحدث هذا عقب صدور الطبعة الفرنسية لكتابه «ظلمة في الظهيرة» وكتاب «اليوغي» [الممارس لليوغا] والمسؤول الشيوعي». وفرضت شخصية كويستلر وأفكاره على الاثنين ضرورة الاختيار بين اثنتين ـ مع أو ضد الشيوعية.

وتفاقمت هذه الضغوط بسبب الأحداث التي شهدتها الأعوام القليلة التالية وصبغت بطابعها كتابات سارتر وكامي، علاوة على تطور مواقفهما السياسية. وكان بالإمكان، كما هي الحال سابقا، تمييز حوار يجري بين سارتر وكامي عبر كتاباتهما من دون أن يذكر أحدهما الآخر بالاسم، بل يصوغ كل أفكاره في ضوء علاقته بالآخر. وعلى الرغم من أن كلا منهما بات مشدودا إلى اتجاه مقابل فإنهما ظلا صديقين يواصلان العمل من أجل بناء «قوة ثالثة» مستقلة لأطول فترة ممكنة – وهو ما يمكن قوله ـ إلى أن أصبحت الحرب الباردة ساخنة وفي موازاة مع تطور فكر كل منهما، حتى أصبح لزاما على كل منهما قسرا أن يختار إما مع أو ضد الشيوعية. واستمرت صداقتهما إلى لحظة الانفجار ذاتها. وإذ تباعدا واصلا المحاجة فيما بينهما إلى أن وافت كامي المنية.

ويا لها من قصة مثيرة للاهتمام. ترى ما الذي حجبها فلم يروِها أحد كاملة قبل الآن؟ ثمة سبب أو سببان موجزان كتبهما حفنة من الكتّاب ممن اكتشفوا القضايا المثارة بين كامي وسارتر. بيد أنه لا أحد عمد إلى رواية تفاصيل قصة العلاقة ونهايتها. ترى هل كتاب كهذا لا يزال ضروريا حتى بعد مضي قرابة خمسين سنة على الأحداث التي يصفها؟

أحد الأسباب أنه لم يكن ممكنا إلا حديثا جدا. أضحت مادته الآن ميسورة (السير الذاتية، طبعات لنصوص في صورة دراسات وبحوث، قراءات تأملية للعديد من الكتابات، بحوث تفصيلية لعشرات المسائل والكتابات الخاصة بالسير الذاتية). وسمح لنا هذا كله بأن نفهم أكثر الأمور التي جرت بين الاثنين. وهكذا أصبح ممكنا الالتفات إلى هذه المسألة، إلى علاقتهما، وتأملها في ضوء تاريخها ومن ثم نستكشف ما وراء الستار الذي أخفيا به أحداثا ودلالات هما وكتاب تاريخ حياتيهما. وسوف نرى كيف انجذب كل منهما إلى الآخر، وكيف كانت الطريق الأصلية لكل منهما وثيقة الصلة بالآخر، وتفضي إلى إثراء طريق كل منهما، وسنرى كيف تفاعلا معا على صفحات الصحف والكتب، بما في ذلك التعليقات المباشرة وغير المباشرة من جانب أحدهما على الآخر، وكيف عالجت كتاباتهما مسائل عامة مشتركة، وكيف تداخلت مشروعاتهما السياسية والأدبية والفكرية، ثم كيف بدأ الكاتبان معارضة

كل منهما الآخر صراحة. وأكثر من هذا في الحقيقة كيف استطاع الاثنان بعد القطيعة أن يواصلا صراعهما مع بعضهما وأن يستجيب أحدهما إلى الآخر وأن ينقضه ويتحداه.

ولكن كان لابد لرواية القصة أن تنتظر ليس فقط من أجل تجميع المادة. إذ حيل بيننا وبين رؤية ما حدث بينهما لأسباب أخرى أكثر جوهرية: الحرب الباردة ذاتها. إذ فرضت على كل امرئ أن يلتزم جانبا في صراع مستقطب من أجل الخير ضد الشر؛ صراع سقط ضحيته سارتر وكامي ولكن كل بطريقته الخاصة المميزة. وحوّل هذا الوضع القسري نزاعهما إلى مجرد مسرحية أخلاقية. إذا كان أحدهما على صواب، فإن الآخر مخطئ بالضرورة، وتمخضت عن هذا قصة تعوزها فوارق ضئيلة. ومن ثم لا عجب أن لم يشعر أحد بضرورة روايتها كاملة.

ونظرا إلى أن علاقة سارتر ـ كامي تمثل جزءا متكاملا مع تاريخ الحرب الباردة، فإن هذا يقتضي النظر إليها من خلال عيون أخرى مشايعة. وهكذا، فإن كتابات سيمون دي بوڤوار رفيقة حياة سارتر بعد القطيعة نراها لا تكاد تذكر كامي من دون أن تصدر حكما عليه. «طاغية صغير» في مجلة «كومبا»، هذا رجل استسلم لثورات غضب نظرية و«نزعة أخلاقية». ونظرا لعجزه عن التوفيق «أصبح بطلا يزداد تشددا للدفاع عن قيم البورجوازية». وأصبح كامي أسير هوس معاداة الشيوعية، متعصبا «لمبادئ عظمى» مشكوك فيها. وإذا كانت اختيارات سارتر صوابا واختيارات كامي خطأ، كما تقول رواية سيمون دي بوڤوار، فإن جانب الخير قد انتصر بينما مني الشر بالهزيمة. وسادت هذه الرؤية طوال حياة سارتر وبوڤوار. وثمة رؤية أخرى برزت على السطح مع تحول الفكر إلى نقيضه عقب الحرب الباردة. إذ يقول أحد أنصار كامي «سارتر... أعلن تحالفه مع الستالينيين من دون اعتبار لأي شيء، بينما رفض كامي الالتحاق بالحشد الأنيق المليء بالقتلة. وإنه لهذا سخر منه وأذله السارتريون، وقد كان الجميع تقريبا آنذاك أشياعا لسارتر». ونحن، إذ نعيد الآن قراءة سقوط الشيوعية، فإن هذه القراءة تسمح لنا بأن نقلب حكم التاريخ إلى عكسه، ونصحح وضع الأمور بالنسبة إلى كامي الذي تستحق رؤيته السياسية درجة ٢٠ على ٢٠».

والمشكلة أن معايشة التاريخ ومشاهدته على أنه مسرحية أخلاقية تنفيان معايشة ومشاهدة ما فيه من مظاهر غموض ولبس ومآس. وتفيدنا كلمة مأساة (تراجيديا) معنى الخسارة الجسيمة. وسوف نرى أن قصة كامي وسارتر انتهت نهاية سيئة على المستويين الشخصي والتاريخي. وليس معنى هذا إنكار أن سارتر بدا غير قلق ولا مكترث بالصداقة التي تحطمت آنذاك، أو أنه بعد ذلك استهان بالعلاقة وبالقطيعة. وها نحن نقرأ في لقاء معبر للغاية أجراه سارتر في فترة متأخرة ويقول فيه عن كامي «كان آخر أصدقائي الفضلاء». ولا غرابة في هذا إذا عرفنا مدى التقارب الشديد بين بعض منطلقات كل منهما، وكيف توازت رسالتاهما ما بعد الحرب، وكيف بدا يسيرا ذات يوم التباحث في ما بينهما في شأن الاختلافات الحادة من حيث الخلفية الطبقية والطبيعة المزاجية لكل منهما، ناهيك عن الأوقات الجميلة التي أمضياها معا. ومع هذا، فنظرا إلى أننا نفتقد أي شهادة مباشرة أخرى على لسان سارتر لم يبق أمامنا سوى أن نستنتج على سبيل التخمين - ما تكلفه بسبب هذا النزاع. ولكن الذي لا شك فيه أنه أثر بقوة في كامي. إذ ألزمه الصمت، كأن سحابة غشيته خلال سنواته الأخيرة. وكشف عن شعور بالألم وإحساس بالخيانة، بل وبالخجل، إزاء ما عاناه من إذلال عام علني. وعاوده الشعور مرارا، فيما وصفه سارتر في تأبينه بعد مقتل كامي نتيجة حادث سيارة دهمته العام ١٩٦٠، إذ قال سارتر «ربما أجمل كتب كامي وأقلها قابلية للفهم لدى الناس، كتابه (السقوط)».

وإنني إذ أستخدم كلمة مأساة (تراجيديا)، إنما أقصد إلى تجاوز موقف المشايعة للحرب الباردة الذي صبغ بألوانه، علاوة على أشياء أخرى كثيرة، صورة النزاع بين سارتر وكامي. وأعتزم وصف كل من الخصمين بأوصاف الفهم والتعاطف، وكذا بأوصاف نقدية. معنى هذا تقييم المشروعية الأساسية لكل من الجانبين المتصارعين. إن سارتر وكامي لم يتباعدا قسرا بسبب خصومة مزاجية لكل منهما. وإنما انفصلا وتباعدا لأنهما، كما قال سارتر بعد ذلك بنص عبارته، جسَّدا الصراع التاريخي العالمي الدائر بين خصمين هما الخصمان الأيديولوجيان الرئيسيان في العالم على مدى قرنين. وعلى الرغم من أن

كامي لم يكن قط من أنصار الرأسمالية، ولم يكن سارتر قط شيوعيا، انتهى الأمر بهذين الخصمين إلى أن أصبحا يمثلان قوى أكبر منهما. وصارع كل منهما على مدى سنوات عديدة ضد الانفصال الوشيك، وواصلا في الوقت نفسه تطوير الأحداث والاستجابة لها بوسائل جعلت هذا الانفصال أكثر رجحانا. وثمة منطق تاريخي أحيا الخلاف بينهما. إن سارتر وكامي تحاشيا الأوصاف الشائعة في الشيوعية والرأسمالية بكل ما تنطوي عليه من سوء قصد عقيم وأناني. لكنهما وجدا أنفسهما مدفوعين إلى الكشف عن الأسباب العقلية التي تجعل رجال الفكر والمثقفين الملتزمين بأوسع نطاق من الحرية والعدالة الاجتماعية يعمدون إلى مساندة أو مناهضة الشيوعية.

وكان متوقعا بعد الانفصال أن تغشى اليسار روح الكآبة. إذ مساندة الحركات والحكومات اليسارية تعني إقرار أسلوب القسوة على الحرية؛ والدفاع عن الحرية يعني معارضة المشروع الوحيد الذي يتحدى الرأسمالية. وإذا شئنا بيان الدلالة العميقة فإننا نتحدث عن هزيمة اليسار في القرن العشرين وقد تبدد أمله. إذ منيت بالإحباط آمال اليسار في أن يمثل جيلا يعبر عن الطليعة المتقدمة على الطريق إلى الاشتراكية والحرية. ووجد الناس أنفسهم قسرا مكرهين على خيار مستحيل: بين واقعية سارتر الجدلية المثيرة للكآبة (الشيوعية الطريق الأوحد للتغير الكيفي، والوجه القبيح لمثل هذا التغيير)، ورفض كامي اليساري المبدئي للشيوعية (الذي خلفه عاجزا عن التوحد مع أي قوة ذات قيمة تناضل من أجل التغيير). وكان كل من سارتر وكامي يعبر عن نصف الحقائق ونصف الأخطاء، أو نصف الصدق ونصف الكذب، كما أصبح يمثل فيما بعد مأساة اليسار - ليس فقط في فرنسا، بل وفي العالم أجمع - على مدى الجيل التالي على أقل تقدير.

وأخذ كل من كامي وسارتر يؤكد وجود بديلين فقط، هما المتمرد عند كامي، والثوري عند سارتر، واللذين عبرا عنهما في مسرحيتيهما «القتلة العدول» و«الشيطان والرب الرحيم». وحقيقة الأمر أنهما باختيارهما إما الحرية الرأسمالية أو الاشتراكية الشيوعية، إنما عمد كل منهما في واقع الأمر إلى أن يتخذ اختيارا ليس فقط ضد الآخر، بل ضد أنفسهما. وإذ

حدد سارتر وكامي اختياريهما، حتى وإن أكدا ذاتيهما، وأيا كانت حججهما في اتساق مع جيلهما، فإنهما أيضا خانا أنفسهما، وأسمى القيم التي يؤمنان بها.

* * *

وبعد أن افترقا ظل كل منهما وحتى نهاية حياتيهما يرى الآخر ضمن أسذج حدود الدور الأخلاقي الذي اختاره: الخداع الذي لم ير سواه صديقه القديم. رأى كامي أن الانفجار أكد أن سارتر لم يكن أبدا صديقه، وأن سارتر - سياسيا - هو ومن حوله لديهم ميل إلى العبودية. ورأى سارتر أن كامي توقف عن النضج وخان الرابطة الحيوية التي تربطه بعالمه التاريخي التي جعلته شديد الجاذبية في أثناء الحرب وبعدها. وبعد القطيعة المثيرة، على نحو ما يحدث أحيانا في حالات الطلاق القاسي، بدا كل منهما وكأنه حريص على محو الآخر من حياته. وتعاون كامي حتى وفاته في العام ١٩٦٠ وسارتر حتى وفاته في العام ١٩٨٠، وكأنهما مشتركان في مؤامرة لمحو آثار صداقتهما.

ولقد كان كتاب السير الذاتية والباحثون المعنيون بحياة وفكر سارتر وكامي شركاءهما في الجريمة. صور البعض علاقتهما وكأنها قصيرة وغير ذات قيمة، وتطلعوا إليها وكأنهم يستبقون بادئ ذي بدء نهايتها. ألم تكن أولا وأخيرا فلسفتاهما، ومزاجاهما، وأسلوباهما، وأصولهما الاجتماعية، تؤكد جميعها أن القطيعة هي الجوهر وأن الصداقة هي العرض؟ ويبدو أن هذا الموقف يتوافق مع قانون «التحليل بعد وقوع الحدث» الذي وصفه دوريس ليسنغ. إذ نظرا إلى أن الحدث أسفر عن قطيعة، فإننا ننزع إلى التركيز منذ البداية على «قوانين التحلل» للعلاقة. ونحن، كما هي الحال في انفصام علاقة زواج، نثبت أنظارنا على منطق الانفصال وكأن الاثنين كان مصيرهما حتما التباعد، وأن هذا هو كل ما في الأمر. وأكثر من هذا أن كلا من سارتر وكامي أفرغ كل وجوده في الاختيار الذي باعد بينهما، وأن اتجاه كل من الرجلين إلى وضع كل رصيده في رهان ليؤكد صوابه كان من شأنه أن غذى عجزه عن أن يرى في علاقتهما أي شيء آخر غير بذور الانفصال. وتفاقم هذا الوضع بسبب الأحكام الصارخة بالصواب والخطأ التي أطلقتها على الفور

الحرب الباردة ثم استعداد الكتاب الذين رصدوا جهدهم للوقوف إلى جانب هذا الرجل أو ذاك. وهكذا، نجد آخرين من كتاب السير الذاتية والباحثين قد عجزوا عن النظر إلى علاقة سارتر ـ كامي دون أن يروا أنه إما سارتر أو كامي كان على خطأ منذ البداية. وقيل إن مذاكراتهما النقدية في باكر علاقتهما عن أنفسهما، أو سبيل كل منهما إلى الالتزام السياسي، أو كتابتيهما المهمة الأولى، تشير جميعها إلى الوجه الحقيقي لكل منهما.

ترى هل كان قدرهما أن ينفصلا؟ أيا كانت رؤية كل من سارتر وكامي إلى صداقتهما بعد ذلك، إلا أنهما على أحسن الفروض كانا سيرفضان فكرة أن أي علاقة يتحدد مصيرها لحظة ميلادها. وحقيقة الأمر أن سارتر طور وأفاض في المحاجة ضد مثل هذه النزعة القدرية وسماها سوء نية. ويبدو واضحا أن كتابات كلا الرجلين وكذا حياتاهما تطالبنا بأن نقرأ قصتهما كما كان يتعين أن يعيشها كل منهما – مع عقل منفتح تجاه كل ما يمكن أن يحدث. ونحن لكي نضع تقييما للعلاقة في اتساق مع مزاجيهما يتعين علينا تناولها انطلاقا من فهمنا المشترك لعدم قابلية التنبؤ والاختيار والحرية والعبث.

وأي نهج غير هذا يعني إغفال الدراما الكاملة الغنية للعلاقة. وسوف نجد أنفسنا بدلا من هذا إزاء قصة قصيرة محرفة للغاية تفيد بأن كامي وسارتر استمتعا بأوقات طيبة معا لفترة قصيرة من دون أن ينعما بصداقة كبيرة لزمن طويل، وأن أيهما لم يؤثر في الآخر، فضلا عن القول بأن الرابطة بينهما كانت ظاهرية سطحيــة ولم تدم طويلا، ومن ثم كانت القطيعة حتمية. وكم هو غريب أن سيمون دي بوفوار نفسها في روايتها، وهي وثيقة الصلة حسبما نرى بقصة «رسمية» ـ ولو من جانب واحد على الأقل – تتوافق مع هذا النمط، بل هي التي صاغته. ولكن البحث والتنقيب ومحاولة تجميع شذرات متناثرة للقصة الحقيقية لاستبيان تفاصيلها المؤلمة والمثيرة يعني أن تكون العلاقة هي المحور. ونحن ما أن نفعل هذا كما يجب حتى تتكشف لنا جملة من المعاني الجديدة والمختلفة. نعم انجذب سارتر وكامي كلاهما إلى الآخر بقوة، وأثر كل منهما بعمق في الآخر، وتورطا في نزاعات متبادلة بشأن الحياة الحميمة لكل منهما مع الآخر، وظلا

مترابطين لفترة طويلة بعد القطيعة. ولم يكن من قبيل الخطابة الإنشائية فقط ما قاله سارتر في تأبينه لصديقه الغائب عنه «التباعد أسلوب آخر للوجود معا».

* * *

ويالها من مفارقة أيضا أن هذه السيرة الذاتية لكل من سارتر ـ كامي هي أيضا «مراجعة» للتاريخ، أو تاريخ من زاوية «مراجعة». وذلك ببساطة لأنها محاولة مني لكي أحكي القصة كاملة، وأن أحكيها دون انحياز لأي من الجانبين. وتتلخص حجتي في: أولا أن علاقتهما كانت قوية مكينة وذات شأن مهم، وثانيا أن الحرب الباردة شوهتها مثلما شوهت أمورا كثيرة أخرى. وتنبني حجتي على بينات قوية راسخة. ونحن لكي نفهم الرجلين وعصرهما فإن هذا يستلزم البحث والتنقيب في محفوظات وسجلات صحيفة كامي «كومبا»، والصحيفة الأسبوعية الشيوعية «أكسيون»، وصحيفة المقاومة «رزيستانس» السابقة، ثم بعد هذا الصحيفة النصيرة لفكره «لي ليتر فرانسيز»، وأيضا الصحف الأخرى من مثل «لو مانيتيه» و«لو موند». يوجد لدينا إذن سبع سير ذاتية هي جميعا ضرورية وجوهرية لما نريد أن نعلمه ونعرفه عن الرجلين. وتوفر لنا هذه المصادر مادة وافية عن حياة كل من الكاتبين والتفاعلات التي دارت بينهما بما في ذلك الكثير من التفاصيل الشخصية الجديدة عن كامي والتي جمعها أوليفر تود، وكذا اللقاءات الغنية الخصبة مع سارتر والتي أجراها معه جون جيراسي، ثم رؤية آني كوهن ـ سولال، وهي رؤية استبصارية نافذة إلى مفهوم صلة النسب بين كامي ـ سارتر. وتعتبر سيمون دي بوفوار، على الرغم من كل انحيازاتها الحتمية، ضرورية لنا في قصتها الرسمية التي تمثل مجلدين من مذكراتها، وفي الأحاديث التي أدلت بها، وغير ذلك من معلومات تضمنتها سيرة دايردر بير، علاوة على المعلومات الواردة في رسائلها، إلى نيلسون آلجرين. وهناك بعد هذا الرواية الكبرى التي كتبتها بوفوار عن فترة ما بعد الحرب، وعنوانها «الماندارين»؛ والتي ضمت الكثير من رسائل سارتر ورسائلها وأعطتنا أحاديث سارتر خلال الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٥. والجدير ذكره أيضا أن حديث سارتر في العام ١٩٧٥ إلى ميشيل كونتا حديث مهم لما يلقيه من

أضواء، هذا غير آلاف التفاصيل عن سارتر التي جمعها كونتا وميشيل ريبالكا لأهميتها الجوهرية. واستعنت بالكثير جدا من المعلومات عن كامي التي جمعها روجر كويليو في مجلدين تحت عنوان «الثريا» Pleiade، علاوة على ثلاث كراسات من مذكرات كامي ورسائله إلى معلمه جين جرينييه.

ولكن على الرغم من أن كل هذه المواد لازمة ولا غنى عنها إلا أنها لا تهيئ لنا مفتاح القصة. إن تأكيدي على أهمية كلا الرجلين للآخر ليس مصدره ما قاله كامي وسارتر عن علاقتهما في هذه المجالات المختلفة، أو فيما قالته سيمون دي بوفوار، بل من مصدر أساسي قليلا ما ينتبه إليه أحد، وهو مصدر بريء من أي انحياز مبني على ضوء استعادة لأحداث الماضي: وأعني به الكتابات المنشورة بقلم سارتر وكامي أنفسهما. ولست أعني هنا فقط ذكر كل منهما لاسم الآخر عشرين مرة أو ما يقرب من ذلك، بل وأيضا المواضيع الكثيرة التي جمعت بينهما دون أن يذكر أي منهما الآخر بالاسم حيث نوقشت قضايا أساسية تتعلق بما نحن بصدده.

عاش سارتر وكامي في كتاباتهما، ومن ثم تعتبر كتاباتهما المصدر الرئيسي لقصة علاقتهما. لقد اعتادا من العام ١٩٣٨ وحتى ١٩٦٠ أن يكتب كلاهما للآخر، عن كل منهما إلى الآخر، وفي استجابة متبادلة. وتؤلف تفاعلاتهما المسطورة بعضا من اللحظات الرئيسية في تطور كل من الرجلين. وغالبا ما كان كل منهما يشير إلى الآخر إشارات مباشرة: قدم كامي أول الأمر عرضا نقديا لمسرحية سارتر «الغثيان»، ثم «الجدار»؛ بعد ذلك قدم سارتر تحليلا لرواية كامي «الغريب». ثم كتيب «أسطورة سيزيف» وتحدث الاثنان أحيانا كلاهما عن الآخر رمزا، خاصة بعد الانفصال. وكثيرا ما أشار أحدهما إلى الآخر بطرق غامضة تستلزم منا أن نستنطق مواقف بعينها. وجدير بالإشارة أن كامي كثيرا ما ساق حججا مناقضة للمثقفين اليساريين أنصار الشيوعية التي رأى البعض بعد العام ١٩٥٢ أنها إشارة إلى سارتر. وساق سارتر بعد العام ١٩٥٢ حججا مناهضة للمؤمنين بعدم العنف، واعتبر كامي المتحدث باسمهم. وواضح أن القراءة الجيدة لعشرين عاما من هذه التفاعلات المتبادلة،

أولا في ظل الصداقة ثم في إطار العداوة، تحكي لنا الكثير والكثير عن العلاقة بين الاثنين. وعلى الرغم من أن مصادر أخرى كثيرة تساعدنا على رواية سيرة كامي - سارتر إلا أن كتابات الاثنين هي التي تفصح لنا عن قصة اثنين من أعظم مفكري القرن العشرين. ولقد حان الوقت لكي نستمع إليها.

I

اللقاءات الأولى

التقى جان بول سارتر وألبير كامي لأول مرة في يونيو ١٩٤٣، عند افتتاح مسرحية سارتر «الذباب». إذ بينما كان سارتر واقفا في دهاليز الاستقبال، حسب رواية سيمون دي بوفوار، «أقبل شاب أسمر البشرة وقدم نفسه إليه: وكان هذا هو ألبير كامي». ونعرف أن روايته «الغريب» صدرت قبل هذا التاريخ بعام، وكانت حدثا أدبيّا مثيرا، علاوة على مقاله الفلسفي «أسطورة سيزيف» الذي ظهر قبل ذلك بستة أشهر. وأدت الحرب الدائرة إلى عزل هذا الشاب القادم من الجزائر داخل فرنسا. وبينما كان كامي يعاني مرحلة النقاهة، إثر تفاقم داء السل المزمن معه في لو بانيلييه، قرب كامبو، انقطعت صلته بزوجته بعد استيلاء قوات الحلفاء على شمال أفريقيا الفرنسي، وما أدى إليه من غزو الألمان لفرنسا غير المحتلة في نوفمبر العام ١٩٤٢. وأراد أن يلتقي الروائي والفيلسوف ـ والكاتب المسرحي الآن ـ الذي تتزايد شهرته باطراد، وسبق أن عرض كامي

«على الرغم من هذه الفوارق انبثق الإعجاب الأولي بين الكاتبين من تقارب نقط الانطلاق عند كل منهما وتماثل مشروعاتهما»

المؤلف

بعض أعماله منذ بضع سنوات، والذي نشر قريبا جدا مقالا مطولا عن أعمال كامي. كان لقاء خاطفا. قال «أنا كامي». ووجد فيه سارتر على الفور «شخصا جديرا بالحب».

وفي نوفمبر انتقل كامي إلى باريس للعمل منقحا للخطوط لدى ناشره (هو وسارتر) غاليمار Gallimard، وبدأت صداقتهما الودودة المخلصة. ومع أول لقاء جمع بينهما في كافيه فلور ـ حيث كان سارتر وبوفوار ينجزان عملهما وينعمان بالدفء ويتناولان طعامهما ويباشران حياتهما الاجتماعية ـ بدأ الثلاثة اللقاء مشوبا بالحرج. ثم شرعوا في الحديث عن أعمالهم، وأبدى كامي وسارتر توافقا في الرأي إزاء الشاعر السريالي فرنسيس بونغ وقصيدته «الانحياز للواقع» Le parti pris des choses. وإن الشيء الذي أذاب الثلج فيما بينهما، حسبما قالت بوفوار، هو حماسة كامي للمسرح. والمعروف أن كامي قاد فريقا لمسرح سياسي للهواة في الجزائر. وتحدث سارتر عن مسرحيته الجديدة «لا مفر No Exit»، والظروف الحاكمة لإنتاجها. واقترح على كامي أن يلعب الدور الرئيسي فيها ويتولى إخراجها أيضا. تردد كامي في أول الأمر، ولكنه وافق بعد أن ضغط عليه سارتر لتنفيذ الفكرة. وأجريا عددا محدودا من التدريبات في غرفة بوفوار في الفندق لمعرفة أقل ميزانية ممكنة للإخراج. وكشف كامي عن استعداد لإنجاز المشروع بهمة ونشاط، مما ضاعف من إعزازنا وتقديرنا له، كما أفاد هذا ضمنا أن لديه وقتا كافيا. إذ إنه وفد حديثا إلى باريس، فضلا عن أنه متزوج ولكن زوجته باقية في شمال أفريقيا بعد أن أجبرته الحرب على البقاء في باريس. وأعجب سارتر بأداء كامي لدور غارسين، غير أن راعيهم المالي انسحب من المشروع. ذلك أن زوجة هذا الرجل التي كانت ستظهر في مسرحية «لا مفر» اعتقلتها سلطات الاحتلال للاشتباه في أنها ضالعة في المقاومة. وتهيأت لسارتر فرصة لعرض المسرحية عن طريق إخراج مهني على مسرح باريس، ودعمه كامي بكل طاقته. وتوطدت أواصر الصداقة. «إن شبابه واستقلاله خلقا روابط بيننا: كنا جميعا لنا حياتنا المتوحدة، لم ننشأ ونتطور بمساعدة أي «مدرسة»، ولا ننتمي إلى أي جماعة أو حلقة».

وإذا بدت الصداقة في أول عهدها يسيرة سهلة للغاية، فذلك لسبب واحد وهو أن سارتر وكامي تعارفا بوسائل أهم كثيرا من مجرد المصافحة. كان كل من الكاتبين الشابين نهما في القراءة، غارقا في محاولة صياغة أفكاره وأساليبه

الخاصة به، فضلا عن أن كلا منهما قرأ كتب الآخر قبل أن يلتقيا. وطبيعي أن كانت عروض كل منهما لكتابات الآخر من أهم التعليقات وأكثرها حرارة في الأحاديث بينهما. ويلاحظ أن أولى استجابات سارتر وكامي أحدهما للآخر، وإن كانت استجابات نقدية، إنما عبرت عن الصلة الأدبية والفلسفية التي تقرب وتؤسس لعلاقتهما. وانتقلا بنا إلى موقع من أهم مواقع التفاعل بينهما على مدى عشرين عاما - الإشارة المتبادلة من أحدهما إلى الآخر تصريحا حينا وتلميحا حينا آخر. وسوف نجد منذ أول لقاء جمع بينهما وحتى آخر كلمات تبادلاها معا بعضا من أهم اللقاءات وأكثرها حيوية وتميزا على الورق.

اكتشف كامي سارتر في أكتوبر العام ١٩٣٨، عندما قرأ وعرض «الغثيان». وكان الشاب الأوروبي الجزائري (فرنسي، جزائري المولد) لا يزال مراسلا صحافيًا حديث العهد بمهنته، وكاتبا لعمود صحافي عنوانه «غرفة الاطلاع» في صحيفة يومية يسارية جزائرية. ونشر محليًا كتيبين يضمان بعض المقالات تحت عنوان «الجانب الخطأ والجانب الصواب» The Wrong Side and the Right Side، و«العرس» Nuptials. وبعد فترة انقطاع شرع في كتابة أول رواية له، وهي «الغريب». وعلى الرغم من أن مشروع الروائي الجديد كان لا يزال في منتصف العشرينيات من العمر فإنه حرر ردودا لافتة للنظر وتكشف عن تمكّن وثقة بالنفس في عموده الأدبي عن الأعمال الأدبية الصادرة حديثا في باريس. نذكر من بين هذه الأعمال «المزيفون» من تأليف جيد، و«المؤامرة» تأليف نيزان، و«الخبز والنبيذ» تأليف سيلون، و«الأوراق القاحلة» تأليف هكسلي، و«باهيا» Bahia، تأليف أمادو، و«الغثيان»، و«الجدار» تأليف سارتر.

كان عرض كامي لمسرحية «الغثيان» بارعا كفؤا ينطوي على تقدير كبير. لم يكن ذلك الريفي المبهور والبعيد تماما عن تعقيدات الحياة في باريس، بل ندّا يقاسم بعمق سارتر في أهدافه ويحييه عليها، وإن خاب أمله في شيء واحد أنه رأى في هذه المرحلة الباكرة الإخفاق النهائي في حياة سارتر. تحكي «الغثيان» تحطم الحياة اليومية الهادئة المطمئنة لأنطوان روكينتا، العاكف في ميناء شمالي لكتابة سيرة حياة ماركيز في عهد الثورة. وأحس روكينتا بالغثيان إزاء معاناته من عبث تخفيه عادة أعماله الروتينية النمطية. ويظهر له صدق هذا العبث أكثر فأكثر كلما توارت حياته ببطء من حوله. إنها تجربة فكرية مبهرة تشتمل على بعض الأوصاف والتصورات المذهلة. وحدث أن قال كامي لصديق له قبل كتابة عرضه للمسرحية

بعدة شهور أنه فكر مليّا بشأنها، وأنها قريبة جدّا لشيء في داخله. واستهل العرض بالتأكيد على أن «الرواية ليست سوى فلسفة نعبر عنها بالصور الذهنية». بيد أن الفلسفة في رواية جيدة تصبح هي والصور الذهنية تجسيدا واحدا. ولا نجد أي إشارة عند كامي تفيد أنه يعرف أن الروائي فيلسوف أيضا. وقد نشر كتابا عن الخيال، العام ١٩٣٦، كما كتب مقالا مطولا في العام التالي تحت عنوان «تعالي الأنا» The Transcendence of the Ego. وحصل هو نفسه على دبلوم الدراسات العليا (المعادلة للماجستير) في الفلسفة عن رسالة موضوعها القديس أوغسطين وأفلوطين. وأكد أن سارتر حطم التوازن بين نظريات روايته وحياتها. ونتيجة لهذا نلحظ أن المواهب الخيالية المثيرة لمؤلف الرواية ودور العقل المغرق في الواقعية والشفافية يتسمان بغزارة العطاء والتشتت في آن واحد. أما من حيث غزارة العطاء: «فإن كل فصل من فصول الكتاب، إذا أخذناه وحده، يبلغ حدّا من الكمال من حيث المرارة والصدق». لقد صور الحياة اليومية في «بوفيل» Bouville تصويرا صادقا واقعيّا ملموسا حتى أن شفافيته لا تدع مجالا للأمل. وإن كل تأمل من تأملات سارتر عن الزمان صوره بوضوح وقوة تفكير الفلاسفة ابتداء من كيركجورد وحتى هايدغر. أما التشتت: فإن الأوجه التصويرية والفلسفية للرواية «لا ترقى إلى مستوى عمل فني: إذ إن الانتقال من جانب إلى الآخر يأتي سريعا للغاية، خلوا من التشويق بحيث لا يثير لدى القارئ الاقتناع العميق الذي يصنع من الرواية فنا».

مضى كامي قُدُما في مدح أوصاف سارتر للعبث والشعور بالغم الذي ينبثق مع انهيار الهياكل العادية المفروضة على الوجود في حياة أنطوان روكينتان، وما استتبع هذا من غثيان. وإن أسلوب سارتر الرشيق في تناول هذا الموضوع «الغريب» والمبتذل يتحرك «بقوة ويقين» مما يذكرنا بكافكا. ولكن ـ وهنا يختلف سارتر عن كافكا ـ نجد بعضا من العقبات التي يتعذر تحديدها تحول دون مشاركة القارئ وتدفعه إلى الإحجام في اللحظة التي يتهيأ فيها للقبول. ولم يقصد كامي بذلك فقط فقدان التوازن بين الأفكار والصور الذهنية، بل وأيضا سلبية سارتر. ويركز سارتر على القسمات المنفرة للبشرية «بدلا من تأسيس أسبابه لليأس على عدد من الإشارات المحددة الدالة على عظمة الإنسان». وأبدى عارض الكتاب ضيقه أيضا إزاء القصور «الهزلي» الذي تجلى في محاورة روكينتان الأخيرة للعثور على أمل في الفن، موضحا مدى «تفاهة» الفن إذا ما قورن ببعض لحظات الخلاص في الحياة.

وعلى الرغم من أن كامي بدا قويّا في نقده، فإنه أبدى تقديره الكبير لأفكار سارتر، واستمتع بأمانته وقدرته على اقتحام أرض جديدة. وتؤكد العبارة الختامية في عرضه إعجابه بالعمل:

> هذه أول رواية من كاتب لنا أن نتوقع منه كل شيء. يا لها من سكينة طبيعية جدّا حال بقائه عند الحدود البعيدة للفكر الواعي، ويا لها من شفافية مؤلمة. وهذه جميعا مؤشرات دالة على مواهب غير محدودة. ونرى في كل هذا أساسا مكينا لكي نرحب بـ«الغثيان» باعتبارها أول الغيث من عقل أصيل مفعم حيوية ونشاطا، مما يجعلنا نتحرق شوقا إلى الآتي من دروسه وأعماله».

ترى هل كان هذا مجرد موقف عقلي من عارض الكتاب، وأسلوبا لتحقيق توازن بين النقد مع قدر كاف من المديح حتى لا يبدو منفرّا؟ إن الناقد المتحرق شوقا لم ينتظر طويلا. إذ بعد أقل من ستة أشهر صدر الكتاب التالي لسارتر، والذي أرضاه تماما. وفي فبراير ١٩٣٩ عرض كامي مجموعة قصص لسارتر صدرت تحت عنوان «الجدار». ورحب كامي بحماس شديد بشفافية سارتر وتصويره لعبثية الوجود، وكذا وصفه للشخصيات التي كانت هويتهم غير ذات جدوى لهم. ونلحظ هنا أن سلبيتهم ـ التي ربما بدت في «الجدار» أقوى منها في «الغثيان» ـ استثارته هذه المرة بدرجة أقل. وإذا بهؤلاء الناس الغارقين في حريتهم عاجزون عن التغلب على العبث حتى أنهم اندفعوا في اتجاه مناهض لحياتهم هم. ليست لديهم «أي روابط عاطفية، ولا مبادئ ولا خيط أريادن (*) Ariadne's thread، وذلك لعجزهم عن التصرف والعمل. وتتبع من هنا الأهمية المهولة والمهارة الفائقة لقصص سارتر». هنا القارئ لا يعرف ما الذي ستفعله الشخصيات من لحظة إلى أخرى. ويكمن فن المؤلف في التفاصيل التي يصور من خلالها مخلوقاته العبثية، والأسلوب الذي يلتزمه في سلوكهم الرتيب».

واعترف كامي بعجزه عن التوقف عن قراءة هذه القصص. إنه يمنح القراء تلك الحرية العبثية الأسمى التي تقود الشخصيات إلى نهايتهم هم. «إنها حرية لا جدوى منها وهي التي تفسر التأثير الانفعالي الطاغي في أكثر الأحيان لهذه الصفحات وكذا لعواطفهم القاسية». ووصف سارتر وضعا

(*) من أسطورة إغريقية عن أن أريادن ابنة مينوس وباسيفاي أعطت تيسيوس الخيط الذي استعان به للوصول إلى بيت تيه مينوتور، والمقصود الرباط الذي يربط منظومة فكر متسقة وتعين الباحث على الوصول إلى الحقيقة. [المترجم].

إنسانيّا عبثيّا، بيد أنه رفض الإحجام أمامه. وها هنا توازنت الفلسفة والصور الذهنية. ولم يقنع كامي في ختام كلمته بالإشارة فقط إلى حماسه للمؤلف، بل وأيضا بإحساسه بالهدف المشترك مع كاتب.

«استطاع في كتابيه أن يتجه مباشرة إلى المشكلة الجوهرية ويبعث فيها الحياة من خلال شخصياته الاستحواذية (المصابة بوسواس قهري). إن الكاتب العظيم يقدم لنا دائما عالمه الخاص ورسالته. وها هنا سارتر يصل بنا إلى العدم، ولكن أيضا إلى البصيرة النافذة. ونلحظ أن الصورة التي يقدمها لنا دائما وأبدا من خلال شخصياته، عن إنسان قابع وسط أطلال حياته، إنما هي تصوير جيد لعظمة وصدق عمله».

«العظمة والصدق» ـ ترى هل رأى سارتر هذه التقدمة الدالة على الإعجاب؟ إن كل ما نعرفه ـ عن يقين ـ من جانبه، هو لقاء أدبيّ جرى في خريف العام ١٩٤٢. واكتشف كامي فقط بعد بضعة أسابيع من إرساله المسودة الكاملة لكتاب «الوجود والعدم». واستحثه هذا على أن ينذر مقالا فياضا مطولا من ٦٠٠٠ كلمة إلى «الغريب». ونجد سارتر في هذا المقال المذهل يقرأ الكتاب إلى جانب «أسطورة سيزيف»، حيث الخيال مرتبط بالفلسفة. ولنحاول أن ننصت إلى الصوتين المختلفين فيما كتب:

> «العبث... ليس كامنا في الإنسان ولا في العالم إذا ما فكرنا في كل منهما بمعزل عن الآخر. ولكن حيث إن الخاصية المهيمنة للإنسان هي «الوجود في العالم» being-in-the-world، فإن العبث في النهاية جزء لا انفصام له عن الظرف البشري the human condition. ومن ثم لنقل بادئ ذي بدء إن العبث ليس «موضوع فكرة مجردة، وإنما يتكشف لنا في استنارة باعثة على الحزن. «الاستيقاظ والانتقال بالسيارة وأربع ساعات عمل، وغداء ونوم والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت على النمط نفسه...»، ثم بغتة ينهار المشهد، ونجد أنفسنا في حالة من وضوح الفكر العضال».

هنا يلخص سارتر طواعية ويقتبس من فقرة تقارب الأصل الذي استهل به «أسطورة سيزيف»، حيث يثبت كامي أفكاره الأساسية. وكم هو مثير للدهشة أن الفقرة موضوع الاقتباس تعطي انطباعا يشبه صياغة كامي لتجربة

روكينتان في «الغثيان». ويستطرد سارتر في اتفاق ظاهر مع كامي: إذا كان في مقدورنا أن نرفض العون المضلل الذي تقدمه لنا العقيدة أو الفلسفات الوجودية فإننا بذلك يكون لدينا حقائق أساسية واضحة: العالم شواش، وثمة تكافؤ إلهي ولد من الفوضى؛ الغد غير موجود مادمنا جميعا نموت. «وحين يتجرد الكون بغتة من الأوهام والأضواء يشعر الإنسان بأنه مغترب، غريب».

وإذا تحولنا مباشرة إلى السياق في «أسطورة سيزيف»، حيث هذه الجملة، ونقرأ ابتداء من هذه الفكرة وما بعدها سوف نتذكر «الغثيان»: «الشعور بالعبث يصفع وجه الإنسان عند أي زاوية من زوايا الطريق». ونجد على الصفحة الثانية من «أسطورة سيزيف» فقرة تشبه فقرة سارتر عن انهيار الروتين أو نمطية الحياة اليومية، وهي الفقرة التي اقتبسها سارتر في عرضه للكتاب. وإذا قلبنا الصفحة نجد اسم رواية سارتر مذكورا صراحة: «هذا الغثيان كما يسميه كاتب من كتاب اليوم هو أيضا العبث». ترى صوت من الذي نسمعه في الاقتباس المذكور آنفا؟ نلحظ في عملية انعكاس مذهلة للموقف الفكري والانفعالي الجامع بينهما أن سارتر يقتبس في حماس وإعجاب من كامي الذي يعتمد تحليله على سارتر. إنه صوت الاثنين معا في وقت واحد.

وبعيدا عن هذا التقارب الفكري يقارن سارتر كامي مع كافكا وهيمنغواي، وهما موضع إعجابه، وامتدح «الغريب» لبنائها المتماسك في مهارة فائقة:

> «لا نجد أي جزئية تفصيلية لا لزوم لها، ولا جزئية لم تكن ثمة حاجة للعودة إليها فيما بعد واستخدامها في المحاجَّة. وإذا أغلقنا الكتاب ندرك أن لم يكن بالإمكان أن تكون له نهاية غير النهاية التي انتهى إليها. إن أصغر حدث له قيمته في هذا العالم الذي تجرد من كل مظاهر السببية، وتبدى لنا في صورة عبثية. نحن لا نجد حدثا واحدا لا يفيد في دفع البطل على طريق الجريمة ليلقى عقوبة الإعدام. إن رواية «الغريب» عمل كلاسيكي منهجي، مؤلف عن العبث وضد العبث».

واضح أن مؤلف «الغثيان» معجب بالقدرة التصويرية في «الغريب»، والبساطة المطلقة للغة كامي، وقدرته على استحضار أوصاف طبيعية لا تمحوها الذاكرة عن عشية الجنازة والموكب في صباح اليوم التالي، والأعمال اليومية الروتينية لميرسولت مقترنة بمظاهر تثير قدرا أكبر من الاضطراب ـ وافتقار ميرسولت

للعاطفة الإنسانية العادية، وقتله للعربي من دون هدف، وثورة المدعي العام الغاضبة إزاء مشاعر اللامبالاة من جانب الشاب تجاه موت أمه، واستخفافه بالمحلفين، ومعنى ذلك بالنسبة إلى آداب المجتمع، وكذا استبعاد صدور حكم بالإعدام ضد رجل أبيض قتل عربيّا في الجزائر ـ ليبدع الرواية العظيمة للجزائر الفرنسية. ولكن كيف استجاب مؤلف «الوجود والعدم» إزاء «أسطورة سيزيف»؟ بعد أن فرغ سارتر لتوه من أكثر المؤلفات الفلسفية عمقا وأصالة في القرن العشرين أبدى تقديره واحترامه لكاتب المقالات الفلسفية الذي استطاع بفضل الأسلوب المعتدل في مقال «أسطورة سيزيف» وكذا موضوع المقال أن «يتخذ لنفسه مكانا في التراث العظيم للمفكرين الأخلاقيين الفرنسيين» ممن نعتبرهم سلفا لنيتشه. «إن نهجه في الاستدلال، ووضوح أفكاره، ونمط أسلوبه التوضيحي، كل هذا يشير إلى مزاج كلاسيكي».

ولابد من أن سارتر لحظ أن «الغريب» انبعثت فيها الحياة بطريقة لم تتهيأ لروايته «الغثيان». وهذا ما أشار إليه كامي بذكاء قبل ذلك بأربع سنوات. كذلك لابد من أنه ـ بالمثل ـ تبين أن «أسطورة سيزيف»، على الرغم من كل جاذبيتها كعمل فلسفي حقق رواجا وشهرة، عمل كاتب هاو للفلسفة وليس كاتبا صاحب منهج في البناء النسقي للأفكار. ونعرف أن كامي عزف بشكل مبدئي عن فلاسفة وجوديين من أمثال ياسبرز وهايدغر وكيركغارد في سبيل تأكيد أن لا شيء في وسعه حجب عبثية الحياة. لكن سارتر من ناحية أخرى قضى سنوات عاكفا على ظواهرية «فينومينولوجيا» هايدغر وهوسرل إلى أن ألّف بينهما في الوجود والعدم، وحولهما إلى عمل يلتمس سبيلا للنفاذ إلى طبيعة الوجود ذاته. واستهل سارتر بالوعي الديكارتي الفردي ووصف بدقة أبنية أساسية للوجود ومشروعات إنسانية رئيسية وأنماطا مميزة للسلوك من مثل سوء المقصد والطوية. وأصبح مهيأ مع نهاية الكتاب ليمضي قدما، موضحا دلالات فلسفته على نحو ما فعل على مدى سنوات عديدة تالية. وكشف عن عناصر فلسفته في كل وجه من وجوه الوجود ـ ابتداء من الحياة اليومية والسياسة وحتى علم الأخلاق والإبداع الفني وطبيعة المعرفة ـ ولكن كامي من ناحية أخرى في «أسطورة سيزيف» استهل تفلسفه من مقدمة أولى هي أن مسألة «معنى الحياة» هي المسألة الأكثر إلحاحا من دون جميع المسائل الأخرى. وبقي في ساحة الخبرة وما تولده من إحباطات بدلا من التقدم

والتزام «الجدل الأكاديمي الكلاسيكي». وهكذا انطلق كل من مقال «أسطورة سيزيف» وكتاب «الوجود والعدم» من العبث وأفرز الاثنان الروح العصري العقلي والثقافي ذاته. بيد أنهما مع هذا ظلا مختلفين اختلافا واسع النطاق.

ولكن هذا القدر من الاختلاف تحول في التعبير عنه بطريقة صادمة مثيرة إلى كلمة واحدة بغيضة هي «بالمناسبة»: «تباهى كامي لفترة وجيزة بما استعرضه من اقتباسات عن ياسبرز وكيركغارد اللذين على ما يبدو، بالمناسبة، لم يكن يفهمهما دائما». إن الفيلسوف الحاصل على درجة الأستاذية من مدرسة المعلمين العليا يحط من قدر المتفلسف الحاصل على دبلوم الدراسات العليا من جامعة الجزائر.

ولعل هذا هو السبب في أن كامي لم يجد في مقال سارتر ما يثيره ويهتز له. ويعبر كامي عن رد فعله إزاء رأي سارتر عنه في رسالة بعث بها إلى معلمه جان غرينييه الذي نشر له عرضه لرواية «الغريب» في العدد نفسه من« كراسات الجنوب» Cahiers du Sud:

> «مقال سارتر نموذج للنقد والتحليل بغية إظهار جوانب الضعف. وطبيعي أن كل عمل من أعمال الخلق به عنصر غريزي، والذي لا يتصوره «هو»، كما أن الذكاء لا يؤدي مثل هذا الدور المهم. ولكن هذه هي قواعد اللعبة في النقد، وهي لعبة جميلة لأنه أنار لي في مواضع عديدة ما كنت أريد أن أفعله. وارى أيضا أن الجزء الأكبر من نقده منصف، ولكن لماذا هذه النغمة اللاذعة؟».

ونعرف أن التحليل الحريص من شأنه في نهاية الأمر أن يفكك العناصر عن بعضها. ولعل الإشارة إلى النغمة لا تعني أكثر من ضيق كامي، إذ يرى عمله وقد تفككت أجزاؤه بغية تفسيره. وواضح أنه غير مرتاح لكي يضعه سارتر تحت الميكروسكوب. ولهذا يدافع عن نفسه بالمقابلة بين إبداعيته الغريزية والحدة النقدية عند سارتر، حتى مع التسليم بأن الأخير يعوزه قدر أكبر من الذكاء.

ولكن محاولة سارتر الحط من قدر العمل ربما جاءت تعويضا عن استخفاف سابق لاحظه القارئ في فقرة وردت سابقا ومقتبسة من «أسطورة سيزيف»: «إن هذا الغثيان، كما يسميه واحد من كتاب اليوم، هو أيضا العبث». والجدير ذكره أن كامي، قبل ذلك بثلاث سنوات، أشار إلى سارتر مؤلف الروايات والقصص

القصيرة بأنه كاتب عظيم. ونلحظ الآن أن كامي، استنادا إلى أفكار وردت في الغثيان وذِكره بالاسم كلا من نيتشه وشوبنهاور وياسبرز، يكتفي فقط بالإشارة غير المباشرة إلى من يراه ندّا له. وهكذا فإن عبارة «واحد من كتاب اليوم» وهي عبارة مجهلة من دون ذكر الاسم، تحتل مرتبة أدنى من مرتبة المفكرين الكبار، وتثبت بدورها قدرته ليس فقط على تحليل، بل وكبح جماح شاب مغرور، بل ودفعه أيضا إلى مسار آخر مقابل. لذا نراه خصص مساحة كبيرة من مقاله لكي يفيض في بيان كيف أن كامي أليق به مكان أرستقراطية الأدب والفكر.

وعلاوة على الكشف عن احتمالات الغمز واللمز من أحدهما تجاه الآخر، فإن هذه الملاحظات تذكرنا بأن آصرة الرجلين لم تكن واحدة متطابقة. وتوحي هذه النصوص، علاوة على المدح المتبادل وإحساس كل منهما باكتشاف الآخر، بوجود فوارق كثيرة بين سارتر وكامي. كانت لدى سارتر نظرة أكثر سلبية ولدى كامي نظرة أكثر إيجابية عن كل من الطبيعة والحقيقة البشرية. إنك لا تكاد تفتح «الغريب» بجوار «الغثيان» حتى يصدمك التباين بين الجسدانية المبهرة عند مورسو في حديث كامي، والشعور بالقرف الذي اشتهر به سارتر إزاء الجسد كما تجلى في شخصية روكونتا. ووجد كامي متعة بالغة في العالم الحسي في شمال أفريقيا كما هو في «العرس»، حتى أن القارئ يكاد لا يسعه إغفال ما فيها من حدة وملذات. ولكن كتابات سارتر لم تشتمل أبدا على العالم الجسداني أو الجسد بأسلوب مباشر يقيني وتغلب عليه البهجة وبشكل طبيعي، كما هي الحال عند كامي، وحقيقة الأمر أن من بين أهم عناصر المفارقة المذهلة في الأدب الخيالي الحديث، كما عرف كامي نفسه، هو ذلك التباين بين «بوفيل» الرمادية القبيحة في «الغثيان» ومرفأ المدينة الوضاء المتلألئ في «الغريب» وشاطئها والريف المحيط بها والذي نجده في مرفأ الجزائر العاصمة.

وتكشف عروض أحدهما لكتب الآخر عن فارق آخر مهم. إذ على الرغم من أن كليهما ألف أعمالا مهمة في الفلسفة والأدب، وتناول بنجاح مشهود عددا من الموضوعات الأخرى، كان أحدهما مزاجيا فيلسوفا في الأساس استغرقته النظريات والأفكار العامة، بينما الآخر روائي في الأساس، قادر في سهولة ويسر على الإمساك بالمواقف بحدودها العيانية ـ وهذا هو ما عبر عنه كامي في تمييزه بين «الذكاء» و«العنصر الغريزي». واتخذ الفيلسوف الشاب النابه من العبث نقطة انطلاق له، واستطاع على مهل وعلى مدى السنوات

الخمس الفاصلة بين «الغثيان» و«الوجود والعدم» أن يكتشف كيف يؤلف النشاط البشري عالما ذا معنى من الوجود الفج الذي لا معنى له. وأنشأ الروائي المتفلسف نظرة شاملة إلى العالم قائمة على فهم أن العبث معطى لا سبيل إلى تجاوزه في الخبرة الإنسانية.

وعلى الرغم من هذه الفوارق انبثق الإعجاب الأولي بين الكاتبين من تقارب نقط الانطلاق عند كل منهما وتماثل مشروعاتهما. كان كل منهما يحاول أن يؤكد تأثيره وبصمته في مجالات ظلت متمايزة تماما عن بعضها في التعليم والثقافة في فرنسا. وأدرك كل منهما على الفور أن الآخر يكتب أدبا وفلسفة، ورأى كل منهما على الفور المدى الكبير الجامع والمشترك بينهما. إن كتاباتهما بكل ما فيها من حبكات غير تقليدية وشخصيات تبدو غير مثيرة ولا حافزة، أكدت أن الوجود عبث. وواجه الاثنان هذا العبث بصدق ووضوح فكر، فاتفقا على أن غالبية الناس (بمن فيهم الفلاسفة) لا يفعلون ذلك. وأكدا تقديرهما الكبير لحياة الصدق والأصالة.

* * *

ترى ما هي قوة الجاذبية الشخصية للاثنين؟ بعد ثلاثين عاما من لقائهما تذكر سارتر كامي باعتباره «مثيرا للضحك، جلفا إلى أقصى حد، لكنه غالبا ما يكون مثيرا جدّا للضحك... إن ما ربطنا به هو جانبه الجزائري... يتحدث بلكنة تشبه أهل جنوب فرنسا، كما أن له صداقات إسبانية تعود إلى أيام اتصالاته بالإسبان والجزائريين». وأضافت إلى هذا سيمون دي بوفوار قولها: «كان هو الشخص الذي نجد في صحبته مصدرا للاستمتاع والمرح إلى أقصى حد. رأينا في علاقتنا به صفقة كبيرة؛ إذ تبادلنا قصصا لا حصر لها». وندرك من هذه المذكرات كيف عمد الاثنان بعد القطيعة إلى الغض من علاقتهما. بيد أنهما كانا منجذبين أحدهما إلى الآخر بشكل واضح. إذ كانت هناك دون أدنى ريب كيمياء بين النقيضين تجعلهما أيضا متماثلين جدّا. وقال سارتر عن كامي «نقيضي المطلق: أنيق مهندم وعقلاني».

ورأى كامي في الشخص القصير، جاحظ العينين، فصيح الكلام ضئيل الجسم، عقلا يتحلى ببراعة فنية مذهلة، وقوة وعمق وإبداعية. وكان سارتر مع هذا ودودا غير مدّع ولا متكبر، وعرف كيف يستفيد بوقته. ونظرا إلى أن سارتر وبوفوار من أبناء أسر مهنية، فقد توافر لهما قدر أكبر من الفهم

والانفتاح على شؤون الدنيا ـ ومكانة اجتماعية أرقى من الآخر، الذي كان ابن امرأة غسالة من حي بيلكورت في الجزائر العاصمة، وهو خليط من العرب والأوروبيين. وتوسعت الدائرة الاجتماعية التي تضم سارتر وبوفوار خلال الشهور الأخيرة من الحرب لتضم عددا من المشاهير ـ وأصبح كامي واحدا منها. ولم يكن كامي يخطئ تجاهل سارتر إظهار تقديره له.

وكان سارتر أقل التزاما من كامي بالتقليد. وأبدى سارتر دائما حبه للتفكير النظري عن كل شيء وفي كل شيء ـ وهو في هذا النقيض تماما لكامي ـ لكن على الرغم من أن سارتر كان عاشقا للحديث علاوة على إقراره صراحة، كما سوف نرى، بأخطائه، كان على النقيض أقل من كامي اعترافا بنقاط ضعفه التي في أعماق نفسه. هذا بينما بدت نقاط ضعف كامي دائما على السطح ولا تخطئها العين، وتتجلى في مزاجه وفي نظرته. ولنا أن نقول إن مثل هذه الفوارق جعلت كل منهما، للحظة من الزمن، يكمل الآخر بمعنى ما.

وقدمت لنا بوفوار في كتابها «ريعان الحياة» The Prime of Life سجلا مهمّا عن الروح التي سادت خلال أيام الحرب تلك، وقتما اعتادت هي وسارتر ومعهما كامي وعدد آخر من المعارف الجدد المشهورين أو الذين في سبيلهم إلى الشهرة سريعا، ومن بينهم بابلو بيكاسو، عقد مهرجانات أو عرض مسرحيات أو جلسة للشراب فقط: «كنا نحتفل بالنصر قبل تاريخ انعقاده وعلى الرغم من كل الأخطار التي لا تزال تتهدد أكثرنا». كان الطعام نادرا شحيحا، لكن بوفوار كانت تستطيع أحيانا الحصول على بعض اللحم وتدعو الأصدقاء لتناوله. وحدثتنا عن تقديمها «زبديات مليئة بقرون اللوبيا لضيوفها، وأطباقا مليئة بيخنة بلحم البقر، كما اعتادت دائما الحرص على توفير قدر كاف من النبيذ. واعتاد كامي أن يقول «النوعية ليست رائعة تماما، لكن الكمية كافية».

وفي ربيع العام ١٩٤٤ أدار كامي عملية قراءة لنص مسرحي كتبه بيكاسو على مشهد من مجموعة من الأصدقاء. والتقط أحد الممثلين، ويدعى براساي، صورة هي الصورة الوحيدة التي تجمع بين سارتر وكامي معا. وانصرف الضيوف الآخرون قبل موعد حظر التجوال، بينما بقي الممثلون وبعض من الأصدقاء الحميمين، واستمر الحفل حتى الخامسة صباحا. ونقرأ في مناسبة أخرى كلمات بوفوار التي تقول:

«ألفنا ما يشبه المهرجان بكل ما يشتمل عليه من باعة ودجالين ومحتالين يستغلون ثقة الناس، ومهرجين وغير ذلك من استعراضات. واعتادت دورا مار تأدية أدوار التمثيل الصامت «الإيمائي»، وتقليد صراع الثيران. وقاد سارتر فريقا موسيقيًا، أوركسترا، ونحت ليمبور فخذ خنزير وكأنه همجي من أكلة لحوم البشر، وتبارز كوينو وباتايل بالزجاجات بدلا من السيوف، وأدى كامي ولو مارشا دور المارشات العسكرية على قرع غطاءين لقدرين صغيرين بينما غنى من يجيد الغناء من بين الحضور. وهكذا أدى كل دورا حتى من لا يعرف شيئا. وأصبح لدينا تمثيل إيمائي وكوميديات وعمليات تنديد وأدوار أخرى ساخرة وحوارات ثنائية واعترافات. واستمر الارتجال من دون توقف، وتلقى الممثلون دائما التحية بالتصفيق الحماسي. وأدرنا أشرطة تسجيل ورقصنا، أثبت البعض منا مهارة فائقة من أمثال أولغا وواندا وكامي، بينما كان الآخرون أقل خبرة».

وتعكس حدة مسراتهم حدة زمن الحرب وما فيه من حرمان وواقع إحساس الجميع بأن الاحتلال الألماني يقترب من نهايته.

وإذ تأملت بوفوار تلك الأيام الماضية صورت كامي في صورة الريفي القادم إلى باريس سعيا للنجاح مثل شخصية بلزاك في «الأوهام الضائعة»:

«كان يتحرق شوقا للنجاح والشهرة، ولم يكن يخفي هذا. وإن الشيء غير الطبيعي تماما هو السعي لكي يحقق هذا في نهم لا يشبع. واعتاد بين الحين والآخر أن يبدو في صورة الشاب الطموح على الرغم من أنه معدم، ويجاهد للظهور. وكان بسيطا يفيض مرحا. وإذا كان رائق المزاج فلا بأس عنده من إطلاق دعابات مبتذلة. وتعمل في المقهى نادلة تدعى باسكال كان يصر على الإشارة إليها باسم ديكارت. واعتاد أن يدخر لنفسه وقتا للانغماس في هذه الملذات. وتهيأ له قدر كبير من السحر هو نتاج اللامبالاة المتعمدة والحماسة بنسب ملائمة. وكفل له هذا أمانا من أن يتهمه أحد بالابتذال. وأكثر ما أعجبني فيه قدرته على السخرية المتحفظة إزاء الناس والأشياء، حتى وإن كان غارقا إلى أقصى حد في أنشطته الشخصية وملذاته وصداقاته».

هذه المذكرات منشورة العام ١٩٦٣، وقد صيغت صياغة جيدة كما هي حال اللقاءات بين بوفوار وسارتر المنشورة عقب وفاة سارتر بعد ذلك بعشرين عاما. حاولت بوفوار التعبير عن صداقة ممتعة للغاية ولكنها مع هذا صداقة عابرة مع ريفي مهمل وغير معقد. والمشكلة في هذه الصورة أنها كررت ذكر كامي كثيرا جدّا في مذكراتها، وبدت معنية جدّا بأفكاره وتطوره السياسي والشخصي، بحيث لا يمكن القول إنها تعاملت معه بشكل عرضي. ونجد صورة أخرى حيث كامي في مذكراتها، مثلما هو في الحياة الواقعية، أي شيء إلا أن يكون شيئا بسيطا.

إذ لو أنها حاولت أن تحكي القصة كاملة ربما كان عليها أن تقول إن كامي قدم لها ولسارتر واجهة خادعة تعبر عن بهجة بسيطة هي قناع أخفى تعقدات شخصية وحياتية. وانكشف هذا من خلال ملاحظاته الساخرة الحادة التي كان يخفيها أيضا وراءها. وأخطأت بعد ذلك ثقته بنفسه التي كانت عرضة لنوبات دورية من الشك العميق بالذات وغطرسة. والجدير ذكره أن ما عقّد مشاعر بوفوار الخاصة أنها قدمت نفسها إلى كامي كعاشقة، غير أنه صدها. ويذكرنا هذا بأن بوفوار لم تكن مجرد مشاهد لعلاقة سارتر ـ كامي، بل كانت متورطة فيها إلى الأعماق ـ قوة ثالثة بمشاعرها الخاصة المستقلة عن كامي. واشتكت فيما بعد من أنه فظ فج ضيق الصدر معها. وتصورت، تخمينا، أن سبب ذلك أنه رجل صاحب نظرة بحر متوسطية إلى النساء، ورأى فيها امرأة غير جذابة ولا يسعه قبولها ندّا ثقافيّا له. ولم تكن تعرف أن كامي قال في تعليق له عنها إلى آرثر كويستلر: «تخيل ماذا عساها تقول بعد ذلك وهي على الوسادة. يا لهول مثل هذه الامرأة المثقفة الثرثارة، إنها شيء غير محتمل». ولكن ظل كامي وبوفوار يتبادلان الآراء حول كثير من القضايا، أحيانا في حضور سارتر وأحيانا وحدهما. وبعد هذا بفترة، وبينما كانا يجلسان معا ذات ليلة باح لها بما سببته له حياة الحب من ألم مبرح لا يطاق.

تعتبر مذكرات بوفوار عملا قيما للغاية لكنه منحاز حتما، بسبب أنها طرف، وكذا ما أصابها من خذلان. حكمت مذكراتها أهداف ثلاثة هيمنت على القسط الأكبر من حياتها: الحفاظ على علاقتها مع سارتر، أن تقدم صورة إيجابية عن حياتها، وأن تحمي سارتر. وقدمت لنا مذكراتها حتى عهد قريب الكثير مما نعرفه عن علاقة كامي ـ سارتر. ومن ثم يتعين علينا، لهذا

السبب، أن نصغي السمع إليها جيدا. ولكن يتعين علينا أيضا، كلما تيسر لنا هذا، أن نقارن مذكراتها بما قالته وكتبته هي في مواضع أخرى أو مقارنتها بشهادات الآخرين.

وحري بنا، عند عرض هذه الأيام الباكرة، أن نضيف على الأقل خيطين رئيسيين إلى ما رأته بوفوار ملائما لمذكراتها. أولا، كان سارتر منجذبا بقوة نحو الشاب الأنيق. وكان دور كامي في حياة سارتر وبوفوار آنذاك دورا مهولا وعظيم الشأن. إنه بدا، علاوة على فحولته المتصورة، واقعيّا ملتزما، لكن به نقاط ضعف مستهدفة. وترجع نقاط ضعفه جزئيّا إلى مرض السل المتحكم في حياته اليومية - كان يسعل ويفرز دما، وبدا منهكا في أغلب الأحيان وبحاجة إلى علاج وإلى راحة - وتقرر عدم صلاحيته لشغل مهنة التعليم أو للخدمة العسكرية. ولكن لا يغيب مع كل هذه المحاولات والظروف الذليلة خطر الموت مبكرا. بيد أنه لم يكشف عن خوفه هذا لأصدقائه الجدد؛ إذ عمد كامي حين يكون بصحبتهم إلى الاستسلام للسخرية ولنظرات الأسى، وليس إلى كشف كوامن النفس والبوح بما أخفاه بين جوانحه.

وفي فترة تالية من الحياة، وبعد أن انصرف الاثنان عنه، أفصحت بوفوار عن عدد من الأمور تضع قصتها موضع شك. إذ حدث في منتصف العام ١٩٤٣ أن نما إلى سمعها مصادفة حديث بعض الناس وهم يعقدون مقارنة بين الكاتبين الجديدين الشهيرين. وصرحت بعد هذا بفترة طويلة بأنها ترى كامي المنافس الأدبي لسارتر، أحدهما له وهج وإبهار بحيث تخشى أن يحجب بظله من عليائه العبقري القصير القبيح. ووصفت نفسها أيضا وكامي بأنهما كانا في الأيام الباكرة في وضع التنافس على سارتر: «كنا أشبه بكلبين يتناوبان قطعة عظم، قطعة العظم هي سارتر، وكلانا يريدها». وصرحت بوفوار وهي في سن الشيخوخة بأنها خافت من إقبال سارتر بقوة على كامي عندما التقيا لأول مرة. إذ تحدث عنه بلغة ربما كان أولى به أن يتحدث بها عن امرأة يلاحقها. ونظرا لأن سارتر هو «أقوى من عرفته بوفوار متمتعا بجنسية غيرية» وليس لديه أي ميل مهما كان واهنا إلى الجنسية المثلية، فقد استشعرت قلقا وضيقا بسبب «افتتانه» بكامي.

قسمة أخرى من الجدير ذكرها في شأن علاقة الرجلين وهي أن كامي يصغر سارتر بثماني سنوات، وإذ قدمه إلى عالم الثقافة والفكر في باريس حرص كامي على تأكيد استقلاله عن سارتر وبوفوار وأن يشق طريقه في

الحياة مستقلا تماما بنفسه. ونعرف أن سارتر وبوفوار منذ منتصف الثلاثينات جذبا العديد من الشباب الموهوب ذكورا وإناثا ممن كانوا طلابا لهما في السابق عادة. وتشكلت من هؤلاء ما سمي «العائلة»، التي ارتبط الاثنان بها ليس فقط عاطفيّا بل وأيضا فلسفيّا وسياسيّا، علاوة على دعم هؤلاء الشباب ماليّا. وطبيعي جدّا أن تراءى لهما أن هذا الشاب الوافد سيصبح آخر كوكب في فلك عائلة سارتر ـ بوفوار. لكن كامي على النقيض، آثر الاستقلال إلى حد أنه كان يستثار غاضبا كلما ربط أحد صراحة بينه وبين سارتر. وبعد هذا بثلاثين عاما، وبينما تتذكر بوفوار تلك الأيام مع سارتر، قالت له «أحسب أنه كان يستثار غاضبا إلى أقصى الحدود إذا ما ظن الناس أنه أحد تلاميذك بدرجة أو بأخرى، نظرا إلى أنه لا يزال شابا وأنك أكثر شهرة». ومن ثم لا غرابة في أن كامي، كما سوف نرى، حرص كل الحرص بعد التحرير أن يميز نفسه عن «الوجودية».

والجدير ذكره أن الشيء الذي أغفلته الصورة التي قدمتها بوفوار هو أن المفكرين الكبيرين لم يتحدثا سويّا عن الأفكار. ولكنهما تحدثا يقينا عن النساء، وأن من المحتمل أن حديثهما لم يتطرق إلى ماريا كاساريس التي ستصبح الحب الكبير في حياة كامي، والمرأة الوحيدة التي يمكن القول بمعنى من المعاني أنه ظل وفيّا مخلصا لها. كذلك لم يتحدثا معا عن بوفوار، وذلك لأسباب واضحة. نعرف أن سارتر وبوفوار صاغا نظريتهما عن علاقتهما في صورها المتنوعة باعتبارها «حبا مشروطا»، ظل ثانويّا بالنسبة إلى حب كليهما «الضروري» للآخر. وظل كامي إلى الأبد ممزقا بين ماريا وزوجته فرنسين، علاوة على تورطه مع أخريات لا حصر لهن. وعجز لهذا عن حسم الإحباط المحوري في حياته. ونعرف أن كلا من الرجلين استنفد القسط الأكبر من طاقته لغواية النساء والتغلب على تعقيدات علاقات لانهائية، أصبحت بالقطع موضوعا للحديث بين الرجلين.

هل كانا متنافسين؟ رأينا كيف أن لقاءاتهما الأولى مع كتابات كل منهما هيأت لكل منهما مجالات للمنافسة. بيد أن عروض كامي لكتب سارتر، حتى وإن كانت نقدية، إلا أنها لم تكشف أبدا عن إشارة تفيد مشاعر المنافسة. ونعرف أن سارتر حين قدم تحليلا لرواية «الغريب» وقارن بينها وبين «أسطورة سيزيف» ـ وهو موقف يرقى إلى مستوى المنافسة ـ لم يعترض

كامي، وسلم بأنه هو وسارتر يتمتعان بقدرتين مختلفتين. وعمد سارتر من جانبه إلى موقف كريم ودمج كامي ضمن هيئة الأدب الفرنسي، بيد أن مراقبة تصرفات الآخرين هي عمل من يصل أولا، إذ له السبق وهو الزميل الأقدم مرتبة. واستعان سارتر بسبقه وأقدميته كفيلسوف لينتقد كامي بعنف. ولكن سارتر سرَّه أن دعاه كامي للانضمام إلى فريق المحلفين لتقييم السعر الجديد الذي حددته دار جاليمار للنشر لكتاب «الثري» La Pléiade؛ هذا على الرغم من أن بوفوار حين تحدثت عن هذا بعد أربعين عاما استشعرت الغضب، إذ ليس لأحد مثل كامي أن يكون هو الشخص الذي يطلب شيئا «من كاتب متميز» مثل سارتر.

وتحدثت بوفوار بعد ذلك بفترة عن أن سارتر كان «غيورا بعض الشيء» من كامي، ولكن ليس باعتباره كاتبا. إذ إن نظرات كامي الوسيمة هيأت له ميزة «يستاء منها سارتر». وذكر سارتر فيما بعد علاقة كامي بعضو «العائلة»، واندا كوزاكيوفكس، باعتبارها واحدة من بين تصرفات أربع أو خمس صدرت عن كامي، وكانت سببا في ما طرأ على الصداقة من مرارة. ونعرف أنه خلال الأشهر الأولى من عمر الصداقة، وفي شتاء العام ١٩٤٤، كتب سارتر إلى بوفوار التي كانت في عطلة: «ما الذي كانت تفكر فيه واندا ويحفزها إلى ملاحقة كامي؟ ما الذي تريده منه؟ ألم أكن أنا أفضل لها منه؟ وأكثر كياسة وتهذيبا؟ حري بها أن تلزم الحذر». وذكر سارتر فيما بعد أن من أهم أسباب القطيعة «قصة معقدة» أفسدت على كامي راحة البال، وهي قصة وقعت أحداثها بينه وبين امرأة غير معروف اسمها في حياة كامي.

وعلى الرغم من أن كلا منهما استهل العلاقة بتقييم الآخر، فإن العلاقة الفلسفية ـ الأدبية التي تربط بينهما، والجاذبية الشخصية، استبقت المنافسة بين الباحث العصامي والعبقري المتميز. وطبيعي أنه بعد أن أصبحا صديقين خلال العامين ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ حالت الفوارق الواضحة تماما بينهما دون الصدام. والجدير ذكره أن سارتر، بينما كان ثملا ذات يوم، قال موجها الحديث إلى كامي: «أنا أذكى منك، هه؟ أذكى منك». ووافقه كامي. ورأى كامي في يوم آخر سارتر يودع فتاة جميلة، وسأله: «ما الذي يوقعك في مثل هذه المشكلة الكبيرة؟» أجاب سارتر: «هل تطلعت إلى وجهي؟».

* * *

تمتع سارتر بمكانة اجتماعية أقوى كثيرا من كامي، وتنامت شهرته قبل أن يلتقيا. وتمثل مناقشته لكتابات كامي الأولى خطوة مهمة في حياة كامي. وكان سارتر أسبق بمراحل في مضمار الكتابة والأفكار، ويتمتع بوضع ميسور في عالم الأدب والثقافة في باريس وكذلك في مشروعه المرتكز على الثقة الكاملة بالنفس لتأكيد عظمته. وإذا كان سارتر في مقاله عن كامي أثبت مدى قدرته على التحرك في يسر وسهولة وسط الأسماء العظيمة فإن كامي قدم شيئا ما، رآه سارتر أهم من العضوية بين محفل الكُتّاب. إذ كانت هناك حرب مندلعة واحتلال ومقاومة. واحتاج سارتر إلى وقت طويل لكي ينخرط في العالم. إذ بقي هو وبوفوار عازفين عن السياسة طول عقد الثلاثينيات المضطرب، ومقتنعين بمراقبة الأحداث من دون الانغماس فيها خلال التظاهرة الكبرى للجبهة الوطنية في ٤ يوليو ١٩٣٥، رافضين التصويت في الانتخابات التي يمكن أن تدفع بالجبهة إلى السلطة. ونعرف أن سارتر في أولى كتاباته المنشورة صوَّر الحرية والتلقائية باعتبارهما أمرين لا علاقة لهما بعالم الواقع. والجدير ذكره هنا أن شخصية ماثيو في روايته «الطريق إلى الحرية» كانت تتمتع بحرية العمل، بيد أن حريته غير ذات نفع. وعبر عن هذا في ذروة الموقف في «الوجود والعدم» بقوله «الإنسان انفعال غير ذي جدوى». إذ كان سارتر غريبا عن العمل الاجتماعي النشط والواقعي.

هذا بينما كان كامي، على النقيض، طبيعيّا تماما، ظاهره مثل باطنه، قادرا على الالتزام ومواجهة الأخطار في عالم الواقع. وانخرط بشكل حاد في إحدى حركات المقاومة الرئيسية بعد أن بدأت صداقتهما بفترة وجيزة. وقالت بوفوار في هذا الصدد «إنه مثلنا، انتقل من الفردانية إلى الموقف الملتزم. وعلى الرغم من أنه لم يذكر الحقيقة أبدا، إلا أننا عرفنا أن عليه التزامات مهمة ومسؤولة في حركة «كومبا»». وعبارة «كان مثلنا» زائفة: إذ كان كامي يسبق سارتر بمسافة جبارة. وسوف نرى أن الاحتلال والمقاومة والتحرير أثرت بشكل حاسم في كليهما، وأضافت بعدا سياسيّا إلى جاذبيتهما الشخصية وإلى الرابطة الأدبية ـ الفلسفية التي تجمع بينهما. لكن السياسة سوف تفرق بينهما فقط في العام ١٩٥٢ بعد أن جمعت بينهما في العام ١٩٤٤.

2

الاحتلال.. المقاومة.. التحرير

في اليوم السابق على لقاء سارتر وكامي مع افتتاح مسرحية «الذباب»، اغتيل ضابط ألماني على بعد ميل واحد من المسرح. بدأت المقاومة في تصعيد نشاطها وتوحيد صفوفها. وانعقد في باريس خلال الأسبوع السابق، في ٢٧ مايو، أول اجتماع للجنة المقاومة الوطنية. وأصبح النضال ضد المحتل الألماني هو البؤرة المحورية للنشاط، وذلك مع دخول الصداقة بين كامي وسارتر ربيع وصيف العام ١٩٤٤. وجدير بالملاحظة أن الإطار العام للعلاقة الذي عرضناه في الفصل الأول انقلب إلى العكس تماما خلال هذه الشهور: كامي، المحارب القديم الذي تمرس في أكثر من حرب سياسية، أصبح قائدا لسارتر المبتدئ.

وفي ٢١ أغسطس العام ١٩٤٤، وفي معمعان التمرد ضد الألمان، ظهرت في باريس الصحيفة السرية «كومبا»، ورأس تحريرها ألبير كامي. وزار سارتر وبوفوار خلال هذه الأيام العاصفة ألبير كامي في المنشأة التي خصصتها المقاومة لصحيفة «كومبا»، علاوة على صحيفتين سريتين

«بقدر ما كانت السياسة أمرا طبيعيًا بالنسبة إلى كامي، كانت بالنسبة إلى سارتر عالما آخر»

المؤلف

آخريين. واللتين ظهرتا إلى العلن بعد رحيل الألمان. وتذكرت بوفوار «كامي وأصدقاءه الشباب عاكفين على العمل وهم شاكو السلاح بينما جميع الأبواب الحديدية مغلقة. وأحست ببعض الخوف. «إذ يمكن في أي لحظة أن يأتي الجنود الألمان ونصبح في ورطة». وتذكرت أيضا: «كان المبنى كله أشبه بخلية نحل يعج بفوضى هائلة وابتهاج هائل من أوله إلى آخره. وبدا كامي جذلا مبتهجا. وطلب من سارتر أن يكتب تقريرا وصفيّا يستعرض فيه فترة التحرير. وهكذا قدم كامي فرصة العمر لسارتر. ذلك أن الفيلسوف والكاتب البالغ من العمر تسعة وثلاثين عاما. والذي لم يعرف يوما كيف يخوض مباشرة غمار العالم، استطاع بفضل المقالات التي كتبها أن يشارك على نحو عملي، ومن ثم سار بين الطرقات يراقب الأحداث ليعود ويصفها لحشد من الحضور.

وظهرت سلسلة من مقالات شاهد عيان ممهورة باسمه، وتعرض أحداث الثورة التي حررت باريس: «الطواف بأنحاء باريس في أثناء الانتفاضة»، و«جوّال في أنحاء باريس الثائرة». صدر المقال الأول في ٨ أغسطس، وعرض ردود الفعل الجماهيرية إزاء الثورة: «في هذا الوقت الذي امتزجت فيه الإثارة والبهجة، يشعر كل امرئ بالحاجة إلى العودة والانغماس في الحياة الجمعية». وصدر المقال الأخير بعد سبعة أيام، ووصف فيه العرض العسكري احتفالا بالتحرير، الذي ضم قوات المقاومة السرية في مسيرة مع جيش فرنسا الحرة بقيادة ديجول: «لم نشاهد قط من قبل محاربين مدنيين ـ مدججين بالسلاح لخوض حرب عصابات ولنصب الأكمنة والمقاومة المسلحة والصراع غير المتكافئ عبر المتاريس ـ وجنودا أبرياء لا تشوبهم شائبة، هم ومعهم قادتهم يحتفلون في عرض عسكري بالفرحة الواحدة التي تجمع بينهم. وأحس الحشد أنه برحيل الألمان يكون قد حان الوقت لكي نبدأ صراعا أكثر قسوة وواقعية وفي حاجة إلى قدر أكبر من الصبر والدأب لتأسيس نظام جديد».

وكان سارتر أول كاتب كرمته صحيفة «كومبا» بالإشارة إليه في سطر على صدر صفحتها فور خروجها من مكمنها السري. وكتبت اسمه بأحرف كبيرة على امتداد الصفحة الأولى من كل عدد، ولكن بوفوار كتبت إلى نلسون آلجرين بعد ذلك بثلاث سنوات تقول: «كتبنا تقارير عما كان يجري من أحداث، واعتدنا تقديمها إلى كامي وفي نفوسنا قدر من الإحساس الممتع بالخطر في الطرقات التي تخترقها الطلقات بين الحين والآخر». وكلمة

«نحن» هنا تعني في رأي واحد من كتاب سيرة حياة سارتر أنها «هي» التي كتبت المقالات تحت إشراف سارتر. وبعد وفاة سارتر باحت بوفوار بمكنون سرها إلى كاتب سيرة حياتها، وقالت إنها هي، وليس كلاهما معا، وليس سارتر يقينا هو الذي كتب المقالات الشهيرة في صحيفة «كومبا» عن الثورة. ولقد كتبتها لأنه «كان مشغولا جدّا». وهذه نقطة ليست بالبسيطة. إذ ظهرت هذه المقالات لتقول إن سارتر نزل إلى أرض الواقع بأسلوب جديد وحاسم، وفي لحظة تاريخية فارقة، وظل الرأي السائد عن هذه المقالات أنها أفضل رؤية عيانية تروي أحداث تلك الأيام.

والقصة الثانية عن زيارة رئيس تحرير صحيفة «كومبا» لصديقه في الكوميدي فرانسيز في أثناء الثورة. وانضم سارتر إلى أعضاء فريق مسرح المقاومة تحت اسم «اللجنة القومية للمسرح» بهدف حماية دار الكوميدي فرانسيز من أي تخريب ألماني لها. وتحكي القصة أن سارتر الذي بلغ به الإعياء أشده من طول المشي في طرقات المدينة غلبه النعاس وهو جالس على أحد المقاعد. وأيقظه كامي بالكلمات التالية: «لقد وجهت مقعدك في المسرح في اتجاه التاريخ». وهنا نرى أن سارتر ربما باح لصديقه برغبته في المشاركة في أحداث عالم الواقع، ومن ثم فإن كامي كان يمازحه بالسخرية من غفوته في مثل هذا الوقت. وطبعي أن صدور مثل هذه الملاحظة بأسلوب كامي الساخر الودود جعل منها محورا لما حدث من شقاق بينهما فيما بعد. وتذكر كامي، كما سوف نرى، هذا الحدث في أثناء جدال دار بينهما، وقالها كامي بحدة قاسية، وردها له سارتر الصاع صاعين.

هاتان الحكايتان تقولان لنا الكثير جدّا عن كامي وسارتر وعن علاقتهما إبان هذه الفترة، وأصبح السبق منوطا بسارتر فيما بعد كحيوان سياسي أخفى حقيقة موقفهما في علاقة كل منهما بالآخر. كان كامي قبطان المركب التي افتقدها سارتر دائما. ونلحظ في الحكاية الأولى أن كامي قدم صديقه إلى أوسع جمهور ممكن، ولكن إنجازات سارتر ودوره في هذه المقالات الشهيرة خلال هذه الفترة إنجازات مشكوك فيها، وهو ما عرفنا الكثير عنه في فترة تالية. ونلحظ في الحكاية الثانية أن كامي سخر من صديقه الذي تحدث عن موعد مع التاريخ، والذي بدا له أنه عاجز عن الوفاء به. إن قصة مسرح الكوميدي فرانسيز علاوة على الادعاء المثير من جانب بوفوار أنها هي

التي كتبت حصته الأولى المشهورة في المجال الصحافي، إنما تكشف عن مدى الصعوبة البالغة التي لابد أن سارتر عانى منها للوفاء بالتزام بوسع كامي إنجازه دون أي جهد.

يمثل النشاط السياسي بالنسبة إلى كامي عملا طبيعيّا أكثر من سواه. إذ كان عضوا في الحزب الشيوعي لمدة العامين، ابتداء من خريف ١٩٣٥ وحتى صيف أو خريف ١٩٣٧. وكان عضوا عاملا نشطا، واشتهر عنه بأنه المسؤول عن تنظيم شركة مسرح الجزائر، والتي أدت أعمالا مسرحية طليعية وسياسية. وإذا تأملنا إحجامه في خمسينيات القرن العشرين عن مساندة جبهة التحرير الوطني الجزائرية ـ وكذا استبعاد رواية «الغريب» فيما يتعلق بجريمة مورسو وقتله دون مبرر لشاب عربي ـ يصبح لزاما الإشارة إلى خروج كامي من الفرع الجزائري للحزب الشيوعي الفرنسي. إذ أن الحزب طرده لرفضه الالتزام بخط الحزب الذي يقضي، وفقا للتفسير الاستعماري للجبهة الشعبية، أن يقلل من الدعم السابق للحزب الشيوعي الفرنسي للقومية العربية. وكانت الفكرة هي خلق أوسع جبهة ممكنة لمناهضة الفاشية بمن في ذلك أكبر عدد من الفرنسيين الجزائريين إذا أمكن. واعتقد كامي أن التزام الحزب إزاء العرب الجزائريين يتعين أن تكون له الأسبقية على مثل هذه الاهتمامات الاستراتيجية. وبعد أن ترك كامي الحزب الشيوعي الفرنسي واصل نشاطه المسرحي. وعمل من أكتوبر العام ١٩٣٨ وحتى يناير العام ١٩٤٠ على إنجاز صحيفة «الجير ريبابليكان»، وصحيفة أخرى شقيقة لها، ثم خليفتها بعد ذلك، «لوسوار ريبابليكان».

وتعلم كامي شغل الصحافة على يدي رئيس تحريرها باسكال بيا الذي سيساعده فيما بعد على نشر روايته «الغريب» ويدخله إلى صفوف المقاومة. وعمل في مجال عرض الكتب وتصميم النموذج الطباعي، مثلما عمل محررا جنائيّا وقضائيّا. وعمل كامي صحافيّا مناضلا صلبا، ولذا لعب دورا في سبيل كسب أحكام بالبراءة لمتهمين في أكثر من قضية مهمة. وكتب خلال الفترة من ٥ إلى ١٩ يونيو ١٩٣٩ سلسلة من التقارير عن المجاعة والفقر في منطقة القبائل الساحلية الجبلية. وتعتبر هذه من بين أولى المقالات التفصيلية التي كتبها أوروبي جزائري يصف فيها ظروف الحياة البائسة للسكان الأصليين. وطالب كامي الإدارة الاستعمارية بوضع حدّ أدنى للأجور وبناء المدارس وتوزيع الأغذية، ذلك

لأنه «إذا كان لابد من تبرير الاحتلال الاستعماري فإن ذلك لا يكون إلا في حدود ما يقدمه الاحتلال من مساعدة للشعوب الخاضعة للاحتلال للحفاظ على شخصيتها. وإذا كان ثمة واجب علينا تجاه هذه الأرض فإنه السماح لشعب هو من أكثر الشعوب كبرياء وإنسانية في العالم بالبقاء مخلصا لنفسه ولمصيره».

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، كان كامي الشخصية الثانية والوحيدة بعد بيا في صحيفة «الجير ريبابليكان»، ثم سرعان ما أصبح رئيسا لتحرير صحيفة «لو سوار ريبابليكان». ونعرف أنه عارض الحرب منذ البداية. ويمثل موقفه هذا لحظة هي الأكثر إثارة للاستغراب والأقل حظا في التعليق على مدى حياته. ولذلك فإنه هو وصديقه وراعيه بيا أجهدا نفسيهما طويلا في جناحهما اليساري بسبب رفضهما الحتمية الملحة لمحاربة النازي. وسرعان ما أدت معارضته الأولية للحرب إلى نشوب نزاعات وقطيعة مع الأصدقاء.

وكتب في مذكراته في ٧ أغسطس ١٩٣٩ «بدأ حكم الوحوش». ونلحظ أن كلمة التحرير التي كتبها في منتصف سبتمبر في صحيفة «لو سوار ريبابليكان» تأرجحت على حافة اليأس بعد أن خسروا السلام: «جهود كثيرة من أجل السلام، وآمال أكثر معقودة على الإنسان، وسنوات طويلة من النضال أفضت إلى هذا الانهيار وهذه المذبحة الجديدة». ودعا في كلمة التحرير التالية إلى وضع نهاية للحرب عن طريق التفاوض مع هتلر وتصحيح أخطاء معاهدة فرساي. وعلى الرغم «من رفضه نظام حكم تنعدم فيه كرامة الإنسان، وتكون الحرية موضع ازدراء» عرض الصيغة التالية لإنهاء الحرب:

> «لا للخضوع في مذلة، وإنما لنحاول أن نفهم. لنجرد هتلر من الأسباب الأساسية التي تعطيه مكانته. ولنسلم بكل ما هو عادل ونرفض كل ظلم. ولنراجع معاهدة فرساي، ولنحترم في الوقت نفسه بولندا وتشيكوسلوفاكيا ولنتبين الأمر في وضوح، وننبذ التدرب للعداوة والبغضاء. ولندعم ونؤسس التضامن الإنساني والأوروبي، ونلائم السياسات القومية مع نظام اقتصادي أصبح دوليًا. هذه هي مواقفنا».

أخطأ كامي في فهم النازية. إن دفاعه المبدئي عن المسلمين الجزائريين وقت رفضه الباكر للجبهة الشعبية تداخل فيما بعد ذلك، وشابه افتقار لإدراك الضرورة الملحة لمحاربة الفاشية والنازية. وها هو الآن وقد أصبح

رئيسا لتحرير «لو سوار ريبابليكان» خلال الأشهر الأولى من الحرب قاد الصحيفة إلى حتفها على الرغم من المعركة الميئوس منها ضد المراقبين العسكريين، بل وضد أصحابها أيضا، إذ أصر على مبادئه في مناهضة الحرب، والتي ترفض فكرة أن لا مناص من خوض معركة لهزيمة النازية. وطبيعي أن آراءه تعتمد على الالتزام بتراث تاريخي لنزعة السلم الفرنسية التي ترفض المذابح التي لم يكن منها بد وتمخضت عنها الحرب. وحرر كامي تقاريره للخدمة العسكرية في ضوء إيمانه بضرورة التضامن مع هؤلاء الشباب، الذين هم بمنزلة إخوة له، وانخرطوا في سلك الجندية. واستبد به الغضب، لأن إصابته بمرض السل قبل ذلك أفقدته أهليته للخدمة. وكان عاقدا العزم على أن يخدم بأمانة وإخلاص، وأن يدعو ويناصر التفاوض من أجل السلم داخل الثكنات العسكرية.

وإذا كانت رئاسة تحرير كامي لصحيفة «لو سوار ريبابليكان» تجعلنا نتساءل عن مدى صواب رأيه السياسي في العام ١٩٣٩، وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من العمر، فإنها تلفت نظرنا أيضا إلى قوته السياسية المشهودة، إذ بدا له من الطبيعي أن يتخذ موقفا غير مقبول شعبيّا حتى بالنسبة إلى هذه القضية، وإن أدى إلى وقوف العالم كله ضده على الرغم من أنه يعني قمعا يقينيّا وفوريّا له من السلطات الحاكمة. إن كامي، الكائن السياسي بغريزته، كان في آن واحد مستقلا وشجاعا. لم يكن في حاجة إلى الانتظار ليتبين فكر الآخرين أو لتقدير العواقب قبل أن يتخذ هو قراره ويتصرف. كان بوسعه وحده أن يكون حزبا إذا كان لزاما عليه أن يفعل ذلك ويناهض جميع اتجاهات التاريخ ـ مادام مؤمنا بأنه على صواب. وطبيعي أن مثل هذه العزائم لن تهن أو تضعف.

وعانت صحيفة «لو سوار ريبابليكان» من أزمة بسبب نقص الورق، وخسرت غالبية المعلنين، وباتت على وشك أن يوقفها مديروها حال صدور قرار حظر حتمي في مستهل يناير العام ١٩٤٠. وذهب بيا إلى باريس لإصدار صحيفة «باري سوار»، وسرعان ما تبعه كامي. وبقي كامي في باريس خلال الغزو الألماني لفرنسا وبداية الاحتلال. وعاد إلى الجزائر في يناير العام ١٩٤١ ومع زوجته الجديدة فرانسين، حيث أكمل روايته «الغريب» ودراسته «أسطورة سيزيف»، وكذا «كاليغولا». وساعده بيا على إصدار الكتابين الأولين

عن دار نشر غاليمار. ونظرا إلى أن كافكا باعتباره يهوديّا كان اسمه مدرجا ضمن القائمة السوداء list Otto التي تضم الكتاب الممنوعين الذين اتفق الناشرون الفرنسيون على عدم نشر كتبهم، بل وعدم السماح لأي من الكتاب الآخرين بمناقشتها، لذلك ووجه كامي بحذف فصل عن كافكا في كتابه «أسطورة سيزيف». وعلى الرغم من أنه فكر في التو في إمكان نشر المخطوطة كاملة في سويسرا أو الجزائر تجنبا للرقابة، إلا أنه وافق على التغيير وأجازه الرقيب في باريس.

وأصبحت رواية «الغريب» الحدث الأهم في مجال النشر بشأن الاحتلال، والذي استهدف أولا، وقبل كل شيء، تأكيد الوهم في إمكان تأسيس حياة عادية كثمرة للتعاون مع الألمان. وبقى كامي في الجزائر حتى منتصف العام ١٩٤٢. وبعد أن تعافى من المرض عكف ثانية على الكتابة. وتفيد إحدى الروايات غير الموثقة أنه شكل فريقا للمقاومة في منطقة وهران (على الساحل الجزائري) قبل عودته عن طريق البحر إلى فرنسا في أغسطس ١٩٤٢. وتفيد رواية أخرى أن المقاومة هي التي بعثت به من الجزائر إلى فرنسا. وواقع الأمر أنه كان عاكفا على رواية «الطاعون»، وارتبط بدار النشر الفرنسية الكبرى، ورأى كتبه موضع حفاوة كبيرة، ودخل العالم الفكري لباريس المحتلة، ثم كوفئ ماليّا على وضعه كاتبا - كل هذا وهو في الثلاثين من العمر. وعاد إلى فرنسا لا ليحارب، بل لكي يتعافى من السل. واستقر في باريس قبل الانضمام إلى المقاومة.

* * *

وبقدر ما كانت السياسة أمرا طبيعيّا بالنسبة إلى كامي، كانت بالنسبة إلى سارتر عالما آخر. وإذا شئنا تقييم نشاط سارتر في أثناء الحرب، وكذلك تقييم ما الذي كان يعنيه كامي بما قاله له إبان الاحتلال، فإنه يتعين علينا أن نعود إلى ما حدث قبيل ١٩٣٩، أي إلى الوقت الذي اتصف فيه نهج سارتر إزاء القضايا الكبرى للحياة بأنه نهج نظري مجرد. ذلك أن سارتر كان معنيّا أولا وقبل كل شيء بالبحث عن المدلولات الفكرية بعد أن نبذ مثالية تعليمه الفلسفي بينما هو غير عابئ بالماركسية. ونلحظ أن مدرسة فكرية معاصرة وحيدة هي التي استهوت هذا الكاتب الشاب، والفيلسوف الناشئ، والروائي الغارق في محاولة فهم طبيعة الوجود ذاته. ونعني بهذه المدرسة الفلسفية

الظاهراتية، ذلك أنها انطلقت من الوعي العياني للفرد، ووعدت بالوصول إلى عالم الواقع. وتميزت هذه الفلسفة الألمانية بأنها جمعت بين الراديكالية والوضوح الذاتي شأنها شأن سارتر. وتلاءمت فكريًا مع امرئ تعلم في مدرسة الفكر الديكارتي. والتقى بها سارتر لأول مرة في ربيع ١٩٣٢. وتعرض بوڤوار بذكاء المحادثة التي قادته إلى نقطة التحول الفلسفي في حياته:

«كان ريمون آرون يقضي عاما في المعهد الفرنسي في برلين ليدرس هوسرل في الوقت الذي يعد فيه أطروحته التاريخية. وعندما وصل إلى باريس حادث سارتر عن هوسرل. أمضينا معا أمسية كاملة في كازينو بيك دي جاز في شارع مونبارناس. طلبنا طبق اليوم مع كوكتيل المشمش. قال آرون وهو يشير إلى كأسه: «ها أنت ترى يا صديقي العزيز إذا كنت ظاهراتيًا حقا في تفكيرك فإن بوسعك التحدث عن هذا الكوكتيل وتستخرج فلسفة». امتقع وجه سارتر انفعالا عند سماعه هذا الكلام، إذ إن هذا هو تحديدا الشيء الذي تمنى طويلا ومنذ سنوات أن يحققه ـ أن يصف الأشياء حال رؤيته ولمسه لها. ويستخلص الفلسفة من هذه العملية. وأقنعه آرون بأن الفلسفة الظاهراتية ملائمة تماما لاهتماماته الخاصة. ذلك بأن تتجاوز المثالية والواقعية، وتؤكد في آن واحد تفوق العقل وحقيقة العالم المرئي حسبما يظهر لحواسنا. وبينما نحن في طريق سان ميشيل اشترى سارتر كتابا عن هوسرل من تأليف ليفيناس، وبدا تواقا لمعرفة الموضوع وهو يتصفح الكتاب في أثناء سيره دون حتى محاولة فصل صفحاته بعضها عن بعض».

وتقدم سارتر بطلب ليخلف آرون في المعهد الفرنسي في برلين، وأمضى فيه عاما دراسيًا ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ لدراسة هوسرل. ونحن لا نعثر على شيء يوضح انعزال الشاب سوى التاريخ والمكان: إذ ذهب إلى ألمانيا النازية التماسا لأسلوب فلسفي يجعله يلتقي الواقع بينما الكثيرون من أفضل المثقفين الألمان كانوا يؤثرون الهرب. ودرس هوسرل ذلك اليهودي المحظور مثلما قرأ هايدجر النازي عميد جامعة فرايبورج، بينما المشاهد اليومية في الطرقات تنذر بكارثة النازية.

ونعرف أن سارتر سبق له أن درس قوة الخيال وقدرته على خلق عالم غير واقعي. وهيأت له الفلسفة الظاهراتية الآن طريقه لإحلال الوعي في العالم: الوعي دائما وعي بشيء خارج ذاته، وليس أبدا عالما بذاته. وكان مقدرا أن تمضي سنوات عديدة إلى أن تتطور تأثيرات فلسفة هوسرل إلى وجودية سارتر. وحينذاك فقط، وبعد اندلاع الحرب فقط، أمكن لسارتر أن يحدد الهدف من العمل في العالم.

* * *

وفرض التاريخ نفسه على سارتر: إعلان الحرب، التعبئة، أسلوب حياة نمطي «روتيني» لجندي في حرب لا هي نصر ولا هزيمة في العامين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠. واستطاع سارتر خلال بضعة الأشهر الأولى أن يفيد من الخدمة العسكرية مع مزيد من القراءة، والمشاهدة، والكتابة، أكثر مما كانت الحال في الحياة المدنية. وقال في مذكراته إنه كان على استعداد لأن يتبنى العالم ويضطلع بشؤونه. ثم حدث سقوط فرنسا وأصبح سارتر سجين حرب. وكتب سارتر بمناسبة عيد الميلاد مسرحية «باريونا» Bariouna، وهي مسرحية عن ميلاد المسيح إبان الاحتلال الروماني لفلسطين. وجدير بالإشارة أن هذه المسرحية، التي تولى أيضا إخراجها والتمثيل فيها، استهدف منها أن يوحي لأصدقائه في السجن ألا يتعاونوا مع الألمان. وعرف عنه في المعسكر أنه عنيد في رفضه للتعاون. وعمل سارتر أيضا على قيادة فريق دراسة من قساوسة لقراءة فلسفة هايدجر. وعاد إلى باريس بعد إطلاق سراحه من المعسكر في مارسريڤارول ١٩٤١ لأسباب صحية غير صحيحة. وبدا سارتر تواقا إلى واقعية سياسية مستحدثة. ورفض التوقيع على قسم الولاء المطلوب من المعلمين التوقيع عليه والذي يتضمن إقرارا بأن صاحب التوقيع ليس يهوديّا ولا ماسونيّا. بيد أن هذا كان موقفا منه لا يكلف شيئا، ذلك لسبب أوضح هو «أن المفتش العام المسؤول عن التعليم كان عضوا سريّا في المقاومة، وأعادني إلى وظيفتي السابقة في ليسيه باستور».

وعقد سارتر العزم على تشكيل فريق للمقاومة. وأنشأ «الاشتراكية والحرية» مع بوڤوار وموريس ميرلو ـ بونتي، وهم من أعضاء العائلة التي سبق أن شكلها سارتر وبوڤوار. وضم فريق «الاشتراكية والحرية» أيضا عددا من طلابه الحاليين والسابقين. وجازف الأعضاء بالعمل على طبع وتوزيع منشورات مناهضة للألمان. ولكن نظرا إلى أن الاتحاد السوفييتي كان لا يزال

في حالة سلم مع ألمانيا النازية فقد اتخذ الحزب الشيوعي الفرنسي موقفا مهادنا بدرجة أو بأخرى مع الاحتلال حتى ٢١ يونيو ١٩٤١. ولم يكن الاشتراكيون كذلك على استعداد لشجب حكومة فيشي، إذ صوت غالبية أعضائهم لمصلحة تمكينها من السلطة. وهكذا تعثرت خطوات الفريق الصغير الذي ألفه سارتر، وذلك لعدة أسباب من بينها افتقار الفريق لقيادة ذات حنكة سياسية، إذ أعضاؤه عديمو الخبرة. كذلك لأن الغالبية العظمى من الناشطين السياسيين المحنكين لم يتسن حشدهم بعد ضد الألمان وحكومة فيشي. وحكت بوفوار كيف أن بوست (جاك ـ لورنت) «كان يذرع الطرقات حاملا آلة نسخ بينما بويلو (جان) أخذ يطوف حاملا حقيبته المحشوة منشورات». واعتاد سارتر وبوفوار العمل بأسلوب الهواية المعتاد عند القيام برحلة الصيف والانتقال إلى المنطقة غير المحتلة في محاولة لإقناع الكتاب من أمثال أندريه جيد وأندريه مالرو والزعيم الاشتراكي دانييل ماير للارتباط بفريق «الاشتراكية والحرية». وليس لنا أن ندهش إذ رفضوا جميعا. والجدير ذكره أن سبب رفضهم لم يكن مقتصرا على أن الوقت لا يزال مبكرا جدّا لتنظيم مقاومة، بل لأن مهمة الفريق لم تكن واضحة أبدا، فضلا عن أن تاريخ سارتر في السلبية السياسية لم يوح لهم بالثقة. وانتهت عطلة الصيف وعاد سارتر إلى باريس وحل الفريق.

ومن عجب أن أصبح سارتر الآن عنصرا منتجا: إذ إنه خلال الأعوام الثلاثة التالية ألف «الوجود والعدم»، ومسرحيتي: «الذباب» و«لا مفر»، ووضع اللمسات النهائية لرواية «عصر العقل»، وكتب المسرحية التالية لها: «النوم... الأرق». وألف العديد من نصوص الأفلام علاوة على المقالات النقدية الكبرى. وأنجز في أثناء الحرب الكثير مثلما أنجز قبل الحرب. والجدير ذكره أنه بعد الفترة الوجيزة التي عاشها فريق «الاشتراكية والحرية» لم يعد ثانية يلتمس سبيلا مباشرة لمقاومة الألمان شأن من انضموا إلى المقاومة الفرنسية السرية، أو من انضموا إلى شبكات الدعاية السرية، أو من حملوا وثائق سرية. لذلك كم هو عسير تصور واقع سارتر في أي من الدرجة الأولى أو الثانية من نشاط المقاومة. لقد حاول الالتحاق بمثل هذا الفريق، ولو في مناسبة واحدة. ولكن كما قال بعد ذلك واحد ممن كانوا على صلة به «لم يكن من السهل إظهار ذلك الوجه وهاتين العينين تحت الأرض». بيد أنه استكشف العمل

والالتزام باعتبارهما إحدى قضاياه الفلسفية والأدبية الرئيسية. وحيث إن سارتر كان كاتبا له إصداراته ومناهضا لكل من النازي وحكومة فيشي فقد دعي منذ فترة باكرة في العام ١٩٤٣ للانخراط ضمن فريق كتاب المقاومة، إذ دعاه قادة اللجنة القومية للكتاب، وبدأ يكتب في الصحيفة السرية للجنة، والمسماة لي «ليتر فرانسيز». وساهم بمقال شديد القسوة عن دريولا روشيل المعاون والمحرر لصحيفة «لا نوفيل فرانسيز»، وذلك في أبريل. وكتب كذلك مقالات في الأدب والحرية، كما كتب بعد ذلك بعام نصوص أفلام لما بعد الحرب. والجدير ذكره أن أحد هذه الأفلام، في يوليو ١٩٤٤، هاجم مارسيل إيمي الكاتب المسرحي المناصر لحكومة فيشي. وكتب أيضا نص فيلم موجز تحت عنوان «المقاومة»، والذي كان يأمل في تصويره فيلما سينمائيّا بعد أن تضع الحرب أوزارها. وعلى الرغم من أن سارتر لم يكن واحدا من القليلين جدّا من الثوار النشطين، إلا أنه يقينا فعل كل ما في وسعه في ضوء ما تسمح به حياته المألوفة لديه. وهكذا ظل في الدرجة الثالثة من سلم المقاومة. إذ توحد معها، وارتبط بأعضاء أكثر نشاطا منه، وعرف القليل مما يحدث، وساهم بين الحين والآخر بمواهبه كما شارك في الاجتماعات. ولكن الأهم أنه واصل الكتابة دون اعتبار للظروف.

> «لم تكن في غرفنا بالفندق تدفئة... لذلك اعتدت دائما العمل في المقهى. واعتدت في أثناء الحرب أن أعمل أنا وكاستور [«بيفر» اسم التدليل الذي اتخذه سارتر لبوفوار] في الطابق الأول حيث كانت هي تجلس عند أحد طرفي القاعة وأنا عند الطرف الآخر حتى نتجنب غواية الحديث معا. كنا نكتب من التاسعة حتى الواحدة. ثم نذهب إلى غرفة كاستور لأكل أي شيء تيسر لها الحصول عليه في الليلة السابقة أو أي شيء أحضره أصدقاؤنا الذين يأكلون معنا. ونعود بعد ذلك إلى المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه للقراءة والكتابة لكي نكتب المزيد من الساعة الرابعة وحتى الثامنة أو التاسعة».

وتمثل مسرحية «الذباب»: «الإسهام الرئيسي الذي قدمه سارتر» الكاتب الذي قاوم وليس المقاوم الذي كتب. وجرى تمثيلها على خشبة المسرح لأول مرة في منتصف العام ١٩٤٣. وتدعو مسرحية «الذباب» إلى النضال المسلح ضد

الغاصبين، وهي صياغة جديدة لمسرحية أسخيلوس ـ حسبما رأى المراقبون ـ والتي تشجع المقاومة. إذ تعرض أن أورست حين عاد إلى وطنه بصحبة معلمه الخاص، ورأى مدينته يغطيها الذباب كرمز دال على ذنب ارتكبه حين سلم دون معارضة بمقتل أبيه. وانخدع الناس بمؤامرة أجستوس (قاتل الأب) وزيوس، إذ حال دونهم وإدراك أنهم أحرار. ونجد هنا أن أهم رسالة تقدمها المسرحية ضد حكومة فيشي وضد الألمان تتمثل في رفض سارتر الذنب والتوبة لأن ذلك يخدم المغتصبين، ومن ثم يدعو إلى القصاص وقتل القتلة.

وبينما اتخذ سارتر هدفه المباشر وهو نظام حكم فيشي الداعي إلى الندم وسقوط فرنسا إلا أنه في الوقت نفسه عمد إلى استكشاف العقبات التي تحول دون الالتزام. نعرف بداية أن أورست لا ينتمي إلى مكان ما، إنه «صاحب المجد المبعد»، وإنه مثل نسيج العنكبوت، وإن بدا مبتهجا فخورا. يقتل أجستوس وكليمنسترا انتقاما لأبيه. ولكن ربما فعل هذا أولا وقبل كل شيء لكي يصبح شخصا واقعيّا بين الآخرين، ولكي يتحمل العبء على كاهله». ونجده في النهاية بدلا من أن يبقى مع شعبه في أرجوس، إذا به يرحل بطريقة عاطفية مثيرة «ميلودرامية»، حاملا عنهم عبئهم، الذباب الطنان، وكأنه عبئه هو. وانتقد البعض سارتر بعد ذلك لأنه سمح بتمثيل مسرحيته على مسرح المدينة «تياتر دو لاسيتيه» بعد تغيير الاسم، وذلك لأن صاحبة الاسم الأصلي هي سارة برنار، وهي يهودية. كما انتقده البعض أيضا لأنه قدم مسرحيته للرقابة فضلا عن أنه أجرى حوارا بشأنها مع صحيفة «كوميديا» المناصرة للألمان. ولكن هل في وسع أي إنسان أن يشهد المسرحية وينكر فكرتها عن التمرد؟ لقد كانت حقّا عملا فذّا في العام ١٩٤٣، إذ قدم سارتر مثل هذه المسرحية الملتهبة، ويجيزها الرقيب، حتى على الرغم من أن بعض عناصر المقاومة احتقروها لهذا السبب. وعقب التحرير مباشرة، امتدحت صحيفة «أكسيون» الشيوعية المسرحية، ورأت فيها «تعبيرا رائعا» عن الدراما التي عاشها الشعب الفرنسي إبان الاحتلال.

* * *

والتقى كامي سارتر في ليلة افتتاح «الذباب». وعقب هذا اللقاء بوقت قصير قدم كامي أول مداخلة له في زمن الحرب. واتسمت هذه المداخلة بأنها مباشرة أكثر من أي شيء سابق من أعمال سارتر. وكتب أول أربع رسائل من

«رسائل إلى صديق ألماني» في يوليو ١٩٤٣، وذلك بهدف «أن نجعل معركتنا أكثر فاعلية». ونشر هذه الرسالة سرا في فترة متأخرة من هذا العام. وكتب الرسالة الثانية في ديسمبر ١٩٤٣، ونشرها في مطلع ١٩٤٤. (وظهرت الرسالتان الأخريان بعد التحرير). ويتظاهر كامي في المقالات بأنه يشرح لصديق ألماني لم يره منذ خمس سنوات لماذا وقعت هزيمة الفرنسيين، ولماذا جاهدوا ببطء ومعاناة وحملوا السلاح ضد المحتلين، ولماذا سينتصرون. وصاغ أسطورة من خلال هذا العرض.

وتعكس الرسالة الأولى تغيرا رئيسيّا طرأ على كامي وأيضا على فرنسا حسب وصفه لها. الشعب الفرنسيُ الذي آثر الابتعاد عن الحرب وهي على مقربة منه، ذلك لأنه يكره الحروب جميعا. ولذلك استغرق الأمر وقتا لكي يقرر الفرنسيون إذا ما كان من حقهم قتل البشر، وأن يسمحوا بإضافة بؤس إلى ما يعانيه العالم من بؤس. لقد مني الفرنسيون بالهزيمة في العام ١٩٤٠ لأنهم يحتقرون الحرب ويتشككون في ادعاءات البطولة ويلتزمون بالحق. «إذ بينما كنتم أنتم أيها الألمان تغيرون علينا كنا نحن معنيين بأن تطمئن ضمائرنا ويقر في قلوبنا ما إذا كان الحق إلى جانبنا أم لا. ودفعنا ثمنا باهظا بسبب ذلك... أحكاما بالسجن، وإعدامات في الفجر، وهجرات وفرقة وانفصالا، وآلام الجوع يوميّا، وأطفالا هدَّهم الهزال، ثم قبل هذا إذلالا لكرامتنا الإنسانية. ولكن فقط، والموت على الأبواب وأنتم أيها الألمان وراء ظهورنا، فهمنا أسباب القتال. لذلك عقدنا العزم على النضال بضمير واضح نقي و«أياد» طاهرة نظيفة. إن قوتنا المعنوية نابعة من حقيقة أننا نحارب من أجل العدالة وقوة الروح والسيف إلى جانبنا: ولهذا فإن «هزيمتكم حتمية».

وتواصلت الرسائل التالية لتقارن بين الفرنسيين والألمان على أسس أخلاقية مستمدة مباشرة من فلسفة كامي. وإذا كان كل من العدوين بدأ من إدراكه لعبثية العالم، فإن كامي زعم أن الفرنسيين يقرون هذا الإدراك ويعيشون في إطاره، بينما الألمان يسعون للتغلب عليه عن طريق الهيمنة على العالم. إن الفرنسيين، وهم شعب يرفض العنف أساسا، سوف يهبون للقتال ولكن فقط من أجل الأسرة والعدالة. وإذا حدث أن أقدموا على هذا بسبب هاجس ما فإنهم سيعملون أيضا بناء على اقتناع. «لقد انتظرنا إلى أن

وضحت لنا الرؤية. ونحن على الرغم من الفقر والمعاناة نستشعر بهجة القتال في الوقت نفسه دفاعا عن كل من نحب. أما أنتم فإنكم على النقيض تقاتلون ضد كل شيء في الإنسان مما لا علاقة له بالبلد الأم».

تعرض لنا «رسائل إلى صديق ألماني» صورة كامي المفكر الأخلاقي السياسي في الممارسة العملية. التمس سبيلا لدعم معنويات المقاومة بأسلوب بارع غير مباشر، رافضا النزعة القومية بينما يؤكد من جديد تفوق الروح القومية الفرنسية. وكتب كامي بأسلوب فيه نغمة أخلاقية متقدمة، وتحدث بلسان دولي باسم شخص له، في نهاية المطاف، أصدقاء ألمان يكره هو وهم شن الحروب. وأكثر من هذا، نراه يرد سقوط فرنسا إلى ميزة فرنسا الأخلاقية: خسرنا الحرب بسبب شكوكنا إزاء جدوى القتل، الأمر الذي سيدعم الآن قوتنا المعنوية ويهيئ لنا أيادي طاهرة للمعارك القادمة. ونلحظ هنا أن هذه الأسطورة التي اصطنعها كامي دعما للمقاومة تضمنت ما يحمله كامي من تبرير ذاتي لعمل مراجعة مستفيضة، قال إن الفرنسيين قاموا بها، قبل الإقدام على الفعل. كان لزاما علينا بداية أن نرى الناس يلقون حتفهم ويخاطرون بأنفسهم على طريق الموت. كان لزاما أن نرى عاملا فرنسيًا يمضي في طريقه فجرا إلى المقصلة عبر دهاليز السجن، بينما يحث زملاءه من زنزانة إلى أخرى كي يكونوا شجعانا. أو لنقل بعبارة أخرى، كان لزاما أن نعاني أهوال الاحتلال قبل أن نقرر شن الحرب ضد المحتل.

ولكن دعوة كامي إلى الفضيلة الأخلاقية تحولت إلى تنظير أخلاقي. أخيرا، ما الذي كان يلمح إليه في حديثه عن كل هؤلاء الذين أبوا الانتظار وشرعوا في المقاومة منذ اليوم الأول للاحتلال وأكثرهم ممن التفوا حول ديجول؟ وأولئك الآخرين من مثل الشيوعيين الذين كانوا على استعداد للمقاومة المسلحة وببطولة عظيمة فور إصدار الأوامر؟ ذهب كامي إلى أن هؤلاء المقاومين جميعا وكذلك كل من قاتلوا في ساحة القتال قبل سقوط فرنسا لم ينضجوا بعد، أو غير أنقياء تماما بحيث انخرطوا في العنف بسهولة. ومن ثم تلوثت أياديهم. إن فرنسا المهزومة وفرنسا التي لا تحب العنف المسلح، فرنسا التي تناقضت رؤيتها بشأن الحرب ها هي الآن تنهض في بطء لتمضي منطلقة على الطريق مدفوعة بأسباب صائبة وصحيحة. وإن

فرنسا هذه لم تخطئ أبدا ـ كانت على صواب أخلاقيا حين رفضت الحرب ومنيت بالهزيمة ـ وها هي الآن على صواب أخلاقي تماما إذ عقدت العزم على المقاومة المسلحة.

ولكن كامي لم يعترف يوما بأنه أخطأ، هذا على خلاف سارتر الذي قد ينتقد سلبيته الباكرة. وكم هو مثير أن نجد هذه النزعة القومية التخييلية «الفانتازيا»، والإيمان بالصواب الذاتي لدى فرنسي وافد من المستعمرات، أوروبي عاش في أفريقيا، وشب وترعرع في وضع يحيط به العنف كأسلوب راسخ لدى المستعمرين يرونه ضروريًا لقمع المواطنين من أجل اغتصاب الأرض وحصرهم حيث يقيمون. نلحظ أن كامي في رواية «الغريب» عرض بعض الخواطر السريعة عن هذا العنف من خلال التواطؤ بين ريمون وميرسو لضرب الصديقة العربية، وكذلك من خلال ملاحقة أخيها وصديقه لهما ثم ملاحقتهما هما للأخ والصديق. ونجد هذا أيضا في نقطة التحول في الرواية والتي تمثلت في قتل ميرسو لعربي مجهول الاسم. بيد أن كامي لم يعترف قط بأن مثل هذا العنف سواء بالنسبة إلى مكانه في العالم أو بالنسبة إلى المجتمع الذي تربى فيه.

وتشير «رسائل إلى صديق ألماني» إلى وجه ثان للمقارنة بين كامي وسارتر في هذه المرحلة من تطور كليهما. إن أورست عند سارتر يتبنى العنف في قراره بقتل أجستوس وكليتمنسترا. ويرجع ذلك جزئيًا إلى رغبته في أن يكون سبيلا ليصبح واقعيًا واكتساب صلابة ومكانة. وذهب سارتر إلى أن السبيل للخروج من الوجود الخيالي والانحصار الذاتي لابد أن يكون عبر عمل عنيف. هذا بينما نجد كامي قبل العنف مترددا، وبغية أداء عمل محدد: تحرير فرنسا من الألمان. وجدير بالذكر أنه على الرغم من أن جريمة ميرسو إذ قتل العربي مجانا في رواية «الغريب»، صدمت دائما المعلقين، إلا أن القسط الأكبر من حياة كامي وأعماله السياسية كان انخراطا أساسيًا في العنف السياسي. ولكن بعد الحرب بدأ يظهر أكثر فأكثر كخصم للعنف السياسي، الأمر الذي بلغ الذروة في رواية «الثائر». ونعرف أنه بعد قطيعته مع سارتر كتب مقالا عنيفا ضد عقوبة الإعدام، كما أنه مع بداية الحرب الجزائرية خاض حملة ضد العنف من الجانبين الذي يستهدف المدنيين. ولكن سارتر على النقيض، عالج العنف باعتباره الوسيلة ليكون واقعيًا. وإذا كان كامي استبد به القلق في

تزايد مطرد بشأن ما يصيب الضحايا من أذى فضلا عن آثاره الأخلاقية السلبية، فإن سارتر ركز على آثاره السياسية والنفسية الإيجابية لدى من اختاروه سبيلا لهم خاصة ضحايا القهر بعد أن تصبح كل السبل مسدودة أمامهم. وحسب هذا المعنى أصبح العنف محوريًا في سياسة ونظرة كل من سارتر وكامي. ولكن نجد أحدهما تبناه غريزيًا، بينما الآخر ينفر منه. وهكذا نجد في فرنسا المحتلة أن سليل الأسر المتميزة راض تماما دراميًا بيديه الملطختين بينما الأوروبي ابن الجزائر عقد العزم على الانخراط في النضال والخروج منه بيدين نظيفتين.

* * *

في أواخر العام ١٩٤٣ أصبح باسكال بيا شخصية كبيرة في حركة «كومبا». ووصل كامي إلى باريس في لحظة ظهرت فيها الحاجة إلى مهاراته الصحافية، ودفعت به المصادفة إلى القيام بدور مهم. وفي ديسمبر، أو يناير ١٩٤٤، عهد إليه بيا أول الأمر بمهمة رئاسة تحرير صحيفة ثقافية سياسية تصدر تحت رعاية حركة «كومبا». وطلبت منه الحركة بعد ذلك في مارس أن يأخذ مكان بيا كرئيس لتحرير مجلة «كومبا»، نظرا لأن بيا سيتولى مهامّ أخرى أكبر شأنا. وكانت صحيفة «كومبا» آنذاك تصدر شهريًا في طبعات تصل إلى أكثر من ١٥٠ ألف نسخة، هذا بينما كان كامي يعمل بالنهار أيضا مع دار نشر غاليمار، ويكتب رواية «الطاعون». وقدمت له منظمة «كومبا» وثائق ثبوتية زائفة علامة على المخاطر التي يدير شؤونها، وأيضا كوسام شرف وأهمية. واتخذ مع زملائه اسم بوكار ـ إذ كان من قواعد الأمن ألا يعرف أحد من أعضاء الفريق نفسه الأسماء الحقيقية لزملائه. وعملوا معا في الكتابة والتحرير وإخراج كل طبعة من «كومبا»، علاوة على التأكد من أن ألواح الطباعة وصلت إلى المسؤولين عن الطبع.

كان عملا خطيرا. وجدير بالذكر أن كلود بورديه، قائد حركة «كومبا»، الذي أدخل كامي إلى صفوف الحركة في يناير، قبض عليه بعد ذلك بفترة وجيزة وأرسلته السلطات إلى معسكر اعتقال بوخينفلد. كذلك جاكلين برنار التي عملت مع كامي في إصدار «كومبا»، قبض عليها الألمان وأرسلوها إلى معسكر اعتقال في رافنسبروك. وبقي الاثنان على قيد الحياة، ولكن أندريه بولييه المسؤول عن طبع «كومبا» مات. إذ إنه انتحر وقتما أحس أن الألمان

سيلقون القبض عليه. وحدث ذات مرة أن كان كامي يقف في الطابور للتفتيش على أيدي الشرطة الفرنسية والألمانية مع آخرين، وهنا ناول كامي ماريا كاساريس التصميم الخاص بعناوين الصفحة الأولى لمجلة «كومبا». وخشيت الفتاة أن تخضع هي الأخرى للتفتيش، ولذلك ابتلعت الأوراق.

ومع مرور الأيام، استحوذت «كومبا» على اهتمام كامي، شأن تنظيمات المقاومة الأولى. وتطورت إلى الحد الذي أصبحت فيه أفكارها وهياكلها وأنشطتها ذات شكل وطابع محددين. وتمثلت المساهمة الرئيسية التي قدمها كامي في ألفته بإنتاج الصحف. وكتب كامي مقالين على الأقل لصحيفة «كومبا» السرية: أحدهما (سبق ذكره) والذي يدعو إلى الالتزام بالنضال وصدر في مارس ١٩٤٤. والثاني بتاريخ مايو ١٩٤٤، والذي وصف المذبحة التي قتل فيها الألمان ٨٦ شخصا في قرية آسك. وخلال هذه الفترة طلب كامي من سارتر وبوفوار مصاحبته لحضور اجتماع الفريق المسؤول عن الصحيفة. ويقول سارتر عن ذكرياته في هذا الشأن: «أصبحت عضوا ضمن فريق المقاومة الذي ينتمي إليه قبل التحرير بفترة قصيرة. وقابلت أناسا لم أكن أعرف ما رأيهم هم وكامي بشأن ما يمكن أن تفعله المقاومة في هذه المرحلة من الحرب». ولكن عبارة «أصبح عضوا» فيها مبالغة كبيرة. قالت جاكلين برنار في مذكراتها عن هذا اللقاء إن الرجل القصير عرض مهاراته في الكتابة «حتى وإن كانت قصصا عن كلاب تعدو في الطرقات». ولم يكن سارتر جادًا تماما بعد بشأن الانخراط في السياسة بشكل دائم، سواء ككاتب أم كناشط سياسي.

وفي ٢١ أغسطس ١٩٤٤، وفي معمعان الثورة في باريس ضد المحتلين الألمان، ظهر العدد الافتتاحي الأول لصحيفة «كومبا»، بصفحة واحدة ومقالين من دون توقيع. واستهل المقال الأول، الذي ضمه كامي فيما بعد إلى المجموعة الكاملة من مقالاته السياسية: «اليوم، ٢١ أغسطس، ونحن نظهر إلى العلن لأول مرة، تحقق أمل تحرير باريس. وها هي باريس بعد خمسين شهرا من الاحتلال والنضال والتضحية تولد من جديد، تؤكد معنى الحرية على الرغم من طلقات الرصاص التي تنفجر في الطرقات». والمقال الثاني الذي قيل إنه مكتوب «بوحي» من كامي، ثم قرئ عليه بعد ذلك يحمل كعنوان له شعار الصحيفة المكتوب على الصفحة الأولى: «من المقاومة إلى الثورة». ودعا المقال

إلى تأسيس «ديموقراطية الشعب والعمال»، ووضع دستور جديد يكفل الحرية ويضمن التغيير الهيكلي وينهي الاحتكار وسيطرة رأس المال، ويبني سياسة خارجية جديدة. وهذه هي الثورة التي نعنيها في ضوء الوضع القائم.

* * *

وبعد التحرير أصبح كامي المتحدث باسم إحدى حركات المقاومة الكبرى وهي في أوج انتصارها. وأصبح، علاوة على هذا، رئيس تحرير منبر رائد للمقاومة ذاتها لتفسير وتقييم بل، إن أمكن، توجيه حركة التحول الوطني. وهكذا نجد أننا بصدد ما اعتاد بورديه أن يسميه تلك المصادفات التي تصوغ وتحكم حياة الأفراد إن لم نقل المجتمعات. ذلك أن الشاب صديق بيا ظهر تحديدا في وقت الحاجة إليه - إذ وصل إلى فرنسا قبيل قطع الطريق بينها وبين الجزائر، وعاش في باريس فور إصداره الكتب التي حققت له الشهرة. ووجد بورديه متسعا من الوقت ليطالع الكتابين قبل اللقاء. كذلك نلحظ أن كامي في أثناء عمله في دار نشر غاليمار ومشاركته الاحتفالات مع سارتر وبوفوار خصص قسطا كبيرا من وقته للمقاومة خلال الأشهر الخمسة الأخيرة قبل التحرير.

والجدير ذكره أن الصعود السريع لكل من كامي وسارتر في عالم الأدب فور انتهاء الحرب إنما يسره لهما افتقار عالم الأدب لمنافسين مناظرين لهما. ونلحظ أن بعض المنافسين المحتملين لهما من مثل فلاديمير كانكليفيتش نذروا أنفسهم للنضال ضد الألمان ومن ثم أصبح الكثيرون منهم نزلاء السجون أو معسكرات الاعتقال أو قتلوا. هذا بينما آخرون رفضوا النشر من أصله، بينما ظل آخرون يكيفون أمورهم وفق مقتضيات مناصرة الألمان أو حكومة فيشي إبان الاحتلال. وعمل كامي وسارتر في هذه الأثناء على استحداث وتطوير كيان مهم للكتابة يحتاج إليه القراء الجوعى في نهم لقراءة كل ما يصدر عقب التحرير. ولنا أن نقول في صراحة حادة إن مستقبلهما الأدبي استفاد عمليا من الاحتلال. ويتذكر كامي نفسه كيف أن صديقه رينيه لاينو لم يسطر حرفا إبان الاحتلال، لأنه وهب نفسه كليةً للمقاومة: «قرر أن يكتب فيما بعد». ولكن «بعد» لم تأت قط ليكتب لاينو، إذ ألقت القبض عليه ميليشيا حكومة فيشي في مايو ١٩٤٤، وأعدم بالرصاص بعد شهر هو وثمانية عشر سجينا آخرين على أيدي الجنود الألمان بينما كانوا يجلون من ليون. وبعد ذلك كتب مؤلف «الغريب» الشهير تصديرا لديوان شعر لاينو الذي صدر بعد وفاته.

وثمة كتاب آخرون نذروا أنفسهم بالكامل للنضال منذ البداية رافضين الرقابة أو خسروا وظائفهم بسبب عدائهم لحكومة فيشي أو للنازي. ورفض بعضهم النشر عن طريق دار غاليمار بسبب توافقها مع الألمان. وثمة آخرون إما أنهم آثروا الصمت أو قدموا أعمالهم لحفنة من الناشرين السريين من مثل أديسيون دومينوس. وجدير بالإشارة هنا أن واحدا من أصدق أصدقاء كامي في فترة ما بعد الحرب، وهو الشاعر رينيه تشار لم يكتب شيئا منذ أن أصبح متفرغا للمقاومة. وجاءت شهرة كامي المتوهجة في مجال النضال ثمرة لعمله شهورا عديدة في صحيفة «كومبا» قبيل فترة انتهاء الاحتلال مع عدد قليل من المقالات. ونال مقابل هذا ميدالية المقاومة العام ١٩٤٦، التي قال عنها إنه «لم يُطلبها قط، ولن يتقلدها على الإطلاق إن ما فعلته قليل جدًّا. ولم ينلها أحد من أصدقائي الذين لقوا حتفهم إلى جواري». وعبر دائما عن أعظم قدر من الاحترام إزاء من أعطوا أكثر على الرغم من أنه لم يحاول قط أن يصحح لأصدقائه تصورهم عنه وهم يروجون أسطورة كامي المناضل. ولكن نظرا إلى أن الأسطورة ترتكز على فترة من الانخراط الأصيل حقًّا في المقاومة، فإن النموذج البارز لسارتر في الالتزام منذ اللحظة التي بدأت فيها صداقة كامي ـ سارتر لم يكن سوى الجزائري الواقعي شديد الحساسية.

وأعاد سارتر فيما بعد صياغة القصة على أساس أحاديث ومواقف تالية. ففي العام ١٩٥٢ وصف كامي بأنه رجل يحاول التحلل من الالتزام والتاريخ. وهذا اتهام ظل موجها حتى بعد فترة طويلة. مثال ذلك أن سارتر خلال أحاديث أجراها العام ١٩٧٠ جعل من كامي كبش فداء للقطيعة السياسية، نظرا إلى أن أفكاره كانت خاطئة منذ اللحظة التي التقيا فيها. بيد أنهما حين التقيا بالفعل تغير شعور سارتر لأسباب معقولة. إذ حينما انخرط الاثنان اجتماعيًّا في أواخر العام ١٩٤٣ ومطلع ١٩٤٤ استطاع كامي على الأرجح أن يعرض على صديقه مقالاته السرية، وحكى له عن أنشطته السرية. وهكذا كان كامي يعيش حياة الالتزام التي حاول سارتر استكشافها في رواياته ومسرحياته باعتبارها المشكلة المحورية على مدى السنوات العشر القادمة.

واكتسبت علاقة كامي ـ سارتر وجها آخر إبان الاحتلال. هذا علاوة على صلة القربى بينهما ككاتبين ومفكرين، وأسلوب كل منهما في التكامل والتباين ومشاعر البهجة عندما يكونان معا. إذ هل من المصادفة

أن النص السينمائي القصير الذي كتبه سارتر تحت عنوان «المقاومة» إنما كتبه وقتما كان هو وكامي في علاقة وثيقة بينهما حيث يركز على شاب مسؤول عن تحرير صحيفة سرية؟ وبدا سارتر صريحا في مناسبتين أخريين في حديثه عن كامي وما يعنيه كامي بالنسبة إليه خلال هذه الفترة.

ولعل من المفارقة أن أشهر هذه الأحاديث تمثلها رسالته في العام ١٩٥٢ لإعلان القطيعة. إذ نقرأ عرفانا بدور كامي خلال السنوات الأولى واضحا بين ثنايا نقده لرواية كامي «الثائر». وكتب سارتر موجها حديثه إلى كامي «إنك إبان الحرب وهبت نفسك دون أي تحفظ للمقاومة. وعشت حياة كفاح صارمة خالية من مظاهر المجد والمدح، ومحفوفة بالأخطار المثيرة. ولعل ما هو أشد وأخطر أنك أقدمت على مخاطرة شغلك لوضع أدنى مستوى لا يلقى ترحيبا». واعترف سارتر بأن كامي عاش هذا التاريخ على نحو أعمق وأكمل من كثيرين منا (بمن فيهم أنا). وأصبح كامي مثالا لعلاقة تحظى بالإعجاب، علاقة تجمع في آن بين الشخصي وبين النشاط والعمل الاجتماعيين. وألف سارتر، شأن كامي، أعمالا مهمة، ولكنه رأى نفسه بوضوح أقل منه تطورا. وبعد ذلك بثماني سنوات، أي في العام ١٩٤٤، رأى في صديقه نموذجا للإنسان الذي توحد كاملا داخل نفسه ومع الزمان.

ترى هل امتدح كامي لأن هذا أفضل من الهجوم عليه؟ لدينا شواهد على إعجاب سارتر من أحداث جرت عقب التحرير بفترة قصيرة. إذ تحدث عن كامي في محاضرة له العام ١٩٤٥، أمام جمع من الحضور الأمريكيين، ووصفه بأنه مثال بارز للكُتّاب الملتزمين سياسيّا الذين أفرزتهم المقاومة. وجدير بالذكر أن سارتر في حديثه هذا عن الكتاب الفرنسيين «الجدد» خصص أكثر الوقت للحديث عن «ألبير كامي الذي ناهز الثلاثين من العمر»، عارضا على الحضور صورة مجملة عن رواية صديقه «الطاعون»، التي قرأ سارتر مسودتها.

وأثارت قدرات كامي العديدة إعجاب وغيرة آخرين أقل من سارتر شهرة ونجاحا. وذات مساء صعد ناقد سينمائي ثمل إلى البار في ناد ليلي، وكان قد كتب نقدا لفيلم «كومبا»، وتحدث إلى زبائن البار قائلا:

«سأتحدث إليكم عن ظلم أفدح من الظلم الذي ندينه في عمود إثر عمود في صحفنا اليومية بشأن النخبة الثقافية. هذا الظلم حي وموجود هنا أمامنا ـ إنه كامي. إذ إنه يتمتع بكل شيء، بالقدرة على غواية النساء، والقدرة على أن يكون سعيدا ومشهورا. هذا علاوة على أن لديه الأسباب للغطرسة، فهو ليس فقط موهوبا، بل عبقري. وها نحن نقف عاجزين بلا حول ولا طول ضد هذا الظلم».

بدا كامي في نظر الكثيرين الإنسان الذي يملك كل شيء وفعل كل شيء. كاتب مشهور، ومنافس حسن الصورة في عيني كل امرأة جميلة، مثلما كان مناضلا في المقاومة، والآن رئيس تحرير صحيفة كبرى له افتتاحياته في هذه الصحيفة، والتي تصل إلى مسامع الناس في كل أنحاء البلد. ومن ثم لا عجب أن سارتر فور استئنافه للهجوم في مقاله العام ١٩٥٢ اعترف قائلا: «لكم أحببناك آنذاك».

* * *

كان مفهوما، بل وملائما، أن كامي رئيس التحرير سيصبح صاحب كلمة مهمة في فترة ما بعد الحرب، ولكن أنى لسارتر أن يخاطر بادعاء مماثل ويكون له صوته المسموع؟ إنه حين أكد عقب التحرير مباشرة «إن خيرنا هو من انخرط في صفوف المقاومة لإنقاذ البلاد» إنما تكلم ليس باعتباره عضوا في المقاومة، بل باعتباره «كاتبا قاوم». كيف له إذن أن يحاول وضع نفسه مع كامي، باعتباره أحد كبار المتحدثين عن المقاومة وباسمها؟

صدر مؤلف في الولايات المتحدة العام ١٩٤٧، يحمل عنوان «جمهورية الصمت»، يشير إلى نجاح سارتر في تحقيق ذلك. والعنوان مأخوذ من مقال لسارتر عن المقاومة، صدر ضمن أول عدد قانوني من صحيفة «ليه ليتر فرانسيز»، في سبتمبر ١٩٤٤. ونجد اقتباسا من المقال يزين الصفحة الأولى من الكتاب. وبعد أن قدم المحرر سارتر في صورة الشجاع الذي لا يهاب والنشط في العمل السري، يضمّن الكتاب النص الكامل للمقال. وتضمن الكتاب أيضا كامي بين المجموعة، ولكن دون ذكر اسمه. وتمثل كامي هنا كلمة كتبها في مايو العام ١٩٤٤ عن مذبحة مدينة آسك. ويعكس إغفال اسم كامي على صدر المقال واقع أنه وثيقة سرية عن النضال.

وجدير بالملاحظة أن مكان سارتر في هذا المصنف، وصورته الواضحة في عدد ٩ سبتمبر من مجلة «ليه ليتر فرانسيز»، يحكيان قصة مهمة. إنهِ لم يدّع أنه انخرط في صفوف المقاومة، وإنما اعتمد على ما يمكن أن يؤديه على أفضل وجه، وهو الكتابة عن الاحتلال ثم عن المقاومة بعد ذلك، وأن يكون شارحا لها. والآن، عقب التحرير، وعلاوة على المقالات التي ظهرت باسمه في مجلة «كومبا»، كتب سارتر «جمهورية الصمت» لحساب «ليه ليتر فرانسيز»، صوت اللجنة الوطنية للكتاب، وكتب «باريس تحت الاحتلال» لصحيفة «لا فرانس ليبر»، وهي الصحيفة الفرنسية الحرة التي يصدرها في لندن صديقه ريمون آرون. وبعد العام، وفي أثناء الاحتفال بذكرى ثورة باريس، كتب وفي نفسه إحساس قوي بمرجعيته ومكانته «تحرير باريس: أسبوع كارثي». وكان لا يزال في الوقت نفسه يعد مجموعة هائلة من الكتابات الجديدة، ويتحدث في كل القضايا على اختلاف موضوعاتها.

وعرض سارتر في «جمهورية الصمت» مسألة الاحتلال من خلال أفكاره ورؤيته التحليلية. واستهل الحديث مستعرضا قدراته بكلمات يمكن أن تستحث الناس على تذكر تجربتهم إبان الاحتلال:

> «لسنا أبدا أكثر حرية مما كنا تحت سيطرة الألمان. لقد فقدنا جميع حقوقنا، وأولها وأهمها حقنا في التعبير. كنا نلقى الإهانات علنا يوميّا، وكان لزاما أن نبقى صامتين. عمدوا إلى ترحيلنا قسرا بالجملة لأننا كنا عمالا ولأننا كنا يهودا ولأننا كنا سجناء سياسيين. وكنا أينما نظرنا ـ على الجدران وفي الصحف وعلى شاشات السينما ـ لا نرى سوى تلك الصورة الكريهة التي لا معنى ولا طعم لها، والتي تريد منا سلطات القهر أن نصدقها عن أسلوب حياتنا الواقعية. وبسبب كل هذا كنا أحرارا. ونظرا إلى أن السم النازي كان يتسرب إلى صلب أفكارنا فإن كل فكرة دقيقة صحيحة كانت تمثل انتصارا. ونظرا إلى أن الشرطة التي تملك كل أسباب القوة والسيطرة كانت تحاول إرغامنا قسرا على الصمت، فقد أصبحت كل كلمة غالية ثمينة شأن إعلان المبادئ، ونظرا إلى أننا كنا مطاردين فقد كان لكل إيماءة وزن وقيمة الالتزام. وهكذا استطعنا بفضل

كل الظروف المخيفة التي أحاطت بنضالنا أن نعيش في نهاية الأمر بغير قناع، وأن نكشف تماما عن ذلك الموقف الرهيب وغير المحتمل الذي نسميه الظرف الإنساني».

استحوذ هذا التفسير على الاهتمام، لأن ما كان لزاما على سارتر أن يقوله كان مذهلا وأصيلا وترددت أصداؤه في نفوس وعقول الكثيرين من قرائه. ومضى قدما في محاولة لربط من عملوا قليلا، وهو منهم، بأولئك الذين قدموا بسخاء. ونلحظ أنه دون أن يفرط في الادعاء عند حديثه عمن ناهضوا بشراسة النازي وحكومة فيشي، آثر البقاء سلبيًا إلى حد كبير وعبر عن تضامنهم طوال فترة الحرب مع المقاومين الحقيقيين. وشدد في الوقت نفسه على أن بقاء الناشطين وفعاليتهم كانا رهن هذا التضامن. أو لنقل بعبارة أخرى إن «جمهورية الصمت» تعمد بشكل مباشر إلى ربط كل من هم على شاكلته «بالنخبة القائمة بيننا ممن كانوا عناصر نشطة في حركة المقاومة». وكان تأسيس وتأكيد هذه الرابطة هما الفكرة المحورية في مقاله.

«كل منا ـ وهل هناك فرنسي لم يكن في وقت أو آخر إبان هذه الفترة في هذا الموقف نفسه؟ ـ ممن لديه معرفة ما بعمليات المقاومة سأل نفسه بالضرورة ذلك السؤال المؤلم: «ترى إذا ما عذبوني، هل سوف أصمد؟»... ولقد كنا وحدنا دون أي يد واحدة هنا أو هناك ممدودة للمساعدة. ولكن في أعماق هذه الوحدة كان آخرون موجودين، كل الآخرين، جميع رفاق حركة المقاومة يدافعون. كلمة واحدة كافية لاعتقال عشر أو مائة. أليست هذه مسؤولية كاملة، إظهار حريتنا في إطار الوحدة الكاملة؟ وهكذا بالدم وبالدموع تشكلت جمهورية هي الجمهورية الأقوى بين سائر الجمهوريات. عرف كل مواطن أنه يعتمد على كل فرد آخر مثلما عرف أيضا أن في وسعه أن يعتمد على نفسه فقط بحرية، وعلى نحو لا مناص منه. إنه إذ يختار نفسه في حريته إنما اختار الحقيقة كل الحقيقة. وكان لزاما على كل فرنسي في كل لحظة أن ينصر ويؤكد هذه الجمهورية ـ من دون مؤسسات أو جيش أو شرطة ـ ضد النازية...».

وهنا نجد المقال، في حركة باهرة، يربط «كلامنا» وأولئك الذين دعموا المقاومة بأسلوب سلبي بأولئك الذين شاركوا في إنجاز بعض من أنشطتها الأقل خطرا وإلحاحا، وأيضا بالأبطال النشطين الذين قاموا بأعمال التخريب السرية وبالاتصالات وفي شبكات النقل وفي صفوف المقاومة. وإذا حدث أن اضطرت العناصر التي ساندت في صمت - وهي العبارة التي تعني عنده كلا منا - إلى الإفصاح عند الاستجواب، فسوف يكشفون حقيقة المناضلين. وهكذا، أعيد تعريف المقاومة باعتبارها «جمهورية الصمت» الواسعة النطاق - جميع الأعضاء الذين ساهموا فيها بطريقتهم الخاصة. وإذا كانت الحقيقة هي أن بضع مئات الآلاف هم فقط من قاموا بنشاط، فإن أسطورة أن كل الأمة عمليّا ساندت المقاومة أضحت بعضا من صورة الذات لفرنسا بعد الحرب. وواضح أن صياغة سارتر للأسطورة سلاح قوي ذو حدين: إذ إنه أضفى مشروعية على جميع أولئك، بمن فيهم هو، الذين وقفوا بأي أسلوب كان إلى جانب المقاومة، بينما أصبح هو في الوقت نفسه المتحدث باسم جمهورية الصمت هذه.

وعلى الرغم من زعمه أنه المعبر عن روح الحياة في ظل حكم فيشي والألمان، فقد نشر مقالا آخر بعد ذلك ببضع شهور تحت عنوان «باريس تحت الاحتلال». وكشف هنا عن فهم غريب لأولئك الذين قاوموا بنشاط. وفي ظل الاحتلال، كتب سارتر، كان تجريد الإنسان من آدميته وتحجر البشر

> «أمرا لا يمكن التسامح معه أو قبوله، حتى كثيرون ممن رغبوا في الهرب منه وإعادة اكتشاف مستقبلهم دفعوا بأنفسهم إلى صفوف المقاومة. مستقبل غريب، يكتنفه من جميع النواحي التعذيب أو السجن أو الموت، ولكنه على الأقل ثمرة أنتجناها بأيدينا نحن. بيد أن المقاومة كانت فقط حلا واحدا، وعرفنا ذلك جميعا: إذ من دونها سيكسب الإنجليز الحرب، وبمساعدتها سوف يخسرونها بأي وسيلة من الوسائل إذا كان من المفترض أن يخسروها. وبدت في نظرنا أنها تحمل أولا وقبل كل شيء قيمة رمزية. وهذا هو السبب في أن كثيرين من عناصر المقاومة استبد بهم اليأس: إذ كانوا دائما رموزا. ثورة رمزية في مدينة رمزية: والتعذيب وحده هو الحقيقة الواقعة».

وبدت المقاومة من زاوية النظر هذه إيماءة معنوية غير ذات قيمة كبيرة لحصاد الحرب.

وثمة مناقشة أجراها سارتر مثيرة للدهشة في تعبيراتها شأن هذا المقال. ناقش سارتر المقاومة باعتبارها «حلاً فرديًا»، رمزيًا يعكس تجردا غريبا. وإذا كان أورست في مسرحية «الذباب» يعقد العزم على العمل ليصبح حقيقة واقعة، فإن سارتر، شأن أورست، لم ير المقاومة عملا له تأثيره في الأحداث أساسا. وجدير بالذكر أن وجهة النظر هذه ربما لم تجد قبولا على نطاق واسع وسط من خاطروا بحياتهم لهزيمة الألمان وإنهاء الاحتلال. وهنا، وفي إطار هذا المعنى الرئيسي، أخطأ سارتر في فهم المقاومة، ربما لأن وعيه السياسي بالالتزام لم يكن قد تطور بعد على نحو ما اعترف هو نفسه بعد ذلك بثلاثين عاما.

وفي ظني أن أحد المؤشرات الدالة على ابتعاده عن الأحداث الواقعية هو أنه عهد إلى بوفوار بالفرصة التي أتيحت له لعمل شيء ما ذي قيمة عملية عندما طلب منه كامي أن يكتب عن الثورة. وتكشف دراسة مصطلحاته الفلسفية الأساسية عن أن الصورة الخيالية ظلت منطلقه، والساحة السارترية الوحيدة للنشاط البشري ذي المعنى والمُرضي للذات ـ وظل كذلك على الأقل إلى أن بدأ يعيد صياغة مصطلحاته الرئيسية عقب الحرب. ولقد كانت مسيرته إلى العالم الواقعي، على المستوى المفاهيمي، مشحونة بتوترات هيكلية أفضت إلى إحباط حتمي. وإذا ما سلمنا بأن هذه الحدود والقيود النظرية أكملت نقاط الانطلاق الشخصي، فسوف يكون عسيرا تصور سارتر وقد تحول، ولكن ليس لأكثر من كونه مراقبا متعاطفا بقوة، ومشاركا وقتيًا وعلى نحو عرضي في المقاومة.

* * *

وعلى الرغم من أن كامي اصطحب سارتر وبوفوار إلى اجتماع يضم فريق «كومبا»، إلا أنه لم تكن لدى الاثنين الخلفية الأساسية، ولا المهارات اللازمة للعمل في صحيفة. بيد أنه ظل يعتبرهما صديقين وثيقي الصلة به إلى الحد الذي جعله يصر على عدم البقاء في البيت عندما تبين أن أسماء أعضاء الفريق أفشيت للألمان. وشاركاه، للحظة على الأقل، الشعور بالخطر.

ونظرا إلى أن هناك الكثير الذي جمع بين كامي وسارتر، إذن لا غرابة في أن يعملا معا من أجل تخطيط مشروعات مشتركة لفترة ما بعد الحرب. وساور الاثنين طموح لا حدود له، ولذلك كانا أبرز الرجال «الجدد» الذين انبثقوا عن سنوات الهزيمة والاحتلال والنضال. وأصبح كامي وسارتر صديقين في لحظة من تلك اللحظات الفريدة التي تتميز بالتفرقة العميقة التي تفصلهما عن الجيل السابق. وعلى الرغم من اختلاف كل منهما عن الآخر بشكل واضح ومميز، إلا أنهما اشتركا معا من حيث النظرة العامة الجوهرية والحساسية الأدبية، وكانا جزءا من الدائرة نفسها، الفكرية والسياسة، ودائرة النشر. وانطلقا معا على طريق الشهرة. ومثلما عملا معا لفترة قصيرة فيما يتعلق برواية «لا مفر»، كذلك اكتشفا الآن مسار العمل المشترك بينهما.

وعقب الحرب، قالا في حديث مع بوفوار إنهما سيبدآن معا مشروع إصدار صحيفة. وناقش كامي وسارتر وموريس ميرلو - بونتي تأليف دراسة مشتركة تتناول الفصل الخاص عن «علم الأخلاق» في موسوعة الفلسفة التي تعتزم دار غاليمار إصدارها. وأراد سارتر أن يكون العمل بمنزلة بيان (مانفستو) فريق - بحثا يحدد الرؤية والموقف بشأن أخلاق عيانية واقعية متكيفة مع الظروف. وتوافقت آراؤهم إلى حد كبير. وكانوا يدركون أن أفكارهم لا تزال طازجة تماما ومتمايزة للغاية، وكانوا متجانسين للغاية بعضهم مع بعض بحيث في وسعهم أن يحلموا معا بأن يصبحوا مرشدي الفكر لفرنسا بعد الحرب. والآن وقد أصبح بإمكان فرنسا أن تلتقط أنفاسها، وأن تقرأ، وهذا هو المهم، بحرية، فسوف يكونون هم محور الحياة والأحداث. وعبرت بوفوار عن ذلك بقولها: «كان علينا أن نزود حقبة ما بعد الحرب بأيديولوجيتها». وهذا ما فعلوه.

3

التزامات ما بعد الحرب

وبدت للحظة مباركة عقب التحرير وكأنما هلت «أيام الغد الشادية» التي تنبأ بها واشتهرت على لسان الشهيد غابرييل بيري. نعم الجوع يشتد بالناس، والملايين أُخرجوا من ديارهم كرها أو لا يزالون في معسكرات الاعتقال أو في السجون أو في معسكرات العمل التي أقامها الألمان، والمعاناة من النقص الحاد في كل شيء؛ واتجهت طاقات قوات التحرير الآن إلى طرد آخر جحافل الألمان من فرنسا وإعلان النصر النهائي في الحرب. بيد أن الحركة التي حاربت وكسبت حربا أهلية، وشرعت في الحرب وفق تشكيل منظم إلى جانب الحلفاء رأت أن هذه التحديات تخص شعبا حرًّا. وعبر كامي عن هذا في افتتاحية أول صحيفة للمقاومة بدأت تعمل أثناء الثورة إذ قال «تحرير باريس يمثل خطوة واحدة فقط على طريق تحرير فرنسا. وهنا يتعين أن نأخذ كلمة تحرير بأوسع معانيها». ومست الافتتاحية الوتر المهيمن لفكر المقاومة. إن حكومة التحرير والقوى السياسية

«سيكون الأمر أشد تعقيدا إذا شئنا عرض أمر صداقتنا خلال فترة ما بعد الحرب»

سارتر

والاجتماعية التي تعبر عنها وكذا، في الحقيقة مزاج فرنسا السائد نفسه؛ كل هذا سيتوجه بشكل حاسم إلى اليسار. كيف يتأتى للشعب العادي ألا يضع أمر صناعة التاريخ بين يديه ويقوم بتغييرات جذرية، وقد شارك الكثيرون من أبنائه في النضال الذي أطاح بكل البناء العفن الذي أقامه فيشي، وتعرف أنهم في نهاية المطاف قد هزموا المتعاونين مع حكومة فيشي وجردوهم من السلاح، ومن ثم أصبح لزاما معاقبتهم ونبذهم تماما. ولقد تحول نضال ديغول والمقاومة معا إلى نصر ليس من أجل الحلفاء فقط بل من أجل فرنسا صاحبة السعادة.

خلت الطرقات من زي ميليشيا الألمان الكريهة وحكومة فيشي البغيضة، وانتهت حالة التوترات المروعة التي سادت خلال فترة الاحتلال، وظهر مشهد آخر دال على التغير الحاسم الذي حدث، وهو اختفاء جميع الصحف المتعاونة مع الاحتلال في ليلة وضحاها وأصبحت صحف المقاومة البطولية مثل صحيفة «كومبا» هي الإعلام الرئيسي في فرنسا المحررة. وتوارت إلى الظل تلك القشرة الاجتماعية والثقافية والسياسية التي انتعشت من خلال تعاونها مع الألمان وكان من بينها الكثير من المؤسسات الأدبية والصحفية. وأصبح التغير الثوري، وسط هذه الطوارئ، أمرا واضحا ملموسا، وساد مزاج دال على إمكان ظهور اتجاه جديد نحو السياسة التي أعلنت أنها لن تختلف فقط عما كانت عليه حكومة فيشي بل وأيضا عن الجمهورية الثالثة التي انهارت مع سقوط فرنسا في يونيو ١٩٤٠.

وتوافق مع صعود المقاومة ظهور مناخ يحاول استباق الأحداث والتنبؤ بما سوف يجري. وسرعان ما أصبح كامي وسارتر، وسط هذا المناخ، المفكرين الرائدين لفرنسا ما بعد الحرب. وتكلم الاثنان في اتساق مع مبدأ الالتزام في مواجهة الخطر. وحملت كلماتهم وأفعالهم هالة النضال. وتطلع كامي، بين وصل وفصل، إلى أعوام ثلاثة أخرى محررا ورئيسا لتحرير الصحيفة اليسارية الرئيسية غير الشيوعية، التي من المقرر صدورها في العلن بعد الحرب. ورأى كامي عن وعي ذاتي كامل أنه يمثل الروح المعنوية للمقاومة وإيمانها بضرورة إحداث تغيير جذري. وبدأ سارتر يتحدث عن «الالتزام» وطوره ليمثل الفكرة المحورية لفترة ما بعد الحرب وأنجز المهمة بإنشاء صحيفة وإنتاج سيل من المقالات والكتب والمسرحيات التي اتخذت من فكرة الالتزام محورا لها. والجدير

ذكره أنه خلال الفترة ما بين التحرير ونهاية العام ١٩٤٥ حقق كل من الرجلين شهرة وصلت إلى أسماع جميع المهتمين. وواصلا الكتابة في الفلسفة والنقد والرواية والمسرح والقصص والمقالات علاوة على أن عملهما في الصحافة أضاف إلى هذا المجال الكثير يوما بعد يوم.

وواضح أن شهرتهما تكمن في قدرتهما على التعبير عن التجارب الاستثنائية التي عاشتها فرنسا. وقدما للطلاب وللشباب ولجميع المتعلمين بعامة أبطال الأدب الجدد. وحل الاثنان محل كتّاب من أمثال جيد ومارلو. ونعرف أن جيد ألف كتبا مهمة سياسيا عن أفريقيا والاتحاد السوفييتي في العشرينيات والثلاثينيات. ويبدو هذان العقدان إذا ما نظرنا إليهما الآن كتاريخ هما اللذان قادا إلى سقوط فرنسا. واعتاد الناس النظر إلى مارلو في وقت التحرير باعتباره الأكبر سنّا على الرغم من أنه يكبر سارتر بأقل من أربع سنوات. ولم يعد هو المتحدث البطولي بلسان ديغول وإن كانت كتبه الصادرة قبل الحرب مثل «أمل الإنسان»، «قدر الإنسان» لا تزال تخص بحديثها الشباب.

وركزت أفكار سارتر وكامي على مزاج ما بعد الحرب لدى جيل من الشباب خاصة أولئك الذين تناوبتهم ظروف شديدة التطرف. إذ إن الكثيرين من أبناء هذا الجيل كانوا فرديين للغاية ومن ثم من المستبعد أن يستهويهم النظام الفكري والسياسي للشيوعية. إنهم وقد انخرطوا في النضال بل وراودهم أحيانا الأمل بدوا يساريين من حيث المزاج ولكن بأسلوب ممعن وبقوة في النزوع إلى الاستقلال والشك. وجعلت خبرة السنوات القليلة الماضية من هؤلاء الشباب عناصر أكثر قابلية للأفكار والآراء المبنيّة على الإحساس بعبثية العالم. وانجذبوا إلى سارتر وكامي ليس فقط بسبب الأفكار التي يعبران عنها بل لأنهما مصممان على العمل تأسيسا على أفكارهما وفي الالتزام بها. وأصبحت معارضة سارتر وكامي للرأسمالية إحدى البديهيات السائدة. وعلى الرغم من أنهما امتنعا تماما عن الحديث عن الاقتصاد، كانت لديهما عشرات الأسباب الأخرى للمطالبة بمجتمع اشتراكي ديموقراطي.

لقد كان كلا الرجلين من المؤمنين بشكل طبيعي بالمساواة. أحدهما من أبناء الطبقة العاملة، وهو كامي لم يستثمر أبدا نجاحه للارتفاع فوق هامات الآخرين، خاصة من شاركوه طفولته في الجزائر. وبدا من المسلمات أن

تكون الساحة مستوية السطح من دون أي تمييز. كذلك سارتر الذي عاش طفولة متميزة رسخت فيه عداء عميقا إزاء الاستثناءات. لم يحاول التكبر على الآخرين إذ يحمل في سويدائه كراهية إزاء من يعتقدون أن لهم حقوقا على من سواهم... وكراهية للمؤسسات التي ترسخ مثل هذه الحقوق المدعاة وتلتزم بهذا الاعتقاد فيما تؤديه من أعمال عادية. ووجد كامي وسارتر مع تطور فكرهما أن النظام الاجتماعي الوحيد المقبول هو الذي يكون فيه الاحترام المتبادل أساس العلاقة المتبادلة بين جميع البشر. ومن ثم فلكي يكون المرء سياسيّا يعني العمل على دعم الاشتراكية. وتمثلت أهم القيم الاجتماعية وأكثرها أساسية في التحرر من قيود التقليد، وأن يكون المرء ديموقراطيّا ومؤمنا بدور وفعالية الفرد لنزعة التسلط. وعلى الرغم من أن الاثنين سليلا عالمين مختلفين أشد الاختلاف أحدهما عن الآخر فإنهما اعتبرا رفاهة الطبقة العاملة حجر الزاوية للتغير الاجتماعي. ورأى كل منهما أن مهمته السياسية هي تأسيس حضور مستقل يكون له توجهه وتأثيره بين الشيوعيين وغيرهم من فرق اليسار الموجودة، وأن يكون حديثهما تعبيرا عن سياسة نضالية جديدة تتجنب المثالية العقيم مع التأكيد على بناء بديل عن المجتمع البورجوازي.

والشيء اللافت للنظر أن أحدهما رأس تحرير الصحيفة اليسارية الرائدة الجديدة التي انبثقت عن المقاومة، بينما رأس الثاني تحرير الصحيفة الرائدة للجناح اليساري الجديد. وعملت هاتان الصحيفتان على نشر وترويج أفكار وقيم المقاومة. وسعى كل من كامي وسارتر، بصفتهما رئيسي تحرير، إلى تحالف الأصوات الجديدة بحيث يتسنى تجاوز التناقضات السابقة فضلا عن استثمار الرغبة واسعة النطاق في توافر تفكير جديد مع بث روح معنوية وسياسية جديدة في المجتمع الفرنسي. واختلفت المطبوعتان إحداهما عن الأخرى اختلافا حادا شأن أي صحيفة في تميزها عن صحيفة فكرية. ودعي كامي للمشاركة في «الأزمنة الحديثة» ولكنه اعتذر بسبب ضغوط العمل في «كومبا»، وحل محله صديقه ألبرت أوليفيير. وطبيعي أن ليس يسيرا تصور كامي في اجتماعات التحرير لمجلة «الأزمنة الحديثة» تماما مثلما أنه ليس يسيرا تصور سارتر بين أعضاء هيئة تحرير «كومبا». ونعرف أن قدرات واهتمامات كامي لا تتوافر فيها خصائص

الفكر النظري من حيث التعقد والأصالة؛ وهي خصائص لازمة لهيئة تحرير «الأزمنة الحديثة». كذلك فإن عشق سارتر للفكر النظري والمجرد لا يؤهله لتولي مهام إدارة صحيفة.

واتخذت «الأزمنة الحديثة» باعتبارها صحيفة ملتزمة، وحسبما رأى كثيرون، الوعي النقدي للمجتمع هدفا لها. ونبذت كلمة مناهضة الشيوعية وحرصت على أن يكون الحزب الشيوعي والاتحاد السوفييتي في منأى. وتميزت بأنها صحيفة متداخلة المباحث تعالج كل مسألة مهمة من قضايانا المعاصرة ولا تقتصر على الفلسفة والأدب فقط بل جميع المجالات الأخرى. ونظرا إلى اهتمامها بالتنبؤ بالمستقبل وبالجانب المعنوي فقد خاضت معاركها على جميع الجبهات واستهدفت ابتكار «أنثروبولوجيا توليفية». ومثلما أفسحت مجالا لعرض أعمال عدد من أهم كتاب فرنسا الجدد - خاصة سارتر وبوڤوار وميرلو - بونتي، كذلك جذبت آخرين. وسرعان ما أصبحت الصحيفة الثقافية الأولى في فرنسا، والنموذج الذي تحتذيه أي صحيفة جادة أخرى.

وتحولت «كومبا» إلى ما يشبه صحيفة جديدة. التزمت بضراوة بالاستقلال. وحرصت أشد الحرص على تجنب اللعب على أذواق الجماهير، أو الإذعان للنزعة التجارية أو التذلل لكسب ثروة أو استثناء. وهيأت فرصا للعمل وللكتابة للكثيرين من الموهوبين الجدد نساء ورجالا ممن ظهروا من بين صفوف المقاومة. والجدير الإشارة إليه هنا أن بوڤوار حين زارت البرتغال كتبت تقارير صحفية لمجلة «كومبا». كذلك استأجر كامي صديقا حميما لكل من سارتر وبوڤوار يدعى جاك - لورانت ليكون مراسلا حربيّا وتعاقد معه على الكتابة. وأرسل فيما بعد تقارير إلى «كومبا» من الولايات المتحدة. وقالت بوڤوار ذات يوم عن ذكرياتها «أينما سألت كامي عن ميزة فإنه سرعان ما يلبي الطلب عن رضى واستعداد حتى أنك لا تتردد في طلب ميزة أخرى. ولن يخيب الطلب أبدا. وطلب أيضًا العديدون من الأصدقاء الشباب العمل لحساب «كومبا»، واستوعبهم جميعا. وأصبح فتح صفحات المجلة صباحا مثل الاطلاع على بريدنا اليومي».

وكتب كامي الكثير جدّا من افتتاحيات «كومبا». ولحظ ناشره الجزائري ادموند شارلوت عند وصوله إلى باريس مع نهاية العام ١٩٤٤ أن المجلة تنفد فور ظهورها على أرفف الباعة وأن افتتاحيات المجلة هي «حديث مدينة

باريس». والجدير ذكره أن مسرحية كامي «سوء الفهم» جرى تمثيلها لأول مرة أمام حضور متباين الرأي والنظرة بشكل حاد، بعد أن نزل الحلفاء إلى بر نورماندي، ولكن أعيد تمثيلها بعد التحرير ثم صدرت مطبوعة مع مسرحية «كاليغولا». وصدرت «رسائل إلى صديق ألماني» في كتيب، وكذا أعيد طبع «أسطورة سيزيف» و«الغريب». وأعيد طبع مجموعة مقالاته الجزائرية «العرس» مرتين. وفي مايو ويونيو ١٩٤٥ كتب كامي سلسلة مهمة من المقالات عن الجزائر. وجرى عرض مسرحية «كاليغولا» لأول مرة في سبتمبر ١٩٤٥. وعلى الرغم من أن كامي عمل ببطء في أثناء ذلك لكتابة «الطاعون» وأوشك على فقد الثقة في قدراته فإن جمهوره لم يكن أبدا ليساوره ظن في هذا الاتجاه. واستطاع قراؤه أن يشتروا خلال بضعة أشهر ما لا يقل عن خمسة كتب من كتبه التي تحتوي على مقالاته ومسرحياته ورواياته، علاوة على المتابعة اليومية لافتتاحيات المجلة.

وبعد التحرير بفترة قصيرة نشر سارتر «لا مفر»، علاوة على بعض المقطوعات عن الاحتلال ومقالات عن المسرح ودفاعا عن الوجودية. وأجرى عديدا من الأحاديث. وفي أواخر نوفمبر طلبت الحكومة الأمريكية من كبريات الصحف إرسال مراسلين لها إلى الولايات المتحدة؛ وتفيد رواية بوفوار أنها لم تشهد أبدا «سارتر وقد أخذته النشوة إلى أقصى حد عندما عرض عليه كامي وظيفة ممثل لمجلة «كومبا». وطوّف خلال الأشهر القليلة الأولى من العام ١٩٤٥ في الولايات المتحدة ونشر اثنين وثلاثين مقالة في «كومبا» و«لو فيجارو». وتتراوح هذه المقالات ما بين مناقشات في شأن هيئة وادي تينيسي وهوليوود وعمال أمريكيين وصولا إلى محاولات لاستكشاف النفسية الأمريكية والمدن الجديدة في البلاد. ثم بدأ ما سمته بوفوار «الهجوم الوجودي». وفي مطلع خريف ١٩٤٥ وعلى مدى بضعة أسابيع صدر لسارتر «عصر العقل» و«إرجاء الحكم» Reprieve. وأصدرت بوفوار في أثناء ذلك أيضا «دم الآخرين» كما تم افتتاح مسرحيتها «الأفواه العابثة» Les Bouches Imutiles وألقت بوفوار محاضرة عامة عن الرواية والميتافيزيقا. واستهلت «الأزمنة الحديثة» أول أعدادها، وقدم سارتر محاضرته الشهيرة بعنوان «الوجودية هي الإنسانية».

وفي مساء ٢٩ أكتوبر ١٩٤٥ سافر سارتر وحده إلى قاعة الاجتماعات في سنترو لإلقاء محاضرة أعلنت عنها مجلات «كومبا» و«لوموند» و«لو فيجارو» و«ليبراسيون»، كما جرى الإعلان عنها عن طريق ملصقات لدى العديد من المكتبات. وأذهل نجاح الحدث المسؤولين عن تنظيم المحاضرة إذ امتلأت القاعة حتى فاضت عن آخرها، واضطر بعض الجمهور إلى التكدس في الخارج. وظن سارتر وهو يدنو منهم أنهم يتظاهرون ضده وشهدت القاعة تكسير العديد من الكراسي، وإغماء بعض النسوة وتكدس الممرات بمن فيها حتى أن سارتر وصل إلى المسرح بعد محاولات مجهدة على مدى خمس عشرة دقيقة.

وحظيت المحاضرة بتغطية صحفية واسعة. وظهر مقال موريس نادو في مجلة «كومبا» تحت عنوان رئيسي «جماهير غفيرة تستمع إلى محاضرة سارتر. حماس شديد، وإغماءات وشرطة وسيارات إسعاف. لورانس العرب الوجودي». ولا تزال محاضرة سارتر وبعد مرور خمسين سنة من أول يوم لإلقائها مقروءة على نطاق واسع في الولايات المتحدة ولكن تحت عنوان مضلل يقول «الوجودية والانفعالات الإنسانية». وتعتبر المدخل الأكثر شيوعا لفلسفته. وتمثل الفكرة الرئيسية فيها «الوجود يسبق الماهية» بمعنى أن البشر أحرار في تقرير مصيرهم، إذ إنهم يخلقون هويتهم وليسوا متلقين لها. ونحن مسؤولون مسؤولية كاملة عما نؤول إليه. «الإنسان ليس شيئا سوى ما يصنعه هو من نفسه». وقدم سارتر الحجج تلو الحجج ضد الفكر الماهوي والجبري بما في ذلك الدين والماركسية. وعمد في سبيل ذلك إلى أن يصف الحرية في وضوح وبساطة ـ وبساطة شديدة كما رأى بعد ذلك ـ بأنها شكل لا انفصام له عن الوجود البشري.

واستهلت «الأزمنة الحديثة» صدورها قبل ذلك بأسبوعين في ١٥ أكتوبر، وفجأة أصبحت «الوجودية» على لسان كل إنسان. وتقول بوفوار متذكرة هذه الأحداث:

> «دهشنا لحالة السعار التي سببناها فجأة وربما بالطريقة نفسها عندما يرى المرء صورة في بعض الأفلام وقد تجاوزت إطارها واتسعت لتملأ شاشة أوسع، هكذا فاضت طاقة حياتي وتجاوزت حدودها القديمة. وجدت نفسي مدفوعة إلى داخل

الأضواء. إن متاعي قليل الوزن للغاية، بينما سارتر منطلق في هرولة إلى مضمار الشهرة واسمي مقترن باسمه. ولا يمضي أسبوع من دون أن تجري الصحف نقاشا معنا. وطبعت «كومبا» تعليقات ودية تناولت كل شيء نطقنا به أو كتبنا عنه. وهناك مجلة «تير ديز وم» (أرض البشر) وهي مجلة أسبوعية بدأها بيير هيربرت وقدر لها أن تستمر لبضعة أسابيع فقط خصصت لنا في كل عدد من أعدادها كثيرا من الأعمدة الودية أو الجامعة بين النقد والمدح. وانتشرت الثرثرات في كل مكان عنا وعن كتابتنا. وكنا نرى في الطرقات المصورين يوجهون كاميراتهم وفلاشاتها نحونا؛ بينما الغرباء يتدافعون نحونا للتحدث إلينا. ويحدق الناس إلينا ويتهامسون ونحن جلوس في مقهى فلور».

وأضحت الوجودية أول صرعة إعلامية في حقبة ما بعد الحرب وبدت وكأنها أعدت خصيصا - وحسب طلب صحافة ما بعد التحرير - التي ازدهرت وزادت أعدادها إلى أربع وثلاثين صحيفة يومية جديدة خلال سنة واحدة، وكان كامي واحدا من بين من يناقشونهم عن الوجودية مع سارتر وبوفوار. واشتمل تألق سارتر وكامي على عنصر مهم هو الإحساس بما يكتنف أعمالهما من أسباب الخزي. ذلك أن الكاتبين نبذا الدين ومظاهر التأنق التقليدية. والمعروف أن سارتر صوَّر شخصيات كريهة ومواقف متطرفة صدمت أصحاب الطبائع المعتدلة مثل: الحديث عن ثلاثة أشخاص محبوسين إلى الأبد في جحيم قاعة استقبال مزدانة بأثاث القرن التاسع عشر. وصوَّر كامي جريمة قتل ارتكبها في بلاده وبلا سبب رجل مأفون تعوزه المشاعر العادية. وإن مثل هذه الكتابات التي يكتبها سكان الضفة اليسارية تربطها الصحافة الشعبية الغاضبة بحي بوهيميي ما بعد الحرب. واعتادت صحيفة «ساميدي سوار» واسعة الانتشار في عرضها للحانات الليلية في الضفة اليسارية أن تصف جميع روادها من أصحاب الثياب الرثة بأنهم وجوديون. وبلغ الأمر حدًّا أن نشرت الصحيفة مقالا يوضح كيف عمد سارتر إلى غواية فتاة وإغرائها بمصاحبته إلى غرفته لتشم رائحة جبن الكاميمبر.

وخصصت صحيفة فرانس - ديمانش التي توزع أكثر من مليون نسخة، صفحة كاملة للحديث عن سارتر «ذلك الرجل الذي لا ينال التقدير الذي يستحقه، الذي يمشي داخل مقهى دي فلور بخطوات قصيرة وقد دفن رأسه داخل سترته الصوفية القذرة وجيوبها محشوة بالكتب والأوراق، ومتأبطا رواية لبلزاك من المكتبة العامة». ووصفت سارتر جالسا إلى طاولة محدقا بانفعال وقد «أزاح عن رقبته الكوفية... واستدفأ ببعض كؤوس الكونياك، بينما البايب الصغير الذي لا يفارق شفتيه الشهوانيتين يحترق في داخله تبغ من النوع الرخيص... ويخرج من حقيبة يده قلما صغيرا... ليسود أربعين صفحة من مسودة». وبعد أن يتحلق حوله جمع صغير من تلامذته وكأنهم مجموعة من سمك السردين يأخذ طريقه إلى حانات الليل في سان جيرمان.

ولكن هذه الشهرة لم تكن محصورة داخل فرنسا. وسبق أن تحدثت بوفوار عن «المجد الفارغ» الذي حط على سارتر بعد الحرب مباشرة وقالت عنه «واقع جديد» ميلاد عالم واحد، حوله إلى كاتب ذي شهرة عالمية. لقد تخيل ولسنوات طويلة أن «الغثيان» لن تترجم، ولكن نتيجة للتقنيات الحديثة وسرعة الاتصالات ظهرت أعماله في أكثر من عشر لغات. وحدث الشيء نفسه مع كامي، إذ بحلول العام ١٩٤٧ ظهرت رواية «الغريب» باللغات الإنجليزية والسويدية والإيطالية؛ وظهرت «كاليغولا» و«سوء الفهم» بالدانمركية والإيطالية والإنجليزية، وظهرت «أسطورة سيزيف» بالإيطالية والسويدية، وصدرت «رسائل إلى صديق ألماني» في الأرجنتين وسويسرا وإيطاليا، ومهدت جميعها السبيل لاستقبال «الطاعون» على نطاق عالمي واسع، والتي سرعان ما ترجمت إلى عشرات اللغات خلال العام من تاريخ نشرها العام ١٩٤٧. وبدأ الحديث يتردد من ذلك التاريخ فصاعدا عن كامي وأحقية ترشيحه لجائزة نوبل.

وكيف استجاب كامي وسارتر لشهرتهما الفجائية؟ كتب كامي في صحيفته قبل هذا بتاريخ أكتوبر ما يلي: «عرفت الشهرة في ليلة وضحاها وأنا في الثلاثين. لست آسفا على شيء. ربما تؤرقني كوابيس فيما بعد. بيد أنني أعرف الآن ما هي. إنها ليست بالشيء المبالغ فيه». ونلحظ أن هذا الشعور بفقدان المتعة أفضى إلى نغمة من الشكوى بعد الاستقبال الذي قوبلت به «كاليغولا» (ثلاثون مقالا). إن «سبب المديح سيئ مثله مثل

سبب النقد. نادرا ما نجد صوتا أو صوتين أو أصواتا لها مصداقية تحركت في انفعال الشهرة! إنها في أفضل الحالات سوء الفهم». لم يقدر كامي نجاحه حق قدره. ربما يكون فاتر الحماس، وسريع الانفعال وينزلق في سهولة إلى مشاعر تضخم الذات والاعتداد بالنفس. وطبيعي أن الشهرة لها متطلباتها المهولة، بل التفرغ للعمل في دار غاليمار لا يوفر الوقت اللازم لكل من يريد لقاءه وإجراء حديث معه أو لسؤاله دعما سياسيّا أو مشورة شخصية. وكتب بعد سنوات قصة فنان أعمته الشهرة حتى فقد نفسه. وبدا أن كامي يضيق بالشهرة ويذهب أحد كاتبي سيرته إلى أن الشهرة حطمته.

ولكن سارتر على العكس من ذلك، إذ استجاب في سهولة ويسر إلى شهرته ربما لأنه كان يسلم دائما بعبقريته. وقال فيما بعد إن شهرته أحبطت هجمات استهدفته من اليمين ومن اليسار. «الشهرة بالنسبة إلي كانت الكراهية». بيد أنه عرف أيضا كيف يستثمرها.

وقال فيما بعد «ما دمت استطعت أن أتبين ما كان يحدث بدرجة أو بأخرى فقد تولد لدي من فكرة «الرأي العام» شيء لم يدركه أبدا الكتّاب السابقون. إن في وسع الكاتب أن يستحوذ على جمهور بأكمله إذا ما قال لهذا الجمهور ما يفكر فيه حتى وان لم يكن بوضوح كامل».

* * *

وعلى الرغم من أن سارتر لم يعتد لقاء أصدقاء رجال من دون أن تكون بوفوار معه لكنه خلال السنة الأولى من صداقته مع كامي كان في غالب الأحيان يلتقي كامي في الصباح في مقهى دي دو ماجو، بيد أن مذكراته لم تكن متسقة في هذا الشأن. إذ إنه بعد ثلاثين عاما يتذكر ويقول «سارت الأمور على ما يرام لسنة أو سنتين»، ثم استطرد ليحدثنا إلى أي مدى كان كامي مسليا. ولكن «الحميمية كانت مفتقدة بشكل ما. لم تكن مفتقدة في المحادثة ولكنها لم تكن عميقة، ولم يفارقني الشعور باحتمال حدوث صدام إذا ما تطرقنا إلى أمور بعينها ولذا كنا نتحاشاها. وكم كان يروق لنا كامي غير أننا نعرف في قرارة نفوسنا إننا لن نمضي بعيدا جدا». وظلت الحمية بين الرجلين قوية وعميقة إلى حد أن سارتر، آنذاك، اعتبر كامي أوثق أصدقائه وأقربهم إليه.

وتميز حي سان - جيرمان دي بريه بأنه كان يثير مشاعر وشجون من يعيش ويعمل فيه. واعتاد سارتر وكامي خلال أعوام ما بعد الحرب أن يقضيا أكثر أوقاتهما معا ومع الآخرين في احدى الحانات أو المقاهي المغلقة أو مقاه في الهواء الطلق. ونعرف من مذكرات بوفوار أن كامي أصبح يشكل عنصرا مهما في حياتيهما؛ يتحادثون ويأكلون ويشربون ويرقصون معا. وكان كامي أحيانا بعد أن يفرغ من عمله في دار غاليمار يلحق أحيانا بكل من سارتر وبوفوار وفي صحبته سكرتيرته إلى المقهى. وبعد أن يفرغا من الشراب ربما يقصدان حانة لتناول العشاء أو للقاء أصدقاء آخرين لمشاهدة مسرحية بوريس فيلن وجولييت غريكو، ثم يختتمان الأمسية في مقهى في الهواء الطلق لتناول شراب العودة وقد انتشى كامي تماما وعاد إلى بيته يترنح.

ولم يكشف كامي عادة عن مشاعره القلقة الدفينة إزاء سارتر، وآثر أن يكون متحفظا معه إلى حد ما. لكنه كان أميل إلى الثقة في بوفوار. والجدير ذكره أنها التقت كامي «كثيرا» وقتما كان سارتر في نيويورك في نهاية العام ١٩٤٥.

«نظرا إلى أنني امرأة - ومن ثم هو إقطاعي الثقافة تماما في نظرته إلى الأمور وليس كفؤا - ربما يتحرج من أن يحكي لي أسراره الخفية عن نفسه: ناولني أجزاء من مذكراته لأقرأها وحدثني عن مشكلات حياته الخاصة. ووجدت فكرة واحدة تشغله وكثيرا ما يعود إليها: لابد من أن يكتب الحقيقة يوما ما! وواقع الأمر في حالته أن ثمة فجوة بين حياته وعمله بيد أنها فجوة أكبر من كثيرين آخرين. ولحظت أننا، حين نخرج معا ونحتسي شرابا ونضحك ونثرثر معا ثم يغلب عليه في آخر الليل المزاح والسخرية، يبدو خشنا وكثيرا ما يكون بذيئا إلى أقصى حد في محادثته. إنه قد يكشف صراحة عن عواطفه، ويطلق العنان لرغباته الكامنة، وكانت لديه القدرة لكي يجلس وسط الثلج على حافة الرصيف في الثانية صباحا، متأملا الحب في أسى وحزن: «عليك أن تختار. الحب إما أن يدوم أو يطير في الهواء مع ألسنة اللهب. المأساة أنه لا يدوم ويغدو ألسنة لهب تصاعد إلى السماء». أحببت «الحمية الجياشة في جوعها النهم» التي اغترب بها عن نفسه إلى الحياة واللذة».

والجديرة ملاحظته أن مذكرات بوفوار التفصيلية تتباين بشكل مذهل مع مذكرات سارتر التي تبدو بعامة مبهمة معماة. وسبق لها أن أفادت بأن اختلافاتها السياسية الواضحة في ١٩٤٥ كانت بسيطة. واضطر كامي تحت

إلحاح مارسيل ايميه، وهو كاتب مسرحي وكان أحد معاونيه، إلى توقيع التماس إلى ديغول لإصدار قراراته في شأن الكاتب روبرت برازيلاك المحكوم عليه بالإعدام. هذا بينما التزم سارتر وبوفوار بدعم حكم الإعدام. وفي نوفمبر العام ١٩٤٥ دافع كامي عن ديغول ضد موريس توريز زعيم الحزب. وتقول بوفوار في هذا الشأن:

«بينما أهم لأتركه صاح بي من نافذة السيارة: على الأقل فإن الجنرال ديغول أفضل شكلا من جاك دوكلو (الثاني بعد توريز في سلم قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي). وفجأني أن يصدر عنه مثل هذا الأسلوب النزق في المحاجة. وها هو الآن نرى موقفه بات بعيدا جدّا عن موقف ديغول، لكنه أبعد شقة عن الشيوعيين».

* * *

كان حديث سارتر وكامي مقلاّ فيما يتعلق بالأدب والفلسفة إلا إذا كان الأمر يخص إصدار أحكام شاملة بشأن كتّاب من أمثال مورياك أو مارسيل ممن لا يحبانهم، أو فوكنر الأثير لديهما. وأفاض سارتر في الحديث عن هذا فيما بعد حتى أنه «سيكون الأمر أشد تعقيدا إذا شئنا عرض أمر صداقتنا خلال فترة ما بعد الحرب. نشأت بيننا علاقة غريبة وأظنها لا تتطابق مع العلاقات التي كان يود أن تنشأ بينه وبين آخرين. كذلك بالمثل لم تكن علاقتنا به من النوع الذي نحب أن يكون بيننا وبين الناس». ترى أي نوع من العلاقات ذلك الذي كان يحبه سارتر؟ نعرف أنه بعد وفاة زميله في الدراسة بول نيزان في الجبهة العام ١٩٤٠، وبعد رحيل زميل آخر له في الدراسة وهو رايمون آرون إلى لندن، أقام سارتر صداقة وثيقة واحدة مع ند له وهي صداقته مع كامي. والجديرة ملاحظته أنه على الرغم من أن سارتر تعاون فلسفيا وسياسيا مع شخص كفؤ له وهو موريس ميرلو ـ بونتي، أو مع فرنسيس جينسون الذي يصغره ويتميز بأنه ذو عقل مستقل فإنه لم يصبح وثيق الصلة شخصيّا مع أي منهما. وعرف شبابا آخرين انضموا إلى حلقة «عائلة» سارتر ـ بوفوار، لكنهم كانوا مجرد كواكب يدورون في فلكها.

وكتبت بوفوار أن كامي حين اشتهر أصبحت أفكاره أكثر تعميما وشمولا، كما أصبح أسلوبه الشخصي أكثر غطرسة. بيد أنني اعتقدت أنه كان لديه سبب أكثر تميزا جعله شديد الحساسية إزاءهما. ذلك أن كامي لا يروق له

الاستسلام لعلاقة من النوع الذي «يحبه سارتر بينه وبين الناس». إذ على الرغم من أن سارتر كان يحترم هذا الاستقلال كان كامي يجاهد في سبيل تجنب الظهور في صورة تابع لسارتر يدور في فلكه. ولكن ما أن أصبح الاثنان حديث باريس وكل فرنسا حتى تعاظم هذا التصور، وأحس كامي بضرورة أن يحدد من هو مقابل سارتر. وأضحت هذه الحاجة إلى تحديد ذاته أكثر إلحاحا وضرورة نظرا إلى أن سارتر اعتبر كامي نموذجا وأدمج طريقة صديقه في الوجود ضمن نظريته هو.

* * *

هذا التطور في علاقتهما هو الذي أطلق في حماس تلك الكلمة التي اشتهرت عن سارتر في هذا الخريف وهي الالتزام. ونعرف أن كامي، وقبل أن ينشئ سارتر «الأزمنة الحديثة» دعا وبقوة إلى الالتزام بالمقاومة. وجاءت دعوته هذه في مقال لم يوقع عليه ومنشور في مارس ١٩٤٤ في مجلة «كومبا» السرية. وترددت في كتاباته دائما لازمة نصها «هذا لا يعنيني» باعتبارها تأتي على لسان غير الملتزم. وردا على هذا أكد أن «كل عمل يقترفه العدو وكل عمل من جانب المقاومة أمر يعنينا جميعا». إن «جميع أبناء الشعب الفرنسي مرتبطون اليوم بالعدو على نحو يجعل أي حركة تأتي من شخص واحد من شأنها أن تخلق روح المقاومة في نفس كل منا من دون استثناء وإن موقف اللامبالاة أو تشتت الفكر لدى شخص واحد يفضي إلى موت الآخرين». وعمد كامي تحديدا إلى الكلمات الموجزة المحكمة، وتحاشى الدعوات المسهبة استنادا إلى نظرية أو إلى تاريخ؛ وقصر حديثه على الدعوة إلى السلاح برهانا على الالتزام. وشغلته هذه الدعوة حتى العام ١٩٤٧ وهو رئيس تحرير «كومبا» وعلى مدى بقية حياته كمثقف ناشط.

وتمثل رواية «الطاعون» التي كان عاكفا عليها آنذاك دليله إلى الالتزام. إذ تعبر عن عزم غير مصطنع لعمل ما يتعين عمله في مواجهة خطر شامل من دون أن نعزو، كما يقول الراوي، أهمية مبالغا فيها إلى أعمال بطبيعتها جديرة بالثناء». ومن ثم فإن من شاركوا في «فرق العناية بالصحة البيئية» إنما فعلوا هذا لأنهم «عرفوا أن هذا هو الشيء الوحيد الذي عليهم عمله وأن الشيء الذي لم يكن بالإمكان تصوره هو ألا ينهضوا بدورهم هذا». إنه الإجراء الذي يتطلبه الموقف، وهذا كل شيء. ونلحظ هنا أول الأمر أن الصحافي رامبرت

الذي باعدت الأحداث بينه وبين زوجته شأن كامي ويتوق إلى العودة إليها، يخطط لترك الحجر الصحي في بلدة وهران. بيد أنه يقرر في النهاية البقاء. ويتعلم بخبرته أن مكافحة الوباء القاتل «همّ يشغل الجميع». وأن مثل هذا الواجب يمكن إنجازه فقط بفضل عمل جمعي يستلزم جهد فريق لا تغيره حدود، وتتوافر في شأنه الرغبة الطوعية لكي يضع المرء نفسه في خدمة الموقف مع قبول كل ما ينطوي عليه من مخاطر.

ونلمس في هذا التضامن بساطة داعمة حتى وان بدت مبهمة بين حين وآخر على نحو ما كانت الحال وقتما كان ريو وتارو يسبحان معا. ونقرأ في الفقرة المدهشة التالية وصفا ليس للصراع بل للحظة الانعتاق منه، ومن ثم هي واحدة من أبرز أعمال كامي.

«خلعا ملابسهما وغطس ريو أولا. وبعد أن زايلته الصدمة الأولى للبرودة وطفا ثانية على سطح الماء بدت له المياه فاترة. وبعد أن ضرب الماء بساعديه بضع ضربات وجد البحر دافئا في هذه الليلة بدفء بحار الخريف التي تستمد من الشاطئ الحرارة المتراكمة على مدى أيام الصيف الطويلة. وخلفت حركات ساقيه ثورة من الزبد الطافي بينما يشق طريقه سابحا إلى الأمام والماء ينزلق على طول ذراعيه لكي يطبق بقوة حول ساقيه. وعرف من صوت دفعة ماء صاخبة أن تارو غطس هو الآخر. استلقى ريو على ظهره ساكنا يحدق بناظريه إلى قبة السماء التي يضيئها القمر والنجوم وأخذ نفسا عميقا. ثم سمع صوت ضربات أذرع تلطم الماء وتعلو واضحة على نحو يثير الدهشة في فراغ صمت الليل. ها هو تارو يدنو منه ويسمع الآن صوت أنفاسه.

عاد ريو ليسبح حذو صديقه وقد ضبط إيقاع ضربات ذراعيه مع ذراعي تارو. ولكن تارو كان السباح الأقوى ومن ثم كان على ريو أن يسرع ليواكبه. سبحا متجاورين بضع دقائق بالحماس نفسه، وبالإيقاع نفسه في عزلة عن العالم وقد تحررا أخيرا من البلدة ومن الطاعون. وكان ريو أول من توقف، وسبح الاثنان ببطء عائدين إلا عند نقطة واحدة، حيث وجدا

نفسيهما فجأة ومن دون توقع داخل تيار مياه في برودة الثلج. حفز هذا الموقف طاقة كل منهما وقد ماج البحر وغطتهما المياه ومن ثم شددا من قوة ضرباتهما للسباحة.

ارتديا ملابسهما وبدآ طريق العودة. ولم ينبس أحدهما ببنت شفة للآخر وان حرصا على أن يكونا في انسجام تام معا وأن تحتفظ الذاكرة في اعتزاز بذكرى هذه الليلة... وحين أبصرا على البعد المراقب المنوط به متابعة حالة الطاعون خمن ريو أن تارو يفكر، مثله هو، في أن المرض أمهلهما فترة من الراحة وأن، هذا شيء طيب ولكن بات لزاما عليهما الآن أن يعودا إلى تحمل العبء وأداء الواجب المنوط بهما من جديد».

لم ينبس أحدهما ببنت شفة، وهو عين المراد. كان هذا طقسا شعائريا بين محاربين في غير حاجة إلى بيان حجم المشاركة بينهما. واستوعب صمتهما إحساس كامي بالالتزام.

وبديهي أن مثل هذه الكتابة، فضلا عن نشاط وشخصية صاحبها، ألهمت سارتر بضرورة الارتباط سياسيا. وكانت هذه العملية عسيرة وطويلة وهي احدى الخطوات الرئيسية على طريق صداقة سارتر مع كامي. وحكى سارتر ماذا يعني صديقه له في محاضرة ألقاها في نيويورك وقتما كان يرسل التقارير من الولايات المتحدة إلى كامي في مطلع العام ١٩٤٥. والجدير ذكره أن هذا البيان الكاشف لم يظهر أبدا بالفرنسية طوال حياة سارتر وإنما ظهر فقط في الترجمة الإنجليزية ـ في مجلة «فوج» في يوليو ١٩٤٥. ونظرا لأن سارتر نفسه كان واحدا من «الكتاب الجدد» الذين يتحدث عنهم بينما روايته الثانية والثالثة تحت الطبع، حسبما قال، فقد بدت المحاضرة قطعة رائعة للدعاية الذاتية عن طريق الاحتفاء بصديقه.

وبدأ سارتر يؤكد أنه بعد الحرب والهزيمة والاحتلال والمقاومة والتحرير بدت كتابات الجيل السابق «تبطئ، وتتراخى متعبة وغير ذات صلة بالموضوع». وأخذ أدب جديد في الصعود «هو ثمرة المقاومة والحرب. وخير من يمثله هو ألبير كامي البالغ من العمر ثلاثين عاما». وتميز الكتّاب الجدد اليوم بخبرتهم العميقة عن النضال ضد الاحتلال.

«إنهم إذ ينشرون الكثير جدّا من المقالات السرية، معرضين أنفسهم مرات ومرات لظروف خطرة بغية تقوية عزيمة الشعب في نضاله ضد الألمان أو مضاعفة حماستهم وشجاعتهم، أصبحوا على ألفة بالنظرة التي ترى الكتابة عملا وفعلا. واكتسبوا القدرة على تذوق معنى وقيمة العمل. إنهم أبعد ما يكونون عن الزعم بأن الكاتب غير مسؤول، وإنما يطالبون بالعكس، إذ يرون أن الواجب يقتضيه دائما وأبدا وفي كل الأوقات أن يكون أهلا لدفع ثمن وكلفة كتابته. ونعرف أن الصحافة السرية ليس بها سطر واحد يكتبه صاحبه دون أن يعرض حياته للخطر سواء كان كاتبا أو طابعا أو موزعا لمطبوعات المقاومة. وهكذا استعادت الكلمة المكتوبة سلطانها بعد التضخم الذي ساد السنوات فيما بين الحربين وقتما بدت الكلمات أشبه بأوراق النقد التي لا يستطيع المرء دفع مقابلها ذهبا».

علّمت المشاركة المباشرة في المقاومة هؤلاء الكتاب أن «حرية الكتابة مثلها مثل الحرية ذاتها، يتعين الدفاع عنها بالسلاح في ظروف بعينها». بيد أن هذا الالتزام أثر بعمق في كيفية نظرهم إلى الأدب الذي لم يكن «نشاطا خياليا مرتكزا على سياسة مستقلة». إن الكتّاب الأحدث من أمثال كامي التمسوا سبيلا لإلزام قرائهم؛ وهذا هو السبب في أن الأدب الملتزم كان في هذه اللحظة موضوعا للنقاش على نطاق واسع في فرنسا.

وركز سارتر الآن على الكتب التي صنعت لكامي شهرته، والتي التقى به من خلالها وهي رواية «الغريب» و«أسطورة سيزيف» وهذان العملان صاغهما وكتبهما كامي قبل الحرب وأعاد صياغتهما باعتبارهما من كتابات زمن الحرب. وقال إن كتابي كامي «ينضحان حزنا عميقا» نظرا إلى أن فرنسا كانت تعيش آنذاك فترة مأساوية. وقرن إحساس كامي بالعبث بأهوال الحرب – مثال ذلك معسكرات الاعتقال – مؤكدا أن تشاؤم كامي كان صحيا وبناء. «إنه إذ فقد كل أمل في أن يجد المرء نفسه عرف أن بوسعه الاعتماد على نفسه. وان الحضور الدائم للموت وخطر التعذيب الماثل دائما وأبدا جعل الكتّاب من أمثال كامي يقدرون حقيقة قوة وحدود الإنسان». إن العيش في ظرف تبلغ فيه القسوة أقصاها حيث يؤرق المرء وبشكل واضح وملموس سؤال «ترى هل أتكلم إذا

عذبوني؟» جعل كامي وغيره من كتّاب المقاومة معنيين ليس فقط بالإنسان باعتباره كائنا نفسيا أو اجتماعيا بل، كما قال سارتر «بالإنسان الكلي الميتافيزيقي». وتعلموا أنه في أحلك ظروف المعاناة وأشدها قسوة لا تزال هناك فرجة أو ساحة لهيمنة ما هو إنساني». وتوافر لدى كامي، على عكس مارلو وهو ـ يقينا ـ واحد من كتاب عصرنا الأبطال، حس بتحمل المذلّة، وهو ضرب من الصبر على الابتلاء الذي تعلمه أثناء المقاومة. وفهم ضآلة ما يمكن أن يفعله الفرد، وأن الروح الإنسانية تعيش دائما في عالم عبثي، وأن لزاما عليها التعامل معه.

واستطرد سارتر ليناقش «الطاعون» التي فرغ لتوه من قراءتها في مسودتها وان لم تكتمل إلا بعد العامين. لخصها لمستمعيه الأمريكيين واستخلص منها دروسا مهمة. الطبيب يؤدي عمله «ببساطة ودون أوهام خادعة، ويتحدى الشر والكون، مؤكدا سيادة الروح الإنساني ضد كل ما هو غريب وشاذ». ومن ثم لا غرابة في أن ينتقل كامي بعد الحرب إلى الصحافة السياسية ليكتب كلمة المحرر التي نبذت الواقعية في السياسة. «إن الواقعية تدمر فكرة الإنسانية في الصميم ذلك لأنها خضوع للأشياء». ولا غرابة كذلك في أن الأمل الصارم الجاد الذي ملأ على كامي نفسه لم يبح بأدب للانعتاق. وعبرت أعماله عن المستقبل المحدد لفرنسا الذي توقع له أن يكون إعادة إعمار وبناء على مدى سنوات قادمة: أدب كلاسيكي خلو من الأوهام لكنه مفعم ثقة بعظمة الإنسانية؛ أدب قاس لكنه بريء من أي عنف لا جدوى منه، يتقد عاطفة ولكنها محكومة؛ أدب يجاهد لكي يصبغ بطابعه الظرف الميتافيزيقي للإنسان بينما هو يشارك بكل قواه وطاقته في حركات المجتمع».

نلحظ في هذه المحاضرة المثيرة التي كان كامي محورا لها من حيث هو كاتب وإنسان، يردد سارتر عددا من الأفكار التي يتقاسمها الاثنان: العبث، الإنسانية الجسورة الحازمة، النضال كضرورة، الإرادة في مواجهة المواقف الصعبة في أقصى وأقسى درجاتها، ورفض أي نزعة هروبية ونبذ الإيماءات التي تدعي البطولة، ورفض أي مخطط للفهم لا يتخذ خبرة الإنسان وعمله محورا وأساسا له. واستطرادا مع هذا أعاد سارتر في قالب جديد صوغ أعماله الروائية التي ظهرت قبل الحرب ومنها «الجدار» و«الغثيان» لتأخذ صورة أعمال ملتزمة سياسيّا ووثيقة الصلة بفترة ما بعد الحرب. واتساقا مع هذا تماما كتب سارتر

قبيل سفره إلى الولايات المتحدة، مسودة دراسة موجزة عن الالتزام وربطها بسنوات الاحتلال، بدا وكأنه يتمثل كامي في ذاته. وكانت له أسبابه الوجيهة إذ رأى في كامي أهم ما يعنيه هو. لقد كان هذا الشاب هو عين صورة الشخص التي كان سارتر يريدها لنفسه : الملتزم وليس كاتبا أيديولوجيا أو حالما مفرطا في التفاؤل وإنما هو في آن واحد «شاعر الحرية» وناشط سياسي.

وبعد خمسة وعشرين عاما علق سارتر على رواية «الطاعون» خلال لقاء معه مخصص لكتابة سيرة ذاتية معتمدة وقال: «حينما أفكر بعد مضي سنوات في ما زعمه كامي من أن الغزو الألماني كان أشبه «بالطاعون»، حلَّ بنا لغير ما سبب، ورحل عنا لغير ما سبب، فأقول يا له من مغفل أحمق». ونلحظ في هذا التقييم الجديد لرواية كامي بعد سنوات طويلة من القطيعة أن سارتر نسي الفكرة الأهم في «الطاعون» التي أدركها وتحدث عنها العام ١٨٤٥. إذ لم تكن الرواية أبدا تعبيرا عن سبب انتشار الوباء، سواء أكان بشريا أم طبيعيا، وإنما قصة الروح الجمعية لمكافحته. وهذا هو السبب الذي من أجله ورد اسم كامي لنيل جائزة نوبل منذ لحظة صدور الكتاب. وان تأكيد سارتر على أن كامي كاتب ملتزم يفيد بأن «الالتزام» من حيث هو فكرة ينفرد بها سارتر أقل من كونه أسلوب حياة وعمل على نحو ما رآها إنجازا حققه كامي.

وبعد أن غيَّر سارتر رأيه بشأن المؤلف أعاد تنشيط ذاكرته عن كتاب كامي. ونجده في لقاء العام ١٩٧٠ يعود وبشكل استحواذي مفرط إلى مظان النقص في الالتزام عند كامي بينما يغفل أسلوبه في اتخاذ كامي نموذجا قبل خمسة وعشرين عاما. وعلى الرغم من تصريحه بأنه تغير خلال السنوات التي أعقبت الحرب إلا أنه أغفل حقيقة أن كامي كان واحدا من الأشخاص الذين تأثر بهم. ومن ثم فإن تقديره الشديد في السابق لكامي لا يتلاءم أبدا مع إحساسه الجديد بأن القطيعة كانت حتمية. ونجد هنا أن توحده في السابق مع نظريتهما بدا متناقضا للنتيجة التي توصل إليها أخيرا وتفيد بأن الجوانب المشتركة بينهما كانت قليلة جدا.

* * *

وطبق سارتر في محاضراته في نيويورك العام ١٩٤٥ أفكارا صاغها خلال فترة باكرة. ونشر هذه الأفكار في منتصف أكتوبر ١٩٤٥ ضمن مقدمته الباهرة لمجلة «الأزمنة الحديثة». وإذا كان كامي اعتاد تجنب المبادئ العامة، مفضلا على

ذلك وصفها وتطبيقها، فإن سارتر على العكس من ذلك كان في حاجة إلى صوغ الاتجاهات الرئيسية الكبرى لحياته باعتبارها امتدادا لمفاهيمه النظرية والمنهجية. ونلحظ أن دعوته الشهيرة إلى الالتزام كانت مسهبة ونظرية ومرتبطة صراحة بفلسفته. وعبرت أيضا عن سارتر في أوج بلاغته.

رفض فكرة «الفن للفن» باعتبارها شكلا من أشكال اللامسؤولية. ووضع بحسم الأفراد، خاصة الكتاب، في عالمهم التاريخي ثم دعا إلى الأدب الملتزم:

> «لما كان الكاتب لا يملك وسيلة للهرب، فإننا نريده أن يستوعب زمانه بقوة وإحكام. إذ هذه فرصته الفريدة : تهيأت له وتهيأ هو لها. إن المرء قد يأسف لموقف اللامبالاة من جانب بلزاك إزاء ثورة ١٨٤٨، وخوف فلوبير غير المفهوم من الكومونة. نعم إن المرء يأسف لهما. إذ ثمة شيء هناك افتقدناه إلى الأبد. ونحن لا نريد أن نفقد أي شيء في زماننا. قد يكون ثمة شيء أكثر جمالا، بيد أن هذا الشيء يخصنا نحن. ليس لنا غير هذه الحياة لنحياها، وسط هذه الحرب وهذه الثورة ربما».

ربما كان يعتب على مؤلف «الغثيان» والدراسات عن الخيال والانفعالات أو الشاب الذي يقرأ هوسرل وهيدغر في برلين العام ١٩٣٢ ـ ١٩٥٤. إذ تبدت «اللامبالاة» و«عدم الفهم» وعليهما مسحة من الحزن المحبب إلى النفس بسبب فقد المرء لحياته. إن المرء موجود في موقفه التاريخي ولذا فهو مسؤول عنه.

> «كل كلمة لها نتائجها المترتبة عليها. وكل صمت كذلك. وإني أومن بأن فلوبير وجونكور مسؤولان عن القمع الذي أعقب الكومونة لأنهما لم يكتبا ولو سطرا واحدا للحيلولة دونه. قد يقول قائل إنه لم يكن شأنهم. ولكن هل كانت محاكمة كالا Calas شأنا من شؤون فولتير؟ أو إدانة دريفوس Dreyfus شأن زولا؟ أو إدارة الكونغو من شؤون جيد Gide؟ كل من هؤلاء الكتاب، وفي ظرف خاص في حياته، قدر مسؤوليته ككاتب. وعلمنا الاحتلال الشأن الذي يعنينا. وحيث أننا نعمل في زماننا وفق وجودنا ذاته فإننا نقرر أن عملنا هذا سيكون عمديا وعن قصد وإرادة».

وعبر سارتر، شأنه شأن كامي في «رسائل إلى صديق ألماني» عن مشاعر حميمية وإن بدت كتابته أكثر برمجة. ومثلما كان كامي هو «فرنسا» بوضوح كامل في المقطوعة السابقة، كذلك كان سارتر «الكاتب» هنا بوضوح كامل. وكتب أيضا باعتباره المحرر لصحيفة جديدة معلنا الاتجاه الذي ستتخذه الصحيفة. وهذا هو ما نجده في «نحن لا نريد أن نفقد أي شيء» وكذا في «عملنا سيكون عمديا عن قصد وإرادة».

وأضحى نداء سارتر على الفور قضية ذائعة الصيت. وشرع منذ مطلع العام ١٩٤٧ في تطوير تبرير تاريخي وفلسفي وسياسي أكثر إفاضة لمعنى الأدب الملتزم. وبدا وكأنه يعمل على أساس مركب من ممارسات كامي وأفكاره هو - إذ أبرز وعمم ما كان يفعله كامي. ألم تكن في نهاية الأمر الافتتاحية التي كتبها كامي هي بالضبط والتحديد ما رآه سارتر إنجازا من جانب زولا وفولتير (وقد سبق له أن قارنهما بألبير كامي)؟ وألم يكن نداؤه هو من أجل العمل وعدا وثيق الصلة ونافذا، حتى أن سارتر لم يعد يفتقده في لقائه بالتاريخ؟ وهل يمكن القول إن كامي لم يقرأ محاضرة سارتر في نيويورك أو أفكار سارتر على الأقل وفي نفسه إحساس عميق بالرضى والإقرار بالفضل؟

واقع الأمر أنه لم يفعل. إذ لم يكن كامي سعيدا بمطلب سارتر. وعلى الرغم مما لقيه من مديح وتقدير واضح من سارتر إلا أنه رفض أي زعم عام بأنه يعمل ما ينبغي على الكاتب أن يعمله. ورفض جوانب رئيسية تشكل ركيزة من فلسفة سارتر بما في ذلك طابعها النسقي وتشديدها عقب الحرب على أننا نحتل في التاريخ موقعا حاكما لنا. وقد نجد ما يغرينا بأن نعزو قراره بعدم المشاركة في «الأزمنة الحديثة» إلى هذه الاختلافات ولكن الواقع يكشف عن أنه حال اجتماع هيئة التحرير في أواخر العام ١٩٤٤ كان كامي مستغرقا في مجلة «كومبا».

وعندما عرض كامي، في فترة ما قبل الحرب كتاب «المؤامرة» من تأليف بول نيزان أعرب عن رأيه بأن الالتزام السياسي أشبه بالزواج. وكان آنذاك عضوا في الحزب الشيوعي. ورأى أنه «مشكلة فارغة غير ذات موضوع مثلها مثل الخلود، أي موضوع يحسمه المرء بنفسه ويتعين عليه ألا يصدر حكما بشأنه». ونلحظ أن كامي في صحف ولقاءات ما بعد الحرب يدافع عن حرية الكاتب دون أن يساوره شك على الإطلاق في حاجة الكاتب إلى أن «يصف ويفسر انفعالات وآلام عصره» و«دراما عصرنا». وكتب كامي في افتتاحية

صحيفة في منتصف العام ١٩٤٦ «أنني أفضّل الأشخاص الملتزمين على أدب الالتزام. شجاعة المرء في حياته وموهبته في أعماله - هذه أمور ليست سيئة للغاية. وأكثر من هذا أن الكاتب يكون ملتزما حين يريد أن يكون كذلك. إن قدره واستحقاقه كامن في القوة الدافعة له. أما أن يصبح هذا قانونا أو وظيفة أو إرهابا فإننا نسأل وأين وجه التقدير والاستحقاق؟».

لقد كان سارتر هو الذي يلتمس «قانونا ووظيفة»، وهو ما اعتبره كامي بوضوح «إرهابا». ويستطرد كامي - ولنا أن نتساءل: تراه كان يشير إلى الداعية إلى الالتزام؟ - إذ يقول «يبدو أن نظم قصيدة اليوم عن الربيع ربما تعني تقديم خدمة للرأسمالية». وأكد أن الإنسانية في حاجة إلى خبز القلب والوجدان شأن الحاجة إلى خبز الطعام والعدالة. وأشار كامي إلى أنه قد يبتهج من دون تحفظ لمثل هذا العمل «إذا جاء جميلا». تراه كان يتحدث عن سارتر عندما قال «هل لي أن أراهم أقل التزاما في أعمالهم وأكثر قليلا في التزامهم في حياتهم اليومية؟» يبدو أن الأمر كذلك لأنه خصص الافتتاحية في العدد التالي من صحيفته عن الوجودية. ونلحظ أنه بحلول العام ١٩٤٦ وعندما كان يتحدث عن الوجودية كان كامي يعني سارتر وإن لم يذكره بالاسم. واتهمه بارتكاب الخطأ الفادح الذي ارتكبه هيجل «حيث اختزل الإنسان ورده إلى التاريخ». واعتقد أن سارتر ناقض مبدأه الأساسي لأن البشر المستغرقين في التاريخ بالكامل يفقدون كل الحرية.

ويرى كامي أن سارتر في مطالبته بالالتزام إنما يضع التاريخ في وضع أسمى من الفرد. إن التاريخ، على خلاف الطبيعة، يحدد المسؤوليات التي يتعين على الفرد النهوض بها، أو أنه يشير إلى قوة كبرى هائلة تضع الفرد في موضع ثانوي. ويعتقد كامي أن سارتر على الرغم من أنه استهل بالحدث العرضي أو الاحتمالي إلا أنه لم يكن صادقا مع نقطة البدء التي انطلق منها، لأنه انتهى إلى التاريخ الذي هو وجود أشمل ومهيمن. ولم تكن الوجودية أقل إثما من المسيحية أو الماركسية في تجنبها للعبث بوسائل شخصتها دراسة كامي «أسطورة سيزيف». وأكد كامي هذا في لقاء شهير تحدث خلاله عن رأيه في خريف العام ١٩٤٥. إذ نراه بعد أن أكد أنه ليس فيلسوفا لأنه لا يؤمن على نحو كاف بسبب يبرر له الإيمان بمذهب، أشار إلى أن الوجودية تأخذ شكلين، الديني والإلحادي.

إن الوجودية الإلحادية بما فيها وجودية هوسرل وهيدغر وسارتر تنتهي أيضا إلى مطلق فوق البشر حيث التاريخ هو المطلق الوحيد. لقد كفوا عن الإيمان بالرب وإن ظلوا يؤمنون بالتاريخ؛ واعترف كامي بقيمة الدين وأقر بأهمية التاريخ، بيد أنه حافظ على عدم إيمانه بأي منهما «بالمعنى المطلق للكلمة».

ما الذي حل على نحو محدد ودقيق محل إنكاره لفكر سارتر؟ على الرغم من حرص كامي على أن يفصل نفسه عن أحكام وآراء أصدقائه بشأن الالتزام فإنه كان يشدد أيضا على التعارض الأساسي بين «التاريخ» و«العالم» أو «الحياة»، وهو التعارض الذي ظل يمثل جزءا من فكره منذ الثلاثينيات. مثال ذلك أنه حين أعرب عن فجيعته لاندلاع الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ نراه يعرب عن أمله في أنه «عقب هذه الحرب ستعود الأشجار لتزهر ثانية، ذلك لأن العالم دائما وأبدا يقهر التاريخ». ونراه في عرض من عروضه للكتب تحت عنوان «قاعة المطالعة»، يعلق معربا عن إعجابه بنظرة المؤلف اندريه شامسون إلى التاريخ باعتبار أنه «حدث ساخر تنتصر عليه الحياة دائما في آخر المطاف». وحدثنا في «رسائل إلى صديق ألماني» عن «دخول التاريخ» لمقاومة الاحتلال. وهذا ما قاله سارتر فيما بعد بأن كامي يؤمن بأنه هو نفسه خارج التاريخ، ولكنه يرى نفسه وكأنه يدخل التاريخ بين الحين والآخر. ورأى ـ شأن كامي الملتزم دائما ـ أن التاريخ، يؤدي إلى اغترابنا عن أنفسنا وعن كل ما هو شديد الحيوية.

وهكذا نرى أن كامي كان قادرا تماما على إيضاح وتحليل الاختلافات التي كانت أحيانا دقيقة رقيقة وأحيانا حادة بين فكره وفكر سارتر. رفض الاتجاه الذي اتخذه سارتر فيما بعد الحرب إزاء فكرته عن «الموقف» - الواقع التاريخي والاجتماعي الذي نجد فيه أنفسنا دائما والذي نتحمل مسؤوليته دائما. وذهب كامي إلى أننا إذا ما سلمنا بأننا جملة وتفصيلا داخل موقف فإن التاريخ سوف يطغى ويغمر المساحة المتاحة لنا للمناورة ويستوعب اختياراتنا. هذا بينما ذهب سارتر إلى أن حريتنا الوجودية (الأنطولوجية) مطلقة. بينما هي تعني دائما اختيار كيف نحيا (أو نرفض) قراراتنا التي نتخذها.

وما أن انتقل سارتر من منظوره الأنطولوجي إلى منظور مؤسس على التاريخ حتى أدرك كامي نقطة الضعف أو كعب أخيل في فكره: أين أساس الحرية وحق تقرير المصير حال قبول أن هذا كله لا يحدث إلا داخل سياق عياني؟ إن سارتر لم يحاول حتى مجرد توثيق الطبيعة الأنطولوجية أو

اللاتاريخية لمصلحته الأصلية مع فهم تاريخي للحقيقة الواقعة الإنسانية بما فيها الأنطولوجيا إلا حوالي الوقت الذي توفي فيه كامي وقتما كان عاكفا على المعالجة النهائية التي لم تكتمل (والتي لم تُنشر إلا بعد وفاته) للمجلد الثاني من كتاب «نقد العقل الجدلي». هذا بينما كانت المحاذير بالنسبة إلى كامي كثيرة: الإبقاء على مساحة خارج أي موقف تاريخي وفاء للحرية الفردية، والقيم المستقلة ذاتيا والحكم الأخلاقي. ولو أن مثل هذه القضية تسنى استكشافها في صراحة ووضوح بين صديقين لهما تلك الشهرة الصاعدة والالتزام السياسي، لاستطاع الاثنان تقديم أبدع الحوارات السياسية وأهمها في فترة ما بعد الحرب. ولكن نجد بدلا من ذلك كامي قانعا بالملاحظات الساخرة والمراوغة محتفظا بأهم ملاحظاته وأكثرها حدة لصحيفته.

وليس لنا أن ندهش إذ رفض كامي الطابع الشمولي المطلق لفكر سارتر. وزعم أنه ليس فيلسوفا لأنه وضع أساسا لدعوى خلق مجالات للحياة غير خاضعة لحكم مبادئ الرؤية التوليفية: الفن لا يعرف منطقا غير منطقه، والأخلاق تصدر حكمها على السياسة، والأفراد أحرار بألا يلزموا أنفسهم؛ والعالم خاضع لحكم ناس وعمليات محددة بعينها، وليس فقط ببضع قوى قليلة وعامة.

زد على هذا أن كامي حرص على أن يميز نفسه عن سارتر لدواعي الكبرياء. ولحظ الناس سلوكه وكيف يهب واقفا منزعجا حين كان مألوفا دائما أن يأتي اسم سارتر سابقا عليه باعتباره، في رأي الكثيرين، المفكر الأقوى تأثيرا: «سارتر وكامي». ونظرا لرفضه أن يوسم بالشريك الأصغر فقد انسحب من مجال نفوذ سارتر. وحرص بحزم وبأسلوب لا يخلو من ظرف ودعابة أن يميز نفسه في حديث أجري معه في خريف ١٩٤٥:

> «لا، أنا لست وجوديا. إنني أنا وسارتر تستولي علينا الدهشة إذ نرى اسمينا مرتبطين معا. ووصل بنا الأمر يوما ما إلى حد التفكير في إصدار إعلان صغير يقول إن الموقعين أدناه يؤكدان أن لا شيء مشتركا بينهما، وأن كلا منهما يرفض سداد ديون الآخر. وهذا كله دعابة. إنني أنا وسارتر نشرنا كل كتبنا دون استثناء قبل أن يلتقي أحدنا الآخر. وحين التقينا كان علينا أن نتثبت من أوجه الاختلاف فيما بيننا.

سارتر وجودي، أما كتابي الوحيد الذي نشرته ويناقش أفكارا وهو «أسطورة سيزيف» فقد كان موجها ضد الفلاسفة الذين يسمون أنفسهم وجوديين».

والجدير ذكره أن «أسطورة سيزيف» انتقدت شيستوف وكيركجورد وياسبرز لنزعاتهم الهروبية إذ إنهم «يؤلهون ما يسحقهم ويلتمسون سببا ليعقدوا الأمل فيما يفقرهم. هذا الأمل القسري أمل عقائدي عندهم جميعا». ولكن سارتر وكامي بينهما ما هو مشترك أكثر من أي من هؤلاء الكتاب. ولكن كامي يؤكد الآن أن سارتر إذ ينفتح للتاريخ وللمجتمع فإنه هو و«الوجوديين» الفرنسيين الجدد يقومون بالقفزة العقائدية الإيمانية ذاتها التي ادانها علانية في «أسطورة سيزيف».

وارتضى سارتر من جانبه إصرار كامي على أن يميز نفسه عن سارتر. ونذكر أنه استهل مقاله في «آكسيون» في ديسمبر ١٩٤٤ بوصف فلسفة كامي عن العبث بأنها «متسقة وعميقة» وجديرة بوصف كامي بأنه «كبير جدا بحيث يكون أهلا للدفاع عنها وحده» - وهذه تحية تنازل بالتفضل عليه بها. ثم شرع في الدفاع عن الوجودية ضد نقاده الشيوعيين.

ولكن نجد سارتر في محادثاته مع بوفوار العام ١٩٧٣ ينقض كتاباته الأولى، إذ يؤكد أن «لاشيء مشتركا بين كامي والوجودية». وسبق أن رأينا إنكار كامي للوجودية مع بيان أسباب ذلك. وإن الرابطة العلنية بين سارتر وكامي لم تكن مجرد سوء فهم. وهذا هو ما أثبته في دراسة نقدية مذهلة الكسندر أستروك الذي كان تلميذا سابقا لسارتر، ثم مراسلا لمجلة «كومبا»، ثم عمل بعد ذلك مخرجا سينمائيا. وقد كتب أستروك دراسته هذه في مجلة «أكسيون» الشيوعية الأسبوعية في أكتوبر ١٩٤٤. كان أستروك مفتونا بفكر سارتر، وقدم توضيحا يفسر مسرحية كامي «سوء الفهم» بالإشارة إلى أفكار مشتركة بين كامي وسارتر. إذ يعود بطل المسرحية إلى الوطن بعد سنوات طويلة، وهو هنا يشبه إلى حد ما أورست في مسرحية «الذباب» ولكن إلى أم وأخت تسرقان ضيوفهما وتقتلانهم. ويأمل في أن يتعرفا عليه وبذا يتحدد قدره. ونظرا لأن «الوجود عبث والرجل غريب» فإنه يجيب بالسلب على أمله السلبي، وتتعامل معه الأم والأخت باعتباره غريبا ثريا وتقتلانه شأن الآخرين جميعا. وهنا فقط تكتشفان حقيقة أمره. بيد أن هذا خطأ بشري وليس

تجليا للقدر. ونلحظ ثانية أن هذه المأساة «التراجيديا» مثل مسرحية «الذباب»، وعلى عكس أعمال جيرودو وأنوي وكوكتو لا تصور «سحق القدر للإنسان بل تأكيد الحرية الإنسانية في الصراع مع نفسها». وهنا نجد دراسة أستروك، شأن محاضرة سارتر الأمريكية بعد أشهر قليلة، تعقد شبها بين سارتر وكامي لسبب بسيط: أنهما متماثلان.

* * *

تمثل الكتابة السياسية في فترة ما بعد الحرب أحد الاهتمامات الرئيسية عند كل من سارتر وكامي. كتب كامي ما لا يقل عن ١٢٠ موضوعا صحافيا تحت عنوان «كلمة المحرر» خلال العام الأول بعد التحرير. ونراه كصحافي نادرا ما قدم أو دعم اقتراحات منهجية بعينها وإنما تناول في الغالب الأعم قضايا وأفكارا عامة مثل العدالة والحق والنظام والأخلاق والسخرية والطهر والكبرياء. ومع هذا فإن الشعار الثوري الذي تحمله صحيفة «كومبا» كعنوان على صفحتها الأولى، والتزامها العام بالتحول الديموقراطي الاشتراكي في فرنسا يدعمان إحداث تغيير محدود يتمثل في «إضافة لغة الأخلاق إلى الممارسة السياسية». وحقق كامي هذا من خلال مقالات قصيرة تتركز حول موضوع المعنى. وغالبا ما كانت مقالاته هذه ردا على كلمات المحرر في صحف أخرى أو ردا على بيانات عامة أصدرتها شخصيات سياسية.

وفي ٨ سبتمبر ١٩٤٤ صاغ كامي بعبارات شديدة العمومية «المشكلة التي تواجه أوروبا اليوم»: التوفيق بين الحرية الفردية والمطالب الجمعية - أي الملاءمة بين الحرية والعدالة على نحو يمكن به أن تكون الحياة «حرة بالنسبة إلى الفرد، لكنها عادلة بالنسبة إلى الجميع». واعتاد كامي دائما الاعتراف بالصعوبات العملية في سبيل تحقيق مثل هذه الأهداف. ولكن كان هدفه دائما طرحها أمام القارئ باعتبارها حجر الزاوية في السلوك السياسي. وعمد إلى ابتكار واستخدام بوصلة أخلاقية تكون عماد أي أحكام سياسية.

والجدير ذكره أن كامي حين فكر مليا في قذف هيروشيما بالقنبلة الذرية في أغسطس ١٩٤٥، أصر على أن «الحضارة التقانية بلغت أعلى مستويات البربرية». وكتب كلمة باسم المحرر بالغة القوة والعنف أكد فيها أن على الحضارة أن تختار بين الانتحار الجمعي واستخدام فتوحاتها العلمية بعقل وحكمة. وأكد أن ليس من اللائق أبدا أن ننضم إلى فريق الغناء «الكورس» الذي يحتفي بمثل

هذا الاكتشاف. ومن ثم فإن إقامة مجتمع دولي حقيقي من دول أكفاء هو الحل الوحيد وأن النضال الوحيد الجدير بأن نلتزم به «هو النضال من أجل السلم». وحري بنا هنا أن نقارن بين كلمة كامي هذه وكلمة عضو من أعضاء الكورس في صحيفة «لومانيتيه» الشيوعية والتي عالج فيها قضية هيروشيما. إذ إن هذا العضو لم يذكر سوى كلمات قليلة عن الدمار الذي لحق بمدينة هيروشيما بسبب القنبلة الذرية؛ بينما أسهب وأفاض في الحديث عن «أهم اكتشاف علمي عرفه القرن». وهكذا نجد أن كامي يؤكد وبقوة على المبادئ الأخلاقية على عكس احتفاء الحزب الشيوعي بالتقدم التكنولوجي.

ولم يحدث سوى مرة واحدة فقط أن التزم «كتابة تقرير بسيط عن معلومات واقعية» وذلك حين ناقش قضية الجزائر. وكتب في ربيع ١٩٤٥ سلسلة من المقالات عقب زيارة امتدت ثلاثة أسابيع لمسقط رأسه. وجاءت هذه الزيارة حوالي فترة مذبحة بلدة سيتيف للمستوطنين الفرنسيين على الساحل الجزائري (٨ مايو) وعمليات القمع التالية لها. ووصف كامي الوضع الاقتصادي والسياسي الذي وراء هذا الانفجار. وناقش المجاعة واسعة النطاق والحاجة إلى مساعدات شاملة من فرنسا. وعرض أيضا مظاهر عدم المساواة في أنصبة المساعدات الغذائية للفرنسيين والعرب، علاوة على عدم المساواة في ما يتلقونه عمليا من هذه المساعدات. واستطلع بعد ذلك الموقف السياسي مع عرض تفسير يتضمن قدرا من التعاطف يبين لماذا العرب الجزائريون لم يعودوا راغبين في سياسة الاستيعاب (وهي السياسة الرسمية لفرنسا)، وأعرب عن مساندته جماعة أصدقاء البيان الذين يطالبون في بيانهم بالمواطنة والسلطة المتكافئة للعرب الجزائريين أسوة بالفرنسيين الجزائريين في جمهورية داخل فرنسا الدولة الأشمل. وقال: «إنه لغباء مطلق» أن تأتي الاستجابة لهذه المطالب في صورة قمع وسجون. وختم كامي كلمته بمطلب غامض عن العدالة يهدف إلى منح الجزائر حقيقة الديموقراطية وواقعها وليس الخطاب الديموقراطي.

وقد ينتقد البعض كامي لأنه لم يذكر شيئا عن التفاوت المروع بين ضحايا الانتفاضة من الفرنسيين والمسلمين التي وقعت عقب الاحتفال بنهاية الحرب في أوروبا: إذ مات في أحداث الشغب هذه ١٠٢ فرنسي وعشرات أمثال هذا العدد ـ على الأقل ـ من العرب، ولم يتطرق إلى القهر الفرنسي المنظم للعرب في كل

مجال من مجالات الحياة الجزائرية، ولم يوضح بجلاء ما يعنيه بالمساواة بين العرب والأوروبيين أو بالدعوة إلى جزائر ديموقراطية. بيد أن منظوره الفكري الذي تحدث منه كان جديدا تماما في وسائط الإعلام الفرنسية الرئيسية آنذاك، خاصة إذ ما قارنا بين كامي ومقالات صحيفة «لوماتينيه» عن الجزائر خلال الفترة ذاتها. إذ طالبت هذه المقالات باعتقال عملاء هتلر وحكومة فيشي المأجورين «لمائة من الإقطاعيين الفاشيين» لأنهم هم المسؤولون عن الاضطرابات. ووافقت صحيفة «لوماتينيه» على ضرورة إعطاء المسلمين «خبزا لا قنابل». ولكنها لم تقل كلمة واحدة عن النظام الاستعماري. واتجه الموقف الشيوعي إلى إلقاء اللوم على المحرضين من دون الظروف والأوضاع الاستعمارية سواء بالنسبة إلى أحداث مدينة سيتيف أو ما أعقبها. ومن ثم، وفي ضوء كل ما قيل بالفعل آنذاك، نجد أن كامي يمثل صوتا نادرا وشجاعا في مواجهة الحقيقة كما يمثل ـ ضمنا ـ اعترافا بالعرب الجزائريين كأكفاء متساوين.

واتجهت افتتاحيات كامي إلى اتخاذ طابع أخلاقي. مثال ذلك. «عظمة هذا العصر، والتي من دونها يغدو غاية في البؤس، أن خياراته أصبحت نقية خالصة». مثال آخر «لم يبق سوى شيء واحد فقط يمكن تجربته: «التزام طريق الإخلاص والصدق في بساطة وتواضع من دون أوهام، طريق الولاء الحكيم والتماسك لأنه الطريق الوحيد لتعزيز الكرامة الإنسانية». نعم ربما تبدو افتتاحياته ساذجة أو بسيطة أو عقائدية جامدة إذا ما نظرنا إليها بعد مرور نصف قرن. ولكن حسبنا حين نقرأها اليوم أن نضع في الاعتبار موقف كامي التاريخي وغرضه السياسي.

ونلحظ أن مجلة «كومبا» دعت إلى ثورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ. إن المقاومة لم تكن تمثل فقط أقلية، بل إن جناحها اليساري غير الشيوعي كان أقلية داخل أقلية. لقد كان رأس المال المعنوي لأنصارها مهولا غير أن سلطانهم الاجتماعي والسياسي والعسكري كان يتعين اقتسامه مع الديغوليين والشيوعيين، ناهيك عن القوى العسكرية التي بذلت الجهد الأكبر في سبيل تحرير فرنسا ونعني بها الحلفاء. وإن سارتر بإحساس اللا منتمي إلى المقاومة والذي يفضل قليلا على مجرد إحساس رمزي، أدرك عنصرا جوهريا للموقف: إن المقاومة على أهميتها الكبرى ونحن نراها على أرض فرنسا هي مجرد جانب من استراتيجية أشمل لتحرير فرنسا جرى تطويرها أساسا في

لندن. وحسب هذا التصور نرى أن إحساس رجال المقاومة بعد الحرب بأنهم مخدوعون بثمار النضال ـ وهو تحول اجتماعي حقيقي من «المقاومة إلى الثورة» ـ إنما تولد عن وهم يتمثل في الاعتقاد أن الفرنسيين حرروا أنفسهم وأصبحوا سادة مصيرهم بكل معنى الكلمة. لقد كانت فرنسا في واقع الأمر خاضعة لقوى أقوى سلطانه ونفوذا حدّت بقسوة من مساحة المناورة أمامها سواء أثناء التحرير أو خلال السنوات التالية. وحري أن ندرك أن كامي كان صحافيا ماهرا وصوتا صادقا وجديدا يعبر عن نهج جديد في السياسة. بيد أنه كان أيضا صوتا يصرخ في البرية. وإن نقاط الضعف التي شابت افتتاحياته، بما في ذلك ما بدا لنا لغة تنطوي على مبالغة وتضخيم، إنما هي غير منفصلة عن دوره باعتباره رسولا أوحد وحيدا.

ونجد في الوقت نفسه أن أغراض كامي غير المحددة بوضوح علنا هي تعليم الشباب المثقف رفض الواقعية السياسية سواء من اليسار أو اليمين أو الوسط؛ والتصدي للمواقف الساخرة. إنه إذ يؤكد بالدليل والبرهان أن التفكير السياسي ليس في حاجة إلى التخلي عن مجال القيم، فإن افتتاحياته تمثل جهودا جادة في ساحة الصحافة السياسية.

* * *

أول تقرير صحافي سياسي كتبه سارتر كان إلى كامي. وكما سبق أن رأينا زعمت بوفوار أنها كتبت أولى مقالات سارتر التي أرسلها إلى مجلة «كومبا». ونعرف أن المجموعات الثانية والثالثة من المقالات الصحافية التي تحمل اسم سارتر ظهرت في كل من «كومبا» و«لوفيغارو» فيما بين يناير ويونيو ١٩٤٥. ونجد أن المقالات الواحدة والعشرين المخصصة لصحيفة «كومبا» والتي تحمل توجها يساريا واضحا ركزت على ظروف الحياة الأمريكية كما عاشها مراقب فرنسي - الأفكار الاجتماعية والاقتصادية، وهوليوود، والمصانع الأمريكية والعمال - هذا بينما الأحد عشر مقالا المخصصة لصحيفة «لو فيغارو» قدمت قراءات أكثر بهجة وإمتاعا، مما أثار ضيق كامي ولكنها عبرت على سطح الحياة الأمريكية والأساطير الأمريكية.

وفي خريف هذا العام استهل سارتر صحيفة «الأزمنة الحديثة» بنداء للالتزام السياسي. ونلحظ أن هذه البيانات الأولى لمشروعه الفكري والسياسي، وهي صياغة مختلفة لكتابات كامي، لم تكن أقل منها من حيث

الصبغة الأخلاقية كما عكست التوجه الأخلاقي في فكره. وأي شيء غير أخلاقي في تأكيده على العمل والفكرة القائلة إننا إذ نعمل لأنفسنا إنما نعمل للإنسانية جمعاء، وتشديده على الالتزام السياسي للكاتب المرتكز على مسؤولية الفرد، رجلا أو امرأة، عن كل ما يحدث في عالمه التاريخي؟ لقد كانت الأخلاق هي محور فلسفة تؤكد على الحرية والاختيار وتشدد على أننا إذ نختار نبدع قيمنا الخاصة.

وطبيعي أن جميع الخيارات ليست سواء، كما أوضح سارتر في واحدة من كتاباته الأولى الملتزمة حقا، التي تحمل عنوان «صورة المناهض للسامية». وكتبها في أكتوبر ١٩٤٤ ونشرها في «الأزمنة الحديثة» في أواخر العام ١٩٤٥، وكانت مسودة أولية لكتاب نشره العام ١٩٤٦. والجدير ذكره أن هذا المقال، وهو واحدة من أولى المناقشات لقضية معاداة السامية، التي تصدت لعمليات كشفت عما يجري داخل معسكرات الإبادة، وحللت بدقة نقدية الرواية الاستكشافية إلى سوء قصد من جانب شخص يعمد إلى توجيه نداء لمعاداة السامية. ووصف في المقال اختيار الشر باعتباره قرارا بإعادة الآخرين إلى أشياء وامتلاك حقوق عليهم. وإن هذا القرار نابع من إنكار المرء أساسا لمشروطية وجوده. وسبق لسارتر أن أعرب عن هذا التوجه في بعض من أعماله الروائية في الثلاثينيات: اختيار الفتى لوسيان فلوريير ليصبح فاشيا في «طفولة زعيم»، إذ حاولا إخضاع رعاياهما والزعم بأن لهما حق الحكم والتحكم فيهم. ونجد في الرواية نفسها الكتبي الكورسيكي الذي يعاني من حالة فوبيا مثلية وعنف تسلطي. ونجد في مناقشة قوامها بشكل مباشر تفسير العلاقات بين الذات والآخر في «الوجود والعدم»، إذ يحاول سارتر الكشف عن الجذر الأنطولوجي للقمع. ويشبه في هذا كثيرا كامي وما حاوله في الحديث عن انحراف الثورات عن مسارها في رواية «المتمرد»، وإذا كان سارتر عمد إلى تطوير أساس أخلاقي للتدخل السياسي فإن هذا يضاف إلى تأكيده على الاختيار والموقف والتاريخية والمسؤولية وكذا تصوره لوضع جمعي بين أكفاء. وكان بهذا يختبر قوة فلسفته باعتبارها إطارا تأويليّا للقضايا الاجتماعية المعاصرة. وقال إن معاداة السامية «لا يمكن أن توجد في مجتمع لا طبقي». «إذ لا مكان لها حيث يشعر الناس بأواصر التضامن المتبادلة فيما بينهم وحيث هم جميعا مرتبطون بمشروع واحد».

وانعقدت مناقشة بعد أيام قلائل من صدور كتاب سارتر «الوجودية فلسفة إنسانية» واستخدم بيير نافيل وهو فيلسوف ماركسي ولم يكن شيوعيا، في هذه المناقشة مصطلح «ما قبل الالتزام» بالإشارة إلى فلسفة سارتر. وكان كامي كما سبق أن رأينا، قد أصبح بحلول العام ١٩٤٥ سياسيا ملتزما وناشطا على نحو لا يمكن لسارتر أن يجاريه إلا بالكلام. ويفيد نداء سارتر من أجل الالتزام أنه بصدد الانتقال إلى السياسة غير أن غالبية بياناته كانت ولا تزال نظرية مجردة باستثناء مناقشاته التي تناولت الولايات المتحدة. وتضمنت مداخلاته السياسية محاولة جاهدة لتجاوز عتبة رئيسية، وهي محاولة استمر في تناولها والتعبير عنها في مسرحياته حتى العام ١٩٥٤. والجدير ذكره أن أهم بيان لافت للأنظار آنذاك هو إعلانه المدوي من أجل الالتزام الذي يمثل نوعا من المدخل إلى السياسة. وسوف تأتي السياسة تالية.

وبعد أن أصبح سارتر أكثر اندماجا في السياسة تجمعت طاقات كامي للتطور السياسي لتتخذ اتجاها موازيا، وإن مضى أحيانا في مسار مناقض لمسار سارتر. ونحن لكي نقوّم هذا التطور يتعين علينا التحول إلى تفاعل كل من كامي وسارتر مع الحضور الرئيسي، الذي أغفلناه من قصتنا حتى الآن، ونعني به الشيوعية سواء لدى الاتحاد السوفييتي أو الحزب الشيوعي الفرنسي. لقد كانت اتجاهات الاثنين جزءا من ثورتهما السياسية: ذلك أن كل الجهود الفكرية السياسية التي بذلها سارتر وكامي خلال الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة استهدفت تعزيز اليسار غير الشيوعي. وكان رفضهما المشترك «للواقعية السياسية» جزءا من رفضهما للنظرة الشيوعية. إذ رأى كلاهما أن الحزب الشيوعي الفرنسي ربما يشكل خطرا أكبر. وأصبحت الشيوعية عدو كامي ومبدأ يلتزم به سارتر.

٩

نقطة التحول عند كامي

ذات مساء، في منتصف شهر نوفمبر ١٩٤٦، أقام بوريس وميشيل فيان حفلا حضره كامي، الذي ظهر في حالة مزاجية سيئة عند الساعة الحادية عشرة، وتحكي بوفوار القصة بعد فترة زمنية طويلة، فتقول:

«هاجم (كامي) ميرلو ـ بونتي على موضوع مقال له بعنوان «اليوجي والبروليتاري». واتهمه كامي بتبرير المحاكمات التي تعقدها موسكو، وأبدى فزعه لاحتمال اتهام المعارضة بالخيانة. ودافع ميرلو ـ بونتي عن نفسه، وأيده سارتر. وإذ أحس كامي بالجزع الشديد لهزيمته، غادر الحفل وصفق الباب خلفه. واندفع سارتر وبوريس إلى الخارج وركضا وراءه طويلا في الشارع حتى لحقا به، لكنه رفض العودة. واستمرت هذه المشادة حتى مارس ١٩٤٧».

ـ أما زلت ماركسيا الآن؟
ـ نعم.
ـ إذن ستكون قاتلا.
ـ كنت كذلك بالفعل من قبل.
ـ وأنا أيضا. وأريد أن أكف عن هذا.

حوار مع تارمن
مذكرات كامي

لماذا الانفجار؟ استثمرت بوفوار صلتها الوثيقة السابقة بكامي لكي تصوغ حالته المزاجية السيئة في عبارات شخصية خالصة، مؤكدة أنه كان «يمر بأزمة نتيجة شعوره بأن عصره الذهبي يوشك على الأفول». ويعود تاريخ ذكرياتها هذه إلى العام ١٩٦٣ بعد وفاة كامي. ولكنها إذ تحكي هذه القصة التي تعود إلى العام ١٩٤٦ نراها تضيف اقتباسا من رسالة لسارتر في العام ١٩٥٢ بعنوان «عزيزي كامي». وهذه هي الرسالة التي أعلنت القطيعة التي أصابت صداقتهما. واقتبست كذلك عبارة وردت على لسان كلامينس: الشخصية الرئيسية الراوية في وصفه لنفسه في رواية كامي «السقوط»، والمنشورة العام ١٩٥٦. وعرضت كامي في أسوأ صورة ممكنة:

> «كنا معه ذات مرة في حفل موسيقي يشهده أي إنسان في باريس. كان في صحبة مغنية شابة هو معني بها. وقال لسارتر: «أفكر في الوقت الذي أقحمها فيه على هذا الجمهور غدا. ولوح بيديه فوق القاعة في تشامخ. وكتب سارتر، بناء على طلبه، الكلمات الأولى لأغنية «الجحيم طابعي الآن». كان هذا ما جرى وقتها».

هذه المغنية الشابة هي جولييت غريكو. ولنا أن ندرك هنا الانحياز الكامل في رواية بوفوار، حيث تعمدت الصمت أيضا عن السبب الرئيسي لغضب كامي من ميرلو ـ بونتي. والجدير ذكره أنها أغفلت أمرين رئيسيين في روايتها التي تذكر فيها أن ميرلو ـ بونتي انتقد آرثر كويستلر لمقاله المناهض للشيوعية «الظلام وقت الظهيرة» و«اليوجي والمسؤول الحزبي»، المنشورين في مجلة «الأزمنة الحديثة»، إذ كان كامي قد أصبح لتوه وثيق الصلة سياسيا وشخصيا بالكاتب كويستلر. وكان كامي مشغولا باستكمال مشروع كبير لتجديد فكره السياسي في سلسلة من المقالات التي تحمل عنوانا شاملا «لا ضحايا ولا جلادين». ونشر السلسلة في صحيفة «كومبا» ابتداء من ١٩ نوفمبر، وحتى ٣٠ منه.

ومهما كان كامي ملتزما بمبادئه الأخلاقية، فإن هذا الخلاف كان أولا وأساسا خلافا سياسيا. نعرف أن ميرلو ـ بونتي المحرر السياسي لمجلة «الأزمنة الحديثة»، وسارتر الموجه الأول والراعي السياسي للمجلة، فسّرا محاكمات موسكو على أنها نوع من الدفاع عن النفس لأسباب مفهومة لثورة

محاصرة. وساوى كامي بين الشيوعية والقاتل. وقدم ميرلو ـ بونتي فهما ماركسيا مستقلا، وإن كان متعاطفا مع العنف السوفييتي. ورفض كامي الماركسية والثورة. وكان ميرلو ـ بونتي لا يزال يعتبر القادة الشيوعيين رفاقا محتملين، بينما أصبح كامي يراهم أعداء. ومن ثم فإن بوفوار إذ تغفل أن كامي على أهبة تقديم نقد مهم للشيوعية من داخل عالمهم الفكري اليساري المشترك، إنما تعمد إلى أن تُتفّه من أمر الخلاف. ولذلك فإنها إذ تعود لتنظر إلى الموضوع بعد مرور عقد ونصف من الزمان، نراها أغفلت العملية العسيرة على النفس التي يمر بها، وأنكرت عليه كلا من الذكاء السياسي والشجاعة في أحكامه واقتناعاته. وعمدت إلى البحث عن بذور للشقاق بطريقة تلقي اللوم على كامي، ولهذا حكت القصة من نهايتها إلى بدايتها.

ونلحظ أن القصة لا تتضمن فقط الصداقة بين كامي وسارتر، والتي استمرت إلى ما بعد ست سنوات أخرى، ولكنها تضمنت أيضا إشارة إلى تفاعلات كل من الطرفين مع الشيوعية. إن التطور السياسي والفكري والشخصي لكل من كامي وسارتر غير منفصل عن علاقة كل منهما الشخصية والمتشابكة أحيانا مع الحزب الشيوعي الفرنسي والاتحاد السوفييتي.

ويعود هذا الجزء من قصتنا إلى مطلع الثلاثينيات. وتبدأ مع كامي منذ ١٩٣٥ وحتى نهاية ١٩٤٦، حيث وصل إلى نتيجة درامية ومعلنة عن الشيوعية. وطبيعي أن هذه النتيجة حفزت انفجاره ضد ميرلو ـ بونتي وأوغرت صدره ضد سارتر. وإن أي دراسة فاحصة لعلاقة الاثنين وتفاعلهما مع الشيوعية تكشف لنا لماذا كامي، وليس سارتر، تحول ليعتبر الشيوعية العدو الأول للإنسانية عشية الحرب الباردة، ولماذا انحاز سارتر أخيرا إلى الشيوعية ضد الغرب الرأسمالي.

* * *

نعرف أنه بينما كانت المقاومة في أوجها تحلى الحزب الشيوعي الفرنسي في عمله بالشجاعة والانضباط والقوة النضالية، بحيث أصبح مع التحرير أكبر الأحزاب الفرنسية، ويضم قرابة ٤٠٠ ألف عضو. وتضاعفت العضوية بحلول العام ١٩٤٦. واعتاد الحزب الفوز بربع أصوات المقترعين في انتخابات ما بعد الحرب، وشارك في الحكومة الائتلافية حتى منتصف العام ١٩٧٤. وهيمن على أكبر نقابات البلاد، وصدرت عنه عشرات الصحف والمجلات

(من بينها أكبر صحيفتين في فرنسا)، وشكّل الكثير من التنظيمات. ويدفع رواتب شهرية لأكثر من ١٤ ألف شخص. وغرس كوادره في كل مراكز الحكم، بما في ذلك النظام التعليمي وجهاز التأمينات الاجتماعية والشرطة. وأعلن الحزب الشيوعي الفرنسي باعتباره حزبا علنيا عقائديا عقب الأسابيع الأولى من التحرير التي سادتها الفوضى، أن هدفه الأول الانضمام إلى الحكومة، باعتباره حزب الطبقة العاملة.

وقيل عادة إن الحزب الشيوعي الفرنسي ليس كمثل الأحزاب الأخرى. ويمثل أعضاؤه نظريا كهنوتا ثوريا وكوادر ملتزمة ومنضبطة، وهم في هذا يختلفون عن المؤيدين للأحزاب الأخرى، إذ إنهم أكثر تحررا من ضوابط وقيود الانضباط. واعتاد أعضاؤه التسليم بأيديولوجيا شمولية، والخضوع لقرارات تسلطية. ويؤلفون بشكل جمعي مجتمعا مناهضا من ألفه إلى يائه، يعمل على الوفاء بحاجات أعضائه في الوقت الراهن، بينما يتطلع إلى مجتمع لا طبقي في المستقبل. وأصبحت دعواه، بأنه ممثل الطبقة العاملة الصناعية، مقبولة على نطاق واسع. هذا بينما الحزب المنافس له، وهو الحزب الاشتراكي ـ القطاع الفرنسي من الأممية الدولية للعمال ـ تبنى الدعوة إلى الديموقراطية البرلمانية في العام ١٩٢١، والتزم منذ ذاك التاريخ بألا يعمل باسم أيديولوجيا واحدة محكمة، ولا باسم الطبقة العاملة الصناعية. هذا بينما نجد في المقابل الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي ظهر إلى العلن في أغسطس بعد أن كان حزبا سريا، كان حزبا يغلب عليه الطابع البروليتاري، ويلتزم بالماركسية في نضاله. وبينما ارتضى الطريق الديموقراطي وصولا إلى الاشتراكية، اعتبر النشاط الانتخابي مجرد مضمار نضالي واحد فقط ضمن مسيرة حرب لا تقبل المساومة أو الحلول الوسط.

وتمثل ماركسية الحزب الشيوعي الفرنسي في وقت واحد سياسة وثقافة جماهيريتين وعلما وفلسفة وثقافة جمالية ـ أي تجيب عن كل الأسئلة، وتكافح على كل الساحات، وتنشط لتجنيد العمال والفلاحين وأصحاب المحال التجارية والمعلمين والفنانين والكتاب وعلماء الطبيعة والدراسات الاجتماعية والفلسفة. وتدخل جميع قضايا الفكر داخل نطاق اهتمامه، لذا كانت لدى الحزب، أو يتعين أن تكون لديه، إجابة عن كل شيء. ولهذا نجد أن القسط الأكبر من ماركسية الحزب الشيوعي الفرنسي قد «تروتن»، أي تحول إلى

روتين، مع جمود عقائدي، ويمثل عقيدة يتحدث بها أنصاف المتعلمين المتنطعين، بيد أن هذا لا ينفي أن الشيوعية اجتذبت أيضا عقولا نابهة متألقة عنيت بالبحث عن رؤى عالمية مقنعة ومشرقة بالأمل.

ولم يكن الانحياز الأول للحزب الشيوعي الفرنسي إلى العمال وحدهم، بل كان منحازا أيضا إلى الاتحاد السوفييتي، المجتمع الاشتراكي الثوري الناجح الوحيد. وكان واضحا أن الاتحاد السوفييتي يهيمن على القسط الأكبر من الأسلوب الأيديولوجي والتنظيمي للحزب الشيوعي الفرنسي، وهو الذي يملي قرارات الحزب السياسية الرئيسية. وواجه الحزب اختيارا حاسما في سبتمبر ١٩٣٩، واختار غالبية قادة الحزب الشيوعي الفرنسي الاتحاد السوفييتي، وآثروا موقف الحياد في حرب فرنسا مع الألمان. واعتبرت السلطات الحزب الشيوعي الفرنسي حزبا غير شرعي. وبينما كانت الحرب في حالة جمود ولا معارك تحدد الفائز والخاسر، قال البعض إن الحكومة الفرنسية شنت ضد الحزب الشيوعي الفرنسي حربا شعواء أشد قوة وجرأة من حربها ضد الألمان. وخرج عن خط الحزب بعض الأفراد الشيوعيين للانخراط في صفوف المقاومة في صورة جماعات صغيرة. ولكن ما أن هوجم الاتحاد السوفييتي حتى انطلقت ثورية الحزب الشيوعي الفرنسي من عقالها، وأصبحت هي قلب وروح المقاومة وأمضاها سلاحا. وأصبحت مساندة مصالح السوفييت تعني الآن الكفاح دفاعا عن فرنسا.

وجلب الحزب الشيوعي الفرنسي عبادة ستالين إلى أرض الوطن. وواقع الحال أنها ضاعفت من عبادة سكرتيره العام موريس توريز. واعتاد قادة الحزب أن يستهلوا الحديث بعبارة «قال لنا الرفاق...» لكي يدلوا بآخر توجيهات من موسكو لاجتماعات اللجنة المركزية للحزب. وأصبح المعيار الأوحد والأهم للقضية الشيوعية هو بقاء ورخاء الاتحاد السوفييتي. وبذل ستالين كل ما يستطيع لضمان أن الأحزاب القومية محكومة وفقا لنظام يكفل الانضباط والثقة، فضلا عن الولاء والطاعة بوجه خاص. وابتدع الحزب نموذجه المثالي الخاص به، والذي جسده سارتر في تصويره لشخصية برونيت في ثلاثية «الطريق إلى الحرية». وهذا هو المناضل الذي أخضع ذاتيته لحساب قضية عالمية وتاريخية، وهو القادر على تبرير كل حركة أو انحراف في خط الحزب، حتى وإن كان ردة إلى الأمس.

ومع التحرير، كان الجيش الأحمر قد هزم النازية في الشرق، وتهيّأ لتحرير واحتلال شرق أوروبا فورا. واكتشف الكثيرون ممن استشاطوا غضبا لتحالف ستالين مع هتلر التفوق المادي والمعنوي للشيوعية السوفييتية. وانتصرت قضية معاداة الفاشية التي أثيرت في الثلاثينيات. وبدا أن الحزب الشيوعي الفرنسي المتحالف مع أمة قوية مظفرة وجيشها على بعد مائتي ميل الآن ينعم بعصره الذهبي بين التحرير ومنتصف العام ١٩٤٧.

وتحول الاتحاد السوفييتي إلى دكتاتورية، دكتاتورية حزب أول الأمر، ثم دكتاتورية القيادة، وأخيرا دكتاتورية رجل واحد. وأصبح في غالبية القسمات المميزة له وثيق الشبه بألمانيا النازية. وصيغت كلمة الشمولية لوصف مثل هذه الظاهرة المميزة للقرن العشرين. استأصل ستالين غيره من القادة الأصليين للثورة البلشفية، وفرض قسرا النظام الفوضوي والدموي للمزارع الجماعية الذي أفضى إلى مجاعة وموت الملايين من الفلاحين. ثم أطلق العنان للإرهاب المروع ضد بقية المجتمع السوفييتي في موجات متلاحقة الواحدة تلو الأخرى، والذي بلغ الذروة في محاكمات موسكو، حيث نجد من بقي على قيد الحياة من ضحاياها من القادة الثوريين أمثال بوخارين يعترفون بطريقة مذلة بغالبية الجرائم التي لا يصدقها عقل. وأعدم النظام الحاكم مئات الآلاف في نوبة تشنجية مفاجئة، ومن بينهم غالبية كبار القادة العسكريين. ونفي من بقي على قيد الحياة من قدامى البلاشفة وملايين غيرهم إلى معسكرات العمل النائية. ومن ثم، فإن القول بأن هذا المجتمع حقق «الاشتراكية»، كما اعتاد أن يؤكد ستالين بعد العام ١٩٤٣، إما أن يكون جنونا، أو قولا مثيرا لأقصى درجات السخرية التي عرفها القرن العشرون.

كل هذا كان ذائعا ومعروفا على نطاق واسع، ولنذكر مثالا واحدا: بدأ أندريه جيد يساند ـ بنشاط ـ الشيوعية في العام ١٩٣٢، وأصدر في العام ١٩٣٦ «عائد من الاتحاد السوفييتي»، وأعرب في كتابه هذا عن خيبة أمله لما رآه في جولة امتدت عشرة أسابيع. واعترف بالجهد المبذول لإقامة حضارة جديدة، لكنه شدد على ما فيها من تماثل وتطابق وهو ما يتجسد في عبادة ستالين وقمع المعارضة. «وإني أشك أن أجد في أي بلد آخر في العالم، بما في ذلك ألمانيا الهتلرية، معاناة العقل والروح من سلب للحرية أكثر من ذلك،

أو ركوعا وخضوعا وخوفا بدافع من الإرهاب والروع، أو تبعية». وسرعان ما بيع من هذا الكتيب مائة ألف نسخة أكثر من مبيعات أي من كتب جيد الأخرى، وترجم إلى خمس عشرة لغة.

وتمثل الترجمة الفرنسية لكتاب كويستلر «ظلام في الظهيرة»، بعد عشر سنوات، حدثا لا يقل إثارة عما سبق. إذ أعاد كويستلر إلى الذاكرة مدونة محاكمة بوخارين. وكشف عن أن روباشوف لا يزال أسير قبضة العقلية الشمولية للماركسية، واعترف بجرائم لم تدر في خلده قط. لكنه أقدم على هذا ليمنح الثورة الوقت اللازم حتى يتسنى لها تصنيع وتحديث روسيا، ثم الأمل في أن تحقق وعود الشيوعية. ويهدف كويستلر هنا إلى بيان فكرة محددة وهي أن روباشوف قبل ـ طواعية ـ التضحية بنفسه فداء لتاريخ ضل السبيل ويراوده أمل يائس في أن يصحح مساره. ويهدف إلى تصوير الآثار الكارثية لعقلية روباشوف الشمولية، سواء على نفسه أو على العالم حوله. ووقع روباشوف أسير غواية الشر الذي يزعم أنه الخير، ولذا رفض الحقيقة، وبهذا دعم اطراد سلسلة الدمار الشيوعي.

والسؤال مع هذه الدعاية الكاشفة للقسمات السلبية هو: كيف تسنى للكثيرين من الشيوعيين والأنصار أن يتغنوا بمديح الشيوعية السوفييتية عقب التحرير؟ إن الاتحاد السوفييتي استطاع خلال حرب مناهضة للشر، وبالتحالف مع الديموقراطيات الرأسمالية تحت علم معاداة الفاشية، أن يهزم الشر المطلق ويتوارى تحت عباءة الديموقراطية. وألا تعتبر هزيمته لأعتى آلية عسكرية في العالم شهادة على إنجازاته الضخمة التي حققها على مدى عشر سنوات من التصنيع والتحديث بوسائل قسرية؟

وتمثلت القسمات السلبية في التكوين القسري للمزارع الجماعية، وما ترتب عليه من المجاعة التي لحقت بالملايين من صغار الفلاحين، وإعدام مليون نسمة رميا بالرصاص للاشتباه في أنهم متآمرون، والاعترافات القسرية في محاكمات موسكو، ونظام معسكرات العمل الذي انتشر على نطاق واسع، والطغيان الشمولي. وكانت هذه قسمات غير مسبوقة ولا يتصورها عقل، حتى كان عسيرا على مؤيدي النظام تبريرها أو تصديق حدوثها. ونعرف أن الماركسية تشجع الفهم الواقعي الذي يدعو المرء إلى عمل الممكن. وطبيعي أنه في عالم يتصف بالعنف والقبح لن يكون التقدم

الإنساني حلوا ومعقولا، خصوصا في أكثر بلدان أوروبا تخلفا. وهل نسينا أن الحرب العالمية الثانية لم تنته إلا بتدمير هيروشيما وناغازاكي بالقنبلة النووية؟

وإنها لمفارقة أن أكدت وحشية الشيوعية الروسية مدى جدية إقامة مجتمع جديد. وليس غريبا أن ميرلو ـ بونتي في مقالاته التي أغضبت كامي وأصبحت بعد ذلك كتابا بعنوان «الإنسانية والإرهاب»، تحدث عن العنف الشيوعي كوسيلة، وربما الوسيلة الوحيدة، للقضاء على عنف الرأسمالية. ووافق على محاكمات موسكو كأسلوب مشروع للنضال السياسي من أجل نظام حكم ثوري يواجه تهديدا، مؤكدا على ضرورة الإرهاب لحماية هذا النظام. وبدا وكأن الأحكام الأخلاقية ومسائل الواقع تذوب وتتلاشى في مواجهة هذا الجدل الوجودي الماركسي المتحذلق. وهكذا جاهد ميرلو ـ بونتي ليوضح المنطق الذي يمكن أن يجعل من بلشفي مخلص مثل بوخارين «موضوعيا» عدوا للثورة.

واتسمت الماركسية بقسمات رئيسية أخرى تدفع أنصارها إلى قبول الستالينية. إن تأكيد الماركسية على سلطان العلم، ودعواها للالتزام بالموضوعية، خلق استعدادا مسبقا لدى كثيرين للإيمان بأن الاتحاد السوفييتي المظفر يمثل تجسيدا أصيلا لذلك في عالم الواقع. وواضح أن الماركسية إذ تحمل اسم مؤسسها إنما تضفي تكريما على سلطة المعرفة الأسمى. وإذا كان لينين هو ثاني الأنبياء الذي سُميت الماركسية باسمه، فلماذا لا نعترف بالعبقري ستالين الذي جمع بين النظرية والتطبيق؟ وحيث إن الماركسية تؤكد الهياكل الاجتماعية الموضوعية، والحاجة إلى تحويلها، بينما أغفلت الذاتية تماما، فإن هذا الموقف قلل من أهمية كيفية تغيير هذه الهياكل. إن الهدف هو الإطاحة بالرأسمالية وتصنيع البلاد بأي وسيلة ممكنة، ثم تأتي بعد ذلك الديموقراطية وغيرها من مظاهر التطور البشري. وهذا هو السبب الذي من أجله أصبح روباشوف في كتاب كويستلر عنصرا رائعا في دعم الشيوعية والتفاني من أجلها. علاوة على هذا فإن البعد الطوباوي للماركسية هيّأ أنصارها لتوقع وتبني تحول الوضع البشري من القمة إلى القاعدة حسبما كان الأمر في الاتحاد السوفييتي. إذ إن التغيير الجزئي قصير المدى يمثل عقبة على طريق التغيير الشامل وهو ما لا يفيد شيئا سوى أن يكون فوضويا، بل وقاسيا.

بيد أن التركيز هنا على الاتحاد السوفييتي يغفل شيئا وثيق الصلة بالوطن. إن روسيا لا تعني أكثر مما تعني فرنسا. إذ رأى سارتر وكثيرون غيره أن الاتحاد السوفييتي يمثل أفقا بعيدا وليس لب الموضوع، وأن الاقتراب أكثر وأكثر من الطبقة العاملة يعني الاقتراب من الحزب الشيوعي الفرنسي. ويرى المثقفون والعمال على السواء أن أكبر حزب في فرنسا ـ أيا كانت انتماءاته في الخارج ومهما كانت الكثير من سماته مروعة ـ لم يكن فقط هو القوة القائدة للمقاومة، بل كان قبل هذا وذاك حزب العمال. وتذكر سارتر فيما بعد أنه أراد أن «يكافح إلى جانب الطبقة العاملة»، وأنه لذلك انجذب إلى الماركسية «كما يجذب القمر حركات المد والجزر».

ويفسر هذا شيئا، وهو أن الشيوعية السوفييتية ساندت العمال الفرنسيين في صراعهم مع الرأسمالية الفرنسية والإمبريالية الفرنسية. ولكن، ألم يكن هؤلاء الذين يهاجمون الشيوعية، شأن هتلر، يسعون لحماية نظام يعني الفقر والبطالة والاستعمار والحرب؟ وتساءل ميرلو ـ بونتي: أليست مناهضة الشيوعية، ونحن في مناخ النضال، سبيلا لتفادي الحديث عن شرور الرأسمالية؟ وحسب هذا الرأي، فإن مؤيدي الطبقة العاملة وأنصار الشيوعية يتسامحون طواعية، بل وينكرون الكثير من قسماتها المروعة معتقدين أنها ضرب من التشهير يختلقه الطرف الآخر.

ولكن ليس الأمر بغير حدود. إذ تكشف قصة جيد عن أن الشيوعية حفزت أرفع الآمال العالمية لدى الملايين من أفضل عقول القرن العشرين. ولكنها تكشف أيضا عن أن الإيمان بالاتحاد السوفييتي ذوى وتضاءل، خاصة بين المفكرين بعد أن أضحت الحقيقة معروفة. ولم يحدث أن خانت أي حركة أخرى آمالها بمثل هذه القسوة. إن الالتزامات التي استهوت المفكرين وجذبتهم إلى الشيوعية عقب الحرب قاومت بعض، وليس كل، ما كان خافيا وبات معروفا: معاداة ستالين للسامية، «الخطاب السري» لخروشوف، الغزو السوفييتي للمجر، وغيرها. ولم تقدم أي حركة أخرى سلسلة من الشهادات الدولية عن «الإله الذي سقط». إن الملايين مروا بالشيوعية لا لشيء سوى لكي تنير لهم الطريق وتحررهم من وهم خاطئ، ثم يطردون ويستقيلون ويحيدون عنها. ولم يمض في فرنسا عقد واحد بعد الثورة البلشفية حتى شهدت مفكرين معروف عنهم حماسهم الشديد سابقا وقد تحولوا عن المسار

وكتبوا سقوط الوهم. ونذكر هنا بيير باسكال، وبوريس سوفارين، اللذين اتخذا هذه الخطوة في العشرينيات، وجيد ومالرو في الثلاثينيات، وأيضا بول نيزان صديق الصبا مع سارتر، والذي اشتهر كمؤلف «عدن»، «الجزيرة العربية»، ومحرر القسم الأجنبي لصحيفة «لومانيتيه» والذي استقال فور سماعه الأخبار عن حلف هتلر ـ ستالين في أغسطس ١٩٣٩.

* * *

وسط هذه الصورة العامة نشأت علاقة كامي وسارتر بالحزب الشيوعي الفرنسي، والتي ارتبطت على نحو وثيق بخبرة وشهادة وتحليل أصدقاء مثل نيزان وآرثر كويستلر وموريس ميرلو ـ بونتي. ويكاد يكون من المستحيل أن نجد في الجزائر في الثلاثينيات شابا يساريا أوروبيا إلا وهو تواق لإحداث تغيير جذري، ومن ثم منجذب للحزب الشيوعي الفرنسي. وأصبح كامي عضوا مثل حال الكثيرين من أصدقائه. ونظرا لأنه كان المنظم للفريق المسرحي، وواحد من أبرز أعضاء الحزب في الجزائر، فقد رفض أسلوب الحزب في الانتقاص من أهمية نقد النزعة الاستعمارية بغية الحفاظ على التحالف مع العمال الأوروبيين المعادين للعرب بشكل حماسي. وعكست خبرته خضوع الشيوعية الفرنسية لمتطلبات الاتحاد السوفييتي المتقلبة ولأساليبه «الغريبة». وحاكم الحزب كامي وطرده من عضويته لأنه «تروتسكي» ـ وهي تهمة تعني أن آراء المرء أكثر نضالية واندفاعا من قيادة الحزب.

وتعبر «أسطورة سيزيف» عن استجابة كامي الباكرة إزاء خبرته مع الحزب الشيوعي الفرنسي. وجدير بالذكر أنه طور فلسفة العبث لديه بعد أن عايش الماركسية والشيوعية. ونعرف أنه خلال الثلاثينيات جابه تأكيد الماركسية على المعنى والتلاحم، لكنه بحلول الأربعينيات قرر أن العالم ليس له معنى، ولا يعرف التلاحم. ونظرا إلى أنه عاش وعمل في ضوء رؤية الشيوعية للتقدم الإنساني، فقد رأى أن جهد سيزيف الذي لا نهاية له ولا جدوى منه هو الصورة الحقيقية المعبرة بصدق عن العالم. وبعد أن عرف وعايش معنى مقولة الحزب عن الترابط الاجتماعي، قرر أن الفرد هو مركز وملتقى الفكر والفعل. ونظرا أيضا لأنه عاش في خضم مزاج بيئة الصراع الطبقي، فقد خلص إلى نتيجة مؤداها أن أكبر سؤال يواجه البشرية هو: هل عليها أن تنتحر أم لا.

تجيب فلسفة العبث عند كامي على دعاوى الماركسية بأن لا شيء من جهودنا في وسعها أن تحسم تراجيديا الموت أو أن تضفي على العالم معنى. ونحن لا نجد أي ذكر صريح ومباشر للماركسية أو الشيوعية في «أسطورة سيزيف»، لكننا نقرأ النقد في كل الصفحات: «العبثية بكل أشكالها في اندفاعها إلى المطلق أو الخالد، جميع هذه الستائر تخفي وراءها العبث». ونجد أن خبرته مع الحزب دخلت من خلال هذا المعنى العميق إلى النص الذي كان لهذا السبب ـ وعلى خلاف نص سارتر «الوجود والعدم» ـ نصا بعد ـ ماركسي، وليس قبل ـ ماركسي. وإذ رفض كامي آمال الماركسية، فإنه بذلك عزف على الوتر الرئيسي لفلسفته: يواصل سيزيف جهوده على الرغم من كل شيء. وأكد كامي الشيوعي السابق «أن الوجود مجردا من الأمل لا يعني اليأس».

وماذا عن سارتر؟ ظلت تجربته مع الحزب لسنوات طويلة تجربة مراقب لا شأن له بالسياسة، أو لا منتم. كان في منتصف الثلاثينيات، شأن نيزان، أخلص أصدقائه منذ مدرسة المعلمين العليا، وأصبح شخصا بارزا في دوائر الحزب الشيوعي الفرنسي في باريس مثلما كان كامي في الجزائر. وقرأ هجوم صديقه على معلميها وعلى الفلسفة البورجوازية بوجه عام في كتاب يحمل عنوان «كلاب الحراسة». وعرف أن نيزان ترك الحرب كرد على قيام حلف هتلر ـ ستالين، وأنه قتل في الجبهة بعد ذلك بفترة قصيرة. وتأمل سارتر التزام نيزان وتحرره من الوهم، وكذا شجب مثقفي الحزب الشيوعي الفرنسي لموقفه. وعرف هنا ما الذي جذب الناس إلى الماركسية، وهو إحساسهم بالانتماء إلى قضية أكبر من ذواتهم علاوة على ما تفرضه هذه القضية من مبادئ. وكان مقدرا أن يصبح نيزان نموذجا للمناضل الشيوعي برونيت في ثلاثية سارتر «دروب الحرية».

وشكل سارتر في العام ١٩٤١ جماعة الاشتراكية والحرية. وحاول الارتباط من خلالها بالحزب الشيوعي الفرنسي دون أن يدرك، على ما يبدو، أن مآلها الفشل في معارضة الاحتلال إلا بعد أن دخل الاتحاد السوفييتي الحرب. إذ إن الأمر لم يقتصر على صد الحزب الشيوعي الفرنسي له، بل إن أعضاء الحزب بدأوا في ترويج قصة تقول إن سارتر سمحت له السلطات بمغادرة المعتقل لأنه عميل ألماني. وبعد حل فريق المقاومة الصغير الذي شكله سارتر،

انضم أكثر أعضاء الفريق جدية إلى الشيوعيين في قضاياهم، وعاد سارتر إلى كتاباته. وبينما كانت المقاومة في أوجها، حرص الحزب على توسيع نطاق نشاطاته وتنظيماته لتشمل كل مناحي الحياة من مثل «اللجنة الوطنية للكتاب»، التي نشرت «لي ليتر فرانسيز». ودُعي الكتاب غير الحزبيين من أمثال سارتر وكامي للانضمام إلى اللجنة الوطنية للكتاب وللمساهمة في صحيفة «لي ليتر فرانسيز».

وحوالي هذا الوقت نفسه، ووفقا لرواية زميل كاتب ومناضل يدعى جان ليسكيور، ظهر منشور يدين الكتاب «الوجوديين»، الذين زعموا أنهم شاركوا في المقاومة. وحدد المنشور أسماء سارتر وكامي وليسكيور وكاتب آخر، وأثار الشكوك في شأن مصداقية انخراطهم في المقاومة. ويبدو ظاهريا أن هذا النص «الغريب» من عمل شخص شيوعي يدعى جان مارسيناك، الذي يضمر نية خبيثة لشجب مواقف الكتاب المذكورة أسماؤهم أمام الألمان.

ترى هل يرى مثقفو الحزب الشيوعي الفرنسي في كامي وسارتر منافسين محتملين مستقبلا، حتى على الرغم من أن رفاقة المقاومة كانت في ذروتها؟ نعرف أن كامي تحدى في صحيفة «كومبا» حزب المعدمين رميا بالرصاص فور التحرير. وكان شعار «كومبا» «من المقاومة إلى الثورة»، ودعوتها إلى تغيير اجتماعي راديكالي. وتختلف في هذا اختلافا حادا عن الدعوة الوطنية للشيوعيين من أجل زيادة الإنتاج لمصلحة المجهود الحربي. وزعم كامي في افتتاحياته أن المقاومة لم تبذل هذه التضحية على مدى تلك السنوات لكي تعيد فقط السياسيين أنفسهم، والجمهورية الفاسدة نفسها، والطبقة الحاكمة الوضيعة ذاتها. ودعا إلى «اقتصاد جماعي يجرد أصحاب الامتيازات المالية». وسعى الحزب الشيوعي الفرنسي إلى إحياء الجبهة الشعبية للثلاثينيات على أن تكون هي نفسها القوة القائدة. ونظرا إلى أن الحرب لم تنته بعد، فقد شدد على توجيه كل طاقات الأمة لتدمير ألمانيا النازية التي تحارب على جبهتين ـ ضد الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية وكذا الجيش السوفييتي. واتخذ كامي موقفا مغايرا لموقف الحزب الشيوعي الفرنسي، وأعلن أنه يتعين على فرنسا «إشعال ثورة في الوقت الذي تخوض فيه الحرب». وعلى الرغم من تعاطف كامي مع العمال، فإنه يؤكد على الفرد على نحو بعيد كل البعد عن المعنى الذي تقصده الماركسية من الطبقة الاجتماعية.

ودعا إلى «اشتراكية ليبرالية جديدة» ضاربة بجذورها في المقاومة ومتمايزة عن الماركسية. لكنه أكد أيضا على الحاجة إلى تيارات سياسية مختلفة لكي تكشف عن اختلافاتها بأسلوب منفتح وقابل للتعديل.

ولوحظ بعد التحرير أن المحررين الذين ينتقدون أشخاصا آخرين أو تنظيمات أخرى تجنبوا في غالب الأحيان ذكر الأسماء. إذ أدى تضامن المقاومة إلى التزام أسلوب مهذب في الحوار، وأن تكون خطوط المعارضة مفتوحة وليست نهائية قاطعة. وكان كامي قد تجاوز كثيرا الكاتب الشاب القديم والمدير الهاوي الذي أجبره الحزب على المثول أمام محكمة الحزب في الجزائر. وها هو الآن يتعامل مع الشيوعيين ندا لهم ورئيس تحرير للمقاومة المفعم ثقة بنفسه، ولديه حس واضح بمبادئه السياسية. وفي أكتوبر ١٩٤٤ قدم مداخلة في مناقشة محورها مقال منشور في مجلة «أكسيون»، انتقد صديقه جان جويهنو لتأكيده على «الطهارة». وأجاب عليه بيير هيرفي، دون ذكر أسماء، باحتقار «للشباب أتراك البورجوازية الذين خرجوا من المقاومة والطموح يملأ نفوسهم. وسموا أنفسهم اشتراكيين مادامت الاشتراكية هي صرعة العصر، ورأوا أنفسهم وكأنهم 'قديسون أطهار'، وادعوا أنهم يتحدثون بروح المقاومة. ونظرا إلى أنهم ملّوا الماركسية وأصبحوا عازفين عن التحدث إلى البروليتاريا فقد اعتادوا أن يقضوا الليالي مع 'العالم الرسمي للأفكار' يتحدثون عن الحرية من دون فهم لمعنى الحرية بالنسبة إلى العامل العاطل».

وحرص كامي على أن يميز حركة «كومبا» عن الحزب الشيوعي الفرنسي من حيث الالتزام بالاشتراكية وحقوق الفرد والعدالة والحرية، لكنه مع هذا انتقد الشيوعيين لاعتقادهم أنهم وحدهم حصرا يملكون الحق، ولرفضهم مناقشة أفكارهم صراحة وعلانية ومن دون التزام عقائدي جامد. ومع هذا، رفض كامي معاداة الشيوعية باعتبارها «بداية الطغيان». وعلى الرغم من مواصلته الحديث إلى الشيوعيين، توارى إحساس المقاومة بالوحدة مع تراجع الحرب. وفي ديسمبر أول ١٩٤٤ حذر كامي من أن المقاومة تواجه خطر النظر إليها باعتبارها مجرد فصيل سياسي آخر بدلا من أن تبقى تعبيرا عن توافق آراء فرنسا.

وفي هذا الوقت نفسه كان القراء الشيوعيون وأنصارهم وكذا منشوراتهم لا يزالون يجابهون كامي وسارتر، ويذكرونهما معا متلازمين، باعتبارهما كتاب أصحاب طراز جديد في مجال الرواية والمسرح والفلسفة. ومن عجب أن

المحررين الشيوعيين دبجوا أحيانا مقالات غير ماركسية ـ مثال ذلك مقالات كتبها في مجلة «أكسيون» ألكسندر أستروك أحد طلاب سارتر السابقين. ووصف أستروك رواية «الغريب» بأنها أفضل رواية صدرت إبان الاحتلال. وكتب أستروك مقالا عن سانت أكزوبري، ووصف فيه تحول الكاتب من العبث إلى الأمل بأنه يوازي تحول كامي وسارتر، إذ إن كتاباتهم تحكمها خاصية التنافر الجوهرية التي تكشف عن أن العالم محصور في زاوية الكابوس والعبث. لقد فتح الكتاب الثلاثة نافذة على «الأخلاق، أي القيم» التي أصبحت موضوع العصر الحاسم والمحوري.

والجدير ذكره أن مجلة «لو ليتر فرانسيز» فتحت صفحاتها لسارتر، وهي المجلة التي يديرها أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي ضمن تحالف واسع مع آخرين. وساهم كل من سارتر وكامي في الكتابة سرا في أثناء الاحتلال. ولم تكتف المجلة خلال الأشهر الثلاثة الأولى من ظهورها العلني بنشر «جمهورية الصمت»، أو تقديم عرض مسهب شديد الذكاء لمسرحية «لا مفر»، بل عرضت الفصل الأول من رواية سارتر التي لم تصدر بعد والتي تحمل عنوان «إرجاء الحكم». وعرضت المجلة في أول ديسمبر إجابة سارتر في مكان مميز بين عدد من الأحاديث واللقاءات الأخرى بشأن قراءات نزلاء السجون وقت الحرب.

ونلحظ خلال الأشهر الأولى عقب التحرير أن انتقادات الحزب وإجابات سارتر وكامي شكلت حوارا متبادلا أصيلا، مثلما هي الحال في افتتاحيات كامي، ونشرت مجلة «لو ليتر فرانسيز» مقالا بقلم ناشرها جورج آدم ينتقد فيه بعض الكُتّاب من دون ذكر أسمائهم بسبب استهانتهم الممزوجة بمشاعر اليأس و«النزعة التشاؤمية الفردية» التي أصبحت الآن وعقب التحرير «شيئا لا مبرر له، وعفّى عليه الزمن». وكان كامي من بين الكُتاب المعنيين تلميحا وإن لم يرد اسمه تصريحا. ولهذا دافع عن نفسه، مثلما فعل سارتر أيضا، في مقال نشرته «كومبا» في نوفمبر ١٩٤٤، يحمل عنوان «التشاؤمية والشجاعة». وميَّز نفسه عن نيتشه وهايدغر ـ وأيضا ضمنيا عن سارتر الذي اختص نفسه بكلمة «الوجودية». قال كامي: «لا توجد أوجه تشابه كثيرة بيني وبين جميع من اشتهروا ويحملون اسم الفلسفة الوجودية. وإذا شئتم الحقيقة أقول إنني أرى أن النتائج التي وصلت إليها زائفة. بيد أنها تمثل ـ على أقل تقدير ـ مغامرة كبرى للعقل».

كان كامي لا يزال يعتبر الشيوعيين القائمين على مجلة «لو ليتر فرانسيز» رفاقا. «إن معتقداتهم غير معتقداتنا، لكن لم يحدث أبدا أن تحدثنا عنهم باللهجة التي يستخدمونها معنا وبالثقة التي يبدونها». ونراه إذ يربط نفسه مباشرة مع سارتر يوافق على أن «كل شيء لا يمكن إجماله في السلب والعبث. نحن نعرف هذا خير المعرفة. ولكن يتعين علينا أولا أن نفترض وجود السلب والعبث لأنهما هما الشيء الذي التقاه وعايشه جيلنا، ومن ثم لابد من أن نضعهما في الحسبان». وأعرب عن أمله في التحلي بالصبر إزاء هؤلاء الكتاب، إذ إنهم في نهاية المطاف منخرطون بإخلاص في بحث ومعالجة قضايا شائكة. «أليس بالإمكان مخاطبتهم بقدر أكبر من التواضع؟».

وكتب سارتر بعد أن هوجم في مجلة «أكسيون» مقالا بعنوان «توضيح أكثر دقة للوجودية»، الذي نشر في «أكسيون» في آخر ديسمبر. ويختلف مقاله اختلافا واضحا عن إجابة كامي التي نشرها قبل ذلك بشهرين. وإذا كان كامي قد عمد إلى تكرار تأكيد، وبشكل مهذب، أوجه الاختلاف بينه وبين الشيوعية خلال هذه الفترة، فإن مقال سارتر اتبع نهجا مخالفا، إذ عمد سارتر إلى المواجهة والخشونة. وبدا واضحا أنه استُثير بسبب «الانتقادات العبثية» من جانب الحزب الشيوعي الفرنسي.

> «سأكون صريحا ومباشرا: يبدو أن هجومكم ضدي نابع من الجهل وسوء الطوية. ويكاد يكون من المقطوع به أنكم لم تقرأوا أيا من الكتب التي تتحدثون عنها. إنكم بحاجة إلى كبش فداء إذ ليس في وسعكم البقاء من دون أن تنالوا من شخص ما بين حين وآخر. وها أنتم اخترتم الوجودية، ذلك لأنها مذهب مجرد لا يعرفه غير القليلين، وتظنون أن لا أحد سوف يسعى للتحقق مما تقولون. بيد أنني سوف أجيب عن اتهاماتكم واحدا بعد الآخر».

واستطرد باللهجة القتالية ذاتها. وإذا كان كامي قد عمد باسم تضامن المقاومة إلى أن يقصر حديثه على الاعتراض على الروح العدائية من جانب الشيوعيين؛ كان مقال سارتر مقطوعة رائعة في مجال الاستفزاز. وبدا المقال فرصة للترويج لأفكاره تحت ستار الدفاع عنها، من دون التخلي عن الروح الهجومية. ولم يحاول، شأنه شأن كامي، المطابقة بين فلسفته والماركسية.

لكنه اختلف عنه من حيث أنه لم يعزف على لحن المصالحة فقط. وإذا كان سارتر قد اتهم مثقفي الحزب الشيوعي الفرنسي بالكذب على فلسفته، وبالنفاق وسوء الطوية والغباء، فإنه، على خلاف كامي، أكد التزامه بالصراع الطبقي واحترامه الشديد لفكر ماركس.

* * *

وخلال هذه السنة التي أعقبت التحرير واجه المثقفون الشيوعيون أزمة في التعامل مع كاتبي فرنسا الجديدين ذوي الشهرة الواسعة. كان واضحا أنهما إلى جانب اليسار، يتحدثان عن «الثورة» أكثر مما يتحدث الحزب الشيوعي الفرنسي. وتميزت أعمالهما بالجدة والحيوية والنضج بحيث تعكس مزاجا مشتركا، فضلا عن شيوع كلماتهما واسميهما اللذين أصبحا يترددان في كل مكان. والجدير ذكره أن كامي، الشيوعي السابق، رفض معاداة الشيوعية. والتزم سارتر موقفا نقديا تجاه الحزب، وإن لم يكن مناهضا سياسيا - لماذا لا تتعامل معهم كحلفاء محتملين من حيث الاتفاق على أن تختلفوا؟ هذا ما سمعه سارتر من كثيرين من أعضاء الحزب، ولا يريدون منه أكثر من ذلك.

وتمثلت المشكلة في أن أفكار كامي وسارتر عن العبث والحرية وتأكيدهما على الأخلاق والمسؤولية، والتزامهما الصريح للغاية باليسار وليس بالحزب الشيوعي الفرنسي، بدت جميعها غامضة بين الشباب المتعلم. وبدا منذ أواخر العام ١٩٤٤ وكأن كامي وسارتر شرعا في تأسيس مدرسة فكرية. وهذا ما روجت له بوفوار ومعها ميرلو - بونتي، وعمدا إلى نشر هذا التصور على نطاق واسع. وإذا كان سارتر رغب في أن يظل ودودا مع المثقفين الشيوعيين كأشخاص، كان هو والحزب في تنافس على جمهورهما المشترك. وبدا واضحا في أكتوبر ١٩٤٥ أن هذا كان إيذانا بصدور «الأزمنة الحديثة».

وكان الشيوعيون - بحكم تكوينهم - عاجزين عن الاتفاق على الاختلاف. وهذا هو عين ما طالب به كامي في ندائه داعيا إلى التواضع. بيد أن هذا النهج من شأنه أن يحيل الماركسية لتصبح مجرد وجهة نظر متساوية مع وجهات نظر أخرى على جانب اليسار. إذ اعتاد مثقفو الحزب الشيوعي الفرنسي الزعم بأنهم يملكون وجهة النظر التاريخية العالمية الصحيحة دون سواها، ويرون كل التحديات والطعون الفكرية الأخرى مجرد تعبيرات

أيديولوجية تعكس مصالح طبقية. ومن ثم سوف يجد هؤلاء إن عاجلا أو آجلا أن لا مناص من الهجوم ضد هذه الأفكار البديلة، وأن يعزوها إلى أيديولوجيات معادية للبروليتاريا، حتى وإن لم تصبهم العقلية الستالينية في شأن ملاحقة المشتبه فيهم من أصحاب الفكر المنحرف.

واستمرت مجلة «أكسيون» في نشر مقال سارتر مع نهاية ١٩٤٤، مما يعني أن الروح الرفاقية الذاوية التي نشأت مع التحرير لم تختف تماما. ولكن في يونيو ١٩٤٥ حسمت «أكسيون» تماما حالة التناقض بأن شنت هجوما قاسيا على أفكار سارتر، ثم بعد ثلاثة أسابيع، انقضّت على كامي.

وتصدى لانتقاد سارتر هنري لوفيڤر، مؤلف الشرح الرئيسي للفلسفة الماركسية في كتابه «المادية الجدلية»، وباعتباره أكفأ أعضاء الحزب المؤهلين للتصدي لسارتر. وبدا مقاله مفرطا في التعبير عن الثقة الذاتية للماركسية. وعمد لوفيڤر في هدوء إلى صوغ المنظورين التاريخي والاجتماعي اللذين شاء أن يضع فيهما فيلسوف الفردية، موضحا لماذا يمثل اليأس والانفرادية والأسى والعدمية موضوعات سارتر الرئيسة. وحيث إن سارتر يمثل «عصرا محكوما عليه باليأس» فقد كان له أن ينكر الميتافيزيقا والوعي المحض، وينتقل بشكل حاسم في اتجاه إطار يؤكد الفعل الجمعي المؤسس على المعرفة الموضوعية. ولكنه حرص على مواصلة التصدى للوجود بوعي منعزل، ورفض المحتوى الموضوعي التاريخي. ولم ير سارتر العدم باعتباره خطرا يتهدد «نظاما اجتماعيا في سبيله إلى التبدل» ـ الرأسمالية إذ تواجه خطر الموت التاريخي ـ بل رآه كاشفا عن «بنية خالدة للوعي البشري». وواصل لوفيڤر جداله قائلا «إن سارتر بعد أن استحكمت فيه نزعة شك تجهيلية بات، على الرغم من تأكيده العمل، عاجزا عن أن يتبين أن البشر يصنعون أنفسهم اجتماعيا وتاريخيا. ولذلك نجد فلسفة سارتر الوجودية استسلمت لتغدو آلة حرب نظرية ضد الماركسية».

وتصادف أن ظهرت مقالة لوفيڤر قبل يوم واحد من بدء مجلة «كومبا» التي يرأس تحريرها كامي نشر ست مقالات لسارتر عن رحلته إلى الولايات المتحدة، والتي عرض فيها حال الطبقة العاملة الأمريكية وتأملاته في شأنها. وكشفت هذه المقالات عن أن سارتر يشق أرضا جديدة. ونعرف أن رحلته إلى الولايات المتحدة هي التي ولدت لديه أولى ملاحظاته السياسية والاجتماعية

الدائمة. وتمثل هذه المقالات المستفيضة والمفعمة حيوية أولى كتاباته المتأثرة بالأفكار الماركسية. وأكد فيها محورية الطبقة الاجتماعية والتأثير الاغترابي للعمل الصناعي، واستغلال العمال. واستكشف قضايا تتعلق بتنظيم وأيديولوجية العمال. وقام خلال هذه الرحلة بأولى زياراته للمصانع، وعقد أولى محادثاته مع العمال والنقابيين. وبدت الولايات المتحدة معملا يشتغل فيه سارتر ليجري تجاربه في شأن فكرة الالتزام الأدبي التي كان عاكفا عليها لتطويرها آنذاك. بيد أنه عاد إلى الوطن ليجد الشيوعيين يعلنون الحرب عليه هو وكامي.

وفي نهاية يونيو، استهل بيير هارفي كتابة عموده في مجلة «أكسيون» بالشكوى من أن معاداة الشيوعية اخترقت المناورة السياسية الراهنة بين فرق المقاومة السابقة. وبعد أن بدا واضحا أنه بات يضيق بالنزعة الأخلاقية عند كامي، حوّل قذائفه ضد كامي وبأسلوب شخصي للغاية. وهاجم عادة كامي ومجلة «كومبا» في استهلال وختام كلمات التحرير بتأكيد الإخلاص وصدق الطوية في عباراتهم الاحتجاجية التي تتحلى بالاستقامة الأخلاقية. «نحن غير المنحازين». نحن الموضوعيون، إنها عادة بابوات الوجودية الذين هم أصدقاؤنا في «كومبا»، أن يتحدثوا بهذا الأسلوب. ووصف هيرفي نفسه كُتّاب «كومبا» هؤلاء بأنهم معاقون. ثم يصوب سهامه ضد كامي:

> «أفهم أن المحرر كاتب الافتتاحيات المقروءة على أوسع نطاق في العالم لا يترك الأمور لذوقه الخاص ولا يدعي لنفسه الحق في التحدث من عليائه ليوزع اللوم والتشجيع الواحد بعد الآخر. إنه مثل أسقف يقدم الخدمات ويعترض على نباح كلب في إحدى المجاورات. عنده الحق! وعنده الأمانة! ومن أسى أن مرجعية العديد من الكلمات الأدبية الرنانة لا تحول دون أن يصبح المرء روحا زائفة في الأمور السياسية. أقول هذا حين تثير النغمة الفاترة حنقي. إنني لا أخفي شعوري بالحنق وراء ادعاء منافق بالكبرياء الأخلاقية».

وعمدت «كومبا» في مناقشتها للمناورة وسط أعضاء المقاومة إلى تقديم الروايات الأبعد عن الدقة، والأكثر زيفا والأبعد عن الأمانة. وإذ أضاف هيرفي صوت المرجعية إلى هجومه ضد «السطحيين المغالين في سخريتهم»

نراه يعمد إلى اقتباس بعض أقوال لينين عن البورجوازية الصغيرة: «الجميع يعرف عدم ثبات دوافعهم الثورية، وعقمهم، وسهولة الاستسلام لحالات الانصياع واللامبالاة والتخييلات الوهمية، بل والافتتان المذهل بهذا أو ذاك من البورجوازية التي تمثل موضة العصر».

واضح إذن أن تحولا قد حدث. لقد تفتتت المقاومة. واستخدم كامي في خريف العام ١٩٤٤ مصطلح «الرفاق»، لكن بحلول يونيو ١٩٤٥ بدأوا يعاملونه كعدو مدعومين باقتباس من لينين. واستهدف مقال هيرفي إذلال كامي. والحقيقة أن كامي بعد هذه الهزيمة العلنية كتب فقط بضع افتتاحيات قليلة في «كومبا»، ثم لزم الصمت. وكما رأينا في موقفه إزاء هيروشيما، وكذلك إلى حد كبير في اختلافه مع الحزب الشيوعي الفرنسي، فقد دان بشدة استخدام الأسلحة النووية. وأعلن خلال الشهر نفسه أن سياسة التطهير انحرفت عن مسارها الصحيح. واتخذ وجهة نظر مخالفة عن أولئك الداعين إلى استمرارها ـ وهم الشيوعيون قبل سواهم. وصرح بأن القوة السياسية للمقاومة تبددت. وكان هذا الرأي آخر افتتاحية سطرها كامي على مدى أكثر من سنة.

والجدير ذكره أن سيمون دي بوفوار في بحثها عن أول دلائل التوتر بينها هي وسارتر وكامي، أشارت إلى فكرة كامي الغريبة وهي مطالبته العلماء بوقف أبحاثهم بغية القضاء على الأسلحة النووية. وكان العامان اللذان شهدا علاقة سارتر وكامي في أوثق مراحلها أوشكا في الوقت نفسه على النهاية نظرا إلى تدني وتفكك أواصر أخوة المقاومة التي امتدت على مساحة واسعة ابتداء من الديغوليين وحتى الشيوعيين. ولم يأت هذا مصادفة يقينا. إذ بينما كان سارتر وكامي تجمعهما الكثير من النظرات النقدية إزاء الشيوعيين، فإنهما اختلفا وبحدة في شأن المواقف الأساسية لكل منهما تجاه الحزب الشيوعي الفرنسي. ومن دواعي السخرية أنه بينما نظر كامي إلى الشيوعية باعتبارها عدوه السياسي الرئيسي، بدأ سارتر يصبح العدو الفكري الرئيسي للحزب.

لماذا سارتر وليس كامي؟ اعتاد سارتر الاستمتاع في تلذذ بالمحاجة، بينما هو مرتبط معهم بوسيلة مختلفة تماما عن كامي. كان سارتر في نظرهم مؤلفا لفلسفة معقدة وجذابة ويجد تأييدا ودعما من العديد من

الخصوم. وهيأ هذا لسارتر فرصة الطعن صراحة في الماركسية من حيث هي أيديولوجية، ورأى فيه مثقفو الحزب الشيوعي الفرنسي «زعيم مدرسة».

انتقدوا «الأزمنة الحديثة» («لا جديد» في نداء سارتر بالالتزام)، والشخصيات والمواقف غير السوية في المجلدين الأولين من «دروب الحرية» («دروب... أم مآزق؟»). وخصصوا مقالين ليكونا «الحساب الختامي» للهجوم الوجودي. ودعي سارتر، حوالي هذا الوقت، للقاء اثنين من أهم المثقفين الشيوعيين وهما روجيه غارودي وهنري موغان. وفاتحه في هذا مثقف صاعد من مثقفي الحزب وأحد طلاب سارتر السابقين ويدعى جين كانابا، إذ طلب منه لقاء الرجلين وفي ذهنه تهدئة الموقف وخلق أساس للعمل والحوار المشترك. وفي اليوم الموعود لم يحضر كانابا اللقاء. ويتذكر سارتر الموقف ويقول:

> «ذهبت (إلى اللقاء) تحدوني روح المصالحة، ووجدت نفسي أواجه محاكمة حيث هاجمني غارودي وموغان بعنف في شأن فلسفتي التي قالا عنها أنها عفنة. وكان غارودي الأشد عنفا، مؤكدا أن لا مجال للاتفاق بشأن أي موضوع بيني وبينهم. هنا سألت مذهولا: لماذا إذن هذا اللقاء مادامت انتفت أي فرصة للتوفيق والمصالحة».

وفي ٢١ ديسمبر، نشرت مجلة «لو ليتر فرانسيز»، التي تتبنى الآن خط الحزب الشيوعي الفرنسي بالكامل، مقالا افتتاحيا بقلم كلود مورغان يوضح التزامات الصحيفة السياسية والأدبية، ومؤكدا «إننا نكافح ضد أدب العبث واليأس - وهي الأوصاف عينها التي أضفيت على كتابي «كاليغولا» و«دروب الحرية»، اللذين عُرضا فورا. وأكد رينيه سكيرر في العدد نفسه أن الماركسية ليست في حاجة إلى استكمالها بالوجودية، وأن كلتيهما وجهتا نظر متعارضتان تماما. وفي ٢٨ ديسمبر، نشرت المجلة في صفحتها الأولى إدانة غارودي لسارتر باعتباره «نبيا زائفا»، والوجودية «مرضا». وهاجم غارودي كل كتابات سارتر بما في ذلك «جمهورية الصمت»، التي نشرتها الصحيفة نفسها. ووصف سارتر بأنه «حفار قبور»، كما وأنه، بنص كلمات سارتر، «مرغه في الوحل يمينا ويسارا».

ورد سارتر على هذا بأن مرغ غارودي نفسه في الوحل في مجلة «الأزمنة الحديثة». ففي يونيو ويوليو شدد عليه النكير في مقالات فلسفية «المادية والثورة»، التي انتقد فيها المادية الميكانيكية للشيوعية الستالينية، بينما دعا إلى التضامن مع العمال والثورة. وشن هجوما قاسيا على شخص غارودي إذ وصفه بإنسان غير واعد ويكاد لا يجد له مكانا سوى داخل الحزب، كما أنه متهم بالتزامه نزعة علموية «ساذجة وجامدة». وأثبتت هذه المقالات ثقة سارتر العالية بنفسه على الرغم من أنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى أنه قرأ ماركس.

ودفع سارتر بأن الاشتراكية المادية تنطوي على تناقض اصطلاحي، ومن ثم أكد أن أي حدث جزئي (إفقار العمال كمثال) من شأنه فقط أن يتولد عنه حدث آخر: «إن حالة العالم لن يتولد عنها أبدا وعي طبقي». ونحن حتى وإن كنا مستعبدين، نعتبر أحرارا، حسب معنى أساسي ما. وعلى الرغم من أن «أسطورة المادية» أفادت في تفسير القهر، إلا أنها كانت عديمة الفائدة تماما في تفسير كيف ولماذا يعمل البشر لتحرير أنفسهم. وطور سارتر أفكاره وقضاياه الرئيسية الخاصة ـ العمل والموقف والتعالي والحرية والوجود في العالم ومحورية الذاتية والتعارض مع أي أخلاق قبلية، والعداء للفكرة البورجوازية عن الحقوق ـ وصاغ أفكاره هذه في إطار جديد من الاتجاهات الاجتماعية والسياسية. وخاض سارتر حوارا ساخنا وحادا مع الحزب الشيوعي الفرنسي، وقدم في حواره هذا الوجودية بديلا عن الماركسية. وأصبح سارتر، شأن كامي، هدفا لهجوم الحزب، لكنه اختلف عن كامي في رد الصاع صاعين وهو واقف على أرضه.

* * *

شن هارفي هجومه ضد كامي في يونيو ١٩٤٥، والذي أعقبه حادث هيروشيما، وخلص بعده كامي إلى نتيجة مؤداها أن التطهير ضلَّ السبيل. وكانت هذه إشارة إلى نهاية آمال كامي خلال فترة ما بعد الحرب. تبددت موجة المقاومة الأولى للإصلاح الاجتماعي بعد أن تفتتت الحركة على نحو لا سبيل إلى إصلاحه. وعلى الرغم من أسطورة أن المقاومة حررت فرنسا، كان حدث هيروشيما بمنزلة رمز دال على حقيقة أعمق ـ بمعنى أن فرنسا ومنذ الآن سوف تخضع لقوى تتجاوز حدود سيطرتها ـ وأشارت تأملات كامي

المريرة في شأن التطهير إلى نهاية حقبة وإلى نقطة تحول شخصية في حياته. كان قد عقد الأمل في البداية على الانتقال من «المقاومة إلى الثورة»، وهو ما يعني عنده الاشتراكية قرين الحرية. ولكنه طامن طموحاته وقنع بتعزيز الروح الأخلاقية والاحترام المتبادل والانفتاح الفكري والحوار الصادق الأمين. ولكن مع حلول صيف ١٩٤٥ بدت هذه الأهداف أيضا ضربا من الأحلام. لقد عادت السياسة القديمة، وجف قلم كامي فلم يعد لديه المزيد ليقوله. وبدا الشعار الرئيسي لصحيفة «كومبا» شاذا وغريبا الآن. انتهت المقاومة، والثورة حدث خارج نطاق التفكير.

وحان الوقت لكي يتراجع كامي ويتأمل خطأ الماضي، واتخذ لنفسه اتجاها من واقع خبرته مع الشيوعيين. ونلحظ أنه بعد عشر سنوات من التفاعل مع الحزب الشيوعي الفرنسي امتزج فقدان كامي لتفاؤله السياسي الذي خامره بعد الحرب بشعوره بأنهم «هم» المسؤولون. وإذ ظهر كامي باعتباره الصوت البارز المعبر عن اليسار غير الشيوعي، فقد حاور نظرة الحزب لكن باعتباره ندّا ورفيقا في آن واحد. وانتهى الحوار الآن بسبب الشجب القبيح على لسان هيرفي. وطبيعي أن مثل هذه المعاملة السيئة، خاصة إذا جاءت على أيدي من يراهم كامي على خطأ أساسي فلسفي وسياسي، كانت تعني بالنسبة إليه أنه بات لزاما عليه من الآن فصاعدا أن يتحدث عن الشيوعيين، وليس أبدا أن يتحدث إليهم.

وأعلن كامي في أول سبتمبر ١٩٤٥ انتهاء افتتاحياته بأن أجمل خبرته عن السنة الماضية كصحافي يسعى إلى خلق حوار. لقد حاولت مجلة «كومبا» مخلصة تحديد مواضع الاتفاق والاختلاف مع الشيوعيين «بيد أننا لم نتلق أي إجابة على الإطلاق». وخاطب أيضا فرانسوا مورياك الكاثوليكي بلهجة «أسكتتنا»، ولكن كامي لم يوجه اللوم إلى آخرين لأنهم جعلوا الحوار مستحيلا. إذ بدا الأمر «إخفاقا مؤقتا» بسبب «أننا لم نجد بعد اللغة» التي تجمع بيننا في الحوار. ولعل مثل هذه الكلمات الشجاعة كان من شأنها أن تدفع إلى مواصلة البحث عن أرض مشتركة، غير أن كامي، بدلا من هذا، اتجه إلى مذكراته. وتحول تدريجيا بحيث أصبح شيئا فشيئا يعامل الشيوعية باعتبارها مرضا حضاريا، «جنون العصر». وعكف على مدى الأشهر الستة عشر التالية في محاولة لفهم طبيعتها وأسبابها ومسلماتها التي ترتكز عليها والنتائج المترتبة على ذلك.

وشـرع كـامي، على إثر مـقـال هيـرفـي مـبـاشـرة، في تأمل التـوتـر بين مصطلحين رئيسيين في فهمه للشيوعية، وهما الحرية والعدالة. لقد حاول جاهدا في افتتاحياته التماس الاشتراكية مع أو قرين الحرية، ولكن الشيوعيين، حسبما دفع هو، هم الذين التمسوا عدالة من دون حرية، وأن عليه أن يختار بين الاثنين. واختار: «أخيرا آثرت الحرية. ذلك لأنه حتى لو لم تتحقق العدالة فإن الحرية كفيلة بالحفاظ على قدرة الإنسان على أن يحتج ضد الظلم، وأن يظل باب التواصل مفتوحا». أن يظل مفتوحا ما لم يخنقه أو يسدده الشيوعيون الذين يفتقرون إلى الحرية الفكرية ويقررون أن «العدو هو الصواب». وبعد بضعة أشهر أكد أن «الماركسيين لا يؤمنون بالإقناع أو بالحوار». وأن المنوط بهم من الشيوعيين ـ وهم قادة الحزب الشيوعي الفرنسي ـ التحدث إلى الجماهير لا يعبأون بالحرية. نعم لا يزال الكثيرون من المنحازين إليهم يختارون العدالة دون الحرية، ذلك لأن «العدالة وحدها تكفل لهم الحد الأدنى من الضروريات».

ظلت هذه الآراء تتراوح ما بين التحدي والتشاؤم. ووجد كامي نفسه بين صفوف أقلية صغيرة جدا مآلها الاستشهاد: «برنامج للغد: إعدام كئيب ومهيب لشهود الحرية». وبذل جهده للتوفيق بين العدالة والحرية باعتبار هذا هو «الأمل الأخير» للغرب، بيد أن هذا بدا في ضوء مناخ اليوم تفكيرا طوباويا. «هل تتعين التضحية بأي من القيمتين؟ ترى ماذا يكون الرأي في هذه الحالة؟».

وقال كامي، في إحدى إشاراته النادرة، أنه أحس بأنه واقع بين عقيدتين مرفوضتين، المسيحية والشيوعية: «المادية التاريخية والحتمية المطلقة ونفى كل أشكال الحرية، هذا العالم المروع من الشجاعة والصمت ـ تلك هي أهم النتائج المشروعة لفلسفة من دون إله». إن السبيل الوحيد للحد من الدعاوى والطموحات البشرية هي أن ترى الله وراء الناس والتاريخ، بيد أن هذا يتطلب إيمانا لم يعد ممكنا. وهل ثمة طريق ثالث للخروج؟ رأي كامي أن هذا يعني خيارا شخصيا أليما:

> «كيف نختار بين الاثنين؟ شيء بداخلي يقول لي، ويقنعني، أن ليس بإمكاني أن أنتزع نفسي من زمني والعصر الذي أعيش فيه من دون الخنوع، ومن دون العبودية، ومن دون إنكار أمي

وحقي. وليس لي ولا بوسعي أن أفعل هذا، أو أن أقبل التزاما بأنني في آن واحد مخلص ونسبي ما لم أكن على سبيل الافتراض مسيحيا. ليس مسيحيا، بل يتعين أن أمضي إلى النهاية. ولكن المضي إلى النهاية يعني اختيار التاريخ على أنه المطلق، ومعه قتل الإنسان إذا كان قتل الإنسان ضرورة التاريخ. من دون هذا أنا لست سوى شاهد. وهنا السؤال: هل بوسعي أن أكون مجرد شاهد؟ أو بعبارة أخرى: هل لي الحق أن أكون مجرد ممثل؟ ليس بوسعي أن أومن بهذا. وإذا لم أختر الموقفين معا ضد الرب وضد التاريخ فأنا شاهد للحرية المحضة والتي مآلها في التاريخ الإعدام».

كتب كامي هذا بعد فترة قصيرة من مطلع شهر نوفمبر ١٩٤٥. لم ير في أثناء كتابته هذا أي بدائل عن «الصمت أو الموت». الإيمان بالتاريخ شأن الشيوعيين هو الطريق إلى «الزيف أو القتل». وإنه لمن دواعي الإحباط أن يبدو الدين البديل الوحيد. «أفهم أن الإنسان بوسعه أن يهرول ليلقي نفسه بين أحضان الدين دون وعي أو إرادة ليهرب من هذا الجنون وهذا التمزق الأليم» (نعم، إنه أليم مبرح حقا).

وبدأ كامي ببطء شديد وبعد جهد مرير يصوغ دربه السياسي الخاص البديل، محاولا إيجاد أساس أخلاقي في مقدوره التحدي والصمود أمام الضغوط التي يحس بها. وتمثلت مصطلحاته الرئيسية في العبث والطهر ـ الثورة. وحوالي هذا الوقت ذكر كامي ولأول مرة سارتر في مذكراته. وأوضح أنه هو نفسه كان ممثلا وليس فيلسوفا، لأنه قال: «أفكر وفقا للكلمات وليس وفقا للأفكار»، وصرح قائلا: «ضد أدب الالتزام»، إن الفرنسي الأفريقي فكر في أن وطنه الروحي قائم خارج المدن ـ التي كانت وطن مفكرين من أمثال هيغل وسارتر، وخارج «جميع فلسفات التاريخ الحديثة» ـ ووسط «دوام واتزان» الطبيعة. ترى كيف كانت صورة سارتر في تأملات كامي، وكان سارتر العام ١٩٤٥ بعيدا عن هيغل بُعد كامي عن ماركس؟ أعتقد أن كامي ميز نفسه عن سارتر خلال عملية توضيح معارضته المتزايدة لماركس. وحسب رأي كامي، فإن سارتر إذ طالب بانغماس المرء في عصره كان منحازا إلى الماركسية بينما واصل كامي

إصراره على أن «كل البشرية غير متطابقة مع التاريخ». واعتقد حسب تفكيره أن سارتر أخفق في رؤية هذه الحقيقة: «الإنسان ليس موضوعا اجتماعيا فقط».

ولكن وصف كامي لكل من سارتر والماركسية ليس متطابقا تماما. إن السمة المذهلة أكثر من غيرها في هذه التأملات المتكررة أنها تكشف عن عدم وجود أي دليل على قراءة «الوجود والعدم»، أو أي شيء كتبه ماركس. ربما كان كامي يرد على نداء سارتر بالالتزام في العام ١٩٤٥، ولكنه ضمنها الماركسية دون تفكير في الفوارق الأساسية. ومن ثم فإن القراءة الدقيقة الفاحصة ربما كانت توضح له أن مذهب الوجود «الأنطولوجيا» عند سارتر بشأن الوجود في ذاته والوجود لذاته من شأنه أن ينفي إمكان أن يستوعب أو يبتلع التاريخ الإنسان. وحقيقة الأمر أن التوتر بين منطلقه اللاتاريخي والعالم التاريخي سوف يظل دون حسم بعد تحول سارتر إلى الماركسية. هذا بينما مزاوجة كامي بعد ذلك بين الماركسية والقتل إنما كانت ضربا من التفكير الشمولي العام، ولكن من دون سند يدعمه. ربما كان كامي يفكر في تبريرات أعضاء الحزب لجرائم ستالين، ولكن المعادلة الفجة بين الماركسية والقتل غير ذات معنى، وهو ما يمكن أن يكون قد قاله له جي موليه من القطاع الفرنسي للأممية العمالية، ومعروف عنه أنه ماركسي واشتراكي ديموقراطي معتدل. وربما شاء كامي أن يمس بعضا محددا من مظاهر تصور الماركسية، ولكنه غير واضح في هذا عن يقين. إن المشكلة أن أحكامه عن سارتر والماركسية لا تتمثل في حجة كامي، بل في غياب حجته. ونظرا إلى أنه يحاول في إطار هذه القضايا الإشكالية فإنه غالبا ما كان ينطلق من مزاعم مطلقة دون دقة في التحليل أو القراءة أو النصوص التي يتخذها مراجع له.

* * *

بينما كان كامي عاكفا على هذه الأفكار ويتهيأ للانتهاء من «الطاعون»، كان العالم من حوله يتغير جذريا. إذ العام ١٩٤٦ هو العام الذي انشق فيه حلف زمن الحرب وانقسم إلى معسكرين، وهو العام الذي بدأت فيه التوترات بين القوى العظمى تأخذ شكل حرب بين الحضارات ـ أو لنقل حربا داخل الغرب بهدف الحفاظ على الحضارة ذاتها. وعبر السفير جورج كينان في فبراير عن الأساس الأيديولوجي في نظر الغرب للصراع بين الخير والشر في

رسالته الشهيرة «برقية مطولة» من موسكو. وفي مارس قدم ونستون تشرشل بشكل علني وصريح خطابه «الستار الحديدي» في فولتون في مقاطعة ميسوري. وتفاقمت حدة التوترات بين الشرق والغرب بشأن إيران وتركيا واليونان وبولندا. ولكن بدا واضحا أكثر فأكثر أن الاتحاد السوفييتي عاقد العزم على استمرار سيطرته على البلدان المتاخمة له مهما كانت التكلفة.

كان الموقف العالمي يتغير، والأحداث في فرنسا تسير في اتجاه الحرب الباردة حسب تعريفهم لها. أصبح الائتلاف الثلاثي الحاكم مشلولا، والذي يضم الاشتراكيين والشيوعيين والحركة الشعبية الجمهورية الديموقراطية المسيحية. والمعروف أن هذا الائتلاف استهل سلسلة من الإصلاحات الأولية بمنزلة استرداد للأنفاس، وذلك على مدى الأشهر التي أعقبت التحرير مباشرة، وحدد من خلالها نظام فرنسا الحديث لمجتمع الرفاه وتدخل الدولة في الاقتصاد. وشهدت انتخابات الجمعية الوطنية لأول مرة عقب الحرب، في خريف العام ١٩٤٥، انتصار حزبي الجناح اليساري وحصولهما على أغلبية واضحة مع بقاء الحزب الشيوعي الفرنسي الحزب القائد للبلاد. وفي مايو ١٩٤٦ استخدم ليون بلوم رئيس الوزراء الاشتراكي عبارة الخطر الشيوعي للفوز من واشنطن بإعفاء فرنسا من الديون ومنحها قروضا ائتمانية جديدة (وهي أموال كانت مخصصة أصلا للاتحاد السوفييتي). وساندت الولايات المتحدة طرفا في الحكومة ضد الطرف الآخر. وعلى الرغم من أن الشيوعيين في الحكم فإنه لم يسمح لهم بالوصول إلى السلطة. ومع هذا، حصل الحزب الشيوعي الفرنسي على ٢٨,٦ بالمائة من الأصوات في انتخابات ١٠ نوفمبر.

شرع كامي يستوعب التحول الجاري في المناخ السياسي، والتوترات التي سوف تفضي إلى الحرب الباردة. واعتقد، شأنه شأن الغرب ونصف اليسار الفرنسي، أن الشيوعية الصاعدة ستكون الهدف الرئيسي. ونذكر أن كامي في مطلع العام ١٩٤٦ جابه، ولأول مرة، كتاب آرثر كويستلر «ظلام في الظهيرة» الذي صدر لتوه، وسرعان ما أصبح مادة لطاحونته. وقرأ فيه أوصافا عن «التفكير الاستدلالي التاريخي» - الذي بدأ يراه هو المشكلة. ولحظ أيضا عرض كويستلر لتناقض الشيوعية: إذ جعلت من الفرد مجرد سن في ترس، وأنكرت حرية الإرادة، ومع هذا طالبت «ذلك السن بالثورة ضد آلية الساعة وتغيير مسار حركتها».

وزار كامي الولايات المتحدة فيما بين شهري مارس ومايو ١٩٤٦. واستأنف بعد عودته إصدار صحيفته وركز أفكاره على نقطتين ـ ربط الماركسية بجريمة القتل، متأثرا في هذا بكتاب «الظلمة وقت الظهيرة»، ورفض سارتر وتأكيد الوجودية على التاريخ والالتزام. وعكف كامي على الإجابة بأسلوبه الخاص على هيرفي والشيوعيين.

* * *

وكانت شرارة واحدة وأخيرة لازمة لإشعال هذا المزيج. إذ في هذا الوقت تماما، وبنص كلمات بوفوار «اخترق جماعتنا وافد جديد ميال لإثارة الشغب والصخب» ـ آرثر كويستلر شخصيا. أحس كامي وكويستلر «بزمالة في التو واللحظة»، واستخدما منذ البداية أسلوب المخاطبة الذي لا يحمل طابع الرسميات فيما بينهما. والمعروف أن كتاب «الظلمة وقت الظهيرة» كان من أكثر الكتب مبيعا، وكذا مجموعة مقالات كويستلر التي تحمل عنوان «اليوجي والمسؤول الحزبي» صدرت حديثا في مجلد واحد. وميز هذا الكتاب بوضوح شديد بين التوجه الاجتماعي التأملي لنوع الشخص الساعي لتغيير العالم، وبين النهج التأملي والفني عند المتعبد على طريقة اليوجا ـ وهو تمييز كان كامي عاكفا على تأكيد صوابه. وفند أيضا، وبشكل منهجي، الأسطورة السوفييتية بناء على وقائع وأرقام وتحليلات، ثم خلص إلى نتيجة مفادها أن «الاتحاد السوفييتي يمثل حكم الفرد المطلق الشمولي لنظام رأسمالية الدولة». وحاول كويستلر أيضا ابتكار تصور بديل لليسار. لقد كان هو كشخص عنصر إثارة وتحريض ويفرض معاداته للشيوعية على أصدقائه الجدد. والتقاه كامي خلال الشهر نفسه الذي يروج فيه ميرلو ـ بونتي دعمه النقدي للاتحاد السوفييتي، بينما ينتقد «الظلمة وقت الظهيرة»، وكذا فهم كويستلر للماركسية. قضى كويستلر وقتا مع الشراب ومحاولة خلق علاقة اجتماعية أليفة ليس فقط مع كامي، بل وأيضا مع سارتر وبوفوار صاحبَي الصحيفة التي هاجم فيها ميرلو ـ بونتي كويستلر. ووقع كامي في حب شريكة كويستلر، وتدعى مامين، والتقت بوفوار لقاء جنسيا مع كويستلر.

وحكت بوفوار عن اللقاء الأول وعن الأوقات المفعمة بالبهجة والمرح بينهما. استشعروا «قدرا من الحيرة إزاء ما يتصف به من حذلقة اكتسبها ذاتيا، وثقته الشديدة بنفسه مذهبيا، ونزعة ادعاء العلمية التي اكتسبها من خلال تدرب

متواضع على دراسة الماركسية: كان يملؤه الغرور والاعتداد بالنفس، ولكن مع مشاعر الدفء والحياة والفضول، ولم تكن لتهدأ حميته في المحاجة، ومستعد دائما في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل ولأي موضوع تحت الشمس». وطوال إقامة كويستلر في باريس اعتاد سارتر وبوفوار لقاءه ومعهم كامي ومامين. وفي ليلة ٣١ أكتوبر ١٩٤٦:

«تناولنا العشاء معه هو ومامين وفرانسين، ثم انتقلنا إلى صالة رقص صغيرة في شارع دي غرافيلبير. دعانا بعد ذلك، وألح في دعوته للذهاب إلى شهرزاد. وطبيعي أن أيّا منا، أنا وكامي، لم يسبق له أن وطئ بقدميه هذا المكان. طلب كويستلر شراب زاكوسكي وڤودكا وشامبانيا. وكان مقررا أن يلقي سارتر محاضرة في السوربون بعد ظهر الغد تحت رعاية اليونسكو وموضوعها «مسؤولية الكاتب»، ولم يكن قد أعدها بعد. ولكن الكحول وموسيقى الغجر ثم قبل هذا حرارة مناقشاتنا جعلته يفقد التقدير الصحيح للوقت».

ومع الشراب باح كل بما لديه للآخر. وأكد سارتر وبوفوار وكامي ارتباطهم الوثيق، بينما لعب كويستلر دور المحرض.

«عاد كامي إلى موضوع أثير جدا لديه: «لو كان ممكنا فقط قول الحقيقة». بدا كويستلر عبوسا لسماعه «العينين السوداوين». وقال بلهجة الاتهام «يستحيل أن نكون أصدقاء إذا اختلفت معي في السياسة». وأفرغ في قالب جديد ضغائنه القديمة ضد روسيا في عهد ستالين، متهما سارتر بل وكامي بمحاولة التوفيق مع السوفييت. لم نأخذ عبوسه الشديد على محمل الجد. لم نكن ندرك الأعماق الغاضبة لمعاداته للشيوعية. وبينما واصل كامي حديثه، قال كامي لنا: «الشيء المشترك بينى وبينكما هو أن الفرد يكون أولا»، ونحن نفضل العياني على المجرد، ونفضل الناس على المذاهب، ونضع الصداقة فوق السياسة. ووافقنا ونحن في فرط البهجة بسبب الكحول من ناحية، وكذا بسبب تأخر الوقت. عاود كويستلر حديثه «مستحيل! مستحيل». وأجبت بصوت خفيض ولكن

واضح: «هل هذا مستحيل ونحن البرهان على صدق ما نقول في هذه اللحظة تحديدا حيث إننا، وعلى الرغم من الاختلافات في الرأي بيننا، سعداء جدا بوجودنا معا». لقد فتحت السياسة هوة بيننا وبين آخرين؛ ولكننا لا نزال نرى أن لا شيء فرق بيننا وبين كامي سوى القليل جدا من المدلول الاصطلاحي».

سبق كويستلر كامي بسنوات قليلة في المشروع الذي يؤرقه الآن. ونظرا لأن كامي شيوعي سابق وملتزم باليسار فإن إنجازات كويستلر وأفكاره وشخصيته شجعت جهوده سواء لتحديد الخطأ في الشيوعية والاهتداء إلى درب بديل. وتفيد مذكرات كامي أن حسه الخاص الملتهب بشأن الماركسية ليس مستمدا لا من ماركس ولا من لينين، بل من الوافد الجديد الذي أعلن نفسه خبيرا وأشاعت كتبه عاصفة في باريس. وقال كامي تحت عنوان «محادثات مع كويستلر»:

«الغاية تبرر الوسيلة في حالة واحدة فقط، وهي إذا كان النظام النسبي للأهمية معقولا ـ مثال: «بوسعي أن أرسل سان ـ أكزويري في بعثة محفوفة بخطر الموت لإنقاذ فريق. بيد أنني لا أستطيع نفي ملايين الأشخاص وقمع كل مظاهر الحرية من أجل نتيجة معادلة كميا مع حساب ثلاثة أو أربعة أجيال ضحت في السابق».

ولكن الاقتداء بكويستلر على طول دربه في رفض طريقة الاستدلال «الشيوعي» أمر محفوف بالأخطار. ويمثل بوخارين نموذج أخلاق الإبادة الجماعية عند روباشوف كما تشير كتب كويستلر. بيد أن هذه «الماركسية» التي تضحي بالحاضر من أجل المستقبل ومن ثم ساندت بقوة أشد أفعال ستالين وحشية كان يمكن ألا تبعد كثيرا عن حياة بوخارين الحقيقية. إن مفكرا متميزا لا يمكن أن يصدق منطق كويستلر في أن سعادة المستقبل وليدة شرور الحاضر وتبررها هذه الشرور. لقد كان في النهاية العقل المدبر للسياسة الاقتصادية الجديدة ـ المعروفة اختصارا بكلمة «النيب NEP» والتي اتسمت بالحذر والحرص، وتحدث عن ضرورة «متابعة الاشتراكية بخطى حذرة بطيئة». وجدير بالملاحظة أن دراما روباشوف عند مقارنتها مع تراجيديا بروميثيوس التي تحكي بوخارين الواقعي أثناء المحاكمة، اتسمت بالسطحية الشديدة وفقدان الحياة وإمعانها في الأيديولوجيا. إن هذا المفكر واضع الدستور السوفييتي لم يكن بالشخص الذي ينفذ طوعا عملية شريرة كما هي الحال في مسرحية كويستلر الأخلاقية. لقد صارع بوخارين إبان المحاكمة

بكل ما أوتي من قوة ضد جميع الاتهامات الموجهة إليه، وإن احتفظ بمساحة للتفاهم مع مضطهديه. ووعدوه بمقايضة تتمثل في ضمان أمان أسرته مقابل الاعتراف ـ ولكنه حاول أيضا إنقاذ كرامته ورؤيته الثورية في مواجهة الستالينية. وثمة آخرون قرأوا مسودة المحاكمة ولديهم فهم أكبر لمعنى صراع الحياة والموت الجاري بين الأسطر. لقد أفادت بأن هناك طريقا بديلا ليكون المرء ثوريا شيوعيا، وهو الطريق الذي رفض كويستلر ومن بعده كامي التفكير فيه. إن رؤيتهما عن الشيوعية صاغها مسؤولون في الحزب هم من الجيل الثاني الذين عملوا معهم ويمثلون نتاج حركة اكتسبت الطابع الستاليني.

وحين تهيأ كامي للبدء في كتابه «لا ضحايا ولا جلادون»، لخص محادثة جرت في ٢٩ أكتوبر عن الشيوعية بينه وبين كويستلر وسارتر وميرلو ـ بونتي ومانيس سبيربر. وتحدث كويستلر عن اللحظة التي توقف فيها عن تقديم المعاذير للاتحاد السوفييتي ورأى أن ستالين ليس أفضل من هتلر: «شيء انتهى وتحلل عند هذه النقطة». وتشكك ميرلو في أن البروليتاريا هم أعلى قيمة تاريخية. ورفض سارتر أن يوجه «قيمه الأخلاقية ضد الاتحاد السوفييتي فقط دون سواه» حيث إن تاريخ العنصرية الأمريكية ليس أقل شرا من عمليات النفي السوفييتية. وأكد كويستلر آنئذ التزامهم بشجب «ما الذي يستحق شجبه». وبعد أن فرغ كامي من كتابة هذه المناقشة أضاف ملاحظة تنطوي على شك: «كان من المستحيل تحديد كم من الخوف أو الصدق يتخلل كلام كل منا».

وحوالي هذه الفترة كتب بعض الهراء الدرامي، بيد أنه لم ينشره «ارتجالات الفلاسفة» (سوف نناقشها تفصيلا فيما بعد). ونذكر من بين شخصيات هذا العمل الدرامي مسيو ڤين، وهو صيدلاني وعمدة محلي، والآخر مسيو نانت بائع أفكار جوال ـ ومجنون ـ ويدور خطابه عن الكرب النفسي والعبث بطريقة تبدو وكأنها تثير السخرية من كل من كامي وسارتر. وتتألف هذه الدراما التي من نوع الفارس أو المسرحيات الساخرة الهزلية من ٣٥ صفحة بخط اليد. وتتلاعب بالأسلوب الوجودي المميز من دون أن يكون من السهل على القارئ استنتاج مشاعر كامي الشخصية تجاه سارتر. ويبدو واضحا أنها أكثر سخرية من الشيوعيين، وربما أيضا من انتخابات ١٠ نوفمبر، حيث إن ڤين في بحثه عن الحرية يتحدث عن نواياه بأن يصوت لمصلحة «من يريدون قمعها». وبعد ٢٩ أكتوبر بفترة قصيرة، كتب كامي في مذكراته:

«قابلت تار بعد أن نأيت بنفسي عن التصريح العام الذي أدليت به بشأن الحوار. بدا متحفظا صامتا، ولكن في عينيه النظرة الودية ذاتها التي كانت وقت أن ألحقته بشبكة العاملين في مجلة «كومبا».

ـ أما زلت ماركسيا الآن؟

ـ نعم.

ـ إذن ستكون قاتلا.

ـ كنت كذلك بالفعل من قبل.

ـ وأنا أيضا. وأريد أن أكف عن هذا.

ـ كنت الراعي لي.

هذا صحيح.

ـ اسمع تار. هذه هي المشكلة الحقيقية: أيّا كان ما يحدث سأظل أدافع عنك ضد كتيبة الإعدام. ولكنك ملزم بإقرار إطلاق الرصاص عليّ. فكر في هذا.

ـ سوف أفكر فيه».

الماركسية = القتل. بهذه الخطوة تحدد الآن هدف كامي. قبل هذا بأيام تعذب بسبب «ما يعانيه من ألم مبرح إزاء فكرة كتابة تلك المقالات لمجلة «كومبا». بيد أنه شأن كويستلر سوف يقول الآن بالدقة والتحدي ما يشعر بالحاجة إلى الإفصاح عنه.

* * *

وظهرت مقالات «لا ضحايا ولا جلادون» في أسفل الصفحة الافتتاحية من «كومبا» خلال الفترة من ١٩ حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٦. وليس ثمة قيمة لعناوين الفصول المختلفة: «قرن الخوف»، «إنقاذ الحياة»، «تناقضات الاشتراكية»، «الثورة المغدورة»، «الديموقراطية الدولية والدكتاتورية»، «العالم يتغير سريعا»، «عقد اجتماعي جديد»، «نحو الحوار». ولكن العناوين الجزئية تمثل معا عقيدة سياسية جديدة. ويعتمد المقال الأول على «اليوجي والمسؤول الحزبي» ومحادثات كامي مع كويستلر.

«الإرهاب مباح فقط حال التزامنا طوعا بالمبدأ الذي يقول «الغاية تبرر الوسيلة». وهذا المبدأ بدوره يمكن قبوله فقط إذا اعتبرنا فعالية أي عمل غاية مطلقة، كما هي الحال في

> الأيديولوجيات العدمية (لا بأس من أي شيء، فإن النجاح هو الشيء الوحيد الجدير بأن نتحدث عنه)، أو في تلك الفلسفات التي تجعل من التاريخ غاية مطلقة (هيغل، ومن بعده ماركس: الغاية مجتمع لا طبقي، وكل شيء طيب ما دام يقودنا إليه)».

وإذ رفض كامي العنف السياسي فقد أصر على أن «قبول الماركسية باعتبارها فلسفة مطلقة» يعادل تماما إجازة القتل. وكتب يقول «حسب المنظور الماركسي فإن مائة ألف جثة لا تساوي شيئا إذا كانت ثمن سعادة مئات الملايين». وأضاف إلى هذا ثنائياته: إما أن يكون هناك منطق في التاريخ، وتكون الواقعية ماركسية، والعنف صوابا ـ أو أن تكون هناك قيم أخلاقية مستقلة عن التاريخ وبذا فإن الماركسية زيف.

ونلحظ أن كامي حتى حين صرح بمناهضته للشيوعية رفض مقدما الحرب الباردة. وهاجمت هذه المقالات ذاتها المواجهة المتفاقمة بين الشرق والغرب، ودانت مناخ الإرهاب الذي أثارته الحرب الجديدة «التي تستعد لها الآن جميع الأمم». والتمس كامي نفسه هدفا طوباويا واضحا بذاته عقليا «عالم القتل فيه غير مشروع». وهكذا نجد أن التوجه الداعي إلى الابتعاد عن العنف والذي ميز فكره المناهض للشيوعية قاده إلى استكشاف بديل عن الحرب.

حاول وضع مخطط عام لطريق للإصلاح من شأنه أن يقلل مخاطر الدمار العام. ومفتاح ذلك التخلي عن أي أمل في الثورة. بيد أنه لا يزال ينشد «يوتوبيا نسبية: «السعي من أجل وحدة العالم وديموقراطية دولية. لقد أصبحت الحدود القومية لا معنى لها» إذ لم تعد هناك أي سياسة سواء محافظة أو اشتراكية يمكنها العمل وحدها حصرا داخل إطار قومي». وإن الهدف هو تحقيق أدنى حد من السياسة المحلية التي أضحت اليوم مقتصرة على «المشكلات الإدارية»، وأن نستخدم حركة السلام بهدف ابتكار عقد اجتماعي دولي. تلك هي النتيجة، حسبما أكد كامي، المستخلصة من «مجمل التفكير السياسي المعاصر الذي يرفض تبرير الكذب والقتل».

عبرت هذه المقالات عن نزعة إصلاحية يسارية مناهضة للحرب الباردة ومناهضة للشيوعية. وتكمن قوتها في رغبة كامي فصل نفسه عن جميع التيارات الرئيسية القائمة: حركة اليمين تجاه مناهضة عنيفة للشيوعية، وقبول اليسار باعتدال للحرب الباردة والتخلي عن أي أمل في تغيير ذي قيمة، وقدرة

الشيوعيين على التبرير العقلي للعنف والقسوة، حسبما هو مفترض، في سبيل إقامة مجتمع أفضل. وطور كامي بعد خبرته بالنشاط السياسي المكثف، القدرة على ابتكار بدائل، واستعداده للدفاع عنها بنفسه إذا لزم الأمر، وتحديد ما ينبغي عمله. ولقد نبعت هذه القوة جزئيا من التزام كامي العميق: التزامه تفادي جعل العنف فضيلة. وليس معنى هذا أن يكون سلاميا وهو ما لم يدّعه قط. وسبق أن رأينا في «رسائل إلى صديق ألماني» إصراره على خوض المعركة بيدين نظيفتين - واستخدام العنف لا يكون أبدا إلا حين تقتضيه الضرورة بشكل مطلق، وفي حدود، ردا على خطر حيوي. واتخذ هذه الخطوة بعد أن جادل أولا ضد الاشتراك في الحرب العالمية الثانية. العنف هو الملاذ الأخير.

ويمثل موقف كامي الرافض للعنف والمناهض للشيوعية رفضا للحرب الباردة. وفعل هذا بوضوح واتساق فكري حتى أن غيره من مناهضي الشيوعية عزفوا عن محاكاته. وعلى الرغم من أنه برر حمل السلاح ضد المحتلين الألمان، لم يكن ليبرر حمل السلاح ضد الاتحاد السوفييتي. وإذا كان كامي ساعد على توفير أيديولوجيا لأحد أطراف الحرب الباردة فإنه لم ينضم إليه. ومن ثم فإن مقالاته التي قرئت على نطاق واسع إنما كان القراء ومنذ فترة باكرة ينظرون إليها باعتبارها «طريقا ثالثا» بين الطريقين، وأن هذه كانت بداية تشكله.

وضع كامي، بهذا الموقف الذي وقفه وحيدا، اتجاها جديدا لليسار في فرنسا. ورأى سارتر أن كامي أصبح نموذجا وذلك خلال العامين ١٩٤٤ و١٩٤٥. ولكن هل ظل الأمر على ما هو عليه في نهاية العام ١٩٤٦؟ نقرأ أن بوڤوار بعد فترة طويلة من القطيعة بين سارتر وكامي تلوم كامي لإخفاقاته الشخصية، ومن ثم مناهضته للشيوعية كسبب لفتور الصداقة. ولكن بينما كان كامي يفصح عن موقفه السياسي الناضج كان سارتر لا يزال في مستهل عملية تطوير منظوره السياسي الخاص. وأصبح، على عكس كامي، أكثر اهتماما بموضوع عنف الدولة الفرنسية والعنف الذي يمثل جزءا من طبيعة نظامها الاقتصادي. وها هي الدولة الرأسمالية الديموقراطية متورطة في ارتكاب مذابح مذهلة في الجزائر العام ١٩٤٥ على أثر انتفاضة مدينة سيتيف مباشرة. وها هي على أهبة الاستعداد للشروع في شن حرب مدمرة لاستعادة احتلالها الاستعماري في ڤيتنام. وها هي أيضا تعتزم خلال العام أن تفرض الأحكام العرفية على مناطق مناجم الفحم في شمال فرنسا. وإزاء

هذه الحقائق رأى سارتر أن لا مناص من نقد الحزب الشيوعي الفرنسي، على الرغم من خطابه عن الثورة، ذلك لأنه غير ثوري، ولالتزامه سبيلا شرعية وتقليدية للوصول إلى السلطة السياسية. وسرعان ما بدأ يؤنب صديقه كامي الذي كان واحدا من بين قليلين في فرنسا الذين أدانوا استخدام القنبلة الذرية واستخدام القوة العسكرية ضد العرب الجزائريين العام ١٩٤٥، وإذا به غير مهتم بالعنف في ڤيتنام.

إن كامي الذي جعل من استخدام السلاح النووي والعنف الماركسي قضية أساسية نراه الآن لا يكاد يشير إلى العنف الذي تمارسه الحكومة الفرنسية سواء عبر البحار أو داخل البلاد. وبينما بذل قدرا هائلا من طاقته ليحلل ويفند ما رآه عنفا متأصلا في الشيوعية، خاصة العنف هناك في الاتحاد السوفييتي، إذا به يقنع بالنزر اليسير من التعليقات النقدية بشأن العنف الحكومي والمنظم، ويشير فقط إلى مظاهر الإفراط في العنف حين وقعت هنا في فرنسا. ونعرف أنه على مدى السنوات التالية من حياة كامي غرقت فرنسا في حروب استعمارية. كيف يتأتى إذن لكامي أن يقول إن الماركسية تعادل القتل بينما الرأسمالية أو الاستعمار ليس كذلك؟ ورفض كامي كل أشكال التعاون مع الشيوعيين. هذا بينما نراه إذ يبذل جهده للاهتداء إلى حل للوضع في الجزائر يسعى للتأثير في المؤسسة الفرنسية. وأيد انتخاب السياسي المعتدل بيير منديس ـ فرانس، والتقى جاك سوستيل الحاكم الفرنسي العام للجزائر، مثلما التقى ديغول نفسه.

ثمة تناقض أصيل إذن في بنية سياسة كامي المكتملة. وغني عن البيان أن إخراج الشيوعيين من السلطة كان القضية المحلية الرئيسية في السياسة الفرنسية. معنى هذا أن على الاشتراكيين الديموقراطيين لكي يصلوا إلى الحكم أن يعتمدوا على اليمين ويتخلوا عن أي نوع من التغيير الحقيقي.

وعقد كامي الأمل، شأن الاشتراكيين الذين انفصلوا عن الشيوعيين في ربيع العام ١٩٤٧، في التزام سياسة إصلاح يسارية، مع إصرارهم في الوقت نفسه على استعادة تأييد ربع سكان فرنسا، وهم العمال الصناعيون المؤيدون للحزب الشيوعي الفرنسي.

وقد تفيد هذه الورطة في تفسير الإشارة المتكلفة الواردة في «لا ضحايا ولا جلادون». وإذا كان كامي، كما ذكرنا آنفا، بدأ بالفضيلة الأخلاقية فإنه انتهى إلى إضفاء الأخلاقيات. وها هو الإنسان الأخلاقي المستقيم الذي دانه

هيرفي قبل ذلك بثمانية عشر شهرا نراه الآن في كامل عنفوانه، وتناولته بوفوار كثيرا في ضوء الماضي. وإذ رفض كامي أهداف اليسار باعتبارها «بعيدة المنال ووهمية بغير اسم» فإنه يجادل ليثبت أن اقتراحه الخاص بيوتوبيا دولية هو الخيار الممكن الوحيد لدى «الواقعيين المخلصين» الذين رفضوا «التوافق مع القتلة». إن نظاما اجتماعيا يقلل إلى أدنى حد من الفقر والخوف دون أن يتخلى عن الأحلام الثورية والجرائم الحتمية الناجمة عن ذلك ضرورة سوف يستلزم «العمل والتضحيات»، أي سوف يستلزم رجالا.

لقد كان أحد أسباب عداء كامي للشيوعية هو عدم سماحها بالحوار والمحاجاة، ولكنه هنا يعامل كل من اختلفوا معه باحتقار. ونلحظ أنه يساوي بين الماركسية والقتل دون أن يقرأ الماركسية كما هو واضح. ونجده في مناصرته للحرب الباردة يصف من لا يقفون إلى جانبه ليس فقط بأنهم مخطئون بل وغير مخلصين، وأدنى مستوى من البشر، وأنهم مثل صديقه تار، قتلة.

* * *

ربما كان كامي مستغرقا في مهمة إنجاز كتابة هذه المقالات وقت اهتياجه في حفل فيان، إذ وصل إلى هناك في أثناء عزف موسيقى الجاز والجمهور في حالة مزاجية رائقة. ثم التقى الرجل صاحب البيانات التي يمقتها كامي أشد المقت. كان ميرلو ـ بونتي قد فرغ لفوره من مهاجمة كويستلر، الشخص الذي يساعد كامي من أجل أن يهتدي إلى الاتجاه الذي يسير فيه، علاوة على أن ميرلو ـ بونتي برر محاكمات موسكو. وها هو كامي بعد أن فرغ من كتابته عن الاستشهاد، يواجه الفيلسوف الذي يعتقد أنه ربما يطالب بإعدامه، أي إعدام كامي. وبدا غضبه مفهوما، وإن كان كويستلر قد فهم يقينا. ولكن روايتنا مصدرها المعسكر الآخر، وبعد الواقعة بزمن طويل. ولقد عمد سارتر، شأن بوفوار، إلى تتفيه سلوك كامي: «قضى أخيرا بضعة أيام مع امرأة فاتنة، ولكنها ماتت. لهذا، وبسبب الحب والانفصال، انطوى على نفسه واستبدت به الكآبة». وهكذا، بعد أن حيا كامي الجميع فردا فردا، شرع في الهجوم ضد ميرلو ـ بونتي. ويقول سارتر في مذكراته: «كان الوضع مؤلما للغاية». أكاد أراهم رأي العين حتى الآن. هاج كامي ثائرا، بينما ظل ميرلو ـ بونتي مجاملا واثقا وإن بدا على وجهه بعض الشحوب. أحدهما أرخى لنفسه العنان، والثاني رافض مباهج العنف». وبعد أن غادرنا كامي تمتم هو بشيء عن «ثوريي الضفة اليسارية». تبعه سارتر على أمل إصلاح الموقف ولكن دون جدوى.

وتجاوز عداء كامي عداء ميرلو - بونتي للشيوعية، وهو العداء الناجم عن كل من اختيار كامي السياسي ومن الضغوط التي تسبب فيها هذا الاختيار، بما في ذلك إحساسه الشخصي بالعزلة. ساند كويستلر كامي، بيد أنه كان يأتي إلى باريس لماما. ولم يقتصر الأمر على عدم مساندة سارتر لكامي بعد أن اتخذ هذا الموقف الحاسم ضد الشيوعية، وإنما اعتبره مادة للطعن فيه. وسبق أن حدد كامي في مقاله الثاني «لا ضحايا ولا جلادون» أوجه الخلاف بينهما بشكل حاد دون ذكر اسم صديقه. وانتقد فكرة سارتر عن الالتزام التي ظلت موضوعا للنقاش طويلا العام ١٩٤٦، وأضفى عليها الآن منحى فريدا. وقال كامي «ليس بوسعنا الإفلات من التاريخ مادمنا غارقين فيه حتى رقابنا. ولكن يمكن للمرء أن يكافح داخل سياق التاريخ لكي ينتزع من التاريخ ذلك الجزء من الإنسان الذي ليس نطاقه الخاص». وعلى الرغم من أن كامي لم يقرأ سارتر جيدا أو يقرأه خطأ، إلا أنه دأب على المجادلة والدفع بأنه خارج التاريخ تكمن الأخلاق. وانطلاقا من الأخلاق وعلى أساسها أصدر كامي أحكامه على أحداث العصر. وطبيعي أنه إذ يفعل هذا إنما يكشف في وضوح عن اختلافه مع نظرية صديقه عن الالتزام.

وبدأ سارتر يرى في ميرلو - بونتي الناصح السياسي له، تماما مثلما بدأ كامي يتخلى عن آماله في إحداث تغيير جذري. وكتب كامي لصديق أمريكي يقول: «بدأت أفهم مدى ما كنت تشعر به من وحدة حال استخدامك للغة بعينها... ليس بوسعك هجر (وضعك) كما أنني لا أستمتع بوضع الضحية». ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا بدأ يتناول الاختلافات السياسية وفي داخله دافع للقتال.

5

نقطة التحول عند سارتر

«سأجعلهم يكرهونني لأنني لا أعرف طريقا آخر لحبهم. سأعطيهم الأوامر مادمت لا أعرف طريقا آخر للطاعة. سوف أبقى وحيدا مع هذه السماء الفارغة التي تعلو رأسي، مادمت لا أملك طريقا آخر لأكون بينهم. هذه هي الحرب التي يتعين علي مكافحتها، وسوف أكافحها»

غويتس في مسرحية الشيطان والرب الرحيم - سارتر

مع نهاية ١٩٤٦ لم يكن سارتر قد شرع بعد في العمل السياسي. ولكن تشير أكثر التقديرات إلى أنه أنجز قدرا مذهلا منذ الحرب: أصبح اسمه على كل لسان، وأشرف على تحرير الصحيفة الفكرية الرائدة في فرنسا «الأزمنة الحديثة»، وخلق عصبة منتقاة حول الصحيفة، وأصبحت الوجودية على كل لسان. وحظيت موضوعاته الفكرية، من مثل الالتزام، بحوارات ساخنة. وأصدر منذ التحرير روايتين، وأخرج المسرح له مسرحيتين جديدتين، وأعاد إخراج ثالثة؛ وكتب عشرات المقالات الصحافية عن الولايات المتحدة، فضلا عن العديد من المقالات الطويلة للصحيفة؛ ونشر كتابا عن «معاداة السامية»، وآخر عن سيرة حياة بودلير، ثم محاضراته عن الوجودية. وبدا، باعتباره كاتبا ملتزما، أنه يتمتع بنجاح عظيم، إذ نقد انحرافات بودلير، وطالب الكتاب الآخرين بالعمل في صفوف اليسار، وأخذ موقفا شجاعا بشأن قضية معاداة السامية التي لا تزال السلطات تحظرها، وهيأ للمفكرين والمثقفين الشيوعيين دفعة قوية لتداول أفكارهم.

وعلى الرغم من كل ما أنجزه، أدرك سارتر أنه لا يزال يتحدث أكثر مما يعمل. بيد أنه كان يتكلم بوضوح أكثر عن معنى أن ينخرط المرء في العالم وأن يؤثر فيه. وإذا كانت الوجودية إنسانية مناضلة حسب وصفه لها أمام الشيوعيين في نهاية ١٩٤٤، فقد أصبح لازما إن عاجلا أو آجلا الحكم عليه في ضوء دعوته هو إلى «العمل، الجهد، الكفاح، التضامن». ورأى أن العمل السياسي هو السبيل لاستكمال الرحلة التي بدأها مع حديث له مع بوفوار وريموند آرون العام ١٩٣٣، وقتما اطلع على الفلسفة الظاهراتية لهوسرل. ترى ما معنى هذا بالنسبة إلى سارتر؟ واصل كامي تقديم المثال. إذ إنه حين عاد إلى الجزائر كان مناضلا شيوعيا وأنشأ وأدار شركة للمسرح، ودخل في صراع مع قادة الحزب، وطرده الحزب، ثم أصبح مراسلا لا تهدأ معاركه ثم رئيس تحرير. وقام بمهام عديدة خطرة إبان المقاومة، وبعد التحرير أصدر صحيفة يومية وكتب عددا لا يحصى من الافتتاحيات التي قرأها مئات الآلاف. وها هو كامي مع نهاية العام ١٩٤٠ مفكر سياسي وصاحب موقف مهم فيما يتعلق بقضايا العصر. وأصبح له وزن عالمي حقيقي لا يزال عزيزا على سارتر، إذ يعتبر عبقريا في الفلسفة والأدب. إن سارتر الذي ناهز الواحدة والأربعين من العمر لا يزال وراء من يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما، والذي اعتاد العمل المؤثر سياسيا وهو لا يزال في مطلع العشرينيات من العمر.

ولكن، على الرغم من أن سارتر كان على شفا الانخراط في العمل العام ١٩٤٧، لنا أن نسأل، ترى هل كانت في ذهنه مثل هذه المقارنات؟ ترى هل رأى الفارق الكبير بين كتاباته ومقالات كامي الأخيرة في «كومبا»؟ إن سارتر، وإن لم يصرح بذلك، إلا أنه يعترف في رسالة العام ١٩٥٢ التي أعلن فيها قطيعته مع كامي أن كامي في العام ١٩٤٤ عاش «أول اتصال له بالتاريخ... على نحو أعمق وأثرى من كثيرين منا (بمن فيهم أنا أيضا)». ثم قال لقد ظل كامي ولسنوات طويلة «الرمز والبرهان على التضامن الطبقي». لم يكن كامي «بعيدا عن أن يكون قدوة ومثالا». وجدير بالذكر أن سارتر، قبل أن يقول هذا بخمس سنوات ونصف، قرأ لصديقه «اتخاذ موقف ناضج». وعلى الرغم من أن سارتر ربما كان يختلف مع رؤى كامي من نواح عديدة، إلا أن هذه تختلف عن كل ما حاوله سارتر.

ولنا أن نستنتج الكثير إذا ما قارنا اهتمامات سارتر الأدبية منذ «الغثيان» مع رؤى كامي عن التضامن والعمل في «الطاعون». لقد كانت القضية الرئيسية عند سارتر هي كيف ينخرط المرء عن أصالة وثقة في العالم

التاريخي الواقعي. وإذ تأملنا شخصيات سارتر ابتداء من أورست في «الذباب» الذي يترك آرجوس بعد الثأر لأبيه، إلى جارسين في «لا مفرّ»، المحرر المسالم الذي يأخذ طريقه إلى الحدود حين اشتدت الأحداث، ثم إلى ماثيو في المجلدين الأولين من ثلاثية «دروب الحرية» الذي هام على وجهه حائرا في إطار من الحرية غير الملتزمة. أقول إذا تأملنا هذه الشخصيات نجدها تحس أنها غير واقعية إزاء نفسها أو عاجزة عن العمل، أو لنقل إنها غير ملتزمة أو افتعلتها الضرورة وفقدت فعاليتها الذاتية. أو لنقل أيضا إنها تعمل من منطلق نية سيئة وعبر حركات درامية.

وفي الوقت الذي كان ينشر فيه كامي «لا ضحايا ولا جلادون»، كان سارتر عاكفا على كتابة نص فيلم بعنوان «في الشرك». ونظرا لأنه اكتمل على أثر «الظلام في الظهيرة»، لم يتسن تصويره فيلما سينمائيا (وإن تم تمثيله على المسرح)، ولم يصدر إلا العام ١٩٤٨. ويحاول النص عرض ظاهرة الستالينية. وأحد شخصياته ثوري ضد العنف، متطهر أخلاقيا، عاطل من أي رؤية بشأن مقتضيات التاريخ. وكان مصيره أن قتله البطل جين أجويرا. وسعى أجويرا، الذي يصور ستالين، أن يهيئ الوقت اللازم لحكومته الثورية بالخضوع لطلبات بلد مجاور قوي، وإن تحول في أثناء ذلك إلى حاكم طاغ عنيف. وانتهى أمره بأن غرق في العنف وحطمه العنف. بيد أنه على الرغم من هذا يظل واضحا وملتزما بأهدافه الثورية الأصلية. ولكن أجويرا، وهو أكثر تعقيدا واهتماما من صديقه لوسيان الأخلاقي، أطاح به رفاقه الذين مجوا أساليبه ويحاولون الاحتفاظ بوعود الثورة. غير أن هؤلاء الرفاق سرعان ما أرغمهم الجار القوي على التعاون والمساومة وتبني أساليب أجويرا.

وأعيد إخراج موضوع النص السينمائي بعد إثراء شخصياته وإضفاء أفكار أكثر تعقيدا بحيث أصبح أساسا مرجعيا لانحياز سارتر أخيرا إلى الشيوعية وتعبيرا عن موقفه في السجال الفكري بينه وبين كامي: إذ يوضح أن لا سبيل إلى تغيير عالم قائم على العنف والقهر دون أن يكون المرء ذاته عنيفا وقاهرا. ونرى سارتر في «الشرك» يحاول تلمس الطريق دون أن يصل إلى ما أصبح يعتبره سياسة تاريخية أصيلة معارضة للسياسة الأخلاقية الساذجة. ويبدو نص الفيلم الذي كتبه سارتر محاولة للرد على كتاب كامي «لا ضحايا ولا جلادون»، كما يُضمّن النص استكشافا للطهر الذي يتحدث

عنه كامي عند لوسيان. وواضح أن سارتر سمع وفهم دراسة كامي وأنه، كما سنرى فيما بعد، يختلف معه بشأنها. وإذ أخذ سارتر كامي كمثال حي للكاتب الملتزم، نراه الآن في مستهل صياغة فكره ضد كامي.

وبعد فترة قصيرة من صدور «لا ضحايا ولا جلادين» شرع سارتر في العمل على إحكام فكرته عن الالتزام. وأصدر سارتر نقده الوحيد المنشور عن كامي قبل القطيعة. وصدر هذا النقد وهو بسبيله إلى الانتهاء من «ما هو الأدب؟» الذي صدر أولا في صورة مقالات في مجلة «الأزمنة الحديثة» خلال الفترة من فبراير إلى يوليو ١٩٤٧. وبعد أن كان يقر بأن اللجوء إلى العنف يمثل دائما انتكاسة، بدأ يعرض حجة ميرلو ـ بونتي دون أن ينسب إليه الكلام، وقال ربما يكون صحيحا أن استخدام العنف ضد العنف لا يؤدي إلا إلى استمرار العنف، ولكن على الرغم من هذا يكون العنف «هو الوسيلة الوحيدة» لإنهاء العنف. ثم بدأ سارتر في التعليق مباشرة على حجة كامي التي ساقها قبل ذلك بنصف العام، ولكن دون ذكر اسمه.

استهل حديثه بالإشارة إلى أنه في اليوم الأول بعد صدور صحيفة «كومبا» «نقرأ مقالا ذكيا يقول إن من الضروري أن نرفض التواطؤ مع العنف أيا كان مصدره». ولكن في هذا اليوم تحديدا أعلنت الصحيفة عن الطلقات الأولى للحرب الفرنسية في فيتنام. «وأود أن أسأل كاتب المقال اليوم، كيف لنا أن نرفض المشاركة بشكل غير مباشر في كل أشكال العنف». ولن نفند القول بأن الحرب تعني التسليم باستمرارها حتما. «ولكن إذا حدث أن توقفت فجأة وبأي ثمن، فإنك ستكون بصدد مذبحة ما (للفرنسيين في فيتنام)، وبذا فإنك تمارس العنف ضد جميع الفرنسيين ممن لهم مصالح هناك». وجدير بالذكر أن الفكرة التي يسوقها سارتر هنا إلى كامي هي أنه إذا كان العنف واقعا أيا كان وأين كان هو فإنه «يتعين على المرء أن يختار وفقا لمبادئ أخرى». ويرى سارتر أن المسألة هي ما إذا كان هذا الاختيار أم سواه قرّب فرنسا إلى تحقيق ديموقراطية اشتراكية. «وهكذا أصبح لزاما أن نتأمل ونفكر في المشكلة الحديثة» الخاصة بالوسائل والغايات، بحيث لا يقتصر تفكيرنا على النظرية فحسب، بل نتناول الحالة العيانية الواقعية».

* * *

الحجة هنا مشوشة قليلا. ونحن لا نستطيع أن نغفل طابعها الرسمي أكثر مما ينبغي ـ «أود أن أسأل كاتب المقال اليوم»، و«إذا قلت»... إلخ. ربما لم يكن سارتر مرتاحا إلى أن ينتقد صديقا في العلن حتى على الرغم من أن كامي

انتقده في مقالات «كومبا». أم أن سارتر نفسه لم يكن ندّا، ويخاطر بنفسه في مضمار الآخر؟ أو ربما أحس الكاتب أنه لا يخاطب ندّا له. وإنما يعلم تلميذا درسا. وسبق أن رأينا سارتر يتعامل مع كامي بهذا الأسلوب، وهو ما سوف نراه ثانية. على أي حال لقد رأى سارتر أن من المهم الإجابة على كامي، وعمد في هذه الأثناء إلى تطوير موقفه بشأن العنف السياسي. ونلحظ أن دراسة كامي «لا ضحايا ولا جلادون»، ورد سارتر الموجز، إنما كانا البداية لحدوث اختلاف مهم في آراء اليسار بشأن دور العنف. وأفصح كامي عن رأيه بينما اختلف معه سارتر، ولكن في سياق نص معقد يمضي في اتجاه مختلف تماما. ويعترف سارتر في المقال بعد ذلك أن كامي وميرلو وكويستلر ـ وهو نفسه ضمنا ـ كتاب معاصرون يبدعون «أدبا من مواقف متطرفة»، ثم يثني على رواية «الطاعون» التي نشرها كامي من فوره.

ونجد سارتر أيضا في الفصول الأخيرة من «ما هو الأدب؟» يتجه إلى الطبقة العاملة لأول مرة منذ زيارته للولايات المتحدة العام ١٩٤٥. وربط اكتشافه للالتزام السياسي الذي يتحدث عنه مقترنا بما رآه جهد العامل المعاصر «لتحرير نفسه، وأيضا لتحرير جميع البشر من القهر إلى الأبد». وفكر سارتر مليّا ورأى أن العامل يمكن، من حيث التصور، أن يكون جمهوره هو: «نحن نتقاسم معه واجب النضال والتدمير: إنه يريد حقه في أن يصنع التاريخ في الوقت ذاته الذي نكتشف نحن فيه تاريخيتنا». وتحرك سارتر صوب الطبقة العاملة لأنه، شأن ماركس منذ قرابة مائة العام، تنبأ بأن أفكار الكاتب لن تصبح حقيقة واقعة من تلقاء نفسها: «إن مصير الأدب مرهون بالطبقة العاملة».

لقد كان لكتاب «ما هو الأدب؟» دور مهمّ بالنسبة إلى سارتر، إذ ربط موضوعاته الفلسفية الرئيسية بالتزامه المتنامي بالعالم التاريخي وبإقامة مجتمع اشتراكي. وجدير بالذكر أن اطراد هذا الخط الفكري بدأ قبل ذلك بعام في «المادية والثورة»، حيث قدم سارتر أساسا كانطيا صلبا أقام عليه أسبابه بشأن الالتزام. إن الاشتراكية شأن علاقة الكاتب ـ القارئ مبنية على الاعتراف المتبادل بالحريات، وتهدف إلى إنجاز مملكة الغايات. وأوضح في الوقت نفسه رؤية كلية عن مهام وقدرات الكاتب، علاوة على حجة فلسفية تدعم الاشتراكية. وربما كان هذا ما فكر فيه كامي إذ نراه في مذكراته خلال الفترة من يونيو وأكتوبر العام ١٩٤٧ يبوح ساخرا بعبارة تقول: «سارتر أو الحنين إلى الأنشودة الرعوية الكلية».

ولكن كامي بحماسته الثورية في هذه المقالات، نراه على عكس سارتر يقرر أن أدنى الإصلاحات تواضعا هي أقصى ما يمكن إنجازه. والذي لا ريب فيه أنه كان أكثر ألفة ودراية بتأملات سارتر النقدية عن الشيوعية. وقال سارتر إن الحزب «يسد الطريق على الكُتّاب الراغبين في الحديث إلى العمال». إن هؤلاء الناس الذين يتعين علينا التحدث إليهم يفصلهم عنا ستار حديدي في داخل بلدنا نحن: إنهم لن يسمعوا كلمة مما نريد أن نقوله لهم. وإن غالبية البروليتاريا يرسفون في قيد الحزب الواحد، تحاصرهم الدعاية التي تعزلهم، وبذا يشكلون مجتمعا مغلقا أصمّ من دون أبواب أو نوافذ». وأصبحت الشيوعية السوفييتية «نزعة قومية دفاعية ومحافظة»، والتي جعلت بدورها الحزب الشيوعي الفرنسي حزبا محافظا عاجزا عن اتباع سياسة ثورية أو عن المناقشة الصريحة المنفتحة. وإن «سياسة الشيوعية الستالينية تتنافر في فرنسا مع الممارسة الأمنية لمهنة الأدب». وربما وجد كامي شخصية هيرفي في المخطط الساخر الذي رسمه سارتر عن أسلوب مثقفي الحزب الشيوعي الفرنسي في المحاجاة مع من ينتقدون الحزب من أهل اليسار:

> «الإقناع عن طريق التكرار والترويع، والتهديدات المقنعة، والكلام المعبر عن القوة والازدراء، والتلميحات ذات المعاني الخفية بعروض لن تتحقق، والكشف عن اعتقاد بلغ غاية الكمال والجلال يضع نفسه منذ البداية فوق أي جدال، ويفرض سحره ويتحول إلى عدوى، والخصم لن يجد ردا أو إجابة على الإطلاق، وإنما تسقط عنه أسباب الثقة، ويوضع في مصاف الشرطة والمخابرات ويوصم بأنه فاشي».

وإن إرادة سارتر التي تزايدت قوة وعزما باطراد على التورط مع الحزب الشيوعي الفرنسي إنما تؤكد على أنه مع العام ١٩٤٧ لم يكن قد فرغ فقط من صوغ اتجاه لاشيوعي جذريا خاصا به وبصحيفته، بل وإنه بلغ أوج قوته. ترى متى له أن يلزم نفسه مباشرة؟

وسبق أن رأينا كامي يدق جرس الإنذار إزاء كتلتين ضخمتين متطاحنتين بدأتا تتشكلان وقد جلبتا معهما تهديدا جديدا بالحرب. ولقد كان على صواب. إذ في مارس ١٩٤٧ أفصح مبدأ ترومان عن دور جديد للولايات المتحدة في اليونان وتركيا، مؤكدا على الصراع من أجل الحرية ضد القهر. وفي يونيو أعلن

مشروع مارشال الذي لم يستهدف فقط إنعاش ألمانيا، بل وأن يقدم أيضا للبلدان الأوروبية الأخرى يد المساعدة لإعادة تعميرها بعد الحرب. ولم تكن مصادفة أنه فيما بين مارس ومايو تم طرد الأحزاب الشيوعية من حكومات ما بعد الحرب الائتلافية في إيطاليا وبلجيكا ولوكسمبورغ وأيضا فرنسا. وبدأت الحرب الباردة تلوح في الأفق. واضطرت تشيكوسلوفاكيا وفنلندا إلى رفض مساعدات مشروع مارشال تحت ضغط الاتحاد السوفييتي. وأعلنت سلطات بولندا والمجر إلغاء أحزاب المعارضة خلال الصيف، كما أعدمت سلطات بلغاريا شنقا بيتكوف زعيم حزب الفلاحين البلغار بتهمة الخيانة. وانعقد في بولندا خلال شهر سبتمبر اجتماع أعاد فيه الاتحاد السوفييتي إحياء الكومنترن، ولكن باسم جديد «الكومنفورم». وأعلن آنذاك ألكسي زادانوف رد الاتحاد السوفييتي الغاضب شديد اللهجة على مشروع مارشال «الاستعماري»، وعلى كتلة الجامعة الأمريكية التي تضم بلدان الأمريكتين وأنشأتها الولايات المتحدة في ريو دي جانيرو. وهكذا تحول الشرق والغرب إلى معسكرين معاديين.

وعكست أحداث فرنسا تدهور المناخ. إذ بعد التحرير بعامين بدأ مستوى المعيشة في الانخفاض. ونجد أن حصة الخبز التي كانت ٢٧٥ جراما في أسوأ فترات الاحتلال تنخفض إلى ٢٠٠ جرام في يونيو ١٩٤٧. وأغفلت الحكومة اعتراضات وزير الدفاع الشيوعي الذي لا حول له ولا قوة، وبادرت بشن هجمات في الهند الصينية كجزء من سياستها الاستعمارية الكارثية فيما بعد الحرب في مجاملة منها لاستعادة سيطرتها في كل أنحاء الاتحاد الفرنسي، حتى وإن اقتضى الأمر شن حرب لذلك. وأعلن عمال شركة رينو التروتسكيين الإضراب في مايو، والذي لم يستطع الشيوعيون التنصل منه. وعقب الإضراب مباشرة تم طرد وزراء الحزب الشيوعي الفرنسي من حكومة رامادييه. وأدى مشروع مارشال إلى الجمع بين القضيتين الرئيسيتين في السياسة الفرنسية الداخلية ـ التعمير الاقتصادي لما بعد الحرب، وعزل الشيوعيين. وهنا انحاز الاشتراكيون الديموقراطيون وحلفاؤهم أكثر إلى اليمين وقبلوا المساعدة الأمريكية وابتدعوا أسلوب العمل المحلي المناهض للشيوعية والذي استمر على مدى جيل كامل. وأعلن القطاع الفرنسي للأممية الدولية SFIO أقرب المنافسين للحزب الشيوعي الفرنسي وأكبر أحزاب الحكومة الائتلافية طوال العام ١٩٤٧ عن انحياز فرنسا داخليا ودوليا

إلى الولايات المتحدة في مناهضة الشيوعية. ولكن الشيوعيين الذين أصبحوا مصدر خوف وكراهية، ولكن دون تأثيم أو تجريم كانوا لا يزالون يحصلون على ما يقرب من ثلث الأصوات في الانتخابات المحلية في خريف هذا العام. وتميز هذا العام أيضا بالصعود المتزايد المثير لحزب ديغول، تجمع الشعب الفرنسي، الذي خاض معركته في آن واحد ضد البونابرتية والشيوعية.

امتزجت المواقف الداخلية والدولية. وواجه قادة الحزب الشيوعي الفرنسي خلال المؤتمر التأسيسي للكومنفورم نقدا شديدا لأوهامهم البرلمانية طوال السنوات الثلاث. وأكدوا التزاما بشعائر شيوعية بالية، خط ستالين الجديد، بأن اعترفوا بأخطائهم حين اتبعوا الخط السابق. ولكن ما أن عادوا إلى فرنسا حتى واجهوا معارضة شرسة. وشرعوا في الوقت ذاته في معارضة انضمام فرنسا إلى المعسكر الأمريكي وأعلنوا مساندتهم للعمال التي تدهورت، ولا تزال، مستويات معيشتهم الكارثية. وبدأت موجة من الاضطرابات النضالية استهلها اتحاد النقابات الفرنسية والاتحاد العام للعمال بقيادة الشيوعيين، والتي ووجهت بحالة من هستيريا مناهضة الشيوعية والخوف واسع النطاق من قيام تمرد على الحكومة. وبدأ خوف شديد يلاحق كل فرنسا من مارسيليا التي شهدت إضرابا عاما، وحتى مناطق المناجم في الشمال والتي تسيطر عليها قوات من المليشيات غير المنظمة. وبلغ الوضع ذروته المروعة بوقوع حادث انحراف قطار عن الخط، مما أدى إلى موت واحد وعشرين راكبا. وكتب كويستلر رسالة إلى صحيفة ديغولية بعد هذا ببضعة شهور وأشار فيها إلى ما يفيد أن الشيوعيين يعدون سرّا لإشعال حرب أهلية.

إن كتاب «ما هو الأدب؟» نقل سارتر خطوة على طريق العمل. وها هو الآن في سبتمبر ١٩٤٧ نراه يقبل عرضا بتقديم برنامج إذاعي أسبوعي بعنوان «الأزمنة الحديثة»، والذي يناقش من خلال المجلة الأحداث الجارية بالاشتراك مع بوفوار وميرلو - بونتي وآخرين. كذلك في سبتمبر، وحسب رواية بوفوار:

> «كان هناك حفنة من الاشتراكيين - مارسو - بيفرب، وجازيير - يسعون لتشكيل معارضة داخل «القطاع الفرنسي للأممية الدولية»، لالتماس مساعدة أهل اليسار غير المنتمين إلى أي حزب. وقرروا أن يقدموا معا نداء من أجل السلم وإقامة أوروبا المحايدة والاشتراكية. واعتدنا أن نلتقي كل

> أسبوع في بيت جورج إيزارد: دافيد روسيت، وميرلو - بونتي، وكامي، وأندريه برتون، وقليلين آخرين. وكنا نناقش كل كلمة، بل وكل فاصلة أو نقطة. وفي نوفمبر انتهينا من نص النداء ووقعت عليه مجلة «أسبريت»، و«لي تامب مودرن» («الأزمنة الحديثة»)، وكامي وبورديه دروسيه، ونُشر في الصحف».

ويلاحظ أن الحرب الباردة التي تلوح في الأفق كانت تحرض بعض اليساريين غير الشيوعيين من أجل البحث عن مخرج إلى خيار جديد غير «إما/أو». وجدير بالإشارة أن النص الذي ظهر في العديد من الصحف، ثم في صحيفة «اسبريت» في نوفمبر كان قد وقع عليه أيضا سارتر لإذاعته عبر البرنامج الإذاعي في ديسمبر. وقد بدأ البرنامج في ٢٠ أكتوبر بالهجوم على الديغولية في الوقت ذاته الذي أصبح تجمع الشعب الفرنسي بسببيله ليكون الفائز الأكبر في الانتخابات المحلية. وبدأ برنامج الأسبوع التالي، وهو عن الشيوعية، بالتسليم بأن الحزب الشيوعي الفرنسي يمثل الطبقة العاملة الفرنسية، وأن من الضروري فهم الاتحاد السوفييتي في سياق دولي، ومن حيث علاقته بالأوضاع الصعبة الداخلية. بيد أن البرنامج استطرد لينتقد بشدة الاثنين. وثارت ثائرة الديغوليين والشيوعيين على السواء إزاء البرنامجين الإذاعيين. وتناول البرنامج الثالث العاصفة التي أثارها البرنامجان الأوليان. وتحدثت أغلب البرامج الإذاعية ضد الحرب الباردة وضد حتمية الحرب، كما انتقدت الاشتراكية المعاصرة وكذا الشيوعية والديموقراطية الرأسمالية. وركز برنامج واحد على موجة الإضرابات الجارية بأن أجرى حديثا مع زعيم الاتحاد العام للعمال والذي يعارض إستراتيجية الحزب الشيوعي الفرنسي.

وجدير بالذكر أن البرامج الإذاعية التي تمثل جهدا جماعيا كثيفا أثارت الكثير من السجال. وتلقى سارتر عشرات الرسائل المعادية، بل والتي تهدده. وتضمنت إحدى الرسائل صورة لسارتر، وقد غطتها فضلات بشرية. وكانت العادة أن يتولى ميرلو - بونتي القيادة والمسؤولية السياسية عن أغلب المناقشات المحددة في البرامج الفردية. وعلى الرغم من أن سارتر كان مشاركا نشطا إلا أنه عني بالتفكير في القضايا التي تحتاج إلى أساليب نظرية مجردة وعامة. وتم تسجيل ثلاثة برامج أخرى، وكان الثاني عن سارتر

وهو يقرأ النص الذي وضعه مع إيزارد. وعقب الانتخابات المحلية حل روبرت شومان الأكثر محافظة محل الاشتراكي راماديير. ولكن الحكومة الجديدة ألغت السلسلة فجأة.

والقصة الكاملة لنص هذه البرامج الإذاعية التي عكف على إعدادها كل من كامي وسارتر تضمنت حقيقة مثيرة. المداخلة السياسية الأولى التي نهض بها سارتر كانت كتابة جماعية جديدة لمسودة بيان سبق أن كتبه كامي. ذلك أن كامي كتب بيانا ردّا على خطاب ترومان في ريو دي جانيرو في مطلع سبتمبر، وذلك بهدف أن يوقع عليه معه آخرون. واستهل البيان بوصف خطاب ترومان بأنه «قاتل»، ورفض منطقه الذي يقوم على مبدأ التدخل العسكري. وأتى كامي بالبيان لعرضه في اجتماعات ضمت، فيمن ضمت، سارتر. واختلف الحاضرون بشأن «كل كلمة وكل فاصلة في بيان كامي» حتى أصبح صياغة جديدة للنص النهائي، وهو النص المنشور في نوفمبر ١٩٤٧. والملاحظ أن المعنيين بإثبات كتب سارتر ينسبون إليه النص، بما في ذلك العنوان «نداء أول إلى الرأي العالمي»، من دون ذكر مسودة كامي أصلا.

وتوضح لنا المقارنة بين مسودة كامي والنص الأخير الذي وضعه سارتر أن المجموعة أسقطت الإشارة الأولى التي أشار فيها كامي إلى ترومان، واحتفظت بالقسط الأكبر من البنية الأساسية، وضاعفت من حدة العبارات الختامية الغامضة. وخففوا من حدة خوف كامي من احتمال غزو سوفييتي، وإن احتفظوا بأكثر أفكاره، وكذا بنص صياغته في سبعة مواضع على الأقل. وتتمثل النقاط الأساسية في كل من مسودة كامي ونص سارتر في أن نشوء كتل فتح الطريق للحرب؛ وأن الحرب بالنسبة إلى أوروبا تعني الاحتلال أو دمارها كساحة للمعارك، أو الاثنين معا، علاوة على أن الاستعداد للحرب سوف يشيع الاضطراب والفوضى في الحياة الاقتصادية و«يؤخر التحرر الاجتماعي». وإن فكرة توازن الخوف لا معنى لها على الإطلاق. ولكن يمكن تجنب الحرب إذا ما أصبحت أوروبا قوة فاعلة نشطة. ثم جاء الاختلاف - إذ يتعين على أوروبا أن تكون الرائدة لإنشاء منظمة دولية تتجاوز حدود السيادة القومية وتنشئ مجتمعات لا هي رهن الشرطة ولا خاضعة للمال (كامي) - أو عليها أن تتحد لتستعيد سيادتها ضد الكتل وتلتزم مسار «التحول الراديكالي للنظام الاجتماعي القائم» (سارتر). وعلى الرغم من أن النص الثاني أكثر

قليلا من حيث الطابع النضالي عن النص الأول، إلا أن الاقتراحين يفتقران إلى بؤرة للاهتمام كما تعوزهما المصداقية. وكان هذا أحد الأسباب في أن الجهد خاطب آذانا صماء.

إن سارتر، المبتدئ في السياسة، صاغ مداخلته السياسية الأولى جنبا إلى جنب كامي المحنك وتخلص من أسر نص صديقه. وعلى الرغم من اختلاف مشارب وتطور كل منهما، إلا أنهما، سارتر وكامي، ارتبطا معا من خلال مشروع مشترك. وشهد سارتر وبوڤوار الكثير من كامي خلال هذا الخريف. وتصفه بوڤوار في حديثها إلى ألجرين بقولها «رجل ظريف ولكنه صعب المراس». إنه حين ضاق بروايته التي يكتبها «الطاعون» تكبر وتعجرف، ولكن ما أن حقق نجاحا ملحوظا حتى أصبح متواضعا مخلصا للغاية». وعاد كويستلر إلى باريس في أكتوبر. وتكشف رسائل بوڤوار في هذه الفترة عن أن معارضته للشيوعية كانت أشد غلوّا من عداء كامي لها، وأنها هي وسارتر أصبحا أكثر عداء تجاه الشيوعيين، وأقرب إلى كامي في هذا النطاق، مما سيكون عليه الوضع بعد ذلك. واعتادوا أن يقضوا الوقت جميعا معا. وقضوا إحدى الأمسيات معا في مسكن كامي. وأفسد عليهم هذه الليلة بالحديث عن مناهضة الشيوعية كل من كويستلر وصديق أمريكي، على الرغم من أن كامي كان ودودا للغاية ورائق المزاج. ثم غادر كويستلر باريس ولكنه عاد بعد سنة. وتقول بوڤوار في هذا:

> «طلب أن نكرر ليلتنا (أكتوبر) وأن نقضى هذه الليلة في شهرزاد. ذهبنا معه ـ مامين وكامي وسارتر وأنا ـ ولم يكن معنا فرانسين، ولكن إلى ناد ليلي روسي آخر. وأصر على أن يعرّف رئيس العمال في الفندق أنه يحظى بشرف خدمة كامي وسارتر وكويستلر. وعاد بنغمة أكثر عدائية من العام الماضي إلى موضوع «لا صداقة من دون اتفاق سياسي في الرأي». وأراد سارتر على سبيل الدعابة أن يغازل مامين مبديا إعجابه لها. ولولا أنه تصرف على نحو غير مألوف للغاية لكان من الصعب القول أنه أحمق طائش، وكنا جميعا قد لعبت الخمر برؤوسنا، بحيث لا نعتبر أن في الأمر مساسا بأحد. وفجأة قذف كويستلر كأسا إلى رأس سارتر لم تصبه وتحطم الكأس على الحائط».

ويبدو على الأرجح أننا لن نعرف مدى المنافسة التي يضمرها سارتر بينه وبين كامي أو كويستلر بشأن مامين الحبوبة. إذ لابد من أن التوترات كانت معقدة في الحقيقة. وراود بوفوار أمل عقد علاقة عاطفية مع كامي قبل ذلك بسنتين ولكنها لم تنجح. واستضافها كويستلر ليلة في العام السابق وقتما وقع كامي في غرام مامين. وسافر كامي وفرانسين إلى إنجلترا في أواخر ذلك العام، وبصحبتهما مامين وكويستلر.

«وختمنا أمسيتنا، ولكن كويستلر لم يشأ العودة إلى البيت. ثم تبين له أنه فقد محفظته، ومن ثم عليه الانتظار في النادي. ومشى سارتر مترنحا فوق الرصيف، واستغرق في الضحك حين قرر كويستلر أخيرا أن يصعد الدرج منحنيا وهو يسير على أربع. وشاء له أن يواصل شجاره مع سارتر. وقال كامي لكويستلر وهو يربت بلمسة ودودة على كتفه: «تعالى، هيا نذهب إلى البيت». أزاح كويستلر يده من على كتفه بقوة، ووجه ضربة إلى كامي الذي حاول حينئذ الانقضاض على المعتدي. ولكننا باعدنا بينهما. وتركنا كويستلر مع زوجته وركبنا في سيارة كامي. كان هو الآخر منقوعا في الفودكا والشمبانيا واغرورقت عيناه بالدموع: «كان صديقي وضربني!». وظل منحنيا بجسده ضاغطا على عجلة القيادة بينما السيارة تنطلق مندفعة يمينا ويسارا بشكل مروع، وحاولنا إيقافه وقد أفقنا تماما بسبب الخوف».

ورأينا كامي خلال الأيام القليلة التالية وقد وضع نظارة شمس ليخفي عينيه السوداوين. واعتاد كل من سارتر وبوفوار وكامي خلال هذه الفترة استعادة ذكرى تلك الليلة معا. وكان كامي يسأل في حيرة: «هل تعتقد أن بالإمكان أن تمعن في الشراب على هذا النحو ثم يكون بوسعك أن تعمل؟».

* * *

قاد بيان كامي/سارتر إلى نشاط سياسي ألقى سارتر بنفسه في خضمه - التجمع الثوري الديموقراطي، حركة اشتراكية ومحايدة جديدة. وتحدد دوره في معارضة كلتا الكتلتين والضغوط من أجل الحرب مع العمل في الوقت نفسه على خلق مساحة لفرنسا المستقلة والاشتراكية عن أصالة. ويضم في الأساس شيوعيين سابقين، وأعضاء سابقين من الجناح اليساري في القطاع

الفرنسي للأممية الدولية، وتروتسكيين، ويساريين مسيحيين، وغير هؤلاء من الاشتراكيين المستقلين. ونما التجمع الثوري الديموقراطي بسرعة وازدهر خلال فترة قصيرة، ثم انشق على نفسه بعد أن طغت عليه ضغوط قضايا الحرب الباردة.

وعقد التجمع الثوري الديموقراطي خلال شهره الأول، مارس ١٩٤٨، اجتماعا حاشدا حضره أكثر من ألف شخص، ثم تبعه اجتماع آخر ضم أكثر من أربعة آلاف. وكتب سارتر البيان الأول للتنظيم، ويحمل عنوان «جمعية الشعب الحر من أجل ديموقراطية ثورية لبناء حياة جديدة على أساس مبدأ الحرية والكرامة الإنسانية. وربط ذلك بالنضال من أجل ثورة اجتماعية». ورأى سارتر أن الغرض الرئيسي من تشكيل التجمع الثوري الديموقراطي هو الجمع بين مصطلحين يئس كامي من التوفيق بينهما: الحرية والاشتراكية. وسوف يكون هذا هو رد فرنسا وأوروبا على الصراع والمنافسة بين الأمريكيين والروس. وإذ سعى التجمع الثوري الديموقراطي إلى الجمع بين الروح الثورية والديموقراطية، فقد أعلن رفضه الحرب الباردة، وانتقد كلا من الاتحاد السوفييتي والغرب الرأسمالي. وحرص على أن يكون «تجمعا» لا حزبا ـ على الرغم من أن المعروف والشائع أنه «حزب سارتر وروسيه» ـ وبذا سمح للعديدين من أعضاء الأحزاب السياسية المختلفة بالانضمام إليه. وحظي التجمع باهتمام الصحافة التي خصصت له مساحات لعرض فعالياته، كما عقد عددا قليلا من الاجتماعات الجماهيرية، وأصدر صحيفة نصف شهرية.

ولكن زميلي سارتر، وهما جورج ألتمان وروسيه، بدآ في قبول أموال أمريكية ومصدرها، كما نعرف الآن، المخابرات المركزية الأمريكية (سي. آي. إيه.). ولذلك فإنه مع أبريل ١٩٤٨، وهو موعد عقد أكبر حشد جماهيري ضم عشرة آلاف شخص سمع الحاضرون ثناء على الأسلحة النووية الأمريكية. وطبيعي أن اتجه هذان اليساريان غير الشيوعيين إلى اليمين نتيجة ضغوط الحرب الباردة والتمويل الأمريكي. وأحس سارتر بالخيانة، ومن ثم أعلن استقالته من قيادة التجمع في ذلك الخريف، وسرعان ما انقسم التجمع.

وشارك كامي سارتر في منصة الخطابة إبان أحد الاجتماعات الرئيسية للتجمع الثوري الديموقراطي، ولكنه لم يكن قط منخرطا فيه مثل سارتر. وخطط الاثنان للسفر معا إلى الولايات المتحدة باسم التجمع الثوري

الديموقراطي. ولكن بعد أن أخفقت هذه الخطة سافرا إلى أمريكا الجنوبية. وتوافرت لدى كامي أسباب عديدة للابتعاد عن الآخرين. وعكف آنذاك على كتابة «المتمرد»، التي كانت عملا تقتضيه الظروف بإلحاح. ولم يكن في نهاية الأمر ملتزما شديد الحماس، بل شخص تخلى عن المخططات الكبرى للتغيير الاجتماعي، لإيمانه الآن بأن من المستحيل إنجازها من دون عنف واسع النطاق وتدخل بالقوة. وهكذا تطامنت آماله وطموحاته التي ساورته بعد الحرب. وشرع كامي الآن يتحرى عن عدوه على الطرف اليساري. وإذ أصبح الآن مناهضا للشيوعية ومناهضا للماركسية بدأ يصف نفسه بعبارة «الإصلاحي العنيد».

واصطدم كامي وسارتر علنا إزاء فكرة محددة. إذ كتب سارتر مقالا عن الحرية السياسية وظهر في مجلة «كاليبان» واسعة الانتشار (وهي تشبه مجلة «المختار» من ريدرز دايجست الأمريكية)، وذلك في أكتوبر ١٩٤٨. وبعد شهر من صدورها ظهر مقال آخر على النقيض تماما بقلم كامي. ونظم إصدار المقالين جان دانييل، وهو فرنسي جزائري صديق لكامي ويدعم المجلة. وجدير بالذكر أن دانييل نشر مقال سارتر تحت عنوان «أن يكون المرء جوعان يعني أنه يطالب بالحرية». ويمثل هذا العنوان صيغة جديدة راجع من خلالها دانييل حديثا أدلى به سارتر في اجتماع للتجمع الثوري الديموقراطي في ربيع العام ١٩٤٨.

ووصف سارتر الحرية في ظل الرأسمالية بأنها «خداع»، ذلك لأن العمال لا يملكون حرية اقتصادية حقيقية. إن جوعهم، على العكس من ذلك، هو مطالبة بأن يتحرروا من الحاجة، وأن يكونوا بشرا بكل معنى الكلمة. وتحدث كامي في رده عن الديموقراطية بأنها «ممارسة في تواضع». لم يشأ تبسيط المسائل على نحو ما يفعل الرجعيون والثوريون، وتبنى الديموقراطية باعتبارها «أقل نظم الحكم شرا». ورفض، مثلما رفض سارتر، الموافقة على وضع البروليتاريا، ولكنه رفض بالقدر نفسه «أن يفاقم من البؤس باسم نظرية ما أو باسم عقيدة جامدة عمياء تحدثنا عن الخلاص». وهاجم سارتر الديموقراطية «البورجوازية»، بينما أثنى كامي على الديموقراطية ثناء كبيرا ـ متجنبا صفة البورجوازية ـ إذ اعتبرها أقل نظم الحكم عدوانية. ولم يكن سارتر، حسبما هو واضح، الديموقراطي «المتواضع» الذي يتحدث عنه كامي. ومن أسف أن المقالين لم يؤلفا معا حوارا حقيقيا، ذلك لأن دانييل الماكر جعل كامي يبدو في صورة من يرد على سارتر

على الرغم من أن مقاله ظهر في يوليو. بيد أن الحديث يمكن اعتباره حوارا من حيث إن الاثنين التزما طريقين متباعدين بوضوح. ولكن حري بنا ألا نقف طويلا عند اختلاف الرأي ـ ذلك أن مقال كامي ظهر أولا في صحيفة «لا جوش» التي يصدرها التجمع الثوري الديموقراطي.

* * *

وفي أبريل ١٩٤٨، عقب بداية نشاط التجمع الثوري الديموقراطي بفترة قصيرة، مُثلت مسرحية سارتر «الأيدي القذرة» لأول مرة. إنها أكثر مسرحياته تعبيرا عن الالتزام عنده، والتي كتبها وعرضها لأول مرة مع مستهل شروعه في العمل السياسي. وتمثل الشخصية الرئيسية، واسمه هويردر، القائد الماركسي العقائدي ولكن في غير جمود نظري، وهو البطل الأكثر إيجابية عند سارتر. وشاء لهذا البطل أن يلوث يديه بالعمل على إنجاز الاشتراكية. وتبدو القصة من نواح كثيرة موحية إلى حد كبير بمقتل ليون تروتسكي في المكسيك العام ١٩٤٠. واكتسب التزام هويردر ثراء بفضل دفئه ونظرته إلى الناس، ومواقفه المباشرة الصريحة، وما يتحلى به من أمانة ومرونة وحس بالمنظور التاريخي. ويعامل هويردر الناس باعتبارهم أفرادا، ويحاول فهم جميع المواقف كما هي في الواقع. صفوة القول أنه شيوعي مثالي كأبسط ما يكون الشيوعي في الحياة وأكثر ما يكون اعتدالا، ولا يمثل النمط السائد للحرب ـ إلا في أنه يقول لهوجو لو أنه في مكانه ـ كقاتل دسه الفصيل المعارض في الحزب ـ ما كان له قط أن يتراجع على نحو ما فعل هوجو أول الأمر.

وتشكل الحزب عن طريق اتحاد الاشتراكيين الديموقراطيين بزعامة هويردر والشيوعيين. وإن من يعتزمون اختيار هويردر هم الشيوعيون الحقيقيون ـ وهو ما يشحذ من حدة نقد سارتر للحزب. وردا على هذا ثارت ثائرة الحزب الشيوعي الفرنسي واحتج على تمثيلها. ذلك أن المسرحية تصور في نهاية الأمر أولجا ولويس المأجورين الستالينيين، وهما يعاملان هويردر باعتباره عميلا يتعين استئصاله لأسباب تتعلق باختلاف أساليب العمل. ويلاحظ أن هذين المأجورين الستالينيين من أصحاب الفكر العقائدي الجامد وأصحاب رأي متصلب لا يعرف المرونة، ومن ثم فإنهما عاجزان عن التفكير في استقلال. ويعمدان إلى تقليد آخر أساليب خط الحزب وصولا إلى درجة جعل هويردر ـ بمكر ودهاء ـ بطلا بعد موته، نظرا إلى أن خط الحزب قد

تغير. ولكن لا مناص من الشعور باليأس: لقد مات هويردر وهوجو، وخط الحزب متهم، ومسؤول، وأعيدت كتابة التاريخ ثانية. ونعرف رأي كامي في المسرحية من مذكرات سارتر:

«ذهب معي كامي لحضور أحد العروض التجريبية (البروفات) الأخيرة (ولم يكن قد قرأ المخطوطة بعد). وبينما نحن عائدون معا بعد ذلك قال: رائع، ولكن ثمة جزئية واحدة لا أوافق عليها، لماذا يقول هوجو «لا أحب الناس لما هم عليه، بل لما ينبغي أن يكونوا عليه» [وهذا اقتباس تقريبي من المشهد الخامس]، ولماذا يجيب هويردر «وأنا أحب الناس لما هم عليه؟» عندي أن يكون الأمر على العكس. أو بعبارة أخرى أنه ظن في الحقيقة أن هوجو أحب الناس لما هم عليه مادام لم يشأ أن يكذب عليهم، أما هويردر، فهو على النقيض، بدا في نظره شيوعيا عقائديا جامدا، يقيم الناس في ضوء ما ينبغي أن يكونوا عليه، وقد خدعهم باسم مثل أعلى. وهذا تماما عكس ما قصدت قوله».

انحاز كامي إلى هوجو، وانحاز سارتر إلى هويردر. ولكن كليهما عارضا ما اعتبراه الموقف المهيمن للحزب: كل شيء مباح اليوم من أجل بناء مجتمع الغد الجيد. وربما ظن كامي أن حب هويردر مغرق قليلا في التجريد والشكليات، وأن الحب الوحيد العملي العياني في المسرحية هو حب هوجو لهويردر. علاوة على هذا فإن سارتر أضفى على شخصية كل من هويردر وهوجو تعقدا كافيا وحياة وصوابا سياسيا أخلاقيا بحيث يمكن التوحد مع أي منهما.

بيد أن الشيء الأكثر أهمية في رواية سارتر هو أنه وكامي فسرا السلوك العملي للشخصين في ضوءين مختلفين. ليست المسألة القراءة «الصحيحة» لمسرحية الأيدي القذرة، بقدر ما هي مواقف كل منهما التي نظرا من خلالها إلى المسرحية. إن كامي المتشبث بالمبدأ ورافض الكذب وقاء للسياسة، لا يقبل الانفصال عن احترام الناس وحبهم. ولكن سارتر يرى أن الالتزام بالعمل على أساس المبدأ يكون صحيحا بالنسبة إلى الغايات بعيدة المدى.

* * *

فيما بين العامين ١٩٤٦ و١٩٤٨ طالب كل من سارتر وكامي بإقامة أوروبا الديموقراطية والمتحولة جذريا لتجنب الحرب واتخاذ طريق وسط بين الكتلتين الرأسمالية والشيوعية. وهذا هو عين ما حاوله التجمع الثوري الديموقراطي،

ومن ثم كان لانهياره أثره العميق في نفس سارتر على نحو ما تشير مذكراته. «تمزقت بسبب الضربة القاسية للتجمع الثوري الديموقراطي. التزام واضح ومحدد بالواقعية. ليس بوسع المرء خلق حركة. أصبحت الآن الإمكانات الفعلية للتغيير السياسي أمرا حاسما. بدت الظروف مواتية للرابطة. إنها تمثل إجابة مؤكدة على مطلب نظري مجرد حدده الموقف الموضوعي، ولكنها ليست إجابة على أي مطلب واقعي بين الناس. لذلك، وبناء عليه لن يساندوها».

سوف يشدد سارتر الآن على أن الظروف الاجتماعية والإمكانية التاريخية محوريان لأي مناقشة للأهداف السياسية. ولكن حيث إن الحرب الباردة تضيق من المساحة التاريخية المتاحة لعمل ذي قيمة، فإن سارتر الواقعي الجديد «مضطر إلى الاختيار» بطريقة لا يقبلها كامي. ولكن سارتر شاء أن يقف إلى صف أكثر الإمكانات المقبولة على نطاق أوسع للتقدم الاجتماعي، لذلك فقد اتجه إلى الشيوعية بعد أن حاول اتباع طريق ثالث مثالي. وقرر حينئذ أن الحقائق التاريخية جعلت هذه المحاولة ضربا من المحال. واهتدى بشق النفس إلى طريقة في السياسة بعد فترة طويلة من التلمذة السياسية. ولهذا بات مفهوما لماذا جعل ماركس الواقعية معلما مميزا لسياسته. ورأى سارتر أن السير مع تيار التاريخ، وهو ما يكرهه كامي، أمر لا فكاك منه.

وبينما كانت الحرب الباردة تفرض نفسها بقوة دفع متزايدة، ظل سارتر وكامي بعضا من عالم يتضاءل، هو عالم المثقفين اليساريين المستقلين الملتزمين باتباع موقف نقدي تجاه كل من الشرق والغرب مع التماس طريق وسط بينهما. وطبيعي أنهما داخل هذا العالم الصغير جدا يمكن أن يختلفا بشأن احتمالات التغيير ومدى راديكالية التغيير المرتقب، وما إذا كان نقدهما العميق للشيوعيين مصدره موقف الحزب الشيوعي الفرنسي وهل هو ثوري بما يكفي أم ليس كذلك. ولكن انهيار التجمع الثوري الديموقراطي قضى على هذا العالم. وها هنا دمج سارتر مذهبه الوجودي في الماركسية وزاوج بين العنف والثورة واتخذ موقفا حاسما ضد الغرب. وطبيعي أنه مع كل خطوة على هذا الطريق واجه ورفض المثال الذي يعبر عنه كامي، وكذا حججه، ولكن دون ذكر اسم صديقه.

وفي هذه الأثناء انخرط كامي، العام ١٩٤٨، في مساجلات علنية مع إيمانويل أستير دولا فيجيري، وهو رفيق طريق لكامي وشخصية بارزة في المقاومة ورئيس تحرير صحيفة «ليبراسيون» الموالية للشيوعيين. انتقد أستير

«لا ضحايا ولا جلادون». وتضمن رد كامي على نقد أسيتير ملاحظته الشهيرة أنه لم يتعلم الحرية عن طريق ماركس: «تعلمتها من الفقر». ونظرا لاتهام كامي بالتواطؤ مع المجتمع البورجوازي فقد وجه نقدا مقذعا ضد أسيتير وضد جميع الشيوعيين ورفاق الطريق من المثقفين الذين سعوا من أجل «الهيمنة على العالم باسم عدالة المستقبل». ولقد كان مسعاهم تواطؤا مع القتل، وانتصارهم انتصارا للمذابح: إن من يدعون الإحاطة علما بكل شيء والقدرة على حسم وإقرار كل شيء ينتهي بهم الأمر بقتل كل شيء».

وأصبح كامي في سبتمبر ١٩٤٨ مؤيدا لموقف غاري ديفيز، وهو أمريكي تخلى عن مواطنته الأمريكية، وأعلن نفسه مواطنا عالميا، وذلك خلال اعتصام أمام المقر الرئيسي للأمم المتحدة في باريس. واستشعر كامي ألما مبرحا لرفض سارتر وبوفوار مشاركته في مسألة اعتبر أنها «كلام فارغ ولا شيء على الإطلاق». وهنا عقد كامي مؤتمرا صحافيا لدعم جهود ديفيز من أجل التحدث أمام اجتماع للأمم المتحدة في نوفمبر. ووجه كامي خطابين لمسيرتين ضخمتين، تأييدا لموقف ديفيز. وهللت صحيفة «لوموند» للخطاب الثاني واعتبرته «رائعا وحادا قاطعا». وفي يونيو ١٩٤٩ أعلن سارتر أخيرا مساندته الحاسمة للحركة.

ورأى أصدقاء كامي أنه يشجع في سذاجة مخططا لإنسان غريب الأفكار وليس أمامه فرصة للنجاح. ولكنه على خلاف سارتر لم يحاول أن يكون واقعيا بمعنى ربط نفسه بمواقف واضحة للعيان أمامها احتمالات قوية للنجاح. وقدم كامي في «لا ضحايا ولا جلادون» برنامجا «طوباويا» غير واقعي من أجل وحدة عالمية وديموقراطية دولية. وأفضى هذا الموقف إلى رفض الجانبين الضالعين في الحرب الباردة، وكذا رفض الصراع ذاته، والصراع من أجل قيم أخلاقية ضد الاتجاه المروع الذي يتحرك فيه العالم. وأدت قرارات كامي مباشرة إلى بدائل «غير واقعية» - من مثل الدفاع عن المواطنة العالمية - بينما تقود «الواقعية» إلى تبني موقف إحدى الكتلتين الموجودتين على الساحة. ولقد كان كامي يقينا مثاليا. لم يكن أبدا داعية يؤيد الحرب الباردة، ذلك أن نفوره من العنف تزايد قوة مع الأيام. وإذا كان تنامي الالتزام عند سارتر بالعمل الفعال المثمر قاده إلى التخلي عما اعتبره مثالية في باكر حياته، فإن مثالية كامي التي لا تستند إلى أي مبرر تنطوي على ضعف وليس قوة «التخلي عن» الواقع من أجل تغييره. وهكذا يتجلى البعد «الطوباوي» أو الخيالي مرة ومرات ليتمثل في اقتراحه لإعلان هدنة مدنية

إبان الحرب الجزائرية. وكان تجاهل ما في موقف كامي من قوة مظهرا الاستخفاف باقتراحه على نحو ما فعلت بوفوار في العام ١٩٦٣. وشدد على ضرورة ابتكار بدائل بغض النظر عن قلة عدد المؤيدين له في البداية.

* * *

ظل سارتر وكامي يتحركان في اتجاهين متضادين خلال الفترة من ١٩٤٩ حتى ١٩٥١. ونلاحظ أن أول نشاط سياسي رئيسي لسارتر منذ التحرير سقط ضحية للحرب الباردة. وهذا هو النشاط الذي ربما قاده عبر عدد من الاتجاهات، بل وربما بعيدا عن السياسة تماما. وإزاء هزيمة التجمع الديموقراطي الثوري ناضل سارتر لفهم حقيقة الخطأ الذي حدث بالنسبة إلى الحركة ومن أجل الاهتداء إلى سبيل آخر مؤثر في الأحداث.

ونجد كذلك أن الاختلافات التي ربما أدى أي منها إلى اجتذاب كل منهما إلى الآخر أصبحت الآن عامل فرقة وانقسام. ووقعت في العام ١٩٤٨ حادثة شديدة الأهمية، حتى أن سارتر تذكرها بعد مضي خمس وعشرين سنة في معرض رده على استفسار بوفوار كيف سارت الأمور بينه وبين كامي وتدهورت من «سيئ إلى أسوأ» حتى وصلت إلى حد القطيعة. وقعت «حادثة شخصية لم يكن من شأنها على الأقل أن تجعلني أغضب منه، لكنه رآها غير مقبولة». وسألته بوفوار: «هل هذا موضوع المرأة التي أردت عمل علاقة غرامية معها؟»، لكن لا يزال رد سارتر، وبعد مرور سنوات طوال يتأرجح حول المسألة:

> «كان حادثا أخرق. قطعت هذه المرأة علاقتها به لأسباب شخصية، وناصبني العداء لفترة ما. إنها في الحقيقة قصة معقدة. نشأت علاقة غرامية بينه وبين كاساريس ثم انفصلا. قطع هو العلاقة معها وأسر إلينا عن ثقة بهذا الانفصال. وأذكر ذات مساء كنت معه في حانة، إذ اعتاد خلال هذه الفترة التردد كثيرا على الحانات. كنت وحدي معه. وكان هو قد انفصل لتوه عن كاساريس، ويحمل في يديه خطابات منها له، ... خطابات قديمة عرضها عليّ وهو يقول: «ها أنت كما ترى! متى وجدتها ثانية، ومتى أستطيع أن أقرأها ثانية...». ولكن السياسة باعدت بيننا».

وعادت العلاقة بين كامي وماريا كاساريس في يونيو ١٩٤٨. كانت قد انفصلت عنه منذ ثلاث سنوات بسبب رفضه الانفصال عن زوجته. ولكنهما الآن، وعلى الرغم من ذلك، قررا الارتباط على مدى امتداد حياة كامي. ترى

هل قال سارتر إن ثمة علاقة غرامية نشأت قبل ذلك بينه وبين كاساريس، وإن كامي عرف ذلك ومن ثم استشاط غضبا؟ لا يوجد دليل آخر على أنها هي المرأة المقصودة. ولكن هناك توترات ناشئة عن علاقات جنسية أخرى - سبق أن احتج سارتر في العام ١٩٤٤ على واندا كوزاكيوفيتش وحذرها من الوقوع في غرام كامي، وهناك علاقة الحب بين كامي ومامين كويستلر. وعلاوة على هذا ما هو معروف عن سارتر وكامي وملاحقاتهما المستمرة للنساء. ومن ثم، وفي ضوء هذا كله نرى أن المواجهة ربما تكون حتمية. وحرص الاثنان على كتمان المنافسات الأخرى. لذلك فلا غرابة أن نجد من العسير مناقشة هذه العلاقة تحديدا أو أن نحاول تجميع شذرات من هنا ومن هناك على مدى خمس وعشرين سنة.

> «واعتاد الاثنان خلال العام ١٩٤٩ أن يلتقيا أقل مما كانت الحال في السابق، وإن واظبا على تناول الغداء المعتاد مرة في الأسبوع. وحدث أن قال كامي في نوفمبر، خلال حديث معه، أن علاقته الودية مع سارتر لا تزال قائمة راسخة: «نعم لقاءاتنا أقل ولكن دافئة». وبعد ذلك بفترة غير قصيرة وافق سارتر مع بوفوار على أن هناك دائما «قدرا معينا من الحميمية على المستوى الشخصي الخاص» ماداما متفاهمين، بل إن خلافاتنا السياسية لا تثير قلقنا كثيرا خلال محادثاتنا». ولكن ظل طريق كل منهما يتباعد عن الآخر».

* * *

وفي العام ١٩٤٩ نشر سارتر «النوم المضطرب»، وهو المجلد الثالث من «دروب الحرية». ونقرأ في هذه الرواية أن ماثيو استقر رأيه أخيرا على الانخراط في العمل وإن بدا عبثيا، وارتبط معه الشيوعي برونيت بما لديه من حمية وطاقة سياسية. وتشير خاتمة الرواية إلى الجمع بين الأصالة الشخصية والسياسية، الأمر الذي يناضل سارتر من أجله. وأصدر كامي المجلد الأول من المقالات السياسية الكاملة في العام ١٩٤٩، لكنه كان عاكفا أساسا على إنجاز «المتمرد»، والمسرحية الرفيقة لها «القتلة العدول»، والتي ظهر أول عرض مسرحي لها في نهاية السنة. ويستكشف هنا قتل دوق روسي كبير في نهاية القرن. ونجد كامي هنا، كما هي الحال في «المتمرد» معنيا بأمر المثقفين ونزوعهم نحو العنف الثوري. وركز اهتمامه على الموقف المعقد لشباب المثقفين عند تحولهم إلى

ثوريين. وتتسم شخصياته بالكثير من الضعف الذي يعزوه كامي إلى معارضيه: إنهم معنيون بالعدالة المجردة، دون الاهتمام كثيرا بالأفراد في وجودهم المادي المحسوس؛ إنهم يقدسون العنف ويؤمنون بأن المستقبل له أولوية على الحاضر، وأنهم يكرهون الحياة بما في ذلك حياتهم هم. ويريدون، بنظرتهم المشؤومة، القتل والقتل بلا نهاية حتى يضعوا نهاية للقتل. ومع هذا، حسبما يقول كامي، وهو ما سوف يفصله في «المتمرد» ـ إنهم أكثر جاذبية وأجدر بالاحترام من سواهم في منتصف القرن. ذلك لأنهم رفضوا قتل ابن عم وابن أخت الدوق الكبير؛ وأنهم يحبون بعمق، ويريدون تولي مسؤولية القتل ـ أعني أنهم ليسوا بعد عدميين. إنهم يريدون الموت طواعية جراء إزهاقهم لروح. «بينما هناك آخرون ينتحلون سلطتنا للقتل، لكنهم أبدا لن يضحوا في المقابل بحياتهم». وكلمة «آخرون» تعني أسيتير وغيره من المثقفين الشيوعيين والناصرين.

لم يكن سارتر قد أصبح من عداد هؤلاء بعد. وحين رآه كامي هو وبوفوار عند افتتاح المسرحية في إحدى ليالى ديسمبر في العام ١٩٤٩ «أعاد دفء التحية أجمل أيام صداقتنا». وقالت امرأة واقفة بجوار كامي إنها أحبت المسرحية أكثر مما أحبت «الأيدي القذرة». وإذا كامي الذي لم تستثره بعد هذه المزاوجة يتجه نحو سارتر «وعلى شفتيه ابتسامة رضا وقال «عصفوران بحجر واحد».

* * *

فرغ سارتر فورا من توقيع اسمه لاعتماد افتتاحية ميرلو ـ بونتي في مجلة «الأزمنة الحديثة»، والتي تتناول موضوع معسكرات العمل القسري في الاتحاد السوفييتي، وهو الموضوع الذي أثارت بشأنه الصحافة الفرنسية تنبؤات جديدة. وتضمن المقال انتقادات أساسية للاتحاد السوفييتي، سائلا بأي حق يمكن أن نسمي بلدا اشتراكيا وهو يودع عشر سكانه في معسكرات عمل قسري؟... ورفض ميرلو ـ بونتي جهود زميله السابق دافيد روسيه لوصف الاتحاد السوفييتي بعبارة «العدو رقم واحد»، وأن يجعل كل صراعات العالم أمرا ثانويا بالقياس إلى معارضة الشيوعية. وشدد المقال على انتقاد القهر في كل من الشرق والغرب. وإن انحطاط الشيوعية الروسية ليس من شأنه أن يجعل الصراع الطبقي أسطورة، أو أن يجعل «مشروعات الأعمال الحرة» ممكنة أو مستصوبة، أو انتقاد الماركسية بعامة كلاما فارغا وباطلا. وكان الأهم في نظر سارتر هو مساندته لأمرين تحديدا. الأول أن المقال أكد من جديد على

«الإلهام الإنساني» للماركسية، بما يعني أنه هو وميرلو ـ بونتي» يؤمنان بقيم واحدة باعتبارهما شيوعيين. والثاني، أيا كانت طبيعة المجتمع السوفييتي الراهنة فإن الاتحاد السوفييتي إجمالا يحتل موقفا في ضوء توازن القوى إلى جانب المناضلين ضد أشكال الاستغلال المعروفة لنا. حقا إن معسكرات العمل شوهت الصورة، لكنها لم تنف المكانة التقدمية للاتحاد السوفييتي في العالم. وتجلى في هذا المقال الموقف المعقد الذي يتخذه ميرلو ـ بونتي تجاه الشيوعية. وطبيعي أن إضافة اسمه إلى المقال يعني أن سارتر وقد اضطر إلى الاختيار إنما كان ميالا تجاه الشيوعية على الرغم من عيوبها.

* * *

في يونيو ١٩٥٠ غزت كوريا الشمالية الجنوب، مستهلة واحدة من أخطر المواجهات التي عرفتها الحرب الباردة. وفقد ميرلو ـ بونتي أمله الأخير في إمكان أن يقوم الاتحاد السوفييتي بدور إيجابي تاريخي. وقرر التزام الصمت، كما فقدت «الأزمنة الحديثة» اتجاهها نتيجة لذلك. وبقي قدر من الدفء واضحا بين سارتر وكامي. وتحركت القوات الأمريكية شمالا، وساد حينئذ في فرنسا حديث عن إمكان أن يغزو الاتحاد السوفييتي فرنسا على نحو ما تذكر بوفوار.

> «سأل كامي سارتر: «هل فكرت فيما قد يحدث لك حين يصل الروس إلى هنا؟» ثم أردف بقدر كبير من الانفعال: «يجب ألا تبقى!» وهنا سأله سارتر: «هل من المتوقع أن تغادر البلاد أنت أيضا؟» «أوه، سأفعل ما فعلته أثناء الاحتلال الألماني». لقد كانت لوستانو ـ لاكاو دائما إحدى الجمعيات السرية التي بدأت فكرة «المقاومة المسلحة السرية». بيد أننا لم نعد نناقش كامي بحرية، إذ سرعان ما يغضب أو على الأقل يبدو عنيفا. وتمثل اعتراض سارتر الوحيد في أنه لن يقبل أبدا محاربة البروليتاريا. ورد عليه كامي بحدة «يجب ألا تجعل البروليتاريا سرا غامضا، ثم شرع يشكو من العمال الفرنسيين بسبب لا مبالاتهم إزاء معسكرات العمل السوفييتية. وأجاب سارتر: «لقد عانوا ما فيه الكفاية دون أن يساورهم القلق في شأن ما يجري في سيبيريا. فقال كامي «صحيح... ولكن سيان، فإنهم لم يحوزوا وسام الشرف!» وبدت كلماته غريبة: ذلك أن كامي، شأن سارتر، رفضا وسام الشرف الذي أراد أصدقاؤهما من رجال السلطة منحه

لهما في العام ١٩٤٥. لقد شعرنا بأن المسافة الفاصلة بيننا بعيدة جدا. لكنه بقدر من الدفء الحقيقي قال ليحث سارتر: «يجب أن تغادر البلاد. إنك إذا بقيت فلن تخاطر بحياتك وحدها فقط، بل بشرفك أيضا. إنهم سيرحلونك إلى أحد المعسكرات حيث تموت هناك. ثم سيقولون إنك لا تزال على قيد الحياة. وسوف يستخدمون اسمك لحث الناس على الاستقالة والخضوع والخيانة، وسوف يصدقونهم».

وهكذا لا يزال كامي مع الدفء، وعلى الرغم من بعد الشقة يرى نفسه على الجانب نفسه الذي يقف فيه سارتر. وتصف بوفوار محادثات مماثلة مع آخرين، وتخلص إلى نتيجة مؤداها أن سارتر على الرغم من أنه لم يصدق حقيقة أن السوفييت سوف يغزون، فإن مجرد التفكير في ذلك لعب دورا كبيرا في تطوره فيما بعد». ونشر مع نهاية شهر يوليو ١٩٥٠ تصديرا لكتاب عن الشيوعية اليوغوسلافية، والذي حيا فيه دور الذاتية المتجسد في ماركسية تيتو، وأعلن أن هذا سيكون مشروعه هو: «يجب أن نعيد التفكير في الماركسية، ويجب أن نعيد التفكير في الإنسان». وهكذا مع الأيام شغل المكان الذي غادره معلمه ميرلو ـ بونتي.

ومع مستهل العام ١٩٥١ شرع يعيد التفكير في الإنسان باهتمام وشغف، وهو ما نجده واضحا في «الشيطان والرب الرحيم»، وهي مسرحية عن حرب الفلاحين في القرن السادس عشر. وخطا سارتر هنا خطوة رئيسية على طريق تطوره السياسي الأخلاقي. إذ يتحرك بطل المسرحية غويتس من كونه مجرد شر نظري مجرد، ثم خير نظري مجرد، إلى العمل أخيرا، وبذلك الجهد المستمر لتحرير نفسه من خلال نضال مادي محسوس في موازاة مع الآخرين. وتعتبر المسرحية بمعنى من المعاني، في تصويرها للمحادثات المعادل في أعمال سارتر لرواية كامي «الطاعون» باستثناء أن التضامن ليس هو نسيج الدراما بل الحل الذي تم التوصل إليه أخيرا. إذ وجد البطل غويتس نفسه واقعا في مآزق لا حل لها، ولذا أصبح في النهاية فردا ملتزما. وتخلى عن الأمل في العيش وعمل الخير في صورة خالصة مجردة ـ مما أدى إلى كارثة واسعة النطاق ـ ومن ثم وافق على متطلبات صراع طويل الأمد. ومادام هو وأقرانه من البشر غير أحرار فإنه بدأ يدرك أن سبيله الوحيد لكي يحبهم هو قبول النضال معهم قائدا لهم. ويمثل التضامن الحب الممكن الوحيد في زمن النضال الاجتماعي. ويعلن غويتس

في النهاية: «سأجعلهم يكرهونني لأنني لا أعرف طريقا آخر لحبهم. سأعطيهم الأوامر مادمت لا أعرف طريقا آخر للطاعة. سوف أبقى وحيدا مع هذه السماء الفارغة التي تعلو رأسي، مادمت لا أملك طريقا آخر لأكون بينهم. هذه هي الحرب التي يتعين علي مكافحتها، وسوف أكافحها».

ومنذ الآن فصاعدا أضحت الأخلاق عند سارتر أمرا لا يمكن تمييزه عن التاريخ والسياسة. ولكي يكون المرء أخلاقيا، يتعين عليه الاعتراف بأننا وعالمنا نتصف بعنف لا فكاك منه. وتخلى غويتس عن واقعيته المثيرة للسخرية مثلما تخلى عن مثاليته الساذجة، وبذلك تيسر له أن يقوّم كلا من هدف مستقبل لا يعرف العنف وضرورة استخدام كل وسيلة ممكنة، بما في ذلك العمل الثوري العنيف بغية الوصول إلى الهدف. وها هنا نجد أن مملكة الغايات التي صورها سارتر في «المادية والثورة» وكذا «ما هو الأدب؟» أصبحت هي النضال الثوري. وجاءت مسرحية «الشيطان والرب الرحيم» ثمرة عملية طويلة ومعقدة صاغ خلالها سارتر أخيرا إطارا عاما لأخلاق ترضيه، أي تعني أن التغيير السياسي الراديكالي هو السبيل الوحيد لإقامة عالم تكون فيه العلاقات الإنسانية الأخلاقية أمرا ممكنا، ولكن هذه الأخلاق ستفضي في النهاية على المستويين الثقافي والسياسي إلى تدهور حاسم في العلاقة مع كامي.

شاهد كامي العروض التجريبية، ولحظ كيف تبنى غويتس Goetz العنف سبيلا لبناء مجتمع صالح خيِّر. وكان كامي خلال هذا يضع اللمسات النهائية لنقده المنهجي للعنف السياسي. وختم الفصل قبل الأخير من «المتمرد» بمناقشة تحريضية ضد الوجودية، كما عبر عنها سارتر في مسرحيته. والجدير ذكره أن سارتر في هذه المسرحية في سبيله إلى أن يصبح واقعيا سياسيا من نوع جديد يريد أن يطابق مع شروطهم ما كان يعتبره القوى التاريخية الوحيدة للتقدم البشري ـ تماما مثلما كان كامي يكرر رفضه «عبادة التاريخ» ـ مؤكدا ضرورة أن يقف المرء بقدمين راسختين على ساحة الحكم الأخلاقي.

وتفيد مذكرات سارتر أن بوفوار رأت في المسرحية «مرآة تعكس مجمل التطور الأيديولوجي لسارتر». وقارنت بين رحيل أورست من أرغوس في نهاية «الذباب» وبين قرار غويتس بالبقاء والمشاركة في معارك الفلاحين. وقالت: «في العام ١٩٤٤ ظن سارتر أن أي موقف يمكن التعالي عليه بفضل جهد ذاتي: وفي العام ١٩٥١ عرف أن الظروف يمكن أحيانا أن تسلبنا قدرتنا على التعالي؛ وفي

هذه الحالة يستحيل أي خلاص فردي، وإنما فقط النضال الجمعي». ولقد كانت مسرحيات سارتر السابقة، مثل ثلاثية «دروب الحرية» تعمد إلى المقابلة بين الفرد الحر ذاتيا والمناضل المنضبط، لكنها الآن، وعقب تطور طويل الأمد يطرح غويتس تركيبة جديدة: إنه يقر النظام والانضباط من دون إنكار لذاتيته الخاصة... إنه التجسيد التام والكامل للإنسان المؤمن بالعمل، حسبما تصوره وصوره سارتر، وها هو غويتس يعيش تضامنه وحريته معا.

ونرى هنا، ولأول مرة، حرية الفرد عند سارتر مرتبطة ارتباطا وثيقا بحرية كل إنسان، وأن العمل من أجل حرية الآخرين يستلزم الانضمام إلى نضالهم. مثال ذلك أن هوغو في مسرحية «الأيدي القذرة» نراه يتقلب بين بديلين، إما عصابي إلى أقصى حد أو منضبط إلى أقصى حد لكي يعمل ما يتعين عمله لدفع القضية إلى الأمام. وإن من يتولون تفسير وتسيير «القضية» يفتقرون إلى الذاتية الفردية وإلى المبدأ، مما يوحي بأن القضية ذاتها ليست إصلاح الإنسانية. ويفسر لنا هذا لماذا احتج الشيوعيون على «الأيدي القذرة». ولكن بعد ثلاث سنوات، وحين قرن غويتس حريته الفردية بالنضال العام الأشمل فإنه أصبح ما كان سارتر يسعى إليه لنفسه منذ زمن طويل: إنسانا بين الناس. وينضم غويتس بملء حريته إلى نضال زملائه، ويخضع لنظامهم. وظل سارتر حتى الآن يتحدث عن التاريخ والالتزام، أو ينشئ صحيفته هو، أو يقيم تنظيما جديدا. ولكن «يستحيل على امرئ أن ينشئ حركة». وحان الوقت للخطوة التالية: الانضمام إلى صفوف نضال قائم بالفعل، وهو نضال برمته خارج سيطرته».

ونجد في اللحظة الأخيرة في «الشيطان والرب الرحيم» ضابطا يرفض قيادة غويتس لجيش الثورة. ويحذر غويتس الضابط ويطالبه بالخضوع، ولكنه يرفض، ويطعنه غويتس طعنة تودي بحياته. ويبدو الأمر هنا جريمة قتل مجانية وصادمة. نعم، غويتس في حاجة إلى إقرار النظام ضمانا لكي يجد جيش الفلاحين فرصته، بيد أن هذه الطعنة لا تعني قبولا لضرورة العنف في إطار حدود معينة. إنها إيماءة مسرحية تتضمن، فيما أرى، شيئا أعمق. ربما أراد سارتر أن يصدم مشاعر الرضا بالذات لدى جمهور المشاهدين ممن يريدون، شأن صديقه كامي، تحديد العنف والسيطرة عليه. علاوة على هذا، يبدو العنف في ذاته قيمة حسبما نرى في إيماءة غويتس التي تشبه موقف أورست في «الذباب». ألقى كامي القفاز: أن تكون ثوريا يعني أن تلتزم العنف. والتقط سارتر القفاز معلنا رده القاطع الذي يؤكد ذلك.

ونذكر هنا ما قالته بوفوار عن نقطة التحول: «انتهى العمل الذي بدأه في العام ١٩٤٥ بمقاله عن التزام الكاتب؛ لقد هدم تماما كل أوهامه عن إمكان الخلاص الشخصي. وصل سارتر إلى النقطة نفسها التي بلغها غويتس: إذ أصبح مستعدا لقبول نظام جمعي لا ينكر حريته الخاصة». ثم عادت ثانية إلى مذكرات سارتر: «بعد عشرة أعوام من التأمل وصلت إلى نقطة تحول حاسمة: لم يعد مطلوبا غير ربتة خفيفة».

* * *

أثناء إجراء بروفات «الشيطان والرب الرحيم»، دبت الحياة من جديد في صداقة سارتر ـ كامي عندما اعتاد كامي أن يقف بانتظام بجوار المسرح ليلتقط في سيارته ماريا كاساريس التي تمثل واحدة من نجوم المسرحية. واتفق سارتر وكامي على أن تنشر «الأزمنة الحديثة» الفصل الخاص عن نيتشه في «المتمرد» التي يعكف عليها كامي الآن ويوشك على إتمامها. ولكن على الرغم من أنهما لم يتحادثا في هذا الشأن، فإن أفكار المسرحية والهجوم فيها يتعارضان تماما مع كل ما كتبه وقاله كامي حتى الآن. لذلك، وعلى الرغم من ظهورهما معا في صورة تبدو للناظر وكأنهما وثيقي الصلة أحدهما بالآخر فلن ندهش، وكما تذكر بوفوار، أن الاحتفال بليلة الافتتاح في ٧ يونيو ١٩٥١ الذي شاركنا فيه كامي وماريا كاساريس وأصدقاؤهما كان «وليمة متواضعة كئيبة، وبدا وكأن الدفء القديم الذي ساد علاقتنا مع كامي أصبح شيئا من ذكريات الماضي التي لا تعود».

6

العنف والشيوعية

ظلت رواية المتمرد على مدى خمس سنوات تستلزم ممن قرأوها اتخاذ موقف. وهذا حق. ذلك أنه فيما بين منتصف أكتوبر ١٩٥١ وصيف ١٩٥٢ اتخذ كل من سارتر وكامي بشكل حاسم موقفا من الحرب الباردة. ظهرت «المتمرد» أول الأمر في صورة عرض لما رآه كامي المرض الحضاري الذي دفع الناس إلى الإيمان بالشيوعية. وفي أبريل، وبعد الكثير من المقالات التي تناولت الرواية بالعرض النقدي، وبعد الكثير جدا من المناقشات السجالية، انتقد فرنسيس جينسون الكتاب بشكل حاد مع بيان السلبيات، وذلك في مجلة «الأزمنة الحديثة». وأعلن سارتر في يوليو تطابقه مع الشيوعية، بما في ذلك تقديره للعنف الشيوعي. وظهر رد كامي على جينسون في أغسطس، والذي أعقبه رد سريع من سارتر وجينسون. وفجأة، وعلى غير توقع، تحطمت كل خيوط الرابطة الشخصية والسياسية والفلسفية.

«من كان على صواب، كامي أم سارتر؟
طبيعي أن الحرب الباردة حددت إلى درجة كبيرة من الذي سيختار هذا الجانب أو ذاك؟»

المؤلف

ورأى سارتر وكامي كلاهما الآخر في مجال اجتماعي عقب العروض التجريبية لمسرحية «الشيطان والرب الرحيم»، وذلك في ربيع العام ١٩٥١. ونشرت مجلة «الأزمنة الحديثة» خلال هذا الصيف الفصل المكتوب عن نيتشه في كتاب «المتمرد». وأكثر من هذا أن سارتر وكامي تناولا شرابا معا بعد لقاء سياسي في فبراير ١٩٥٢. ولكن حان الوقت لاتخاذ موقف بين طرفين. وكتبت بوڤوار تقول «انتهت فترة ما بعد الحرب. لم يعد ثمة مجال للإرجاء والتأجيل، ولا مجال لمزيد من التوفيق والمصالحة. بات لزاما عمل خيارات واضحة محددة». وسبق أن سمع كامي تحذيرا من معلمه القديم جان غرينييه، إذ قال له إن مخطوطة «المتمرد» ذكرته بشارلس موراس الملكي الذي أصبح مؤيدا لحكومة فيشي. وهنا أجاب كامي: «شيء سيئ جدا، ولكن يتعين على المرء أن يقول ما يفكر فيه».

وجدير بالإشارة أن هذا العمل أصبح معروفا في عالم المتحدثين بالإنجليزية بعنوان يعطي دائما فكرة خاطئة عما يقوله كامي. إذ تحدد «المتمرد» على أساس علاقته مع سلطة قائمة وشرعية مقابل ما يثور المتمرد ضده. ترى هل أراد كامي توصيل هذا المعنى بما يتضمنه من إشارة إضافية إلى هزيمة متكررة، على غير ما تفيده مصطلحات فرنسية متداولة مثل كلمة Rebelle، المتمرد أو الخارج على القانون، إن التعبير الذي اختاره تحديدا هو «الإنسان المتمرد L'homme revolte»، والذي يرتبط على نحو وثيق بعبارة «المتمرد man in revolt». وإذا كان المتمرد لا يمكن تصوره بمعزل عن السلطة التي يتمرد عليها والتي تعمل دائما على قهر المتمرد، فإن «الإنسان الثائر» يقف مستقلا عن السلطة، ولكن دون أن يكون هدفه الانتصار الذي ينشده «الثوري» الذي يطلب تغييرا جذريا. ونجد أن استخدام كامي الملتبس لعبارة «الإنسان المتمرد» نقل إلى الذهن نيته في تمييز الدافع الأصلي للتمرد عن اثنين مترابطين داخليا من حيث المعنى: «المتمرد الذي يتحدى ويناضل دائما ضد سلطة يراها تقوده إلى نتائج هي الأشد كارثية؛ وبين الثوري الذي يعاني إحباطا عدميا ويلتمس سبيلا لتغيير العالم وينجح في تولي السلطة... وهكذا. واحتفظ عنوان كامي أيضا بمعنى الشخص الذي دفعه إلى التمرد مجتمع أقامته الثورة. لذلك، وفي ضوء ما يقصده ضمنيا كامي، سوف أستخدم «المتمرد» man in revolt على الرغم من أن الإنجليزية ليس بها مثل هذا العنوان.

العنوان الحقيقي للكتاب «الإنسان المتمرد»، ويمثل مطالبة باتخاذ موقف. إن الشخص المتحدي في جرأة في قلب كتاب كامي إنما تشكل في سياق معارضة الثوري. وجدير بالذكر أن أول صياغة صدرت العام ١٩٤٥، وتضمنت توضيحا أكثر واستقطابا أقل نجد فيها المتمرد «احتجاج مبهم لا يتضمن مذهبا ولا أسبابا»: إنه «محدود النطاق»، وهو «مجرد شهادة ودليل». ولكن الثورة «تبدأ بفكرة واضحة... بينما المتمرد حركة تفضي من الخبرة الفردية إلى الفكرة». وعمد كامي ابتداء من العام ١٩٥١ إلى شحذ هذه التباينات وإدخالها في تناقضات أيديولوجية ساهمت في الحرب الباردة. إن الوضع الصحي، التمرد، يتعلق بالاحترام والتضامن. ولكن الوضع غير الصحي، وهو الثورة، يتعلق بمحاولة بلوغ الكثير جدا وارتكاب عمليات القتل لبلوغه. وهذا الأخير هو ما فعله الشيوعيون.

وعلى الرغم من تعاظم الخلافات، ظل سارتر وكامي يعتبران نفسيهما صديقين. وتمنى كامي أن يقدم سارتر عرضا إيجابيا للكتاب، كما أن سارتر الذي يميل إلى صون الصداقة تردد بعصبية بشأن كتابة العرض. وعلى الرغم من أن كامي انتقد سارتر في الفصل قبل الأخير من «الإنسان المتمرد»، إلا أنه انتقاد محسوب ومحدود وبلغة منتقاة بحرص وحذر توقعت ردا منه وليس قطيعة. وبدا وكأن كامي لا يزال يفكر في أن بالإمكان إقناع سارتر بأن يغير تفكيره. بيد أن كلا منهما شق طريقه لاتخاذ موقف فكري وسياسي متعارض تماما مع الآخر، ومن ثم، شاءا أم أبيا، تحول كل منهما إلى قائد لمعسكر على نقيض الآخر. وإن خياراتهما التي جاءت استجابة لتطور الموقف السياسي الأشمل أصبحت الآن قوة فاعلة داخل هذا الموقف ودمرت بالكامل ما تبقى من الصداقة.

* * *

نوفمبر ١٩٥١: كامي يلقي قنبلته عن الشيوعية. يوليو ١٩٥٢: سارتر يقسم بالتزام كراهيته لطبقته الاجتماعية مدى الحياة، والانحياز إلى الشيوعية. وحدد كتاب كامي هدفه السياسي بأنه تطوير معادلته السابقة التي ساوى فيها بين الشيوعية والعنف. وتضمنت مقالة سارتر هذه المعادلة ذاتها إلى حد بيان أن مثل هذا العنف مشروع وحتمي. وإذا قرأنا الاثنين اليوم، بل وعقب الحرب الباردة، سيكون عسيرا تجنب التشبث بهذا الاتجاه أو ذاك. من كان على صواب، كامي أم سارتر؟

طبيعي أن الحرب الباردة حددت إلى درجة كبيرة من الذي سيختار هذا الجانب أو ذاك. ونجد أن المثقفين اليساريين المناصرين للشيوعية في فرنسا انحازوا في الغالب الأعم ضد «الإنسان المتمرد»، بينما مجموعة أقل عددا وأضعف صوتا من اليساريين رحبوا به. ولكن الأقرب إلى اليمين رحبوا بالكتاب، باستثناء مجموعة صغيرة من أمثال رايموند آرون الذي رفض أسلوب كامي في التفكير. ولا غرابة في أن العروض الأمريكية والبريطانية للكتاب في الصحافة حيت كامي لشجاعته وثاقب بصيرته.

ونلاحظ أنه مع اطراد بقاء الشيوعية السوفييتية استمرت الضغوط المطالبة باتخاذ موقف كلما بعث «الإنسان المتمرد» من جديد ضمن موجة مناهضة للشيوعية في أواخر السبعينيات. ظهر «الفلاسفة الجدد» على المسرح، واليساريون من جماعات الطلاب في السابق يبحثون عن جذور أخطائهم والكوارث الثورية على مدى القرن، واقتدوا عن وعي وتصميم بخطى كامي. ومع الإطاحة بالشيوعية في شرق أوروبا، ومن بعدها في الاتحاد السوفييتي على أيدي أبنائها في هذه البلدان، علاوة على ترحيب الكثيرين من المتحدثين بالإنجليزية، أصبحت النتيجة التي استخلصها كامي هي الرؤية المهيمنة على مدى الطيف السياسي. وبناء على هذا فإن من يريد قراءة «الإنسان المتمرد» باعتبارها جزءا من سيرة حياة كامي ـ سارتر سيجد نفسه مضطرا، تحت ضغوط عديدة، إلى الانحياز إلى جانب الكتاب في ضوء الرؤية السائدة اليوم: كامي على صواب دائما، ولم ينل حقه بكل أسف إلا متأخرا. وعلى الرغم من التعارض بين «من الطبيعي» و«على العكس»، فإن بعض أنصار سارتر يصرون على اتخاذ موقف ضد «الإنسان المتمرد»، ومواصلة المعركة من على الجانب الآخر المهزوم. وطبيعي لو كان كامي على صواب، فإن سارتر مخطئ، والعكس صحيح. ولقد كان هذا هو منطق الحرب الباردة، ونحن لم نبعد عنها بعيدا حتى الآن.

بيد أننا إذا ما سمحنا لهذه النزعة المانوية، نزعة الصراع بين الخير والشر، أن تحدد لنا إطار قراءتنا لكتاب «الإنسان المتمرد»، فإن هذا من شأنه أن يخذل الهدف الذي ننشده. إنني أناقش مسألة اضطرار المرء إلى اتخاذ موقف والانحياز إلى أي من الجانبين، لا لشيء إلا لأبين كيف هيمنت هذه المسألة على كامي وسارتر ـ كيف أن كلا منهما انحاز ضد الآخر، ودمرت

الصداقة وأسهمت في التقسيمات التي اصطنعتها الحرب الباردة التي صاغت النصف الثاني من القرن العشرين. ونحن يتعين علينا أن نرى القطيعة بينهما بألوانها الحقيقية ـ باعتبارها نتاج اختيار مشوه. إن الحرب الباردة أفسدت وشوشت التفكير السياسي ودمرت الصداقة والأفراد وشوهت اليسار وكل العالم السياسي. أما عن بقية قصة كامي ـ سارتر، فإن رؤية وجهة نظر كل منهما على أساس من النقد والتعاطف من شأنها أن تهيئ لنا فرصة للتحرر من التفكير الثنائي عن الحرب الباردة.

* * *

التمرد يفترض عند كامي مكانة في الخبرة البشرية تعادل المكانة التي أضفاها ديكارت على الفكر معيارا للوجود في الكوجيتو «أنا أفكر إذن أنا موجود»، أو المكانة التي أضفاها سارتر على النشاط لذاته، لكي ينفي النشاط في ذاته: ليكون نقطة انطلاق أولى ولا سبيل لاختزالها إلى ما هو أقل. ويبدو أن المسودة الأولى لأفكار «الإنسان المتمرد» والتي جاءت تحت عنوان «ملاحظات عن التمرد» إنما كتبها كامي في العام ١٩٤٣ أو ١٩٤٤ مباشرة في ضوء ما أوحى به مقال «الوجود والعدم»، عند قراءة كامي له. إذ إن هذا المقال القصير غني على نحو مذهل بإيحاءاته بشأن طريقة سارتر في رسم معالم نفي «في ذاته» لما هو «لذاته». واتساقا مع هذا النهج شدد كامي، وبالأسلوب السارتري، على أن التمرد يخلق القيم. إن العمل إيجابي وليس سلبيا أبدا، ويفضي في الوقت نفسه إلى تولد القيم البشرية والكرامة والتضامن، «أنا أتمرد إذن أنا موجود». وهذا التمرد في جوهره الميتافيزيقي تمرد ضد العبث ـ ضد طبيعتنا الفانية ذاتها وضد هذا الكون العبثي الفارغ من المعنى ومن أسباب التلاحم والاتساق. وجدير بالذكر أن كامي سطر ست صفحات في مذكراته قبل فقرة مؤرخة في ٢٤ سبتمبر ١٩٤٤ وذكر في هذه الصفحات «الوجود والعدم» مرتين، وتحدث خلالها كثيرا عن «الطاعون».

وتصف رواية «الإنسان المتمرد» هذا الجهد للتغلب على العبث بأنه قائم وراء التمرد التاريخي. ذلك أن استهداف العدالة المطلقة إبان الثورة الفرنسية أعلن في خطوة واحدة حاسمة، وهي قتل الملك الذي طمس الغرض الأصلي للتمرد المؤكد للحياة وللذات وللتضامن. ويمتد «تاريخ المجد الأوروبي» عند كامي إلى أيام الإغريق وصدر المسيحية، ثم يمضي وصولا إلى المركيز دو ساد والرومانسية

ومذهب الداندیزم [التأنق المتكلف في الأسلوب]، والإخوة كرامازوف وهيغل وماركس ونيتشه والسوريالية والنازية والبلشفية. ويتحدث كامي عن التمرد باعتباره قوة متزايدة باطراد مع الزمن وتحولها إلى عدمية يائسة تحل الإنسان محل الرب ويستخدم القوة بوحشية متزايدة. وإن التمرد التاريخي ضارب بجذوره في التمرد الميتافيزيقي، ويفضي إلى ثورات تسعى إلى استئصال العبث عن طريق السيطرة الكاملة على العالم. ويمثل القتل أداتهم الرئيسية. ورأى كامي أن الشيوعية هي التعبير العصري لهذا المرض الغربي.

وبناء على «منطق حتمي للعدمية» بلغت الشيوعية ذروة الاتجاه الحديث لتشييئ الإنسان ولتحويل وتوحيد العالم. لذلك فإن متمرد اليوم يخضع لدافع أعمى «يطالب بالنظام في خضم الفوضى، وبالوحدة في وسط الوجود الزائل»، مما يقود الإنسان المتمرد على الطريق ليصبح ثوريا يقتل ويبرر جريمة القتل بأنها شرعية. وبات لزاما على المتمرد أن يتعلم أن يعمل ويعيش داخل حدود، وألا يعقد إلا على آمال أكثر اعتدالا بل وأكثر إصلاحية، «أن يعيش ويدع غيره يعيش «حتى نبني ما نحن عليه. وهكذا فإن كامي إذ يكتب ضد الثورة إنما أراد توضيح الروح الأساسية للتمرد والتمييز بينه وبين تشوهاته القاتلة، خاصة «الاشتراكية القيصرية»، وأن نتذكر أصوله الأكثر تواضعا.

وإن هذا البناء الرائع من جنس آخر غير البناء الذي اصطنعه على سبيل المثال فيكتور كرافتشنكو في كتابه «آثرت الحرية» أو بناء كويستلر في كتابه «الظلمة وقت الظهيرة» (والاثنان من أكثر الكتب مبيعا في فرنسا فيما بين ١٩٤٥ و١٩٥٥). وإنه لا يقدم تنبؤات أو ترتيبات سياسية صريحة، ولا يتضمن سوى النزر اليسير مما يعتبر من قبيل التحليل الاجتماعي العملي أو الدراسة التاريخية المحددة موضوعيا، وأنه على الأصح تاريخ فلسفي وأدبي عن الأفكار والاتجاهات الأساسية. ولنا أن نقول بكلمات سارتر إن الإنسان المتمرد تاريخ لسوء الطوية، ولعمليات رفض تتزايد باطراد تنظيما وكارثية لمواجهة وقبول العبث والعيش معه. واتضح أسلوب ومحتوى ولهجة كتاب كامي ونحن على بعد نصف قرن منه، وندرك أن كامي كان يطبق أفكاره واستبصاراته العبثية على السياسة بالطريقة نفسها التي بدأ بها المفكرون الاجتماعيون أصحاب التوجه التحليلي النفسي من أمثال إريك فروم ونورمان أو. براون في تطبيق الاستبصارات الفرويدية على السلوك والحركات الاجتماعية.

وزعم «الإنسان المتمرد» أنه يصف ما هو كامن وراء القسمات الشريرة للسياسة الثورية المعاصرة. وأصبح، بسبب زعمه هذا حدثا سياسيا كبيرا. ونجد أن من حرصوا حتى على عدم متابعة كامي صفحة بصفحة لا يريدون أن يفوتهم وصفه للكيفية التي يتحول بها دافع التحرر إلى قتل عقلاني منظم. وجدير بالذكر أنه منذ ظهوره لأول مرة وحتى الآن رأى كثيرون من قراء «الإنسان المتمرد» أنفسهم في محاولة التمرد الفاشلة لتنظيم عالم عبثي. ويكمن سر بقاء هذا الكتاب طويلا في هذا، وفي اكتشافه لنقاط الانطلاق وللمشروعات ولمواطن الضعف والإغراءات لدى الأجيال حديثة العهد. وإذا افتقد الدين التقليدي قوته أصبح الشباب يكبرون ولديهم إحساس متزايد بأن كل شيء ممكن. وها هي العلمانية الحديثة تتحرك في اتجاه حالة عقلية من عدمية بسبب افتقارها إلى ما اعتبره كامي رؤية الخلاص الوحيدة: الحياة عبث، ولكن على الرغم من هذا يجب أن نثور، ولا شيء يمكن أن يقيم نظاما أو يزيل ألم الموت.

ولم يشأ كامي بعرضه لهذه الرسالة نقد الستالينية مثلما ينقد المدافعين عنها. إن أهدافه المحددة مخاطبة المثقفين الذين استهوتهم الشيوعية ـ مثلما كان هو في الماضي أو سارتر الذي لا يزال على حاله. إن قراءه الذين يستهدفهم هم مئات آلاف اليساريين المتعلمين الذين اشتروا وقرأوا نصوصا أدبية وسياسية وفلسفية وفكروا في السياسة بقدر ما فكروا في العمل السياسي، ومن تمثل لهم الأفكار عناصر حاسمة للولاء السياسي. ويضم هؤلاء طلابا ومعلمين وآخرين غيرهم ممن نصفهم عادة بكلمة «المثقفون»، والذين يقرأون الصحف من مثل صحيفة «كومبا» أو «الأزمنة الحديثة». وتحدث كامي بلهجة فردية، ومتأثرة بعمق بالحركات الأدبية الحديثة، وأهمها الرومانسية والوجودية. وإذا كان جمهوره العام ١٩٤٤ ضم شباب ما بعد الحرب الذين تشبعوا بأفكار سارتر وكامي، فإن آمالهم التي عقدوها على التحرير منذ العام ١٩٥١ (من المقاومة إلى الثورة) قد ماتت تماما مثلما تلاشى أملهم في بذل الجهود لتوجيه تيار يساري مستقل يحتل موقعا وسطا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وتقول بوفوار في هذا الصدد: تساءل الناس في دهشة ماذا عساهم أن يفعلوا إذا ما غزا الروس البلاد. ولا ريب في أنه إذا ما تيسر

لمثل هؤلاء القراء، على يدي صحافي سياسي وروائي مشهور، تحليل بنية العقل الكامنة وراء الشيوعية فإن هذا سيكون عملا سياسيا مهما بالنسبة إليهم.

* * *

ويمثل «الإنسان المتمرد» بنجاح نظرة إلى العالم ـ مركبا متسقا مع مسلمة ومزاج ووصف وفلسفة وتاريخ، بل وانحياز استهوى جمهور كامي على مستويات عدة. وتشدد كامي في موقفه من أن كلا من جاذبية الشيوعية وطابعها الشرير نبعا من مصدر واحد، دافع إنساني حيوي. ونعرض فيما يلي إحدى النتائج المدوية المترتبة على مناقشته لماركس:

> «مرة أخرى، وفي خاتمة هذه الرحلة الطويلة نجد تمردا ميتافيزيقيا يدفع هذه المرة في اتجاه صدام الأسلحة والتهامس بكلمات السر وإن أغفل مبادئه الحقيقية، وقد دفن عزلته في صدور الجماهير المسلحة، وأخفى فراغ سلبياته وراء سكولائية (*) عنيدة. ويمضي مع هذا كله متجها إلى المستقبل الذي اتخذه ربا أوحد له. ولكنه انفصل عنه من خلال عديد من البلدان التي يتعين الإطاحة بها، وقارات يتعين الهيمنة عليها. وتأسيسا على العمل كمبدأ فريد له، ومملكة الإنسان باعتبارها مظنة الاعتذار، بدأ في شرق أوروبا يبني معسكره الخاص المدجج بالسلاح في مواجهة مع معسكرات أخرى مدججة هي الأخرى بالسلاح».

وإذ صادق كامي على التمرد كنقطة انطلاق حيوية، فإنه رفض الحلول الطوباوية والإيمان بأن التاريخ هو جماع سياق الخبرة البشرية. إنه ينتقد إضفاء طابع شمولي على السياسة، مؤكدا أن الحياة يتعين أن نعيشها في الحاضر وفي العالم الحسي. ويستكشف تاريخ الحركات الأدبية والثقافية العدمية وما بعد الدينية. ويهاجم العنف السياسي مع نظرة إلى الحدود والقيود والتضامن. ويختم بتوضيح الدور الميتافيزيقي للفن وكذا للسياسة الراديكالية المدركة لحدودها الذاتية. ويخلص إلى رؤية عن الاعتدال المتوسطي، والتي يأمل بوضوح أن تكون مفعمة بالحياة ومعبرة عن المشاعر، وتربط القارئ برؤاه واستبصاراته.

(*) الفكر اللاهوتي التقليدي في العصر الأوروبي الوسيط.

وانحرف جدول أعمال كامي المناهض للشيوعية مثلما صاغ «الإنسان المتمرد». ويكاد يكون مستحيلا فصل حدود ونقاط ضعف الكتاب عن مواضع قوته، وينبع الاثنان من اختيار كامي أن يكتب الكتاب بهذا الأسلوب تحديدا. وحيث إن كامي انطلق من معادلته الأولية التي يساوي فيها بين الشيوعية والقتل، فقد استقرأ الثورات من الأفكار ومن حالات الروح. إنه لا يجري أي تحليل دقيق عن الحركات أو الأحداث، ولا يرى دورا للحاجات المادية أو للقهر، بل يعرض أفكاره بشكل عام وشامل. ويظهر البحث عن العدالة الاجتماعية باعتباره فقط محاولة مستوحاة على نحو ميتافيزيقي لإبدال «سلطة المطلق بسلطة العدالة» فضلا عن الإقلال من الحديث عن الكرامة البشرية.

ونستطيع أن نلمح قوة كامي وحدوده إذا ما تأملنا الفصلين الأولين من الكتاب، وهما مدخلان لموضوعين رئيسيين، القتل والثورة. ويبدأ كامي بصورة مذهلة:

> «ثمة جرائم انفعال وجرائم منطق. ولم تتحدد بوضوح بعد الحدود الفاصلة بين الفئتين. ولكن قانون العقوبات يجعل العمد وسبق الإصرار هو المعلم المميز والمقبول. ونحن نعيش حقبة العمد وسبق الإصرار والجريمة الكاملة. ولم يعد مجرمو عصرنا أطفالا لا حول لهم ولا قوة ممن لهم أن يدافعوا بأن الحب عذر مقبول لأفعالهم. وإنما على العكس، هم كبار ناضجون ولديهم أعذارهم الكاملة: فلسفة يمكن استخدامها لجميع الأغراض، وحتى لو لتحويل القتلة إلى قضاة».

وأصبح القتل في القرن العشرين حدثا «مقبولا» و«يمكن الدفاع عنه نظريا» وتبريره في ضوء العقيدة والمذهب. وإذ اتخذ كامي من هذه الرؤية محورا يسرع في تناول أهم قضايا القرن. ويحدثنا عن سبعين مليون حالة وفاة منذ العام ١٩٠٠ (ومع نهاية القرن العشرين زاد العدد النصف أيضا). ويوضح أن القرن العشرين أصبح على ألفة «بالجرائم المنطقية ـ موت جماعي سواء كان مخططا له أو متوقعا، وتساق التبريرات على المستوى العقلي. لذلك فإن المهمة الثقافية المؤثرة أكثر من سواها هي فهم لماذا تحدث هذه الكوارث ـ كيف ظهر القتلة وكيف تسنى تبرير أفعالهم. ويسمي كامي، عن حق، قضية العصر المحورية «الجريمة المنطقية»، ويسعى «لعمل دراسة مدققة للحجج المستخدمة لتبريرها»، ثم يشرع في استكشاف كيف أصبح القرن العشرون قرن المذابح.

ولكن «الإنسان المتمرد» يغير بؤرة الاهتمام. لقد تشوش العقل البشري بسبب «معسكرات الاستعباد المقامة تحت أعلام الحرية، والمذابح التي يجري تبريرها بدافع حب البشرية، أو النزوع إلى ما هو خارق للبشرية» - والتشبيهان الأولان إشارة إلى الشيوعية، بينما الثالث إشارة إلى النازية. ويكف عن الإشارة إلى النازية بعد ذلك في المتن (إذ كانت في النهاية منظومة «إرهاب لاعقلاني» - وليست أبدا ما يهم كامي). وحد هذا كثيرا من نطاق البحث. ويكشف عن تحوله سؤاله: كيف يتأتى ارتكاب الجريمة عمدا مع تخطيط مسبق ثم تبررها الفلسفة؟ إن «الجريمة العقلانية» التي يهتم ببحثها كامي لا يرتكبها الرأسماليون أو الديموقراطيون أو الاستعماريون أو الإمبرياليون أو النازيون - وإنما يرتكبها الشيوعيون. ويعتبر ألبير كامي هو الكاتب الوحيد في منتصف القرن القادر على الإحاطة بهذه الكوارث. ولكن على الرغم من أنه كتب ضد عنف النازي إلا أنه لم يتعرض لموضوع المحرقة، وعلى الرغم من أنه كان الصوت الوحيد الذي احتج ضد هيروشيما إلا أنه لا يسأل الآن كيف حدثت. وعلى الرغم من أنه بعد أحداث مدينة سطيف الجزائرية كان واحدا من بين قليلين اتهموا الاستعمار الفرنسي، إلا أنه الآن لا يأتي على ذكرها إلا في صورة هامش في أسفل الصفحة. ولنا أن نسال في دهشة كيف تسنى لكامي أن يركز اهتمامه فقط على عنف الشيوعية، ونحن في خضم الحرب الاستعمارية الفرنسية في فيتنام، وعندما عرف هو (قبل جميع الناس) أن صراعا مريرا سوف يشتعل قريبا على أرض الجزائر؟ ومن عجب أن الكاتب راغب وقادر بقوة على تناول مسألة القتل في القرن العشرين، ولكن أعمته الأيديولوجيا. لقد فصل الشيوعية عن شرور القرن الأخرى وصب جام غضبه عليها هي وحدها. وطبيعي أن أفكار كامي تطورت ونضجت مع مرور السنين منذ أن استهل الكتابة عن التمرد. ولكن ثمة شيئا آخر حدث: تغير جدول أعماله ونطاق اهتماماته: التمرد، موضوعه الأصلي التحريضي، ونرى كامي يكبح نطاقه ويقصره على كونه المقابل والبديل للشيوعية التي أصبحت عدوه الأول.

ونتيجة لذلك لم يعد كامي مهتما بأهداف محددة في الحركات السياسية، وأغفل قضايا ملموسة يتضمنها النضال من أجل التغيير، ومن بينها العمل لامتلاك السلطة. لم ينظر إلى المجتمعات وهياكلها وأغفل المهام الاقتصادية

الاجتماعية للماركسية. وذهب كامي إلى أن الماركسية لا علاقة لها بالتغير الاجتماعي، إنها ليست أكثر ولا أقل من تمرد «يحاول ضم كل الخلق». وثمة فصل يثير الدهشة لما فيه من ثنائيات نقيضية كتبه كامي عن نيتشه، وظهر في «الأزمنة الحديثة» في يوليو ١٩٥١. ويميز كامي هنا بين نيتشه وبين استخدام النازي له، بل إنه يقول في حماس وتحد: «يجب أن نكون أنصارا لنيتشه». بيد أنه يضع هيغل في صورة كاريكاتورية (الذي يرى الغازي على صواب دائما) ويشوه صورة ماركس (الذي وجد كل أشكال الجمال الموجودة تحت الشمس غريبة تماما. وإن أيا من هذين لا يأتي ذكره لذاته، وإنما يذكره كامي فقط لدعم حججه. وإن من يقرأ «الإنسان المتمرد» لن يجد أي إشارة تفيد ضمنا وجود التراث الماركسي المعتدل أو الإصلاحي، بل ولا إشارة إلى التراث الماركسي الثوري الديموقراطي. ولكن على العكس، فإن البديل السياسي للماركسية على نحو ما نرى في فصل من فصول الكتاب أكثر إثارة وحساسية، هو صورة لأنشطة الإرهابيين الروس الذين سبق أن صورهم كامي في «القتلة العدول». إنهم يرفضون مهاجمة الأبرياء ويريدون التضحية بحياتهم. إنهم يقتلون، ولكن فقط أفرادا بعينهم. وإذ يدركون أنهم بهذا قد أفسدوا النظام الأخلاقي يصبح لزاما عليهم أن يضحوا بحياتهم في المقابل. ويركز كامي اهتمامه على القادة الثوريين ونظرياتهم وهنا يبدي أشد إعجابه بجميع الإرهابيين الروس دون أن يناقش أبدا من يكدحون ويتمردون عند الدرجات المختلفة من قاع السلم ـ سكان المستعمرات أو أفراد الطبقة العاملة.

ربما يكون هذا التركيز أحادي الهدف لإثبات نظرية ما هو الذي حول أسلوب كامي المعروف تقليديا بهدوئه وهجوميته ودقته المطلقة إلى أسلوب تعوزه الرشاقة وإلى تعبير قاطع نهائي ولا تنبعث فيه الحياة إلا لماما. ويزخر النص بكلمات دالة على استخلاص نتائج (مثل: ومن ثم، وإذن، وبناء عليه، ولهذا) والتي نادرا ما تعقبها النتائج المترتبة على مقدمات سابقة، بل مجرد كلام مرسل لا يستند إلى برهان أو تحليل. وتشيع فيه جمل عن موضوعات صاغها بحذر وإحكام للدلالة على أفكار رئيسية ـ والتي تستلزم من القارئ متابعتها على أساس تطورها عبر كل فقرة وصفحة وفصل، بينما هو بدلا من هذا يقنع بأن يورد الأفكار تباعا الواحدة بعد الأخرى ثم ينتظر دون تطوير لها إلى أن ترد جملة معبرة عن فكرة رئيسية وقد صيغت صياغة جيدة ومحكمة. ونجد هذا واضحا بشكل خاص في الفصول الثلاثة

الأخيرة من الكتاب والتي تستخلص نتائج بناء على مناقشات سابقة، ولكننا نقرأ بين الحين والآخر موضوعات جديدة. وهكذا بدلا من استكشاف قضايا في ضوء أسلوب كامي المحكم والدقيق عادة نجد «الإنسان المتمرد» يكشف من أول صفحة عن أسلوب يتصف بالتعسفية والخروج عن المألوف.

* * *

تحتل مثالب وعيوب مناهضة الشيوعية مكان القلب من «الإنسان المتمرد». وسوف نرى أن «الأزمنة الحديثة» عرضتها وشجبتها على نحو ملائم وفي الوقت المناسب. وأن أخطاء كامي وأفكاره المتسلطة على ذهنه يسرت لمن خالفوه الرأي في موقفه المناهض للشيوعية أن يغفلوا أهمية الكتاب. ولكن الكتاب لا يزال، وبعد مضي خمسين عاما، واحدا من أكثر الجهود أصالة وتحريا للحقيقة كمحاولة لفهم كيف أن دافع الحرية العظيم في العصر الحديث تولدت عنه مجتمعات شمولية. وقد لا يكون من الإنصاف في شيء أن ننتقد كامي لأنه لم يقدم لنا إجابة شافية وكاملة عن هذا السؤال. إنه ولا ريب قدم إسهاما ذا شأن كبير، إذ تساءل بشكل جاد عن هذا الأمر وسعى لتفسيره في إطار المواقف والتوجهات الأساسية للغرب. ويؤكد كامي أن الإنسان الحديث والمستنير بكل معاني الكلمة والغربي حتى النخاع هو النظري المجرد، التسلطي، الثوري في تطلع مستقبلي، والساعي إلى تحويل العالم وفقا لمقتضيات العلم، والتزاما بقوانين التاريخ، والمؤمن بأن الضرورة الموضوعية حاكمة له. وهكذا يتطلع عن كثب إلى ما كان يمثل خيطا رئيسيا في الماركسية عبر عدسات نزعة راديكالية مناهضة للثورة وعنيدة، وإن كانت لا تزال تنظر في إطار من الشك. ولا يزال «الإنسان المتمرد» يستهوي القراء حتى اليوم من خلال نظرته شزرا إلى الحضارة الغربية وإلى التقدم بل وإلى العالم الحديث ذاته ـ كأن كامي تنبأ ببعض التيارات الفكرية التي ستظهر فيما بعد.

ولا يزال «الإنسان المتمرد» يشتمل على وسائل بناءة للتفكير في العمل السياسي من منظور يساري. إن حسه الواقعي العياني، بل والمتواضع، بالسياسة يتعارض مع الأوهام والأفكار النظرية المجردة المفروضة من خارج. وقاوم كامي أي فكرة تزعم أن «مملكة السلام» «سوف تتحقق»، مؤكدا أن الكمال حلم ليس إلا. وشدد على ضرورة أن تظل الأخلاق محورا للسياسة، ولم يكف أبدا عن مناصرة حرية القول والتعبير والمؤسسات الديموقراطية والحقوق المدنية في أي حركة داعية إلى العدالة الاجتماعية.

ومن أهم النظرات الثاقبة في الكتاب، فهم كامي لمعنى المعاملة بالمثل وفرض القيود، وإدراكه لمعنى العنف، إذ لا يزال هذا كله واقعا وثيق الصلة بالحياة الآن. «إن كل حرية إنسانية هي في جذورها... حرية نسبية». وإن حرية أي شخص تحد من حرية الآخرين، وبالأحرى تحد من حرية الحاكم. وإذا كانت الفلسفة الثورية تغرس ميلا إلى العمل وكأن بإمكاننا أن نعرف ونحسم كل شيء فإن فلسفة التمرد على النقيض، إذ إنها فلسفة الحدود والقيود والجهل المحسوب والمخاطرة. «وإن هذا التفكير لا يعني تفويضا بعدم العنف على نحو مطلق، لكنه يعني يقينا «نبذ العنف الملزم مبدئيا» - العنف الذي نقبله بشكل نظري مجرد وتبرره الفلسفة. ويؤكد كامي أن العنف لا يمكن تبريره أبدا. وإذ يتطلع كامي إلى أن نتجنب إفسادنا بهذا النهج فإنه يرفض جميع الجهود التي تهدف إلى أن تبرر نظريا استخدام القوة لفرض إرادة شخص على الآخرين. وهذا هو السبب الذي من أجله ينظر كامي إلى حرية الكلمة والتعبير باعتبارها مهمة للغاية. إن فرض الصمت يعزل الناس بعضهم عن بعض ويدمر تضامنهم. إنه قد يخلق مجتمعا مصطنعا، ولكنه أبدا لا يحقق تواصلا بين الناس. ومن ثم فإن حرية التواصل هي السبيل الوحيد الذي يهيئ للناس إمكان خلق علاقات متبادلة قائمة على أساس حدود مفروضة ذاتيا.

وإذا كان كامي قد رفض ما آلت إليه ثورات القرن العشرين، فإن هذه الأفكار تظل يقينا أفكارا يسارية في جوهرها. ويقبل كامي - بالفعل - أن التمرد سوف يحدث ضد الحكومات التي تتخذ العنف والقهر أداة لها. وأجاز استخدام العنف، ولكن فقط من أجل إنشاء «مؤسسات تحد من العنف وتقيده... لا تلك التي تقننه». ومضى إلى أكثر من ذلك، إذ حدد بعض المبادئ الأساسية للعنف السياسي. «يجب أن يكون مرحليا مؤقتا، ورهن المسؤولية الشخصية الفردية، ولا نلجأ إليه إلا حين نكون إزاء خطر فوري مباشر، ونقاوم أي شكل آخر للعنف».

* * *

على الرغم من مواطن الضعف في كتاب «الإنسان المتمرد» فإنه أثبت وجوده وظل راسخا، كما ظل كامي نفسه فخورا به حتى نهاية حياته. وعرف كامي كم كلفه هذا الكتاب، وعرف أن الغرب سوف يرحب به بينما سوف يزدريه اليسار. وعرف علاوة على هذا أنه يشن هجوما على توافق آراء واسع

النطاق في شأن التقدم والتنوير والثورة الفرنسية. والجدير ذكره أنه فيما يتعلق بالتاريخ الروسي، لم يقف كامي إلى جانب البلاشفة ولا مع الماركسيين الإصلاحيين ـ لكنه وكما أوضح في «القتلة العدول» وقف إلى جانب الإرهابيين الثوريين الاجتماعيين غير العمليين والرومانسيين اليائسين. وعرف كامي أيضا أن الاستقطاب الشرقي ـ الغربي قد مضى بعيدا في إنتاج واقعياته المعارضة، بحيث لم تبق هناك مساحة لنهجه المغرق في المثالية. بيد أنه، مع هذا، استمر في إصراره على استخدام وتوسيع نطاق تلك المساحة. أراد لنفسه أن يحلق وحده في قلب العاصفة لكي يستثير عاصفة ولكي يقول ما يراه هو الحق، ولكي ينتج البديل في صورة شرعية والذي لا يدعو إليه أحد سواه. وهذا هو ما كان يفتقر إليه سارتر على الرغم من كل عبقريته: القدرة على الوقوف صامدا وحده سياسيا.

ترى هل كانت المنافسة مع سارتر هي السبب في أن حاول كامي ـ وأجهد نفسه في المحاولة ـ في كتابه «الإنسان المتمرد»؟ حقا، عمد إلى أن يشرح باستفاضة أفكارا سياسية في كتابه «لا ضحايا ولا جلادون»، وكتب تتمة لدراسته «أسطورة سيزيف»، ولكنه حول كل هذا إلى كتاب بدا أحيانا وكأنه تحد لكتاب «الوجود والعدم» ليكون أشبه بجهد يبذله للتفكير من خلال الهياكل الأساسية للوجود البشري. ولهذا نجد، حسب معنى من المعاني، أن بالإمكان أن نسمي «الإنسان المتمرد» عملا فلسفيا. والجدير ذكره أن كامي في الأربعينيات عمد إلى تمييز نفسه عن سارتر الفيلسوف بأن وصف نفسه بأنه فنان ينأى عن جهد سارتر المنظومي في فهم العالم. بيد أنني أشك في هذا، وأرى أن كامي ربما كان يود أن يواصل تسمية نفسه فيلسوفا لولا صداقته مع هذا الفيلسوف العبقري. ونلحظ أن «الإنسان المتمرد» في مستهل بدايته يرى التمرد معادلا للكوجيتو الديكارتي «أنا أفكر إذن أنا موجود»، وفي ختامه يبدو في صورة المنافس لدراسة سارتر «ما هو الأدب؟». ذلك أنه عمد إلى أن يستكشف بإسهاب المعنى الأساسي للخلق الفني، وخاصة الكتابة. واعتاد كامي آنذاك، في خجل وتحفظ أكثر من سارتر، أن يكتب في الفلسفة وتاريخ الأفكار والحركات الأدبية، وفي علم الجمال والنظرية السياسية. وبدا في هذا كله وكأنه يرد على سارتر عبر جبهات عديدة في آن واحد.

ولكن سارتر على النقيض، إذ على الرغم من أن أحدا لم يتهمه بكبح النفس، فإنه اعتاد أن يركز كل نص من نصوصه على بعد واحد فقط، ويعمل على تطويره في حذر وحرص. مثال ذلك كتاب «الوجود والعدم»، يحصر نفسه في نطاق عرض أهم الهياكل الأنطولوجية وأكثرها أساسية، وينجز هدفه بقوة وعمق مهولين. وحين أراد سارتر تطوير النتائج السياسية والإبيستمولوجية والأخلاقية لهذا الكتاب، فإنه فعل هذا في ثلاثة كتب منفصلة. بيد أنه حين ربط الأدب بالسياسة فإنه حقق هذا في مجموعة واحدة من المقالات. ولم يحدث أبدا في الحقيقة أن كتب سارتر كتابا ولديه طموح بأن يصل مداه إلى المدى الذي بلغه «الإنسان المتمرد».

ونحن لن يتسنى لنا أبدا أن نعرف إلى أي مدى تمثل العلاقة بين الكاتبين عنصرا خافيا في «الإنسان المتمرد». ولكن الذي لا شك فيه أن الكتاب يضم فصلا رئيسيا وكاشفا، إذ إنه مكتوب صراحة ضد سارتر. وعلى الرغم من أنه يبدو في خاتمته وكأنه استطراد وحوار جانبي عن «الوجوديين»، فإنه يركز على «عبادة التاريخ»، وهو الموضوع الذي يهاجمه الكتاب في كل صفحاته. غير أن أهمية هذه الإشارة إلى الوجوديين تسقطها من الاعتبار إضافة عرضية مدروسة تأتي في المقدمة، وهي عبارة «على سبيل المثال، هذا علاوة على تجنب كامي ذكر سارتر بالاسم - على الرغم من أنه ذكر أسماء معاصرين له مثل أندريه مالرو، وأندريه بريتون، ورينيه كار. ويمثل هذا في الحقيقة حوارا معمى لكتاب «الشيطان والرب الرحيم» الذي يعرفه كامي جيدا، ويمثل تحديدا نقدا لفكرة محورية في المسرحية تفيد أن غويتس ينمو وهو ينتقل من التمرد إلى الثورة.

ويقول كامي في عالمنا المعاصر ينكر التمرد ذاته حين يتحول إلى ثورة. وأنه لكي يبقى ويظل صادقا مع نفسه يجب أن:

> «يجد موضوعا جديدا للإيمان، ودافعا جديدا. وقبل المضي خطوة أبعد يتعين على الأقل بيان هذا التناقض في لغة واضحة. وليس من باب التعريف الواضح أن تقول شأن الوجوديين، على سبيل المثال، (الخاضعين الآن لعبادة التاريخ وتناقضاته) أن ثمة تقدما في الانتقال من التمرد إلى الثورة، وأن الإنسان المتمرد ليس شيئا بالمرة ما لم يكن ثوريا. إن

> التناقض في الحقيقة مقيد إلى درجة كبيرة. ذلك أن الثوري هو في آن واحد إنسان متمرد أو ليس ثوريا، لكنه شرطي وبيروقراطي يتحول ضد التمرد. لكنه إذا كان إنسانا متمردا فإنه في نهاية المطاف يتخذ موقفا ضد الثورة. وحيث إن الأمر كذلك، فلن يكون هناك على الإطلاق تقدم من موقف إلى آخر. بل تعايش وتناقض يتزايد إلى ما لا نهاية. إن كل ثوري مآله إما أن يصبح قاهرا أو مهرطقا. والتمرد والثورة في عالمهم التاريخي المحض الذي اختاروه سينتهيان إلى المأزق نفسه: إما حكم الشرطة أو الجنون».

وعلى الرغم من أن كامي بدأ هذه الفقرة ارتجالا، إلا أنه يرسم خلالها خطا بيده فوق الرمال. ويفعل هذا ليس بدافع حقد أو ضغينة، وإنما لاستثارة المناقشة، ونجد على أحد الجانبين صورته التي رسمها للمتمرد، ونجد على الجانب الآخر صورة سارتر عن الثورة. ويعرف قراء كامي أن ثورة غويتس تتحرك به بعيدا عن الميتافيزيقا وتسير به في اتجاه التحول إلى إنسان آخر في العالم، وأن قبول العنف يعني التزاما بالواقع لتغييره. وها هنا في هذه الفقرة يلقي كامي بالقفاز متحديا سارتر أن يختار. المتمرد إما أن يستولي على السلطة ويسقط ضحية لكل الأدواء التي يصفها كامي، أو أن يبقى صادقا مع نفسه ويحارب حتى الثورة القائمة في السلطة.

* * *

في الوقت الذي كان فيه كامي يكمل «الإنسان المتمرد»، كان سارتر يكمل تحوله إلى ثوري. واتخذ سارتر من ميرلو ـ بونتي المناصر للشيوعية معلما له، مثلما فعل كامي بالنسبة إلى كويستلر المناهض للشيوعية، وهكذا مضى سارتر خطوة أبعد وتبنى العنف سبيلا ضروريا للتغلب على القهر الإنساني. وحدث تحول سارتر في خطوة على مرحلتين: «الشيطان والرب الرحيم» في ربيع العام ١٩٥١، و«الشيوعيون والسلام» في يونيو ١٩٥٢. وكان سارتر وكامي حتى هذه اللحظة يتحركان في اتجاهين هما في آن واحد متكاملان ومتناقضان. وبدا لهما، ولو على نحو شبه شعوري على الأقل، أن كلا منهما يصوغ نفسه ضد الآخر. ونذكر في هذا الصدد ما عرضه سارتر بعد ذلك في السيرة الذاتية لغوستاف فلوبير في أسرة تضم أحد شقيقين أحدهما يشغل،

ومن ثم يخصص لنفسه، الفضاء المتاح لاختيار ذاتية محددة لنفسه، بينما الشقيق الأصغر نادرا ما كان يختار الاتجاه نفسه ويميل إلى التطور على نحو مختلف، وأحيانا ما يختار سبيلا غير متوقع. ولا ريب في أن أي مثقف سياسي فرنسي شاء أن يحاول أن يجد لنفسه اتجاها بين عامي ١٩٤٤ و١٩٥١ لم يكن ليجد أمامه غير سارتر وكامي يسيطران على ساحة الخيارات السياسية الفكرية لليسار غير الشيوعي. وليس بإمكان أي إنسان في هذا الكون أن يفكر في شأن قضايا العصر من دون النظر إلى سارتر وكامي. ونجد بالمثل أن كلا من الصديقين وجد لزاما عليه أن يكافح وينافس الآخر، واستلزم كل منهما، لكي يوضح آراءه وفكره، أن يميز نفسه عن الآخر.

ونلاحظ أن بيان سارتر لأفكاره عن الموقف والالتزام قادت كامي إلى الحركة في اتجاه البديل الذي صاغه لنفسه وعبر عنه بحدة أكثر. ونجد كذلك أن بيان كامي القوي عن اللاعنف في مناهضة الشيوعية دفع سارتر إلى توضيح مقابله عن العنف. وإذا كان فكر كامي عن «الطوباوية» المميزة و«الإصلاحية المتشددة» يتعارض بعمق مع سارتر حديث العهد بالسياسة والأكثر تطرفا، فإن سارتر الآن بصدد اكتشاف طريقه الخاص إلى التغيير متبنيا العنف والثورة تأسيسا على إحساس يتفهم الواقعية بعمق.

* * *

في مطلع العام ١٩٥٢ رجا أعضاء الحزب الشيوعي من سارتر تأييد حملة ضد المحاكمة العسكرية للضابط هنري مارتن، وهو ضابط بحري رفض المشاركة في حرب فيتنام. ونظرا إلى أن قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي تشعر الآن بالعزلة الكاملة، فقد وصل بهم الأمر إلى حد التطلع إلى غير الشيوعيين. وقبل سارتر النداء وكتب تعليقا على كتاب بشأن قضية مارتن. وغادر بعد ذلك بصحبة بوفوار لقضاء إجازتهما السنوية في إيطاليا. وحضر في هذه الأثناء إلى باريس جنرال أمريكي يدعى ماتيو ريدغوتي وهو في طريقه لتولي قيادة حلف الناتو. ونظم الحزب الشيوعي لهذه المناسبة تظاهرة نضالية أفضت إلى حوادث شغب. قمعت الشرطة الشغب، وألقت القبض على جاك دوكلو قائد الحزب الشيوعي الفرنسي. وصادرت الشرطة من سيارته بعض الحمام الذي كان قد حمله معه إلى بيته ليعده للعشاء. واتهمته الشرطة بأنه حمام زاجل يستخدمه لتنظيم وتنسيق أعمال الشغب.

وكتب سارتر:

«عرفت من الصحافة الإيطالية أمر القبض على دوكلو وسرقة يومياته ومهزلة الحمام الزاجل. إن هذه الحيل الخسيسة والطفولية جعلتني أشعر بالغثيان. ربما كانوا أشخاصا أكثر وضاعة ولكن لا أحد منهم أكثر فهما. ذلك أن من المناهض للشيوعية كلب. وليس في وسعي أن أرى مخرجا غير هذا ولن أجد... وبعد عشر سنوات من التفكير والتأمل مليا بلغت نقطة اللاعودة ولست في حاجة إلا إلى هذه القشة الأخيرة. وأقول بلغة الكنيسة ها هنا بدلت عقيدتي وإيماني... وباسم هذه المبادئ التي غرستها في نفسي وباسم دعوتها إلى الإنسانية وتوجهاتها الإنسانية، وباسم الحرية والمساواة والأخوة أقسم للبورجوازية بأن أحمل لها الكراهية التي لن تفارقني حتى الموت. سأعود فورا إلى باريس وواجبي أن أكتب أو أن أختنق. وها أنذا واصلت الليل بالنهار وكتبت الجزء الأول من مقال «الشيوعيون والسلام»».

صدرت هذه المقالة في يوليو ١٩٥٢، وأعلن فيها سارتر أنه رفيق طريق. وتمثل المقالة نصا غريبا معقدا، إنها تسرد الحجة تلو الحجة في سجال مع مناهضي الشيوعية حول معنى تظاهرة ٢٨ مايو. ويستخدم سارتر الجزء الأكبر من مقالته لتسوية حسابات مع عديدين من أنصار مواقف سبق له أن أيدها أو يرفضها الآن ومن بينهم، ضمنا، كامي.

ويشرع سارتر بعد ذلك في الدفاع عن لجوء العمال والحزب إلى العنف وغيره من أعمال غير مشروعة. ونلحظ أن هذا النقاش بعيد النظر يجافي تماما فهم كامي للعنف. إذ يبدأ ببيان كيف أن قانون الانتخابات الجديد وضع العمال كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وأوضح أنه في انتخابات العام ١٩٥١ كان عائد تصويت خمسة ملايين شيوعي هو ١٠٣ نواب، بينما نصف هذا العدد من المقترعين الاشتراكيين أعطوا عائدا قدره ١٠٤ نواب. «وأقول فيما بيننا إن هذا شيء يمكن أن يدفع بالناس إلى الخروج إلى الطرقات وإلى تكسير بعض النوافذ، أو أن يصفعوا بعنف بعض الوجوه». وقبل هذه الانتخابات بزمن طويل تم وضع العمال والحزب الشيوعي الفرنسي في عزل إجباري. وها نحن الآن نجد اثنين من العاملين في الميناء يمشيان معا على

رصيف ميناء لو هافر، وإذا بواحد منهما ليس له حق الاقتراع بينما الآخر اقترع بلا جدوى. معنى هذا أن حرية الاقتراع التي هي علامة مميزة للمجتمع البورجوازي أسقطتها البورجوازية الآن.

وقال سارتر إن حربا طبقية تكمن عند جذر هذا الخداع المقنن. لكوني عضوا منظما أقول إن فرنسا «مجتمع قهر»، وإن أولئك الذين ينحون باللوم على الحزب الشيوعي الفرنسي بسبب العنف والأعمال غير المشروعة يغفلون حقيقة هي «أن كل أنواع العنف اليوم، المباشر وغير المباشر، مصدرها البروليتاريا التي ترد إلينا ما أعطيناه لها». وحسب هذا المعنى فإن العنف يغرسه ويقننه النظام الاجتماعي.

> «إن العامل مهما غاص في الماضي يجد نفسه أسير مجتمع له قوانينه ونظامه التشريعي، وحكومته وفكرته الجاهزة عما هو عادل وما هو ظالم، ولكن ما هو أكثر أهمية أنه مجتمع له أيديولوجيته التي يشاركه فيها تلقائيا. ثمة مصير وقيود مفروضة عليه، وهو محكوم عليه بأداء مهام شبه آلية ومجزأة، لا يدرك لها معنى أو غرض، وبسبب أمراض الصناعة، إنه مجبر على تكرار حركة واحدة آلاف المرات في اليوم، وقد أثقله الوهن والفقر وحالا دونه وممارسة خصاله الإنسانية. إنه أسير عالم غبي من التكرار. ويصبح قليلا قليلا مجرد شيء. بيد أنه حين يحاول الكشف عن المسؤولين عن وضع لا يجد أحدا، كل شيء على ما يرام: لقد تلقى أجره المستحق له».

عنف العمال إذن رد على هذا العنف «الطبيعي» العادي.

> «ويدعي الناس أن العنف يولد فجأة لحظة الشغب أو الإضراب. أبدا: إنه يطفر إلى العلن في لحظات الأزمات، هذا كل ما في الأمر. انعكس وضع التناقض: العامل الوديع يرفض ما هو إنساني في داخله، والعامل المتمرد يرفض ما هو غير إنساني. وهذا الرفض ذاته هو إنسانية، إنه يتضمن مطلبا ملحا من أجل عدالة جديدة. ولكن نظرا إلى أن القهر ليس عدوانا ظاهرا للعيان، ونظرا إلى أن أيديولوجيا الطبقة الحاكمة هي التي تحدد ما هو عادل وما هو ظالم، ونظرا إلى استحالة الحصول على شيء ما لم يتم تحطيم النظام بقوة، فإن العامل يرى السبيل الوحيد إلى تأكيد حقيقته كإنسان إنما يكون في تجليها من خلال العنف».

وما أن ينخرط العامل في العنف حتى يبدأ المجتمع في تصعيد العنف ويتسع الشرك. «إن سخطه لابد من أن يتحول إلى إضراب ويتحول الإضراب إلى شجار، والشجار إلى قتل». ثم يفرض المجتمع هدوءا قمعيا «ليس إحلالا لسلام، بل عودة إلى العنف الأصلي».

وحسب وجهة النظر هذه فإن عنف العمال «إنسانية إيجابية»، «وحقيقة الأمر أن الإنسانية والعنف وجهان لا انفصام بينهما للجهد المبذول من أجل خروجه من وضع القهر الذي يعيشه». لذلك فإن عنف العمال هو جوهر الحزب الشيوعي عينه، وقوته. وتأسيسا على هذا يختم سارتر مقاله بالسخرية من كل من يروق لهم أن يروا يسارا حسن السير والسلوك، «ودودا، مهذبا، مهيئا لعمل تمايزات، وتحفظات رقيقة؛ يسارا يحارب الرأسمالية لكنه عادل في موقفه من الأشخاص، يسارا لا يرفض العنف، ولكن يلجأ إليه كملاذ أخير، ويسارا يعرف كيف يستثير حماسة البروليتاريا الفياضة لكنه حريص، إذا دعت الضرورة، إلى حمايتهم من الغلو في استخدامها».

وهذا الطابع الدرامي المتفجر عاود الظهور ثانية بعد عقد من الزمان في تصدير لكتاب فرانز فانون «المعذبون في الأرض»، وكذلك عند تأييده لعنف ولا مشروعية اليسار الثوري إثر أحداث مايو ١٩٦٨. وهنا سارتر ـ لكونه أخلاقيا سياسيا ـ دان عنف الحكام وناصر مقدما عنف المقهورين. إنه لم يشأ حتى مجرد التنازل والقول بأن عنف المقهورين أمر نأسف له، إنما هو حتمي ومقبول داخل حدود معينة، وليس بتطرف يتجاوز الحدود. إن سارتر مؤيد للثورة، رافض إضاعة الوقت في أي كلام عن العنف باعتباره سبيلا إلى إضعاف المعنويات أو الإفساد، مغفلا ما يسببه من دمار. ولهذا نصّب من نفسه محاميا وقاضيا يدافع في شراسة عن المقهورين. وواضح تماما عند هذه النقطة تحديدا التعارض التام بين اتجاه سارتر واتجاه كامي. إذ بينما نذر كامي كل طاقته للكتابة ضد العنف خاصة العنف الثوري، نجد سارتر تبنى تدريجيا العنف ودافع عنه، خاصة العنف الثوري.

7

الانفجار

قـرب خـاتمة كـتـاب «الإنسـان المتمـرد»، بدا واضـحـا أن كـامي يسـتـحث سـارتر على الرد. ولكن لماذا عـدم الرغبـة في ذكـر اسم صـديقـه؟ يخـتلف مـوقف كـامي بقـوة عن مـوقف سـارتر، ويريد أن يعرف كيف يمكن لفلسفة ذات توجه تاريخي أن تكون أخـلاقـيـة. لهـذا بدا وكـأنه مجـبر على الدخول في مواجهة مع سـارتر وإن حـاول تفـادي ذلك في الوقت نفسـه. ونلحظ حتى قبل صـدور الكتـاب أن كـامي تورط في سـجـال مع الشـاعـر السـوريالي والمفكر والمناظر الذي لا يكل أبدا، أندريه بريتـون. وإذا تـأملنا هذا الآن نجـد القـسط الأكبـر من جـدل كـامي مع بريتون يبدو أشبه بتجربة أو بروفة. واستبق هذا السـجـال وبشكل مـذهل سـواء من حـيث مـواطن الخلاف أو التمـاثل، النزاع المرتقب بعد شـهـرين بين الصـديقين. هاجم كـامي فكرة مـحـورية في فلسـفـة كل من الرجلين، وهي الفكرة التي اعـتبـرها الأخطر سـياسـيا. وفي مطلع العـام ١٩٥١ نشـرت مـجلة «كـراسـات

«إلى الســيــد رئيس التحرير...»
مقدمة خطاب كامي إلى سارتر

«عــزيزي كــامي: لم تكن صـداقـتنا سـهلة، وإن كنت سـأفـتقـدهـا. إذ أنهـيـتـهـا اليوم...»
من رد سارتر على رسالة كامي

الجنوب» اقتباسا من «الإنسان المتمرد» متضمنا نقد كامي للشاعر لوتريمونت الأثير لدى السورياليين. وربط كامي في نقده هذا دافع الشاعر نحو الحرية المطلقة بنقيضه:

«التماثلية إحدى الغوايات العدمية للتمرد والتي تهيمن على مساحة كبيرة من تاريخنا الفكري. إنها تؤكد كيف أن المتمرد الذي يتهيأ للعمل يجد غواية، إذا ما نسي أصوله، للخضوع والاستسلام للتماثل المطلق في أقصى صوره. وهكذا، فالتماثلية تفسر لنا القرن العشرين... وإن لوتريمونت الذي يحتفي به عادة باعتباره الشاعر الحماسي للتمرد الخالص، هو على العكس، يثني على ميلاد ذوق للعبودية الفكرية آخذ في الازدهار في عالمنا المعاصر».

وعقب هذه الفقرة مباشرة في كتاب «الإنسان المتمرد» نقرأ فصلا بعنوان «السوريالية والثورة»، والذي يهاجم كامي فيه ليس فقط رامبو، بل وأيضا بريتون نفسه باعتبارهما من «العدميين رجال الصالونات» مع إدمان العنف. وكان لابد لهذا النقاش المهم أن يثير عاصفة. ونعرف أن السورياليين هم من أبناء فرنسا، وأنهم بقيادة بريتون حظوا بلحظة مجد كان لهم فيها نفوذ مباشر عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة. وكانوا لا يزالون يحظون باحترام واسع النطاق لأسباب كثيرة من أهمها أنهم ضموا بين أعضائهم في وقت أو آخر أهم شعراء فرنسا المعاصرين. ولا تزال السوريالية لها أتباعها المتحمسون لها على الرغم من أن كامي وسارتر وكثيرين آخرين من أبناء الجيل الجديد يعتبرونها صرعة انتهى زمانها، أو «موضة» قديمة. ولم يعترض كامي فقط على مغازلتهم للشيوعية في الماضي وانحيازهم الذي لا يزال متصلا لفكرة الثورة، بل يعترض قبل ذلك على حبهم الشديد لدرجة الاستسلام للاشعور واللاعقلاني باعتبار ذلك سبيلهم للتحرر. وإذا كان كامي يؤمن بالاعتدال، فإن السورياليين التمسوا سبيلا للتحرر الانفجاري. ودفعوا بأن كل القوى التي تكبل النفس هي بعض من المجتمع البورجوازي بحيث يمثلان وحدة واحدة معا. لقد التمس السورياليون التعبير عن اللاشعور، ومن ثم جعلوا من موضوعات وصور العنف محورا لعملية تحرير الدوافع النفسية المكبوتة. وجاءت أشهر ملاحظة على لسان بريتون حوالي العام ١٩٣٣: «قوام

أبسط عمل للإنسان السوريالى يتمثل في الاندفاع إلى الشارع والمسدس في يده ويطلق النار عشوائيا على الجمهور بأسرع ما يمكن حسبما تسعفه سرعة الضغط على الزناد» ـ وأثارت هذه العبارة فزع كامي. ورأى أن مثل هذه المبالغة في التمثيل الفكري للتعبير عن العنف غذت العنف المنظم المهووس في القرن العشرين.

لم ير بريتون كتاب كامي قبل الهجوم على الفصل الخاص بالشاعر لوتريمونت. وإذ أدرك الاتجاه الذي يقصده كامي كتب على الفور ردا شديد اللهجة نشرته المجلة الثقافية الأسبوعية «آرتس» في ١٢ أكتوبر، وقبل ظهور الكتاب بأسبوع. واعترف بريتون بأنه شعر بانزعاج شديد لأن كاتبا مشهورا مثل كامي يعتزم مهاجمة من هو أعظم منه بألف مرة. إن كامي إذ يغفل قوة التحرير للسوريالية، ويهاجم عدمية لوتريمونت إنما «ينحاز إلى أسوأ عناصر النزعة المحافظة والامتثال للتقاليد».

واتسمت لهجة كامي في الرد بالاعتداد بالنفس وسلاطة اللسان والحسم: «واضح أن بريتون لم يقرأ لي... وإن محاجاته العاطفية الخالصة لم تؤثر على أي من آرائي الفعلية بشأن لوتريمونت». وقال كامي نحن جميعا من مؤيدي السوريالية، ولكن بالإضافة إلى شجاعتها في التمرد فقد تولدت عنها أيضا مواقف للعبودية والامتثالية. لقد زعم أن أي امرئ قرأ حقا دراسته عن لوتريمونت سيكون في مقدوره أن يستكشف هذا من بين السطور. النزعة المحافظة؟ لم يتنازل كامي عن ذرة واحدة من راديكاليته السياسية لصالح بريتون: «إذا كان في مجتمعنا شيء نحافظ عليه، فإنني لن أخجل أبدا في أن أكون محافظا. ولكن لسوء الحظ فإن الأمر ليس كذلك».

آذنت هذه الملاحظة بما سوف يعلنه كامي بعد ذلك بعشرة أشهر إلى سارتر، حين قال «إذا كان الحق عند اليمين فسوف أكون هناك». وأكد بريتون في رده أنه قرأ الكتاب بالفعل. وأدلى بحديث لمجلة «آرتس» رفض فيه الزعم المحوري في كلام كامي لتناقضه الواضح مع السوريالية:

«ما هذا الشبح المسمى تمردا الذي يحاول كامي الوثوق به،
والذي يحتمي وراءه، ويصوغ تمردا هو عنده مدخل «الاعتدال»؟
ما الذي يتبقى من التمرد بعد أن نفرغه من جوهره

الانفعالي؟... لا ريب عندي في أن كثيرين سوف يخدعهم هذا الدهاء: فهذا أسلوب تبقي فيه على الكلمة بعد أن تفرغها من مضمونها ذاته».

وأوضح كامي في رده وفي مقال مطول بعد ذلك أن صوت الجيل الحالي مكافئ تماما لصوت المتحدث العظيم باسم الجيل القديم، جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى. وفي ديسمبر ١٩٤٨، جمعت المنصة كلا من كامي وبريتون وسارتر معا في أثناء أنجح اللقاءات التي نظمها التجمع الثوري الديموقراطي لسارتر. وها نحن الآن نرى الأجيال تتحاور عبر صحيفة أسبوعية مشهورة بشأن المعنى السياسي لموضوعات رئيسية خاصة بالثقافة القومية. وانضم إلى الحشد آخرون خلال الشهور القليلة التالية.

ولعله كان من الأوفق وصف الصراع بعبارة «كامي مقابل بريتون». وتأكدت قدرة كامي على مثل هذا السجال من خلال جرأته على كتابة دراسة تحليلية سلبية هي الأولى من نوعها عن لوتريمونت الشاعر الذي مادام أعجب به المثقفون الفرنسيون ثم بعد ذلك نازل بابا السوريالية. ومع هذا، كما قال في رسائله الشخصية، فإنه يستشعر الآن خوفا جديدا استنفد طاقته، إلا أنه لم يكبح نفسه.

وبلغ السجال بين كامي وبريتون ذروته في حادثين، يعكس كل منهما قوة كامي الاجتماعية. الأول ندوة عن كتاب «التمرد موضوع البحث»، والذي نشره شباب من أتباع بريتون، وقد رفض كامي المساهمة فيه. (وبناء عليه اتهمه رئيس التحرير «بعدم التواضع، وازدرائه لجيل الشباب»). والثاني مصالحة شخصية. إذ على الرغم من عراكهما أوصى كامي بدعوة بريتون للتحدث إلى حشد ضد إسبانيا برئاسة فرانكو، وذلك قرب نهاية شهر فبراير ١٩٥٢. وجدير بالذكر أن بريتون، وهو الأكبر سنا، حين سمع بهذا انفجر باكيا. وحين التقيا في الاجتماع الحاشد تبادل الاثنان حديثا وديا وهما على المنصة - وقال كامي فيما بعد إن ذلك لأنه أحجم عن الرد على الرجل الأكبر سنا باللهجة الحادة ذاتها التي اعتادها بريتون معه. ونلحظ أن كامي ربما تفاعل مع بريتون بسهولة أكثر من تفاعله مع سارتر، ذلك لأنهما لم يكونا صديقين شخصيين، أو ربما لأن خلافاتهما كانت بشأن السوريالية وليس الشيوعية. لقد كان الأمر محفوفا بكثير من المحاذير فيما يخص العلاقة بين كامي وسارتر. وبعد

الاجتماع خرج سارتر، الذي كان على المنصة أيضا، لتناول شراب مع كامي وأبلغه أن عدد مايو من مجلة «الأزمنة الحديثة» سيقدم عرضا نقديا لكتاب «الإنسان المتمرد».

* * *

وظهرت العديد من العروض لكتاب «الإنسان المتمرد» خلال الفترة ما بين تاريخ نشره ومايو ١٩٥٢، وظهرت جميعها في منشورات سياسية وأدبية ودينية وإصدارات تتناول اهتمامات عامة، وكذلك في صحافة يومية وأسبوعية وشهرية، وإصدارات تشمل مختلف ألوان الطيف السياسي. وتناوله أيضا كُتّاب متخصصون في عرض الكتب الأدبية، وكذا شخصيات مشهورة بمن فيهم رفاق كامي أيام المقاومة. وأصبح الكتاب حديث الناس على نطاق واسع، وتلقاه الناس بعامة لقاء حسنا. وطبيعي أن كان هناك نقاد له خاصة مع ظهور المقالات المطولة والمبنية على فكر تأملي. بيد أن رد الفعل السياسي لم يكن على نمط واضح. ويوضح لنا رد كامي على صحيفة «لو بزرفاتور» إلى أي مدى كان هو شديد الحساسية. ذلك أن كلود بوردييه الذي أعطى كامي منصبه كرئيس تحرير في المقاومة في مطلع العام ١٩٤٤، قدم عرضا جادا وإيجابيا للكتاب في عددين من مجلته الأسبوعية. وبعد ذلك كتب كاتب آخر في «لوبزرفاتور» اسمه ليبار، وقال إن العرض الذي كتبه بيير هيرفي خصم كامي القديم ونشرته الصحيفة الشيوعية «لا نوفيل كريتيك» يمثل «دراسة مثيرة للاهتمام». وهنا أخطأ كامي وهاجم مجلة «لوبزرفاتور» لأنها قالت إن المقال الشيوعي «دراسة جيدة». ويبدو أنه لم يدرك أن ليبار استطرد ليشرح لماذا هي دراسة تثير الانتباه، ذلك أنه أقرب إلى أن يكون «كتيبا لا مقالا». وحتى يزيد الطين بلة، أرسل كامي رسالة تتسم بالغطرسة يؤكد فيها أن على الصحيفة أن تختار «بين كلاب الحراسة والأحرار، أو يسار الدولة البوليسية واليسار الحر».

وتذكر أحد المراسلين الاجتماع الحاشد من أجل السلم المنعقد في سال دو بلوييل في ديسمبر ١٩٤٨، والذي تحدث فيه كل من سارتر وكامي وبريتون ونعوا على اليسار غير الشيوعي الموحد آنذاك، وقد تفرق وانقسم إلى شظايا. وبدا مؤلف «الإنسان المتمرد» متصلبا عنيدا عندما سئل عن ذلك: «إن ما انتهى هو عصر التشوش والفوضى». و«يتزايد باطراد عدد من يرفضون

غوامض وألغاز هذا القرن». وأعرب كامي عن أمله في أن نتحد جميعا من جديد شريطة ألا نخفي بعد ذلك خلافاتنا، وأن يعترف كل منا بالمشكلة الحقيقية التي نعانيها اليوم، وهي الشيوعية، وأن نشجبها. أو لنقل بعبارة أخرى إن مناهضة الشيوعية، وليست الاشتراكية، أو الحيادية هي التي يجب أن تكون صرحنا الرئيسي ليسار موحد قبل أن يشارك كامي.

وها هنا يؤكد كامي النتيجة السياسية الرئيسية التي يمكن أن نستخلصها من كتابه الجديد. ونراه خلال هذه الفترة جامعا بين التعالي والعدوانية، وإثارة المتاعب، علاوة على خاصيته الأساسية المتمثلة في استقلاله السياسي وقوة الاقتناع. وإذ تآلفت كل هذه الاستعدادات قادته إلى الرغبة في الجدال مع كل الوافدين، وإن لم يذكر أسماءهم دائما. وأعرب كامي في رسالته إلى «لويزرفاتور» عن غضبه من بيير هيرفي، ومن «لا نوفيل كريتيك»، لأنها لم تنشر عرضا لكتابه إلا بعد سبعة أشهر. ماذا نتوقع أن يكون شعوره إذن إزاء مجلة «الأزمنة الحديثة» ورئيس تحريرها سارتر، إذ زاد شهرا على ذلك؟ لقد حرص كامي عامدا على تمييز نفسه عن «الوجوديين» لسنوات طويلة، لكن ها هو أحدهم الآن أخيرا، وهو جينسون، يرد تفصيلا. وإذا كان كامي شديد الحساسية إزاء التعليقات السلبية (أو العدائية حسب رؤيته هو) فكيف سيكون رد فعله إزاء عرض نقدي شامل؟

* * *

أثارت مسألة كيفية التعامل مع «الإنسان المتمرد» مشكلة في مجلة «الأزمنة الحديثة» منذ لحظة ظهور الكتاب. وتقول لنا بوفوار «في نوفمبر سأل سارتر عن متطوع يعرض كتاب كامي «المتمرد». ولم يكن ليسمح لأحد أن يقول شيئا سيئا عنه بسبب صداقتهما. ولسوء الحظ أن أيا منا لم يكن ليفكر في شيء طيب. وتساءلنا: كيف الخروج من الورطة». وظلت المسألة مطروحة كل أسبوعين على طاولة اجتماعات هيئة التحرير. وبدأ بعض المحررين يقولون إن الكتاب يعتمد على مراجع من الدرجة الثانية، وليس المراجع الأصلية. وأشار فرنسيس جينسون مدير التحرير الاسمي للصحيفة إلى أن سارتر ظن أن كامي يناقش أمورا لم يفهمها، وأنه لم يقرأ لا ماركس ولا إنجلز من كتبهما مباشرة، وإنما قنع باستخدام ملخصات أوردها كتاب آخرون. إذن لماذا لا يعرض سارتر نفسه الكتاب مادام يعرف ما يجب أن يقال، ويمكنه أن

يحقق التوازن الصحيح؟ ونظرا لأستاذيته في اللغة وصداقته مع كامي رفع حاجبيه تعبيرا عن مفاجأته بالاقتراح. ولكن مفكر فرنسا الأعظم ورئيس تحرير أهم صحفها تحاشى انتقاد كامي بأن عهد مهمة عرض الكتاب إلى واحد من أتباعه. وأوضح تفسير لذلك أنه تجنب مواجهة يمكن أن تؤذي صديقه وتدمر الصداقة. كان هو وبوفوار يعرفان أن كامي يستشيط غضبا بسهولة، وتعلما انتقاء كلماتهما عند الحديث إليه، خاصة مع تزايد اختلافاتهم. ويلاحظ أن كامي إذ يلتزم أحيانا بأفكاره بشكل عقائدي جامد، فإنه ينزع إلى أن يكون نقديا في حديثه، ومعتدا بنفسه، ودفاعيا في موقفه. وتقول بوفوار «كما لاحظت أن هذا السلوك زاد سوءا مع الزمن». ويبدو أن سارتر آثر الطريق السهل للخروج ـ إنه يعرف مدى أهمية رأيه بالنسبة إلى كامي، ويعرف أن الإفصاح عنه سوف يغضبه ويسبب مشكلات خطيرة بين صديقين قديمين، ومن ثم التمس مخرجا بأن يطلب من شخص آخر أن يجيب على كامي، شخص لا تربطه به علاقة شخصية. وقال سارتر في هذا الصدد: «سوف يكون الأمر أكثر سوءا وغير مقبول إن لم نقل شيئا عن كتابه». وهكذا، عهد بالمهمة إلى جينسون، الذي، حسبما توقع، سيكون «مهذبا». وطبيعي أن تجنب المسألة على هذا النحو أمر مفهوم وإن انطوى على حمق وقصر نظر.

سبب آخر محتمل لفشل سارتر في عرض كتاب كامي بنفسه وهو عنف كلمات سارتر في خطابه أخيرا مع المؤلف. إنه لن يترفع عن الرد مباشرة على شخص إذا تحدث عنه لا يذكره بالاسم. وحري بنا أن نتذكر كيف أن سارتر بعد أن أشار إليه كامي بقوله «كاتب اليوم»، عنف كامي لمعرفته السطحية بالفلسفة. لقد أصبح سارتر مشهورا عالميا، وفي مستوى مفكرين ذكر كامي أسماءهم في «أسطورة سيزيف»، و«الإنسان المتمرد». ومن ثم، فإن تعمد إغفال اسم سارتر يمثل إهانة تستلفت نظر ناقد أدبي واحد على الأقل. وإذا نوقشت المسألة صراحة ومباشرة، فإن سارتر سيضطر إلى الرد صراحة ومباشرة. ولكن حيث نوقش مع إغفال أسفه في الوقت نفسه فإن أفضل رد على هذا إغفال اسم كامي بدوره على يد ناقد صغير يتولى النقد، ويكون كامي على معرفة بموقفه السلبي منه. هل يبدي مودة صريحة في العلن مع صديقه؟ هل يتجنب الصراع ويحمي صديقه؟ هل يكبت غضبه؟ هل يبادل

الاستخفاف؟ إن عزوف سارتر عن الرد يوحي بكل هذه الدوافع. وانفجر غضبه صريحا في النهاية بعد أن عامل كامي جينسون أضعاف معاملته لسارتر: إذ هاجمه، ولكن رفض ذكر اسمه.

سبب آخر لعزوف سارتر عن عرض «الإنسان المتمرد». ويبدو معقولا بالقدر نفسه في ضوء تاريخ التطور السياسي لسارتر. ويمكن أن يكون هذا السبب هو العجز عن الرد على كامي. إذ على الرغم من أن «الشيطان والرب الرحيم» كان في مستهل طريق تحول سارتر الثوري، إلا أن موقف سارتر بشأن الثورة كان لا يزال على صعيد تجريدي إلى حد كبير. ونعرف أن صداقته مع كامي دبت فيها الحياة لفترة وجيزة في أثناء بروفات المسرحية، إذ بقيا معا في أثناء ليلة الافتتاح، واقترح سارتر أن ينشر في «الأزمنة الحديثة» الفصل الذي كتبه كامي عن نيتشه. وسبق لي أن ذكرت نص تعليق سارتر إذ قال «كان هناك دائما قدر من الحميمية مادمنا على وفاق، بل إن اختلافاتنا لم تثر قلقنا ولم تؤثر في محادثاتنا». ولكن ربما كانت صداقتهما مجرد قشرة خارجية، ولكن العلاقة استمرت. وتباعدا وكل يراقب المواقف السياسية للأعداء. وتهيأ كل لاتخاذ موقف ولكي يصبح المتحدث الرئيسي باسم الموقف الفلسفي - السياسي الذي يمقته الآخر أشد المقت على الرغم من الحفاظ على صداقة شكلية، بل وبعض المحبة تجاه الآخر. وتذكر بوفوار أنها هي وسارتر رأيا كامي «في مقهى صغير يطل على ميدان سان سوبليس في شهر أبريل. أبدى مداعبات كثيرة إزاء الانتقادات الخاصة بكتابه، واعتبر من المسلمات أننا معجبون بها. ووجد سارتر صعوبة جمة لكي يعرف ماذا يقول له». وكانت هذه آخر مرة رأته فيها بوفوار.

كتب سارتر «الشيطان والرب الرحيم» في شتاء العام ١٩٥١. وفي أواخر ربيع العام ١٩٥٢ عاد على عجل من روما إلى أرض الوطن ليكتب الجزء الأول من «الشيوعيون والسلام». وتحمل كلماته الأولى ترديدا لعبارة: «ذلك أن المناهض للشيوعية كلب. وليس بوسعي أن أرى مخرجا غير هذا ولن أجد... وبعد عشر سنوات من التفكير والتأمل مليا بلغت نقطة اللاعودة ولست بحاجة إلا إلى هذه القشة الأخيرة. وأقول بلغة الكنيسة ها هنا بدلت عقيدتي وإيماني». وجدير بالإشارة أن المماطلة من

جانب سارتر وصحيفة «الأزمنة الحديثة» بشأن عرض «الإنسان المتمرد» ثم تحويل سارتر الأمر إلى جينسون، كل هذا حدث خلال الشهور السابقة على هذا التحول في العقيدة.

وقبل صيف العام ١٩٥٢ قرر سارتر نظريا الالتزام بطريق الواقعية الثورية، وإن لم يخط خطوة عملية على الطريق. ولم يأخذ هذه الخطوة إلا بعد قراره بالانحياز إلى الشيوعية. ويشير تاريخ تتابع الأحداث إلى النتيجة، وهي أنه لا يستطيع تقديم عرض نقدي لكتاب «الإنسان المتمرد» لسببين: لا يزال كامي صديقا له، فضلا عن أن الحدث الذي أشار إليه بعبارة «القشة الأخيرة» لم يكن قد وقع بعد. وإذا كان كامي يمثل تحديا له خلال الفترة من خريف العام ١٩٥١ وربيع العام ١٩٥٢ فإنه كان صديقا. وحسم سارتر اتجاهه السياسي فقط بعد أن شرع في كتابة «الشيوعيون والسلام». وأصبح تأسيسا على هذا البيان الرائد الأول المستقل نصير الشيوعية في فرنسا.

ولكن، هل جهود سارتر لتفادي الصراع أكبر من جهود كامي؟ لقد بذل كل منهما غاية استطاعته لتفادي المواجهة، كما أن كلا منهما خطا خطوات في اتجاهها. وطبيعي أن المراوغة لتجنب المواجهة والاستفزاز في اتجاه المواجهة ليس لهما من نتيجة سوى إشعال الانفجار. تزايد من دون شك نفاد صبر كامي، بينما كان يكافح في الوقت نفسه على جبهات أخرى. وتلقى سارتر اتصالا من الحزب يسأله المساعدة في قضية هنري مارتن، وتحرك في هذه الأثناء تجاه المساندة الصريحة للشيوعية. وربما قراءته لكتاب «الإنسان المتمرد» أعانته على استكمال هذه العملية، إذ دفعته بقوة إلى شحذ موقفه في معارضة موقف كامي. وبعث كامي رده إلى «الأزمنة الحديثة» في ٣٠ يونيو بعد أن أكمل سارتر الجزء الأول من «الشيوعيون والسلام». ويمثل هجومه على كامي أول عمل له كرفيق طريق. وقرأ رد كامي على العرض الذي كتبه جينسون، وهنا أقدم على عمل ما ظل يتجنبه على مدى العام تقريبا: إذ وجه الحديث مباشرة إلى كامي.

* * *

المواربة الاستفزازية التي تجنب من خلالها كل من الطرفين التعامل المباشر مع الآخر حققت الآن نتيجتها المفضية إلى الانفجار. وعرض سارتر تصوره للأحداث خلال حوار مع بوفوار تاريخه «أغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٤»، والمنشور بعد وفاته:

«حدثت القطيعة النهائية حوالي الوقت الذي نشر فيه كامي «المتمرد». حاولت الاهتداء إلى شخص يتطوع لتقديم عرض نقدي للكتاب في مجلة «الأزمنة الحديثة» من دون أن يكون شديد القسوة. ووجدت صعوبة في ذلك. ولم يكن جينسون موجودا آنذاك، ولم يشأ أحد من أعضاء تحرير «الأزمنة الحديثة» أداء المهمة نظرا إلى أنني أردت الاعتدال بينما الجميع يمقتون الكتاب. وهكذا لم تذكر «الأزمنة الحديثة» شيئا عن «المتمرد» لمدة شهرين أو ثلاثة. ثم عاد جينسون من أسفاره، وقال لي: «أنا راغب في ذلك»».

كان جينسون قد التقى سارتر العام ١٩٤٧ في مكتبه في مجلة «الأزمنة الحديثة». كان يناهز آنذاك الخامسة والعشرين من العمر ويعاني ـ شأن كامي ـ من مرض السل. وفرغ من فوره من تأليف واحد من أول وأفضل الكتب عن سارتر. وكتب سارتر تصديرا لهذا الكتاب. ونشر جينسون أول مقال له في «الأزمنة الحديثة» العام ١٩٤٨، وشغل منصب مدير تحرير المجلة بعد أن خرج منها ميرلو ـ بونتي في أوائل العام ١٩٥١. ويصف نفسه بنص كلماته «تلميذ» وليس «ببغاء» أبدا لسارتر. ولم يكن عضوا ضمن الأسرة، ولم يكن قط صديقا شخصيا لسارتر على الرغم من أن سارتر كان شاهدا على زواجه بزوجته الأولى. ويتميز جينسون بأنه مفكر أصيل ثاقب البصيرة. ولعله أول كاتب أبرز الخلافات بين سارتر في مرحلته الأولى وبين كامي بشأن العبث: إذ قال في أول كتاب له إن سارتر يؤمن بأن البشر بوسعهم بشكل ما التغلب على العبث بينما يصر كامي على محورية العبث في تجربة حياة البشر جميعا. ونشر جينسون عددا من المقالات في مطلع العام ١٩٤٧ قبل نفاد كتابه بوقت قصير، وقدم نقدا قويا ومفحما لفكر كامي، يتجاوز كثيرا كل ما قاله سارتر على مدى سنوات طويلة. ورأي جينسون أن إصرار كامي على «بقاء العبث» لا يعني قبول وقائع التجربة، بل يعني التخلي عن الفكر الفلسفي ذاته، وإنكار «النداء الباطني»، نداء العقل. وعنده أن كامي استسلم لشكل ما من الانهزامية قادته إلى «العبثية» بأن حولت واقع العبث إلى قيمة. «أن تطرح سؤالا عن العبث حتى وإن كنت تقبله فإن هذا يعني أنك لا تزال تريده».

وبحلول العام ١٩٥١ كان جينسون قد انتقل من داخل الوجودية في اتجاه الماركسية، وجسد كلا من البعد الذاتي الفردي للتجربة والمطلب الاجتماعي والتاريخي للتغيير الهيكلي في نظرة عامة واحدة. وأحس أنه «ماركسي أكثر من الماركسيين». ولكنه لم يكن قط عضوا في الحزب، ولم ير نفسه أبدا رفيق طريق. وكتب العام ١٩٥١ مقالا عن الطبقة العاملة «حالتها الصحية وميولها ومستقبلها»، وفيه يؤيد في تردد الحزب الشيوعي الفرنسي فقط، لأنه الحزب الممثل للعمال في فرنسا. وهكذا نجد هذا الشاب في تحركه تجاه الماركسية وفي رغبته في تقديم دعمه النقدي للشيوعيين، وكذا في قدرته النظرية على الجمع بين الوجودية والماركسية، إنما مضى بعيدا حيث تجاوز معلمه في أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات. ويمكن القول إنه فكريا وسياسيا كان هو الأصلح من أستاذه لكتابة عرض نقدي لكتاب «الإنسان المتمرد».

بيد أنها مهمة مستحيلة على جينسون الحفاظ على صداقة سارتر مع كامي بينما ينتقد كتابا هو نفسه يمقت سياسته، فضلا عن أنه رفض فلسفة مؤلفه. ونظرا إلى أنه لا تربطه علاقة شخصية مع كامي، وهو المستهدف، فإن سارتر لن يكون له تأثير على كتابته للموضوع. وحدث أن سارتر أعرب عن استيائه لأن جينسون «كتب المقال على نحو لم أكن أريده، بمعنى أنه كان عنيفا، جارحا، وأبرز أخطاء الكتاب التي لم يكن من العسير كشفها». وتذكر سارتر أحد التفصيلات المهمة. كان ميرلو ـ بونتي في باريس، ومسؤولا عن المجلة في الوقت الذي كان فيه سارتر خارج فرنسا، وظن ميرلو ـ بونتي أن سارتر ربما لا يريد لمثل هذا العرض النقدي العنيف أن يظهر. ويشرح سارتر ما حدث بعد ذلك من خلال كلماته الأخيرة عن هذا الحوار:

> «حاول ميرلو ـ بونتي أن يحث جينسون على تغيير رأيه ـ وحدثت مشاجرة عنيفة ـ وأخيرا كان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يأخذ المقال طريقه للنشر. وظهر بالفعل ولكن تحت شروط خاصة ـ قبلها جينسون، وهي التحفظ الوحيد الذي قبله، بأن يعرض مقاله على كامي قبل صدوره وسأله إن كان قد وافق أم لا».

تضمن مقال جينسون الذي يقع في إحدى وعشرين صفحة دراسة نقدية لكتاب «الإنسان المتمرد»، وتلتزم بموضوعين رئيسيين: الهجوم على المؤلف والكتاب. والملاحظ أن جينسون حتى قبل أن يلمس جوهر الكتاب، شرع ينتقد الرجل وكتاباته السابقة واستقبال الناس للكتاب وأسلوبه. وهنا فقط بدأ يهدئ من لهجته الساخرة لينتقد أفكار كامي. وعزا بعد ذلك لهجته الساخرة إلى رغبته في الحد من شهرة كامي كقديس أخلاقي. وإذا كان كامي اعتاد بذل جهد صريح لحث سارتر على الحوار إلا أن جينسون، على العكس من ذلك، عامل كامي كخصم يقوم بتشريح حججه والكشف عن أخطائه. وتعمد جينسون الخشونة في حديثه عن كامي وحرمان خصمه السياسي والفكري من أي أساس يرتكز عليه، لأنه مخطئ أولا وأخيرا. وكان هذا هو العنف.

لحظ قراء جينسون أول ما لحظوا عنوان العرض النقدي. وتضمن هجاء لاذعا لكامي: «ألبير كامي أو الروح المتمرد». وإذ قرن جينسون «الإنسان المتمرد» بـ «الروح المتمرد» فإنه بهذه التورية أضاف معنى آخر إلى «الروح المتمرد» ـ أي «المتمرد». وهذه إشارة ضمنية إلى «الروح الجميل» عند هيغل في «ظاهراتية (فينومينولوجيا) الروح»، والتي تستكشف كيف أن الجهد المبذول للبقاء نقيا يتحول ضد ذاته. وسبق أن تحدث كامي نفسه عن هيغل الذي استهل الهجوم في العصر الحديث ضد النقاء «بشجبه الروح الجميل والمواقف العقيمة». وبينما كان جينسون ثم من بعده سارتر يدافعان عن تفاني «الأرواح الجميلة» فإنهما يبديان ازدراءهما لكامي لهذا السبب. وعرف جينسون كيف يلفت الأنظار من خلال عنوان المقال إلى أن كامي هو المستهدف.

تمثل السخرية النغمة المهيمنة على المقال. بدأ جينسون بالإشارة إلى العروض السابقة للكتاب، وأخذ يقرع كامي للمديح الذي أزجاه اليمين على «الإنسان المتمرد». وانتقل بعد ذلك ليقر بأن الكتاب لقي استقبالا حسنا أيضا لدى كثيرين من أهل اليسار، ويرى أن هذا النجاح الواسع راجع إلى ما يتسم به الكتاب من «ضعف فكري» و«إنسانية مبهمة» و«قدر من تفكك الفكر، مما يجعله في النهاية مطواعا وقابلا للتشكل إلى ما لا نهاية وقادرا على استقبال أشكال متباينة كثيرة». ويبدأ جينسون ذلك بانتقاد الكتاب لأنه مكتوب بأسلوب جيد. ويرى جينسون أن كامي خان مبدأه الذي يقول «الأسلوب

العظيم هو مطابقة أسلوبية خفية»، وذلك بابتداع أسلوب «مفرط في الجمال، ومفرط في التأثير، ومفرط في الثقة بالنفس». ويتراجع جينسون عن مديحه السابق العام ١٩٤٧، ويهاجم الآن «الطاعون» لما فيه من «أخلاق الصليب الأحمر» أو أخلاق العمل الخيري.

ويلخص جينسون الموضوعات الرئيسية عند كامي، ويوضح أن كامي إذ يرى الثورات هدفها «تأليه الإنسان» إنما يرفض في الواقع «أي دور للتاريخ والاقتصاد». ويتحول الموجز الساخر إلى رؤية نقدية:

> «يسير على المرء أن يرى أن هذا المفهوم «الغريب» عن التاريخ يفضي إلى قمعه من حيث هو كذلك، لأنه يلغي كل المواقف العيانية الملموسة بغية الوصول إلى حوار خالص مع الأفكار: إذ من ناحية، يحتج الميتافيزيقي ضد المعاناة والموت؛ ومن ناحية أخرى الغواية الميتافيزيقية المكافئة تجاه القوة المطلقة. يمثل الأول التمرد الحقيقي ويمثل الثاني انحرافه الثوري. وعند هذا المستوى الرفيع من الفكر يمكن للنزاعات اللاهوتية أن تظهر يقينا باعتبارها حاسمة. بيد أن هذه ليست هي على وجه اليقين حالة الوجود البسيط للناس الذين يمكن أن يكونوا، على سبيل المثال، جوعى والذين قد يعدون أنفسهم، تأسيسا على منطقهم المتدني، من أجل النضال ضد المسؤولين عن جوعهم. وهكذا تؤكد كل الشواهد أن كامي لا يؤمن بالبنى التحتية».

إن كامي بدلا من أن يدرس «الهياكل العيانية للفعل الثوري» والتي تتضمن طريقة انبثاق وتطور الثورة وكذا «السلوكيات التي تتألف منها» نراه يعطي «الأولوية المطلقة للأيديولوجيات، وينحو باللائمة على المفكرين وأفكارهم لمسؤوليتهم عن كل ما حدث من أخطاء. ويقول جينسون وبناء على هذا يخصص كامي ربع كتابه لتحليل الثورات الحديثة»، وذلك بدراسة العقد الاجتماعي عند روسو، وخطب سان جوست و«فينومينولوجيا الروح عند هيغل والإيمان بعقيدة عدمية فوضوية إرهابية لدى مفكري الفاشية وعند لينين والنظرية الستالينية. «أليس هذا التاريخ الزائف لثورات فاشلة ما هو إلا تاريخ فاشل لأيديولوجيات ثورية؟».

وينبني نقد جينسون على أساس فهمه أن كامي يدين الثورات مقدما بسبب نواقص فكرية يزعم أنها من مكوناتها. أو لنقل بعبارة أخرى إن كامي يبشر بنوع من النزعات الصوفية التي تدعو إلى التأمل والسكينة. وبعد أن رفض جينسون تفسير كامي الخاطئ لفكر هيغل يمضي قدما لينتقد جدوى الثناء الذي يزجيه كامي إلى النزعة النقابية الثورية باعتبارها الموقف السياسي الأصيل الفعال الوحيد. وهكذا يدعو كامي إلى «تمرد خانع» مقابل «التمرد المظفر» الذي يجسده الاتحاد السوفييتي. ويهاجم جينسون ما يعتقد أنه عبادة الانهزامية السياسية ـ تأكيد كامي أن الموقف السياسي المشروع الوحيد هو ذلك الموقف المقرر فشله مقدما في معاناة سيزيف. ويرد جينسون متحديا قائلا إن الحزب الشيوعي يتحدث باسم الطبقة العاملة، ومن ثم فإن رفض هذا تعسفا يعني القول بحتمية الفشل.

ويذهب جينسون إلى أن الدافع وراء هذا هو رغبة كامي «أن يكون التاريخ هو الفاعل المنجز». إذ إن المطلق المفتقد هو الذي يحتل تفكير كامي: «إنه يريد فقط أن يتحداه، وأن يظل بالنسبة لهذا السيد الأعظم، العبد المتمرد إلى الأبد». بيد أن هذا المطلق ودراما العبثية عنه تجعل «من العسير النظر بجدية إلى المظالم النسبية، ومن ثم لا جدوى من ادعاء معالجتها: إذ سيموت الأطفال دائما ظلما، حتى وإن كانوا داخل مجتمع كامل». ويقول جينسون في هذا الصدد «ليس من سبيل لإنكار أن تمرد كامي هو أسلوب راديكالي لرفض التاريخ» ـ حين يكون التمرد مميزا بحدوده وقيوده بينما التاريخ هو عين مركز «الغلو» والفعل الساخر والتدمير والعبودية بغير حدود وسلسلة لا نهاية لها من «التشنجات» والغم الجمعي المهول.

استشعر جينسون قلقا بسبب موقف كامي ضد الثورة، ذلك لأن الثورة غالبا ما تكون أمل الشعب الوحيد. ومن ثم فإن إسقاط الثورة مقدما يجعل مصيرهم رهن احتجاجات لا طائل منها. إن الثورات سواء اقترحها أم لم يقترحها مثقفون يرون في أنفسهم الكمال إنما تتمثل مجسدة عيانيا عند حرمان الشعب من حاجاته الحيوية، ويدفعهم هذا إلى التجمع في رابطة واحدة للإطاحة بمن هم في السلطة، ويغيرون مواقفهم جذريا. نعم، ربما يأتي هذا العمل بنتائج مرذولة، ولكن هذه هي كلفة التغيير الاجتماعي خاصة إذا عرفنا القوى الهائلة المتاحة لمن هم في السلطة.

ولقد كان الاختلاف الفلسفي والسياسي بين جينسون وكامي اختلافا شرسا، غير أنه كف عن إخراج كامي من زمرة اليسار أو استخدام لغة الخيانة التي ربما يختارها آخرون ممن تتلمذوا على السجالات التي غرستها الثورة البلشفية. وحقيقة الأمر أن هذا العرض النقدي المطول والسلبي ظهر في صحيفة أخرى ـ مثل مجلة «أسبري»، صوت رفاق اليسار الكاثوليكي ـ لأنه بمنزلة نقطة تحول في الحياة الفكرية الفرنسية.ولكن ظهوره في صحيفة سارتر يعني الكثير. وتتمثل الدراما الرئيسية لهذا المقال في الكيفية التي قرأ بها كامي المقال ـ أو كيف كان عليه أن يقرأه. وإذا سلمنا بمحاولته الفجة ولكن المخلصة لزج سارتر في المناقشة، وإذا سلمنا بتاريخهما الشخصي، فإن كامي كان لابد أن يغتاظ، إذ تحدث مع سارتر وبوفوار لتأسيس صحيفة دعي هو ليكون واحدا من هيئة التحرير الأصليين ونشرت له فصلا من «الإنسان المتمرد» قبل ثمانية أشهر فقط من تاريخ نشر العرض النقدي الذي كتبه جينسون. وبعيدا عن كل هذه الاعتبارات فقد كان اسم كامي مثبتا على رأس الصفحة. وأكثر ما يحير أن سارتر لم يكن فقط لزاما أن لا يقع عليه الاختيار لكتابة العرض النقدي لكتاب «الإنسان المتمرد»، بل إنه اختار للمهمة عضوا من صغار المحررين في مجلة «الأزمنة الحديثة»، ولم يكن حتى عضوا ضمن هيئة التحرير ـ مجرد تابع ـ يشغل وظيفة لم يشغلها كامي أبدا.

وطبيعي أنه في ضوء كبريائه الخاص وشكوكه الذاتية المضمرة، كان لابد من أن يأخذ كامي ما حدث على اعتبار أنه جهد متعمد لإذلاله، وبرهان أمام الجميع لكي يروا أن أفكاره لم تكن حتى لتستحق اهتمام سارتر نفسه. إن مقالا يتضمن تقديرا كاملا يكتبه محرر صغير ربما ما كان ليروق له ـ هذا على الرغم من أن «الإنسان المتمرد» سبق أن ناقشه عدد من النقاد المهمين. وإن مكانة كامي التي حققها بشق النفس ربما كانت تجعله في ظروف أخرى متعاطفا مع شاب مغمور يشترك معه في حوار. لكن ربما تمثلت أكبر الإهانات في أنه هو شخصيا غير معروف داخل سياق مجلة «الأزمنة الحديثة». كذلك حقيقة أن شابا صغيرا انتقده بدلا من سارتر لا تدل إلا على شيء واحد وهو رفض سارتر لكامي. ويبدو ـ على الأرجح ـ أن الملاحظات الساخرة بشكل شخصي ـ «الروح المتمردة» و«الروح الجميلة»، «لم يقم كامي بأي دور»، و«أخلاق الصليب الأحمر» ـ

أثارت غضب كامي لأنها جاءت على لسان معاون صغير من معاوني سارتر.
لهذه الأسباب جميعا لم يقرأ كامي المقال شأن غيره الذي أعلن فيه سارتر القطيعة بينهما.

* * *

ويحمل رد كامي المؤلف من سبع عشرة صفحة والمؤرخ في ٣٠ يونيو ١٩٥٢، والرد موجه إلى «السيد رئيس التحرير»، دون أن يذكر اسم جينسون ولو مرة واحدة. وعلى الرغم من أن كامي أشار إلى جينسون في المسودة الأولى، فإنه شطب على الاسم بعد ذلك. وبدلا من هذا استهل رسالته بالإشارة إلى «المقال الذي خصتني به صحيفتكم». وكان كامي يذكر في تبادل عبارة «معاونكم» وعبارة «مقالكم»، وتعامل مع مقال جينسون وكأنه مقال كتبه سارتر لأنه على يقين من أن سارتر «متضامن» مع موقف الكاتب. وحيث إنه صحافي فقد عاد إلى البروتوكول الصحافي، واعتبر رئيس التحرير مسؤولا عن المقال وعن الآراء الواردة فيه؛ وهذه حيلة لا تنطوي على رئيس تحرير صحيفة مثل سارتر. ذلك لأن المساهمين في الكتابة لهم حق التعبير بحرية ومن دون تدخل من جانب هيئة التحرير. لكن كامي إذ قرر توجيه خطابه مباشرة إلى سارتر فإنه بذلك انهى جهوده لتجنب المواجهة.

وعبر كامي عن ثورة غضبه إزاء ما اعتبره تشويها فاضحا ومنافيا للذوق لشخصه ولحياته ولكل ما أراد أن يقوله في «الإنسان المتمرد». لقد اتهمه الناقد بأنه يعيش فوق السحاب، بعيدا عن أي التزام، وبالكتابة على نحو ينافي أي دليل ومعاد للتاريخ، ويعيش منفصلا عن الواقع، وأنه مثالي لا يعرف للتوبة والندم طريقا». وانقلب كامي على الصحيفة بعد سبع سنوات من العلاقات الدافئة معها:

> «أخيرا، لا أحد سوى صحيفتكم سيراوده التفكير في الطعن في الدعوى بأنه إذا كان ثمة تطور قد حدث من رواية «الغريب» إلى «الطاعون»، فإن هذا التطور مضى في طريق التضامن والمشاركة. وإن الزعم بغير هذا كذب أو حلم خيال. لكن كيف يتسنى للمرء أن يعمل على نحو مختلف إذا كان عليه أن يثبت، في منافاة لكل الشواهد والبينات، أنني منفصل عن الواقع والتاريخ؟».

تتضمن هذه الملاحظة القطيعة مع سارتر، كما عبر كامي عن إحباطه لتفسير موقفه وفكره على نحو خاطئ ومن ثم تصميمه على التحكم في الطريقة التي يتعين تفسيره بها واستعداده لئلا يرى أي قراءة غير مجاملة قراءة نابعة من عدم أهلية أو سوء طوية. وتمثل رسالته نموذجا لعادته في تقديم ردود استباقية إلى كل من يخالفه الرأي. ونلحظ أنه كرر عشرات المرات بل أبدى أسفه لأن «الأزمنة الحديثة» أغفلت حججه الواضحة والظاهرة للعيان.

ولقد أثار جينسون قضية مشروعة: هل كان كامي يضع نصب عينيه أفكارا ما بشأن استبعاد عمليات تاريخية أخرى، وما هو موقف الكتاب من هذا؟ حاول كامي أن يجعل من «الأزمنة الحديثة» القضية المشار إليها.

«قوام منهج معاونك يتمثل في القول... أنني أنكر الدور المحوري للعوامل الاقتصادية، وأنني «بوضوح» (وهذه لا ريب مسألة وضوح ذاتي باطني) لا أؤمن بالبنى التحتية. ولكن لماذا نقد كتاب إذا قرر المرء ألا يهتم بقراءة ما تضمنه؟ هذا الإجراء قسمة مطردة وثابتة في مقالك ويجهض مقدما كل إمكان للمناقشة. أنني حين أقرر أن السماء زرقاء وأنت تقوّلني أنني أظن أنها سوداء فلن يكون أمامي من خيار سوى أن أعترف بجنوني أو أن أعلن أن محاوري أصم. ولحسن الحظ أن حقيقة وضع السماء باقية على حالها بقاء الفرضية موضوع نقاشنا في هذه الحالة. ولهذا يتعين علي دراسة الأسباب التي ساقها معاونكم لكي أقرر إن كنت مجنونا أو أنه هو أصم».

ويرى كامي أن «المساعد» كشف عن دافعه لدخول هذه المعركة:

«في الحقيقة أنه ليس أصمّ بقدر ما هو، على ما يبدو، عازف عن السمع. إن فرضيته بسيطة: إن ما سميته أزرق هو أسود. ويعتمد مقاله في جوهره على مناقشة موقف لم يحدث أنني لم أدافع عنه أصلا بل لم أناقشه على الإطلاق أو أنتقده في كتابي. هكذا شاء له أن يوجزه على الرغم من أن «الإنسان المتمرد» يكذبه: كل شرّ قائم في التاريخ، وكل خير خارجه. هنا أرى لزاما أن أحتج وأعترض وأقول لك في هدوء أن مثل هذه الحيل غير كريمة. إن ناقدا من المفترض أنه أهل للنقد، يتحدث على

صفحات صحيفة من أهم صحف هذا البلد، ينبري دون سبب أو دليل لتقديم موضوع للنقاش على أنه الفرضية الأساسية لكتاب، بينما الكتاب يخصص جزءا كاملا لدحضها. ومثل هذا الوضع يعطي فكرة مثيرة للقرف عن مدى احتقار الأمانة الفكرية اليوم. ويجب أن نفكر في من سيقرأون المقال وليس لديهم الميل أو الوقت لشراء الكتاب، إذ سيعتبرون أنفسهم قد أحيطوا علما بما فيه الكفاية عن الكتاب. وبصرف النظر عن هذا كله فإنهم سيكونون مخدوعين، ومقالكم هو الذي كذب عليهم».

هذا بيان عام إلى الصديق الذي اعتقد أنه قطع علاقته به بنشره لهذا العرض النقدي. ونراه، بشكل مباشر أكثر وكأنه يخص سارتر بالحديث، يتهم المحررين بعدم الرغبة في الكشف عن أسباب قلقهم بشأن «مواجهة» معه. ويشير كامي أكثر من مرة في هذه الرسالة إلى ما كان يأمل أن يجده في مجلة «الأزمنة الحديثة»: «إن ناقدا حكيما وأمينا ما كان له أن يشوه كتابه، لكنه على الأصح سوف يركز على «فرضيتي الحقيقية: وأعني بها أن أي إنسان ينشد خدمة التاريخ لخاطر التاريخ في ذاته سوف ينتهي إلى العدمية». وتعني عبارة «لخاطر التاريخ في ذاته» بوضوح التاريخ بمعزل عن المعايير والقيم. وطبيعي أن مثل هذا الناقد سيكون قد «حاول البرهنة على أن التاريخ في وسعه مستقلا أن يهيئ القيم التي ليست هي حصرا القيم الفاعلة، أو بدلا من هذا حاول أن يثبت أن في وسع المرء أن يعمل في سياق التاريخ دون التماس أي قيم». وغني عن البيان أن مثل هذه البراهين عسيرة، ولكن «هذا الجهد سيكون قد أسهم في التقدم المشترك لنا جميعا، وأقول، بأمانة، أنني توقعت ذلك لكم، بيد أنني أخطأت».

واستطرد كامي في شكواه من أنه لقي معاملة سيئة للغاية، واستطرد في محاولته تصحيح السجل. وتضم الفقرة قبل الأخيرة من الرسالة تعليقا آخر مباشرا وشخصيا على سارتر: «بدأت أشعر بقليل من السأم إذ أرى نفسي - بل وما هو أكثر أن أرى المناضلين السابقين الذين لم يرفضوا أبدا صراعات عصرهم - أتلقى دروسا بلا نهاية عن الفعالية من نقاد لم يفعلوا أي شيء سوى أن يديروا مقعدهم في المسرح في اتجاه التاريخ». ولنتذكر هنا كلمات كامي عندما أيقظ صديقه النائم الذي كان «يشغل» الكوميدي فرانسيز أثناء ثورة أغسطس ١٩٤٤، إذ قال له: «لقد حولت مقعدك في المسرح في اتجاه التاريخ».

وها هو كامي الآن يذكر سارتر بعلاقتهما الأصلية، وبسجله مقارنا بسجل سارتر. إنه يذكرنا أيضا بمدى الصعوبة التي واجهت سارتر في تحوله إلى شخص ملتزم. ويذكر سارتر أين كانت الأمور وقتما كان كامي رئيس تحرير ويعهد إلى سارتر بكتابة مقالات لصحيفته. من كان خارج التاريخ آنذاك؟ ومع هذا يحاول كامي كبح جماح نفسه. وطبيعي أن الوحيدين الذين فهموا هذه الإشارة هم سارتر نفسه وحفنة من الناس الذين عرفوا ما حدث.

* * *

كان كامي على صواب: جينسون أسقط حجته الرئيسية، لكن القارئ يمكنه أن يدرك أن ثمة مراوغة مدروسة على كلا الجانبين، بدءا من «الإنسان المتمرد»، وبالاشتراك مع جينسون. ونسأل في النهاية من هو الهدف الرئيسي لكتاب كامي؟ كتب كامي ضد من يبررون القتل، المثقفين المتواطئين مع الشيوعية، أولئك الذين صاغوا المبررات العقلية لذلك لبقية العالم. وإذا كان سارتر قد صرح الآن فقط عن مكنون نفسه، فإنه هو وصحيفته لابد - يقينا - من أنهم يتجهون في هذا المنحى جميعا. ونعرف أن كامي شرع بعد التحرير مباشرة في انتقاد نزوع سارتر إلى أن يوثق فكره تاريخيا، وقضى سنوات يميز نفسه عن سارتر، ثم أعرب عن تحذيره الذي لم يلحظه أحد. وانصبت دراساتهما بين العامين ١٩٤٦ و١٩٤٧ على فكرتين: العنف والالتزام. واحتلت هاتان الفكرتان محور تطور كل منهما على مدى السنوات التي انتهت بهما إلى القطيعة.

بعد أن اتخذ كامي لنفسه موقفا متعمدا وشاذا عن المألوف في الحروب السياسية الدائرة آنذاك، ربما فهم على الأرجح أن المختلفين معه سوف يشعلون حربا ضده، ولن يتعاملوا معه كصديق. بيد أن هذا الفهم يعني أنهم سيرون حجته من منظورهم هم وليس من منظوره هو، وهذا هو ما رفض أن يفعله. وهكذا لدينا المشهد الحزين الذي عبر عنه كامي بصيحته «سخف» وخصص النصف الأول من رده لمواجهة اتهام يفيد أن مجلة «الأزمنة الحديثة» شوهت أفكاره.

والآن يحاول كامي في منتصف رسالته أن يقلب الطاولة على سارتر و«الأزمنة الحديثة»، ويبدأ الحديث مباشرة عن المحظور - دعم سارتر للشيوعية - ويتحول نقده للعرض إلى نقد لسارتر. ويعود إلى تعقيبه الموجز في نهاية «الإنسان المتمرد» وكذا إلى ملاحظاته عن الوجودية منذ العام ١٩٤٥، وهنا يتحدث كامي بصراحة كاملة ومن دون مواربة ليقول لسارتر ما هو الخطأ في تفكيره وفي سياسته.

ونعرف أن سارتر وصحيفته تبنيا منظورا شيوعيا وإن رفضا إثبات ذلك بصدق وأمانة: «إن كل ما ورد في مقالك يبدو وكأنك تدافع عن الماركسية كعقيدة ضمنية». وها هو العرض «على نقيض مواقفك السابقة»، يغفل كل التقاليد الثورية غير الماركسية ومن ثم يعتبر «أن ليس هناك حل ثالث، ولا بديل عن الوضع القائم أو الاشتراكية القيصرية». ولم يكن موضوعا في الاعتبار إمكان نقد الماركسية، أو القول بأنها باتت موضة قديمة شأن أي أبنية فوقية أخرى. وكذلك بالنسبة إلى كل الجهد المبذول في «الإنسان المتمرد» بهدف استكشاف الروابط بين ثورات القرن العشرين والإرهاب. و«على أي حال إذا كان من رأي المرء أن الاشتراكية الاستبدادية هي التجربة الثورية الرئيسية في عصرنا فإنه يبدو لي أن من الصعوبة بمكان التوافق مع الإرهاب الذي تفترضه مقدما خاصة اليوم - وكذا، على سبيل المثال... مع حقيقة معسكرات الاعتقال». ويقول كامي أنه سيجد الأمر طبيعيا، بل وشجاعا، إذا ما واجه المشكلة صراحة، «إنك تبرر وجود هذه المعسكرات. وإن ما يبدو غريبا ويكشف حقيقة قلقك أنك لم تعلق على هذا أبدا أثناء مناقشة كتابي، واكتفيت باتهامي أنني لم أصب كبد الحقيقة». وكان كامي يرى أن المعسكرات هي كبد الحقيقة وجوهر القضية. ويؤكد، في معرض دعوته إلى الثورة، أن العرض النقدي للكتاب «يقول، كما يبدو واضحا، نعم لمذهب بينما يلتزم الصمت إزاء السياسات المترتبة عليه».

ولم ير كامي أي التزام بالحرية في تحول سارتر تجاه الماركسية، بل تطلعا للخضوع. إن الوجودية، خاصة أن نقطة انطلاقها هي الحرية الإنسانية، كانت على نقيض الفكرة الماركسية بشأن الضرورة التاريخية. ولا ريب في أن تحرير البشر من كل أنواع العوائق أمر يتناقض مع الزج بهم في السجون باسم الضرورة التاريخية. و«حقيقة الأمر أن معاونك يود لو يتمرد الناس ضد كل شيء فيما عدا الحزب والدولة الشيوعية». ويعود هذا بكامي إلى عزوف العرض النقدي عن تناول حجته:

> «ليس عبثا أن يعجز مقالك عن تناول حقيقة نص، ومن ثم يضطر، لكي ينتقده، إلى إبداله بغيره. وليس عبثا وقد ووجهت بكتاب مهموم تماما بالموقف السياسي في أوروبا في العام ١٩٥٠، فإذا بمقالك لا يشير إلى قضايا الساعة. ذلك لأنه لكي تشير

إليها سيكون لزاما التحدث صراحة. وعلى الرغم من أن من العسير على كاتبك اتخاذ موقف ضد العنصرية والاستعمار، فإن موقفه المتناقض يحول دونه والصراحة الواضحة عن الستالينية».

الفكرة الرئيسية في حجة كامي واضحة: إنها الوجودية، كفلسفة حرية، وقد تبنت الضرورة وتواطأت مع الستالينية. انبرى سارتر في هذه الآونة وساند الشيوعية صراحة. وحول كامي صراحة كل حجته ودراسته في الإنسان المتمرد ضد سارتر و«الأزمنة الحديثة». ونلحظ في رده على العرض النقدي الجمع بين شكوى كاتب مغتم بسبب إغفال أفكاره ورؤية عدوانية. وإذ أراد كامي أن يعيد تأكيد أفكاره عمد في شجاعة إلى تصعيد الحوار.

* * *

«عزيزي كامي: لم تكن صداقتنا سهلة، وإن كنت سأفقدها. إذ أنهيتها اليوم...» يوضح سارتر منذ البداية أن رد كامي، وليس العرض النقدي الذي كتبه جينسون، هو الملوم بشأن إنهاء الصداقة بينهما. ولكن لهجة المحادثة المباشرة في رسالة سارتر، في مقابل حديث كامي الفظ عن بعد، تشير إلى أنه هو، على الأقل، سيستخدم الجانب الشخصي لتبرير القطيعة. لذلك فإنه من اللحظة التي أمسك فيها بالقلم اعتاد قارئ «الأزمنة الحديثة» على مشهد مثير للاهتمام، حيث يجري الحسم بصورة عامة وعلنية لحسابات شخصية بين صديق سابق وآخر. وأسهم جينسون هو الآخر في رد كتبه من دون أن يطلع على رد سارتر، لكن نشر هجوم من ثلاثين صفحة، علاوة على عشرين صفحة أخرى كتبها سارتر يمثل كمّا فوق الطاقة. وأعطى الاثنان انطباعا بأن «الأزمنة الحديثة» بصدد هجمة شاملة ضد شخص كامي وضد أفكاره. لكن القليلين هم من لحظوا مقال جينسون، ليس فقط لأنه زيادة على اللازم، لكن أيضا لأن القطيعة بين الصديقين جعلت كل شيء آخر في الظل.

يوجه سارتر نقدا شديد القسوة، ويكشف أمام الرأي العام وبالكامل مظان الضعف لدى صديقه السابق. لم يشأ سارتر أن يمسك عن شيء، على نقيض كامي الذي كبح جماح نفسه:

«كم من المؤسف أن تضعني عن عمد أمام محاكمة، وبمثل هذه اللهجة القبيحة، بحيث أصبحت عاجزا عن الاستمرار في التزام الصمت من دون أن أفقد ماء وجهي. لذلك سوف أجيبك

من دون غضب، ولكن في إسهاب (لأول مرة منذ عرفتك). إن جمعك بين تصورات كئيبة وموقف هش حال دائما دون الناس واطلاعك على الحقيقة من دون تجميل أو مواربة. والنتيجة أنك أصبحت ضحية زهو أخرق، يخفي مشكلاتك التي تطوي عليها صدرك، والتي أظن أنك قد تسميها اعتدالا متوسطيا. وهذا ما سوف يقوله لك شخص ما إن آجلا أو عاجلا. ولن يختلف عما قد أقوله بنفسي. ولكن لا تخف. لن أحاول تلوين صورتك مثلما أنني لا أريد أن أتعرض لما أضفته من تأنيب مجاني على شخص جينسون. سوف أتحدث عن رسالتك، وعنها فقط، من خلال بضع إشارات إلى كتبك إذا اقتضت الضرورة».

بعد ذلك بدأ سارتر يسلخ كامي بأشد الكلمات مساسا بشخصه. وأخذ يشرح بذكاء وخبث معاداة كامي للشيوعية باعتبارها تهربا من النضج الشخصي ورفضا للحياة بكل ما تقتضيه الحياة في إطار تغيير العالم الواقعي وما يفرضه. وأطلق سارتر لنفسه العنان بشكل محسوب، وقام بدور مبهر ومثير للقلق. وإن رد سارتر الذي تجاوز كل حدود العنف لا يبرره شيء مما حدث قبل ذلك.

وأراد سارتر في أكتوبر ١٩٥١ أن يحمي الصداقة ويتجنب مواجهة مرذولة. ما الذي حدث بحلول صيف العام ١٩٥٢؟ هل هاجم كامي لأنه يرى الآن من يعادون الشيوعية «كلابا»؟ يقينا إن تحول سارتر في معتقده ما كان له أن يقوده إلى إعادة كاملة لتحديد صديقه إذا كان كامي لم يقطع حبل الصداقة، مما يسمح لسارتر أن يحكم عليه بأسلوب سياسي خالص. ولعل سارتر ظل محجما حتى هذه اللحظة، نظرا لنزوع كامي عادة إلى أن يفقد أعصابه ويلقي مواعظ أخلاقية - ليلعب دور «سان جوست» لسنوات ما بعد الحرب. ولكن أما وقد أعتقه كامي من التزامات الصداقة، مثلما أعتقه بشكل غير مباشر في اختياره جينسون ناقدا للكتاب، فقد أصبح الآن قادرا على التعامل مع كامي «بموضوعية» - كشخص قطع صلته به ولم يكن لا أكثر ولا أقل من مناهض للشيوعية. وهكذا أصبح سارتر ولأول مرة حرّا ليقول لكامي كل ما يجول بخاطره عنه.

وهكذا استخدم، وهو سعيد في داخله، الصداقة كسلاح في نزاعه. زالت القيود التي تفرضها الصداقة، وبذا أصبح في وسع سارتر الآن أن يفجر كل ما استثاره وضايقه من كامي على مدى السنوات العشر الماضية، سواء من حيث

سلوكه أو كتاباته، وأن يفعل هذا لكي يشوه سمعته. كل هذا لا لشيء سوى لأن رد كامي على نقد جينسون كشف السمات نفسها التي تتسم بالنزق والتقوى والالتزام بالقيم، وهي السمات التي أثارت حنق سارتر وهما أصدقاء. هذا علاوة على ما اعتبره سارتر من مظاهر الضحالة الفكرية والكسل عند كامي.

وإن أشد ما اعترض عليه سارتر هو أسلوب كامي في التعامل مع جينسون. ومن يعرف سارتر لن يدهش لذلك. وإذا كانت ثمة عداوة استقرت في نفس سارتر فإنها ستعود بنا إلى كتابيه اللذين قدم لهما كامي عرضا نقديا في العامين ١٩٣٨ و١٩٣٩. وتجلى هذا في نفوره من أسلوب البشر في تعاملهم مع الآخرين كأشياء، وأن يدّعوا كذبا لأنفسهم حقوقا على غيرهم. وتبدو هذه الغطرسة الاستقلالية في طريقة صناعة وتنشئة الإنسان الفاشي التي عرضها في «طفولة زعيم»، وكذا عند الكتبي الكورسيكي في «الغثيان». وتبدو كذلك في تفسيره لمعاداة السامية في العام ١٩٤٦ ثم للاستعمار بعد ذلك. وتمثل سبب كراهيته للتعذيب ورؤيته للمعذبين بأنهم أشخاص لا سبيل إلى تقويمهم وإصلاحهم. وبلغ تصميمه على مكافحة هذا السلوك حدّا جعله يمثل لب فلسفته. وإن إغفاله جينسون مع مهاجمته له يعني معاملته «كموضوع» وشخص ميت. واتهم سارتر كامي بأنه تحدث عنه «وكأنه سلطانية حساء أو آلة مندولين ولم يتحدث أبدا إليه». ما معنى هذا إلا أن كامي وضع جينسون خارج الإنسانية؟ ومع افتراض أن من حق كامي ألا يعامل جينسون كزميل، لكنه نظر إليه بتعال أخلاقي وصفه سارتر بأنه «عنصري»: «هل نتعامل هنا على أساس من عنصرية الجمال الأخلاقي؟ أنت لك روح جميلة وهو روح قبيحة: ومن ثم فإن التواصل بين الاثنين مستحيل».

هذا الهجوم على معنى «الروح الجميلة» للسمو الأخلاقي ينحرف تماما عما اتسم به كل من نقد جينسون ورسالة كامي من تحفظ وتلميح. وأشار سارتر قرب بداية رده إلى استراتيجية: «كم آثرت أن يمضي عراكنا الراهن مستقيما إلى قلب الموضوع من دون خلط مع الرائحة الكريهة للغرور الجريح». وقضى سارتر بهذه الكلمات الجارحة على كل إمكان للتراجع، ووجه الحديث مباشرة إلى كامي وأشار، على عكس كامي، إلى أنه سوف يسمي الأشياء بأسمائها، مما يعني فضح نوازع ودوافع كامي الشخصية. وطبيعي أن إضفاء الطابع الشخصي بهذه الصورة له معنى سياسي، وهو أن كامي أصبح معاديا

للثورة: «تؤكد رسالتك ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ إذا كان لابد من أن أتحدث إليك بالأسلوب ذاته الذي يتحدث به عدو الشيوعية عن الاتحاد السوفييتي، إنه، للأسف، الأسلوب عينه الذي تتحدث به ـ وإنك أنت الذي صغت لنفسك انقلابك، أو الحدث الثرميدوري Thermidore (*).

ويمثل النصف الأول من الرسالة هجوما خبيثا ضد كامي. «منحتنا شرف المساهمة في هذا العدد من «الأزمنة الحديثة»، ولكنك حملت معك أسباب الإعجاب». ذلك أن كامي عرض متباهيا إشارات إلى فقره السابق مما جعل «المحلفين يبكون». وسدد سارتر سهامه ضد أسلوب كامي بعد أن اتهمه بأنه وضع نفسه خارج دائرة الحوار والكتابة بأسلوب الوعظ والإرشاد، وأنه يضع نفسه فوق النقد بالحديث المخزي عن موت المقاومة واستخدام أساليب الترويع والابتزاز والعنف اللفظي:

> «إن أشد ما يثير في رسالتك أسلوبها المنمق على نحو مفرط. أنا لا ألومك على ما فيها من أبهة مصطنعة، إذ هذه طبيعتك، وإنما للسهولة التي تعالج بها حالة الحنق عندك. أدرك أن أوقاتنا تضمنت بعض المظاهر غير السارة على الإطلاق، وأنه في مناسبة ما يتعين توافر متنفس للطبائع الدموية لكي تطرق بعنف فوق الطاولة وتصيح. بيد أنني آسف إذ أراك تنحط بخطابك إلى هذا الحد من الاضطراب، حتى إن كان هناك مبرر لذلك. وإن التسامح الذي تضفيه على العنف اللاإرادي يجب رفضه حين يتسنى التحكم في العنف وضبطه. ما أشد دهاءك حين تلعب دور الإنسان الهادئ، وذلك حتى تهب علينا ثورات غضبك المفاجئة فتأخذنا الدهشة. ويا لفنك في الكشف عن غضبك، ولكن لا لشيء سوى أن تخفي فورا ابتسامة ثقة زائفة. هل خطئي أن هذه الأساليب تذكرني بمحكمة الجنايات؟ واقع الأمر أن المدعي العام هو الذي يتمتع

(*) Thermidore: الشهر الحادي عشر في التقويم الجمهوري الفرنسي بعد الثورة. ويقال رد الفعل الثيرميدوري إشارة إلى انقلاب التاسع من شهر ثيرميدور الذي أعدم فيه روبسبير على المقصلة وانتهى حكم الإرهاب. وأصبحت العبارة تعني عند المؤرخين «المرحلة في بعض الثورات التي يرتد فيها البندول عائدا إلى نقطة الصفر، حيث الوضع يشبه ما قبل الثورة وتفلت السلطة من أيدي القيادة الثورية الحقيقية. [المترجم].

بمهارة فائقة في التحول سريعا إلى حالة الغضب عند الاقتضاء وفي الاحتفاظ بغضبه إلى الغاية التي يقصدها ثم يغيره، إذا لزم الأمر، حتى ليكاد يغدو غناء مع آلة التشيلو. ومن يدري، ربما كان لازما أن تطلق عليك جمهورية الأرواح الجميلة اسم نائبها العام الرئيسي».

وردا على كلام كامي، إذ قال «إنه سيجد الأمر عاديا بل ومشجعا» إذا شرعت «الأزمنة الحديثة» في مناقشة وربما حتى تبرير معسكرات الاعتقال السوفييتية، يقول سارتر:

«نحن الآن في قسم الشرطة، عند ميناء أورفيفر، والشرطي يسير بالقرب منا وحذاؤه يصدر صريرا تماما مثلما هي الحال في أفلام السينما. «أقول لك نحن نعرف كل شيء. إن صمتك هو ما يجعلني أرتاب فيك. ويقول امضِ أمامي أنت شريك في جريمة. أنت تعرف عن هذه المعسكرات. حسن، اعترف، وسوف يضع المحلفون اعترافك في الاعتبار». يا إلهي، كامي! إلى أي حد أنت جاد، تستخدم كلماتك ذاتها، يا لك من طائش!».

وردا على «افتراء» كامي بشأن أسلوب الصحيفة في تناول معسكرات العمل السوفييتية، يدافع سارتر عن «الأزمنة الحديثة» بتوضيح أنه خصص الافتتاحية وسبع مقالات عن هذا الموضوع فور نشر معلومات عنه في فرنسا، ثم عدنا إلى القضية بعد عدة شهور مع افتتاحية أخرى. بيد أنه الآن معني بالمسألة السياسية: «نعم كامي، أنا مثلك أرى هذه المعسكرات غير مقبولة ولكنني لا أقبل بالقدر نفسه استخدام عبارة أن «ما يسمى بالصحافة البورجوازية (صياغة كامي) تتحدث عنك كل يوم». هل تعلم أن أعداء الشيوعية يحيون نبوءات روسيت بشأن المعسكرات السوفييتية وفي نفوسهم بهجة لا روع؟

«نحن إن فتحنا أفواهنا احتجاجا ضد بعض مظاهر الابتزاز سوف يغلقونها فورا بعبارة: «وماذا عن المعسكرات؟» إنهم يدعون الناس لإدانة المعسكرات تحت طائلة عقوبة تتمثل في اتهامهم بالتواطؤ. أسلوب رائع: إما أن يدير البائس الفقير ظهره للشيوعيين وإما أن يصبح متواطئا مع «أكبر جريمة على ظهر

الأرض». وها هنا بدأت أزدري هذه الابتزازات. وحسب تفكيري فإن فضيحة المعسكرات تضعنا جميعا أمام المحاكمة ـ أنت وأنا على السواء، وكل الآخرين. إن الستار الحديدي ليس سوى مرآة حيث يرى نصف العالم نصفه الآخر. ويعمل كل من الطرفين إلى لف مسمار البرغي هنا لكي تتناسب اللفة مع لفة هناك، وأخيرا فإن كلينا هنا وهناك، نحن كلا الطرفين من يدير ومن يدار».

ويندد سارتر بقوة بأسلوب كامي لاستخدامه المعسكرات في رسالته قصد: «دحض ناقد لم يمتدحك». وينتقده أيضا لرفضه التمييز بين السادة والعبيد: «نحن إذا طبقنا مبادئك فإن الفييتناميين هم الذين يعيشون تحت وطأة الاستعمار، ومن ثم فهم عبيد، ولكنهم أيضا شيوعيون، ومن ثم فهم أيضا طغاة». ولا عجب إذن، حسبما يشير سارتر، أن الحرب في الهند الصينية كانت عسيرة أشد العسر على كامي.

ويرد سارتر بعد ذلك بشكل مباشر أكثر على مسألة استعداده للتعاون مع الشيوعية. ويقول لا سبيل للهرب من القفص الذي يحتوينا جميعا اليوم.

«وإذا كنت حقا تأمل في منع أي حركة للناس يمكن أن تتحول إلى طغيان، لا تبدأ بإدانتها وأنت عاطل من القدرة على جذب الاهتمام، وبتهديدهم بالتراجع إلى الصحراء. لكي يكون للمرء حق التأثير في المناضلين يتعين عليه بداية المشاركة في نضالهم، وهذه البداية تعني قبول أشياء كثيرة. هذا إذا رغبت في تغيير قليلين منهم».

ولكن سارتر لم يضمّن كل سجاله المسألة الأخلاقية الخاصة بالوسائل والغايات: هل قبول نظام تتولد عنه معسكرات العمل من شأنه أن يفضي إلى غاية إيجابية؟ أليست أحداث الرعب الواضحة تدل على عيب قاتل في المشروع الثوري ذاته ويستلزم رفضا واضحا للشيوعية؟ وعند أي نقطة يصبح العنف الثوري سلاحا للتدمير وتجريد الإنسانية من إنسانيتها وليس تحريرا؟ وكانت رغبة سارتر الوقوف إلى جانب الحركة الشيوعية على الرغم من شرور الاتحاد السوفييتي لأنه أصبح، كما يراه، الأمل الحقيقي الوحيد والتعبير السياسي عن أغلبية عمال فرنسا. وانتقد كامي لأنه رفض ذلك دون بحث عن بديل. غير أن نقد كامي للثورة هو عين نقده للشيوعية: كلاهما قائم على نهج

خاطئ أساسا ومدمر للإنسانية وللتاريخ وللواقع نفسه. ولم يقدم سارتر أبدا إجابة كاملة شافية للطعن الأساسي الذي يقدمه كامي ولا كذلك فعل جينسون. وحين قارب الخاتمة غيّر الموضوع، وعاد إلى كامي وأطلق العنان لجولته الأخيرة لإزاحة العقبة التي في الطريق.

ولا تزال الصفحات الأخيرة تثير الدهشة بعد مضى خمسين عاما. يذكر سارتر كامي بأول لقاء بينهما، ويحاول بذلك استكشاف مشروع كامي، ولقاءه بالتاريخ من خلال المقاومة، وموقفه مع التحرير، ومكانته في الآداب الفرنسية، بما في ذلك فقرات مقتبسة من كتابات كامي. وهذه صورة مصغرة من دراسات سارتر لكبار كتاب فرنسا. إذ سبق له أن قدم دراسة تحليلية عن بودلير وعن جينيه، كما خطط لدراسة عن مالارميه، وهو بصدد دراسة مؤلفة من حوالي ثلاثة آلاف صفحة يحلل فيها فلوبير. ويحاول سارتر في العرض العام الموجز عن كامي أن يمسك بالدوافع الأساسية لدى كامي ومظان قواه المؤثرة وطريقته في الجمع بين السياسي والشخصي كرئيس تحرير لصحيفة سرية. ويتذكر هنا الأمانة المذهلة التي اتصف بها ميرسولت:

> «لقد كنت في نظرنا ـ وبوسعك أن تكون غدا ـ الرابطة العجيبة للإنسان والعمل والنشاط. كان هذا في العام ١٩٤٤. اكتشفنا كامي المقاوم، مثلما اكتشفنا كامي مؤلف «الغريب». وعندما ارتبط رئيس تحرير مجلة «كومبا» السرية بميرسولت الذي حمل الأمانة إلى درجة رفضه البوح بأنه أحب أمه وعشيقته والذي دانه مجتمعنا، وحين عرفنا أهم شيء، وهو أنك توقفت عن أن تكون لا هذا ولا ذاك، وعندما قادنا هذا التناقض الظاهري إلى التقدم في معرفة أنفسنا ومعرفة العالم، لم تكن آنذاك بعيدا عن تصورك مثالا يقتدى به. ذلك لأنك استعدت تناقضات زماننا، وتعاليت عليها من خلال رغبتك الحماسية في أن تحياها».

ويتصل هذا التقدير على مدى أكثر من أربع صفحات، ويصف فيه الإنسان الذي ظل على مدى سنوات عديدة «الرمز والبرهان على التضامن الطبقي»، مثلما يشير إلى مكانته في «تراثنا الكلاسيكي العظيم». وهذا هو كامي الذي يقول عنه سارتر: «لكم أحببناك آنذاك؟».

ما الذي يدفع سارتر إلى هذه النقطة؟ لماذا لم يدع الأمور تستقر قبل ذلك ببضع صفحات ويختم بما يمكن اعتباره الكلمة الأخيرة: «لقد دِنْت نفسك إذ دِنْت سيزيف؟» ألم يسجل لنفسه نقاطا لمصلحته قبل ذلك وشوه سمعة كامي، وخفف من حدة الغضب الذي أنكره، وإن عبر عنه بعنف وقدم ما شاء له من حجج سياسية، ودافع بنجاح عن جينسون وعن مجلة «الأزمنة الحديثة»؟ ما الذي يفسر هذه الصفحات الختامية التي يذكرنا فيها بكامي وبمثل هذا الإسهاب والإثارة لكي يوضح لنا لماذا أخفق في التغيير مع التاريخ؟ ولماذا أخيرا حرص سارتر على أن يمضي بعيدا جدا؟

لعل أحد الأسباب الأولى لانفجار سارتر هو تلك الملاحظة الساخرة الشخصية جدا في رسالة غير شخصية. ويذكرها سارتر قرب بداية الرد، لكنه سرعان ما يتجاوز تلميحاتها إلى نفسه. إنها الاستطراد الذي يشكو فيه كامي من «نقاد لم يفعلوا شيئا أبدا سوى أنهم أداروا مقعدهم في المسرح في اتجاه التاريخ». ويتذكر سارتر الآن تلك العلاقة الأصلية بصراحة أكبر: «إذا قلت 'أول اتصال لك بالتاريخ' فليس معنى هذا أنه كان لدي نوع آخر وكان الأفضل. نحن المثقفين جميعا لم يكن أمامنا سواه، وإذا سميته اختيارك أنت فذلك لأنك عشت فيه بعمق أكثر وبالكامل أكثر من أي مدى آخر من بين الكثيرين منا (بمن فيهم أنا)». وينبني تشويه كامي على أمور كثيرة من بينها حسه المميز لضبط النفس. ولكن إذا كانت إشارته إلى التاريخ تكشف عن عزوف كامي عن توجيه ضربة قاضية لسارتر فإن بالإمكان أن نعتبره تهديدا مستترا: كان كامي يعرف، حتى وإن لم يفكر مليا في ذلك، أين كانت الأمور في أغسطس ١٩٤٤ عندما أغفى سارتر وهو جالس على مقعد المسرح.

والنصف الثاني من رسالة سارتر هي مقلوب ما ذهب إليه سارتر: الفائز يخسر والخاسر يكسب. نراه يطرح سؤالا، لماذا كامي النموذج والقدوة لم يتلاءم مع التاريخ بعد التحرير؟ وكم هو غريب حقا أن اتخذ سارتر التحرير سنة الأساس والبداية للتاريخ وكأن المقاومة هي نقطة البدء لمثل هذا التكيف المطلوب. ويحتاج سؤال سارتر إلى ترجمة وتوضيح. إن المقدمة الأولى المفتقدة والموضوعة بين حاصرتين (بمن فيهم أنا) هي مقارنة بينه وبين كامي: أنا، سارتر ـ الذي كان حتى العام ١٩٤٤ الأقل انغماسا ـ تغيرت بعد ذلك وتعلمت أن أحيا في التاريخ، وها أنذا اليوم ملتزم تماما وأخاطر، وأنت كامي، كنت

آنذاك شجاعا للغاية ومندمجا تماما ولكن لم تتطور، وبدأت منذ ذلك التاريخ تهرب من التاريخ، وقررت تجنب الإقدام على أي مخاطرة. إن الحقيقة المحورية هي ما الذي اكتشفه سارتر وما الذي أغفله كامي منذ الحرب «نضال الإنسان» على الرغم من أن الطبقة العاملة هي منبته:

> «تمردت على التاريخ، ولكن الأحزمة الصناعية المحيطة بالمدن ضمت رجالا تمردوا ضد الأوضاع الاجتماعية التي تزيد من معدل الوفيات. كنت إذا مات طفل ألقيت باللوم على عبث العالم... ولكن أبا الطفل، إذا كان عاطلا أو عاملا غير ماهر، وجه اللوم للناس. إذ عرف جيدا أن عبث وضعنا ليس هو عين العبث في ساحات أخرى».

والجدير ذكره أن صورة كامي بعد الحرب واهتماماته وقناعاته كانت جميعها تحمل رسالة مفادها أن «الخلاص الشخصي متاح للجميع». بيد أن هذا زيف واضح. أي شيء آخر فعله كامي؟ «عليك أن تتغير إذا ما أردت أن تبقى أنت نفسك ولكنك تخشى التغيير». التغيير مع الاحتفاظ ببعض معتقداته، وأيضا بالاستجابة إلى مطالب هذه الجماهير المقهورة. ويذكر سارتر سببا قويا دفع كامي إلى تحويل طاقته ضد الشيوعية: ربما كان ذلك بسبب أن «ممثليها» ـ الحزب الشيوعي الفرنسي ـ أهانوه «كما هي عادتهم» بحيث إنه «قرر الوقوف ضد التاريخ». ونتيجة لذلك حاول كامي الإبقاء على مكاسبه مع قطع الصلة بالعلاقة التي جعلتهم وجودا ممكنا. «إن شخصيتك التي كانت واقعية وحيوية مادام اغتذت على الأحداث أضحت سرابا».

ونجد أن ملاحظات سارتر من حيث هي تحليل لشخصية كامي تمثل حقيقة ذات رنين أحادي الجانب. ونحن نعرف أن كامي لم يكف أبدا عن الانخراط في «التاريخ». ولكنه انغمس فيه بأسلوبه الخاص. نعم إن عداءه للشيوعية وللالتزام بالسلام أغفل قضايا أخرى، ولكنها ارتكزت على تقييم لشرور واقعية. بيد أن هذه ليست المسألة الرئيسية هنا. إن الإفصاح بشكل شخصي بين صديقين عن مثل هذه الملاحظات مهما كانت جارحة كان يمكن أن يدل على قدر كبير من الصدق والأمانة والدخول مباشرة (بكلمات سارتر) إلى «قلب الموضوع»، هو التماس سبيل لإعادة ربط الصديق بتياراته الحيوية

الخاصة: وهنا لن يكون لأحادية الجانب فيها تأثير مفرط. لكن الكتابة عنها علانية «إلى» - وفي الحقيقة عن - الصوت القائد لتيار سياسي منافس - وتحديدا لأنها تضمن الكثير مما هو حق - فإنها أفادت معنى آخر مغايرا. وأصبح الشخص بذلك سلاحا مدمرا في إطار الصراع السياسي. إن سارتر الذي كان بمبعدة عن التاريخ في العام ١٩٤٤ - حتى إن وفقا لملاحظة كامي في مسرح الكوميدي فرانسيز - أصبح الآن ملتزما بشكل كامل. وإن كامي الذي كان ملتزما بشكل كامل في العام ١٩٤٤ يصوره البعض على أنه يقف بعيدا. والجدير الإشارة إليه أن التطور الشخصي المتباين لكليهما رآه البعض مصدر مواقفهما المتناقضة تجاه الشيوعية. وطبيعي أن فضح صديق سابق بهذا الأسلوب عمل من أعمال الحرب، وبقدر ما فيه من عنف فيه من الصدق. وإن سارتر الذي يؤمن بالعنف يقدم الآن الدليل على مدى ما يتصف به من عنف. ولم تكن الصورة بعامة التي وضعها سوى محاولة لكي يدمر كامي بالكامل إن لم يكن لكي يقضي عليه ويخرسه. ويختم سارتر رسالته بإشارة نهائية قاسية - إنها صمته المجلجل.

«على أي حال، كان من الخير أن أقول لك ما كنت أفكر فيه. الصحيفة أبوابها مفتوحة لك إذا شئت كتابة رد على رسالتي، بيد أنني لن أرد بعد ذلك. أفصحت لك عما كنت تعنيه لي وعما تعنيه لي الآن. ولكن أيا كان ما سوف تقوله أو تفعله في المقابل، فإنني أرفض نزالك. وآمل أن يكون صمتنا سببا لنسيان هذا الجدل الحاد والعنيف».

8

تدبير أمور كثيرة وأداء أعمال حقيقية

في الخامس من سبتمبر ١٩٥٢ كان كامي قد عاد لتوه إلى باريس بعد عطلة صيف في لو بلانسيير، وكتب إلى فرانسين بشأن ما ينتظره:

> ظهرت «الأزمنة الحديثة» وبها عشرون صفحة ردا كتبه سارتر، وثلاثون صفحة بقلم جينسون. ونشرت مجلة «لوبزرفاتور» بعض اقتباسات من المقالين قبل ظهور «الأزمنة الحديثة» في المكتبات. الأمور تسير نحو انطلاقة جديدة سوف تتوالى باطراد. ويبدو بالنسبة إلى الردين أن أحدهما يثير الاشمئزاز والآخر غبي.

وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية، كان حديث باريس الأوصاف التي تضمنتها العناوين الرئيسية، من مثل «جدل عنيف» و«اختلاف الآراء» و«المعركة الأدبية».

«إنني لم أضع أحدا على المحك قبل أن أضع أنا في الوقت نفسه كل ما أعتقده على المحك»

كامي

«لكي يكون لك حق التأثير في المناضلين يجب عليك أولا أن تشاركهم نضالهم»

سارتر

ولم تشأ مجلة «لوبزرفاتور» الانحياز إلى أي من الجانبين. ولحظ رئيس تحريرها روجر ستيفان أن «الموقفان تجاه العالم» بصدد خطر حدوث مواجهة «تعنينا جميعا». ولكن كامي لحظ أن محرري «لوبزرفاتور» كشفوا عن انحيازهم بأسلوب حاسم - ذلك أن ستيفان خصص لسارتر مساحة تعادل ثلاثة أمثال المساحة المخصصة لكامي. وأخذ جينسون جزءا من المساحة المخصصة لكامي، وكأن هذا إشارة تكشف عن أسلوب التعامل مع الخمسين صفحة التي كتبها جينسون. وعندما ظهر عدد أغسطس من مجلة «الأزمنة الحديثة» في المكتبات، نفد سريعا حتى أنه أعيد طبعه لينفد ثانية. وأعلنت عناوين الصفحة الثانية من صحيفة الإثارة «ساميدي سوار» على مدى يومين أن «القطيعة بين سارتر وكامي» اكتملت، ونعت في نفاق ما سوف يشعر به أعداؤهما من سرور. وأشارت «لوموند» إلى أن موقف كل من سارتر وكامي إزاء الشيوعية هو جوهر النزاع، ولكن شخصية كل منهما فاقمت منه وتجاوز حدود الجدل بشأن أيديولوجيا سياسية. ونشرت مجلة «كومبا» صفحتين داخليتين كاملتين على سبعة أعمدة تضمنت اقتباسات مهمة. وأشار المحررون إلى أن سارتر أدرك على نحو يثير الإعجاب «كيف أنه عقب الاحتلال بكل ما فيه من فوضى وتشوش القيم ظهر كامي أمام البلاد وكأنه التجسيد الحقيقي لأملها الذي لا غنى عنه». وأكدوا أنه اليوم «يصطدم مزاجان بشريان معا - وأسلوبان للتعامل مع الحياة». ونشهد على مدى بقية شهر سبتمبر توالي ظهور المجلات الأسبوعية الواحدة بعد الأخرى تروج بشكل مثير للقطيعة، وكل تحاول حرفها وفقا لخطتها الخاصة. واشتهر النزاع كحدث ملأ الأسماع، بحيث إنه مع نهاية سبتمبر خصصت كل من «لوموند» و«لوبزرفاتور» مقالا يعود ثانية إلى الحدث. ونلحظ أن إحدى المجلتين انحازت إلى كامي والأخرى تسخر من جميع المعلقين الذين لا يزالون يسجلون نقاط انتصار بينما أخفقوا في إدراك أن مصيرهم هم معرض للخطر، وكذا «سوء نيتهم ومسرحياتهم الهزلية وكلامهم المثير للاشمئزاز».

* * *

كل هذا الاهتمام لم يكن له من دور بالنسبة إلى كامي، إلا أنه جعل الأمور تتفاقم وتسير إلى ما هو أسوأ. وارتاح سارتر إلى هذه الضجة الإعلامية بينما كامي الذي غشيه شك ذاتي شعر بالغم والكآبة على مدى شهور. وتمثل أول رد فعل له في التماس سند، من فرانسين ومن ماريا كاساريس ومن أصدقاء

على صلة وثيقة به ومن زملاء له لدى دار غاليمار. وحدث في إحدى المناسبات أن اندفع كالإعصار إلى داخل شقة ماريا ويكاد الدمع يغالبه. ويشير صديق جزائري قديم هو جان تيراسيني أنه ظل يتأمل وصفه كواحد من عمال مجاورة جزائرية: «ماذا تريدني أن أفعل إزاء هذا، هل ألطمه على وجهه؟ إنه أقل كثيرا». وتحدث إلى أورين بولوغا، وهو صديق مقرب إليه ويعمل صيدلانيا، وليس بعيدا عن الصراعات الأدبية في باريس، وأعرب له عن شكوكه فيما إذا كان على صواب منذ البداية.

وجدير بالذكر أنه على مدى اليوم التالي لصدور عدد «الأزمنة الحديثة» حاول كامي، في دأب وإصرار، الحصول على مساندة من دار غاليمار، ولكن لم يحالفه حظ كبير. لم يتشكك أحد في مشروعية هجوم سارتر العنيف، وكأن من الطبيعي تمزيق شخص علنا والاستفادة بشواهد مستقاة من الصداقة مع هذا الشخص. وتحول كامي إلى زملائه ولكن سرعان ما اكتشف أن الغالبية العظمى منهم يصدقون، فيما يبدو، أن سارتر كسب المعركة وأن النزال كان عادلا. وتبرع الناس بمنح درجات لكل منهما، ولكن سارتر احتل المقدمة بجدارة. وزار كامي أماكن عمل كثيرة وفي يده مجلة «الأزمنة الحديثة» وسأل: «هل رأيت هذا؟» ولم يجبه أحد. لم يسمع كامي كلمة عزاء، ولكن أخيرا حطم ديونيس ماسكولو جدار الصمت المحير وقال «سوف نتحدث عن هذا فيما بعد في بار ليسبراتس». واستدار كامي وخرج.

أخذ الجرح والصدمة يغوصان في النفس على مدى هذه الأيام الكئيبة التي امتدت أسابيع. ظل كامي يناضل بقوة للتوافق مع ما حدث. ونراه في أول رسالة له إلى فرانسين في ٥ سبتمبر ينتقد رسالتي سارتر وجينسون:

> «أي من الرسالتين لا تجيب عن أسئلتي، فيما عدا سارتر عند نقطة واحدة، بينما الخمسون صفحة هي إهانة متعمدة. ولهذا يسرني أن يسموني شرطيا وممثلا بارعا في أدائه من بين أمور أخرى. إن كل ما قيل في مقال طويل مدعاة لكبريائي، ولولا هذا لكان ضربة حقيقية لي كما ترين. إن هذا سيكون مصدر بهجة للكثيرين. وأقول بحسم إن هذا الكتاب كلفني كثيرا. بيد أنني اليوم أتساءل هل له من قيمة، وهل لي من قيمة مادمت أماثله على نحو شبه كامل».

ولكن لم يكن كافيا لكامي أن يرى أن سارتر وجينسون على خطأ. ولم يكف عن فهم ما يعنيه الهجوم ضده. وفي ١٧ سبتمبر كتب ثانية إلى فرنسين:

«عشت وحدي تقريبا كل هذا الوقت تلازمني أفكار سوداء وقد جفاني النوم الهادئ. أحاول التكيف مع الوضع قدر الاستطاعة على نحو ما يحاول المرء أن يتخذ وضعا ملائما فوق سرير غير مريح. ليس الأمر يسيرا دائما. أفهم أنهم يناقشون كتابي وقد كنت أنا أول من ثارت في نفسي تساؤلات بشأنه حتى على أعمق المستويات. ولكن ليس عندي ما أقوله إذا ما اتهموني شخصيا، ذلك لأن أي دفاع أسوقه حينئذ يصبح تبريرا ذاتيا. إنه لأمر مثير هذا الانفجار لكراهية دفينة قسرا زمنا طويلا، وهو ما يؤكد لي أن هؤلاء الناس لم يكونوا قط أصدقاء لي، وأنني أسأت إليهم دائما بمشاعري، ومن هنا كانت هذه الكراهية واستحالة موقف كريم. لا أجد تفسيرا آخر لهذه السوقية المفرطة في هذه الهجمات، بيد أنني لن أرد عليهم لاستحالة أن أفعل ذلك.

سأحاول فقط كشف الزيف من الحقيقة وسط كل هذا الخليط دون أن أضيق أو أذعن لمنطق الآخرين، يجب أن أقاوم إغراء الإفراط في الاحتقار، وكذلك النأي بنفسي تماما عن الاحتقار. صفوة القول: يجب أن أعرف كيف تكون القطيعة بيني وبين الآخرين (نعم، هذه حقيقة)، ولكن دون استياء أو سخط. وإن مثل هذه الألاعيب البهلوانية ليست سهلة، ولكنها قدري ومصيري على الرغم من أن لدي، لسوء الحظ، أمورا كثيرة تشغلني ويلزمني ترتيبها، وطاقتي الحيوية أقل من السابق. وأرى أن الجدوى الوحيدة لهذه العملية أنها ألقت ضوءا على الخلاف. هذان السيدان يريدان، يسعيان إلى العبودية. وسوف يكون كل منهما على الأرجح مستعبدا وخاضعا في آن واحد، وليهنآ بالحظ السعيد!».

التمس كامي سبيلا لرد الفعل، والعمل للتوافق مع صداقته المفقودة مع سارتر. وإن كلمتي «أبدا» و«دائما» كانتا بدايتين لجهد من أجل محو أثر العلاقة. وتحدثت رسالة سارتر يقينا عن عداوة اختمرت طويلا مثلما تحدثت

أيضا عن بداية حب. وركز كامي على الأولى وأغفل الثانية. ووضع برنامجا شاملا «لترتيب الأمور» - يتحكم من خلاله في ردود أفعاله. وإذا كان قد اعترف باحتمال أن يكون مخطئا فإنه رفض تماما «قاعدة عمل» - التحليل اللاذع القاسي لشخصه الذي قدمه سارتر.

لماذا إذن يبسّط كامي من دافع سارتر؟ ألم يكن هذا من شأنه أن يخفف من ألمه ويدرك أن الهجوم عليه وعلى عمله إنما هو في الأساس هجوم سياسي يضرب بجذوره في العالم التاريخي، ومن ثم فهو مسألة مصير مادام أنه استخدم المصطلح لنفسه؟ ولكن المذهل أكثر من غيره في رد كامي هو أسلوبه الخاص الذي صبغ على القطيعة صبغة شخصية. إنها أولا ضيق من نطاق البعد السياسي للخلاف، وثانيا حاول، على الرغم من حذره من ذلك، إغفال النقد الشخصي. وانحصر الجانب السياسي في فكرة وحيدة، هي أن سارتر بمساندته الشيوعية سعى إلى العبودية. وهكذا أصبح الشخص خاضعا لهيمنة ما بدا له الآن مفاجئا تماما وقاسيا للغاية: سارتر لم يكن قط صديقه، وكان دائما يحتقره. واكتشف تحت هذا حقيقة قبيحة بالقدر نفسه والتي بدأ يعبر عنها في مذكراته: «سارتر غير مخلص كإنسان وكفعل».

لماذا كانت معاملة سارتر لكامي صدمة كبيرة على هذا النحو؟ نعرف أن سارتر اشتكى من سلوك كامي قبل القطيعة: «كل مرة نلتقي فيها يؤنبني بصوت عال. لم تكن قطيعة بعد، ولكن الأمر أصبح أقل فأقل إمتاعا». وبعد هذا استهدف كامي في «الإنسان المتمرد» الطعن في اليسار، وفي ديسمبر ١٩٥١ راوده هاجس باحتمال كارثة مرتبطة بهذا الكتاب: «أنني أنتظر في صبر كارثة تأتي على مهل». وأشار سارتر إلى حدوث حالة تهدئة بينهما؛ الاحتفال الذي كانا يأملان في إقامته ليلة افتتاح «الشيطان والرب الرحيم»، ولكن الأمل تبدد. كذلك كامي الذي ساوره الشك إزاء وجودية سارتر على مدى سنوات، انتقد اتجاهه المؤيد للثورة في «الإنسان المتمرد».

ولكن صحيح أيضا أن مثل هذه القيود يختبرها العامل الفرنسي الجزائري على نحو مختلف عن الباريسي خريج مدرسة المعلمين العليا. ذلك أن سارتر في مرحلته الجديدة اعتبر العدو هو المعادين للشيوعية، سواء هذا أو ذاك. وسبق أن قطع علاقته مع صديقه القديم آرون لأسباب مماثلة، وهو على وشك أن يقطع علاقته مع ميرلو - بونتي وآخرين. وإذا كان التاريخ ليس

هو كل شيء في رأي كامي، فإن السياسة كذلك تماما. إذ رأى أن ثمة شيئا أعمق مشكوكا فيه ـ الولاء الشخصي. ورد على سارتر وكأن موقفهما تجاه الشيوعية لن يهز هذا أبدا. وتتفق مذكرات سارتر وبوفوار على أن خلافاتهم، لم تكن لتؤثر، إلى حدّ ما، على تعاطفهما مع كامي ـ مثال ذلك المناقشة التي دارت بين ثلاثتهم بشأن احتمال غزو سوفييتي ـ ولم تؤثر كذلك على الرابطة الشخصية الوثيقة.

اعتاد كامي أن يعلى من قيمة الإخلاص الشخصي فوق كل شيء آخر. لقد تأثر بشدة نتيجة معاملة سارتر القاسية له، وظل يحمل ذلك في نفسه طوال بقية حياته. وطبيعي أن قطيعته مع سارتر، علاوة على فقدان صداقته مع باسكال بيا، من شأنهما أن يعكرا صفو حياة كامي ويخلقا سحابة سوداء لم تكن جائزة نوبل لتبددها. ورأى أن الواجب يقتضي أن يظل مخلصا على الرغم من هذا الخلاف. ويذكر أن من بين اللحظات القليلة الشفافة التي تضمنتها شكواه الطويلة إلى مجلة «الأزمنة الحديثة» إنما تجسدت حين استخدم كلمة «مخلص». إذ اشتكى من معاملة المجلة له كعدو دون اعتبار لأفكاره بشكل منصف ومباشر. واعتاد كامي، على خلاف سارتر، الإبقاء على نواة من أصدقاء مخلصين دون شروط، وغالبيتهم من أيام أن كان في الجزائر، علاوة على الصيدلاني أوربين بومغ والشاعر رينيه كار. هذا بينما سارتر، على العكس، كان له صديق رجل واحد الذي كان ندا له بعد الحرب، وهذا هو كامي. ولكن كامي، وعلى الرغم من النغمة الباردة في عبارته «إلى رئيس التحرير»، كبح جماح غضبه. واكتفى بالإشارة تلميحا إلى إغفاءة سارتر في مسرح الكوميدي فرانسيز.

وجدير بالذكر أن روبرت غاليمار، وهو من القلائل الذين احتفظوا بصداقتهم مع الرجلين، وصف القطيعة بين سارتر وكامي بأنها نهاية قصة حب. ولقد كان لها يقينا مثل هذا التأثير على كامي. وغلبه في أول الأمر شعور بالصدمة والجمود وإحساس بالخيانة، وإحساس بأنه ربما أخطأ على نحو غير واضح. وناضل للعمل من خلال ألمه المباشر، ثم تشبث بمشاعره على مستويات عديدة. وحاول في البداية الاحتفاظ بكبريائه. ولحظ كلما تطلع حوله أن باريس فجأة تحولت إلى ساحة ملغومة. وإذا كان سارتر هو حارس بوابتها الذي رحب به منذ عشر سنوات مضت للاندماج ضمن عالمها الأدبي،

ألا يكون الهجوم بمنزلة طرد له؟ وتضاعفت مشاعر المرارة في نفس كامي تجاه المدينة ذاتها. وبدأ يتجنب الأماكن العامة في سان جيرمان دي بري، وانزوى بعيدا عن المطاعم التي اعتاد أن يلتقي فيها سارتر. وأحس أنه تحت الحصار. ودعاه بيير دو بواديفر الذي انحاز إليه في صحيفة «لوموند» للمشاركة في ندوة، ولكن كامي حين تلقى هذه الدعوة اعتذر عنها لأنه أحس «أن كل ما يجري لا يزال في مرحلته الصحافية» وأن أي شيء سيقوله سوف يستخدم ضده. والملاحظ أنه على الرغم من أنه عومل معاملة خاطئة كشخص تلقى إهانة علنية على الرغم من عدم جواز تحمله خطيئة ما، إلا أنه يجد من المستحيل على نفسه الآن التزام جانب الأدب. «أعتقد على سبيل المثال أن خصومي في مجلة الأزمنة الحديثة غير مؤهلين، وأن هذا ما سوف يقولونه إذا ما اضطررت إلى الكلام».

وفكر مليا في أسباب ومصادر الهجمات الموجهة ضده، ووصل بذلك ما بدأه منذ سبع سنوات حين حاول فهم لماذا هال الشيوعيون عليه أكداسا من السخرية. وتتضمن مذكراته لعنة على سارتر والوجوديين ومجلة «الأزمنة الحديثة». ونقرأ أول كلمة بعد ظهور المجلة في سبتمبر: «الأزمنة الحديثة». يقبلون الخطيئة ويرفضون النعمة. عطشى للاستشهاد». وبعد أن انتقدته صحف «آرتس»، و«كارفور»، و«ريفارول» اتسع نطاق قرفه ليشمل باريس كلها. «باريس غابة ووحوشها تبدو مريضة منهكة». وقبل أن يشير كامي إلى سارتر واصفا إياه بعدم الإخلاص، نراه يصف خصومه بأنهم «انتفاضة الروح الثورية، أغنياء جدد، ومنافقو العدالة». ثم يواصل للحكم على سارتر:

> «عذرهم الوحيد ماثل في العصر الرهيب. ثمة شيء في داخلهم يرنو في النهاية إلى العبودية. راودهم حلم بالوصول إلى هناك عبر طريق نبيل مفعم بالأفكار. ولكن ليس ثمة طريق ملكي إلى العبودية. هناك خداع وإهانة وشجب للأخوة. وبعدها تظهر الثلاثون قطعة من الفضة».

والآن، وفي ضوء بنية عقلية مانوية ترى الصراع بين الخير والشر مكافئة لبنية سارتر العقلية، يربط كامي مناصرة سارتر للشيوعية ـ عبوديته ونفاقه كفريسي (*) ـ منافق مع العدالة ـ بخيانته وإدانته «لأخيه». وواضح أن من

(*) الفريسي: كلمة إنجيلية تعني المنافق مع المسيح.

اقترف الشر الأول سيقترف الثاني على الأرجح. وبدا كامي، حتى في مذكراته، فنانا مفرطا في استخدامه لكلمة «أخ» على علاقتها. ويكشف لنا مدى الجرح العميق الذي أصابه من جراء هجوم سارتر، وربما يكشف مدى الصلة الوثيقة التي كانت بينهما في الماضي.

وفي نهاية أكتوبر أخبر كامي أحد أصدقائه وهو الباحث روجر كوييو أنه يحس بثبات وقوة حججه الأصلية التي لم يعالجها أحد. «لذلك أعتبر نفسي صاحب الحق في أن أواصل الدرب نفسه، والذي أعرف أنه ـ علاوة على هذا ـ الدرب الذي اتبعه كثيرون». ووجد هذا الرأي دعما وتأييدا من رسائل وصلته من أصدقاء وزملاء وقراء، وهي رسائل يقدرها تقديرا كبيرا. وقال له كار، أقرب أصدقائه إلى نفسه، إنه يعتقد أن كتاب «الإنسان المتمرد» أفضل كتبه. وقال له الرسام والكاتب البولندي جوزيف كزابسكي Czapski إن له أصدقاء أكثر مما يعرف أو يظن. ورد في نوفمبر على كزابسكي بقوله: «إذا كانت عبارة الجناح اليساري لم يعد لها معنى واضح، فذلك لأن المثقفين اليساريين على وجه الخصوص اختاروا لأنفسهم أن يكونوا حفاري قبور الحرية. وهذا ما قد يبدو واضحا في مثال «الأزمنة الحديثة». وهذا ما يتعين أن نحاربه من الآن فصاعدا ونجعله يحتل موقعا حياديا. وحاول كامي أن يفعل هذا عندما سأله طرف ثالث أن يسهم، على الرغم من كل شيء، في كتاب لاسم هنري مارتن الذي يساعد سارتر في سبيل إعداده. وأرسل كامي احتجاجه الشخصي إلى الصحيفة اليومية «فرانك ـ تيرور» موضحا أسباب رفضه المشاركة في مجموعة المقالات: «السبب عندي بسيط: من الآن فصاعدا، قيم الحرية، من بين قيم أخرى، يمكن التوفيق بينها إذا ما دافعنا عنها في موازاة «الأزمنة الحديثة» وأولئك الذين يستحسنون مثل هذه المجلة».

* * *

على الرغم من كل هذه الإعلانات الجسورة لم يكن كامي آمنا. وواصل جهده «يرتب الأمور». ما فتئت كلمات سارتر وجينسون تطن في أذنيه، وهو عاجز عن الكف عن الرد عليها. وظل ينسج الرد نقطة بعد نقطة، وأرسله إلى معلمه السابق جان غرينيير لكتابة تعليقاته. وأرسل غرينيير رده مع نهاية ديسمبر ورأى أن لهجة كامي تنطوي على قدر قليل من الخشونة، وأوصاه بعدد من التغييرات لتكون أكثر لينا. ولكن كامي لم يراجع ولم ينشر رده، إلى

أن نشر كوييو ما كتبه كامي تحت عنوان «دفاع عن الإنسان المتمرد»، بعد وفاة كامي بخمس سنوات. ويعرض كامي هنا الأسباب الشخصية والتاريخية وراء «الإنسان المتمرد»، ويوضح أنه أبعد ما يكون عن وصفه بأنه «مناهض للثورة كما زعم سارتر، وإنما هو أقرب كثيرا جدا إلى اليسار. ويعمد أيضا، ودون ادعاءات أخلاقية، إلى تصويب الكثير من الاتهامات المحددة التي اتهمه بها سارتر وجينسون ودافع عن نفسه بقوة مع تصعيد الهجوم ضد متهميه.

ويحاكي كامي أسلوب سارتر ويبدأ بأسلوب مباشر على نحو غير مألوف مع الاعتماد على السيرة الذاتية ويعرض كيف أن تجربته مع الاحتلال قادته لتطوير تبريرات للمقاومة. وحاول تأصيل «الإنسان المتمرد» ورد جذوره إلى تجربة جيل كامل. وتحقيقا لهذا يشرح كامي كيف أنه حين ووجه بضرورة النضال ضد الألمان «كانت جعبته خاوية تماما من أي أسباب قائمة على الأخلاق المعيشة». ووجد الدين عاطلا من أي توجيه يهديه، بينما القيم البورجوازية جميعها قائمة على التسوية والحلول الوسط. ووجد الشيوعيين يحاجون ويدافعون (في مجال تبرير حلف هتلر ـ ستالين) عن «ضرورة التعاون مع العدو قبل محاربته»، وأن من عقدوا العزم على مقاومة النازي وجدوا أنفسهم يبحثون عن «قيمة أولية تكون هي الأساس». وأصبح التمرد والثورة في نظرهم هما الموضوعين الرئيسيين. ويوضح كامي في هذا «الدفاع» أنه رفض الاختيار بينهما مؤكدا أن كلا منهما يستلزم الآخر.

وإذ يضع كامي «الإنسان المتمرد» صراحة وبشكل مباشر ضمن التزام اليسار بالاشتراكية وتحرير العمال، فإنه يعيد التوازن من جديد ويفسر من جديد، بمعنى ما، القضايا الرئيسية للكتاب الذي يعلي من قيمة التمرد على الثورة، ويحاول الكشف عن المرض الحضاري الكامن وراء المجتمعات الثورية المعاصرة. ويؤكد الآن أنه «على الرغم من جميع التشوهات» فإن «الإنسان المتمرد» لا يعلن «إدانة شاملة للموقف الثوري». ويدفع بأنه يعطي تقييما نقديا «للأداة الوحيدة التي ادعت تحرير العمال وذلك حتى لا يكون هذا التحرير أي شيء آخر سوى سلسلة طويلة من الحيرة المثبطة للهمم». وهكذا يعلن الآن انتصاره بما قدمه من وثائق ومعلومات على اتهام سارتر له بأنه مناهض للثورة وبورجوازي، لأنه لم يرفض فقط البورجوازية «لأنها غير جديرة بدورها القيادي» ولكن أيضا بتأكيد نسبه إلى الطبقة العاملة الأمر الذي عجز سارتر عن أن يفعله: «أنني أريد

التحرير الحقيقي للعمال، أولا لأولئك الذين تربطني بهم رابطة الدم، وأيضا باسم حب جميع من أحترمهم في هذا العالم». ويؤكد أنه لا يسعى من أجل «انتصار حفنة من الباحثين»، بل من أجل تحقق أشكال موضوعية وملموسة لتحرير العمال. ويربط ما يريده للعمال بأسبابه في معارضة الشيوعية: «سعادتهم اليومية، ووقت فراغهم، وأنسنة عملهم، ومشاركتهم في مشروع عظيم جسور ـ لا أعتقد أن هذا التحرير سيكون في مقدوره أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام إذا ما أبدلنا مديري المكاتب برجال شرطة».

هاجمه سارتر لقيامه بالوعظ الأخلاقي، والآن يقلب كامي الطاولة: «إنني لم أضع أحدا على المحك قبل أن أضع أنا في الوقت نفسه كل ما أعتقده على المحك». أو بعبارة أخرى، كان «الإنسان المتمرد» تحليلا تشريحيا لاتجاهاته وكذا لاتجاهات الآخرين. لقد هاجمه كل من سارتر وجينسون، لأنه يلتمس «الراحة» خاصة في موضوع الحدود أو القدر المحدود، بيد أن نقاده مذنبون «بالتلاعب الطفولي بالكلمات، وبخاصة تجريد المرجعية من التجربة المعيشة». نحن في أفضل الأحوال نعيش داخل حدود ونعرف قدر وكرامة الآخرين. ويعني التزام الاعتدال العيش في علاقة من التوتر المتجدد دائما، رافضين الغلو الذي يفضي إلى العبودية. ولكن ربما عزف نقاده عن لغته في ضوء النهج الراهن وما تضمنه من عبارات عدوانية كثيرة مبنية على «الجوع لمآثر وإنجازات عسكرية في مجتمعنا الأدبي». وزعموا كاذبين أنه أدان التاريخ باسم الفرد وأحل الفرد مكانه فوق التاريخ؛ ولكن الفرد لكي «يكون» لابد في الوقت نفسه من أن يتعاون مع التاريخ ويقاومه». ونظرا إلى ضرورة كل من التمرد والثورة، يسقط كامي الآن التناقضات التي يزخر بها «الإنسان المتمرد» ويركز على التفاعل والتوتر المنتج. ويعمل أيضا على توفيق وملاءمة تأكيده السابق على الفرد باعتباره المقابل للتاريخ، وبذا يجعل كلا منهما ضروريا للآخر مع بيان أن أفضل علاقة لهما هي علاقة توتر.

وأكد «الإنسان المتمرد» أن الأخلاق ممكنة، وأنها مكلفة كثيرا. هذه هي النتيجة التي خلص إليها كامي خلال صراعه ضد العدمية والقتل. ويتجه الآن إلى سارتر مباشرة. ويهاجم هؤلاء الذين يحاولون امتلاك الأمرين معا ـ أولئك الذين يبقون على براءتهم ويعلنون أن جميع الناس وهذا العالم المروع مسؤولون عن شرور عصرنا. «إنهم يريدون إنقاذ البشرية، وهم أخيرا، من يوم

إلى آخر، قادرون فقط على محاولة إهانتها والإنقاص من قدرها». وإذ أراد كامي الوصول بهذه الملاحظة إلى خاتمتها نراه يؤكد فوزه بالورقة الرابحة، وهي المقارنة بين دوره في المقاومة ودور سارتر. إن سارتر وجينسون لم يقدما شيئا أفاد أولئك الذين التمسوا سبيلهم من أجل مواقفهم السياسية ـ الأخلاقية إبان الاحتلال.

> «لا أجد أي شيء في كل ما اقترحتموه علينا يمكنه مساعدتي في لحظة الصراع الراهنة دون أمل. وإنما الأمر على العكس، وفي ضوء نتيجة التجارب والتأملات التي سردتها في «الإنسان المتمرد» أستطيع أن أؤكد وبقوة، إذا كان ضروريا أن نحيا اليوم من جديد ما عشناه على مدى الأربعينيات، أنه يتعين أن أعرف أمرين معا: لماذا وضد من أخوض الحرب؟ إنني لم أقدم ما هو أكثر من شهادة، ولا أجد ما يغريني لعمل ما هو أكثر. ولكن بعد أن هدأت العاصفة العقيمة التي ثارت حول هذه الشهادة سوف يصبح بالإمكان العودة إليها وأن نقيم أهميتها ودلالتها بنزاهة. وأخيرا، إذا لم تفد إلا في بقاء البعض على قيد الحياة فإن هذا يكفيني».

وعلى الرغم من أن كامي يكتب الآن عامدا، وعن وعي، من داخل إطار اليسار وأهدافه، إلا أنه شحذ حدة خلافاته مع سارتر. ولكن لماذا لم ينشر هذا الرد؟ إننا إذا نظرنا في ضوء الشيوع الإعلامي للقطيعة بينهما نجد أن كثيرا من الدوريات كانت تتوق لطبع أي شيء ترتب عليها خاصة إذا كان هذا الشيء ردا كتبه كاتب مشهور افترسه الآخر. ولقد كانت كل من مجلتي «آرتس» و«لوبزرفاتور» على أستعداد لاختطافه، حتى وإن اختلفا في الرأي مع كامي، ذلك لأنه خبر جدير بالنشر.

ولكن كامي آثر أن يودع هذا المقال المفعم حيوية الدرج. لقد وافق منذ البداية على أن سارتر أكثر ذكاء، بينما كامي هو الفنان الأعظم. وجدير بالذكر أن كتاب «الإنسان المتمرد» يمثل طعنا أخرق في صحة هذا التخصيص لمجال كل منهما. وكانت النتيجة كارثية: أعطاه الأستاذ نفسه درسا في الفلسفة، وأنبه بعنف لأنه لم يقرأ كتابه. ومن ثم فإن الإجابة الآن، وكما أسر كامي في مذكراته، تنطوي على مخاطرة، إذ قد يبدو في صورة تدعو إلى السخرية. ثم استسلم لما اعتبره سر الزمن، أعني أن الكاتب لابد أن يتحمل

الإساءة إليه في صمت: «عليك أن تعود نفسك تقبل إهانة من تابع من توابع الأدب أو الحزب دون أن يدفعك هذا إلى الإحجام». ولنا أن نخلص من هذا إلى أنه في تلك اللحظة، وعلى الرغم من الشكوك التي ساورته واللطمات التي تلقاها، كتب كامي «الدفاع» لا ليكسب المحاجَّة، بل بدافع ذاتي ملح، وهو تأكيد الذات. وواضح أن كتابة «الدفاع» ساعدته على التعامل مع الأزمة المباشرة، ومن ثم يعيش ليكافح يوما آخر، وعلى ساحته هو. و«رتب»، ووضح، وأكد من جديد أفكاره ومشاعره الخاصة، وكان هذا كافيا الآن. إن الفنان في انتظار الوقت الملائم.

* * *

يبدو أن سارتر أسقط كامي من تفكيره. إذ الملاحظ على مدى الشهور والسنوات القليلة التالية أنه لم يأت على ذكر صديقه السابق ـ لم يترك أي أثر في مواد الصحف أو الرسائل أو المحادثات تذكره لنا بوفوار أو أصدقاؤه. ولم يناقش سارتر أي شيء يتعلق بصديقه المفقود حتى وفاة كامي في يناير ١٩٦٠. ومع هذا، وعلى الرغم من أن رسالة سارتر إلى كامي وسلوكه بعد ذلك بدوا وكأنه وضع صديقه خارج الاعتبار والتفكير، إلا أن سارتر يعترف في خطاب التأبين بأن هذا غير صحيح على الإطلاق. لقد احتفظ كامي بالقوة الفكرية والمعنوية التي كانت دائما محل ثقة سارتر. وقال سارتر إنه «في معركته المريبة ضد أحداث هذا العصر» لم يفتأ كامي يؤكد ويعيد التأكيد على «وجود حقيقة أخلاقية تحتل مكان القلب من عصرنا وضد المكيافيللية وضد العجل الذهبي للواقعية». وواضح يقينا أن هذا التعليق ينتقد كامي، ولكنه ينتهي باقتراح يدعو إلى النقد الذاتي ـ إن سارتر على مدى سنوات قربه الشديد من الشيوعيين (١٩٥٢ ـ ١٩٥٦)، قد سقط ضحية لهذا الوثن. وأصر على أن «كامي لا يمكن إلا أن يكون من القوى الرئيسية في مضمارنا الثقافي»، ويمثل بأسلوبه الفريد تاريخ كل من فرنسا والقرن. وهكذا نجد أن تأبين سارتر لكامي يلقى ضوءا على الماضي وكيف أنه هو ذاته عاش السنوات السبع التي انقضت بين القطيعة وموت كامي:

«لقد تشاجرنا هو وأنا. الشجار في ذاته ليس شيئا ـ حتى وإن لم ير أحدنا الآخر بعد ذلك ـ وإنما الشجار نهج حياة معا وليس فقدانا لرؤية أحدنا الآخر في العالم الصغير المحدود

المعطى لنا. ولم يمنعني هذا من التفكير فيه، ومن إحساسي بنظرته وهو يحدق في صفحة الكتاب أو الصحيفة التي يقرأها، ومن سؤاله: ما رأيه في هذا؟ ما رأيه في التو واللحظة؟».

وسئل سارتر بعد مضي سنوات عديدة عن هذا التأبين، فتحدث عن أنه استسلم لإغراء كتابة «بعض العبارات النثرية الجميلة» التي لم يقصدها، على الرغم من أنه لم يحدد شيئا بذاته. ونراه في حديث آخر يسلم بوجود «قليل من الزيف في هذا النعي الذي كتبته عن كامي، وذلك حين قلت إننا، حتى وقت الخلاف الناشب بيننا، كنا نريد معرفة ما يفكر فيه». ترى هل كان التأبين عاطلا من أي صدق وإخلاص؟ لقد كانت هذه هي المرة الرابعة التي تحدث فيها سارتر علانية عن كامي الإنسان: والمناسبات السابقة هي رؤيته العام ١٩٤٢ عن اكتشاف كامي، ومحاضرته العام ١٩٤٥ عن كتاب فرنسا الملتزمين، ثم رسالته المنشورة إلى «عزيزي كامي». وتضمنت كل مناسبة حديثا عن مآثره، بل وكانت كل واحدة بدافع أغراض أخرى تتجاوز الاعتراف بالميزات والمآثر. وليس ثمة سبب للشك في عدم إخلاص سارتر في أي من المناسبات الأخرى. وهل كان غير مخلص في قوله أنه «عاش مع» صديقه البعيد بعد القطيعة؟

وجرى حديث معه وهو في سن السبعين عن عدم اتساق وثبات صداقاته خاصة قطيعته مع كامي. وأجاب سارتر «إن صداقاتي لم تكن لتعادل علاقات الحب». وقيلت له ملاحظة هي «هناك حقيقة كثيرون سقطوا من حياته - غالبيتهم العظمى من الرجال». واحتج سارتر في رده على هذه الملاحظة بقوله إنه عقد صداقات طويلة المدى مع أصدقاء رجال، ولكن الوحيدين الذين استطاع أن يذكرهم هم شباب من أعضاء ما كان يسمى «عائلة» سارتر - بوفوار. وبعد أن قال إن القطيعة مع كامي لم تؤثر فيه «بشكل حقيقي»، عاد وتذكر الأوقات الجميلة التي قضياها معا، ومن عجب أن قال إن كامي هو آخر الأصدقاء الممتازين.

وثمة سبب وجيه يجعلنا نقبل فكرة أن استباق رد فعل كامي ربما أثر في طريقة تفكير سارتر في شأن أفعاله هو. وإذا عرفنا مكانة كامي داخل المشهد الفكري السياسي، فإن سارتر ربما وجد من الأفضل له التفكير جيدا في شأن كل خطوة يخطوها في مساره وكأنه يتأملها بعيني كامي، حتى إن لم يكونا صديقين. وهذا ما فعله آخرون. وطبيعي أن سارتر لن يصرح أبدا بأنه

تأثر بصديق الماضي، ولا كامي أيضا. ولكن مع مرور الوقت بدأ كل منهما يكتب المرة بعد الأخرى وكأنه يكتب ضد، أو يرد على، أو يحاج الآخر بعد أن مضى كل إلى سبيله.

* * *

كشفت القطيعة مع كامي بتركيز شديد عن تغير درامي في سارتر. إذ واصل العمل خارج منطق «تحوله المذهبي» خلال الفصل الثاني من «الشيوعيون والسلام» في عدد من مجلة «الأزمنة الحديثة» خلال الفترة (أكتوبر ونوفمبر). والملاحظ أن الأسلوب المليء بالزخارف والتكرار يجعل من هذا المقال واحدا من أسوأ القطع التي كتبها سارتر، ويفيد بأن انحيازه إلى الشيوعيين كلفه ضغوطا كثيرة في داخله. وعرض سارتر، من دون أن يذكر، بديلا عن تفسير كامي للشيوعية في ضوء المتطلبات الروحية لمثقفي العصر. ذلك أن ثمة حقيقة ملزمة صاغت الشيوعية: إذ إنها سعت إلى تحويل عمال فرنسا المستغلين والمعزولين والسلبيين إلى طبقة اجتماعية نشطة ومكافحة. وانحاز سارتر الآن إلى الحزب الشيوعي الفرنسي على حاله التي هو عليها، ولذلك دافع ضد كل من انتقدوا الشيوعية، سواء من اليمين أو اليسار، بأن اتهمهم إما بأنهم ثوريون مغالون وإما عبيد مقلدون بإسراف للاتحاد السوفييتي. وعرض منطق خياره ليس عن طريق المحاجة من أجل حزب شيوعي يكون أفضل أو أقل تسلطا، بل بأن قال لقرائه لماذا يتعين أن يكون كما هو. ورفض سارتر كل أشكال النقد ضد الحزب الشيوعي الفرنسي سواء من التروتسكيين السابقين من أمثال كلود ليفورت الذي راوده حلم تشكيل حزب ديموقراطي أكثر راديكالية، أو من مناهضي الماركسية، ومن بينهم كامي، الذين يطالبون العمال باختيار زعماء أقل جمودا عقائديا وأصحاب أهداف أكثر تواضعا. واتخذ النقاش قالبا جبريا غريبا ـ أخطاء الحزب الشيوعي الفرنسي بما في ذلك تنظيمه المتزمت المتسلط هي أخطاء لا سبيل إلى إصلاحها، ولكنها الأسلوب الأكثر ملاءمة لجماهير العمال المشتتين للتغلب على اغترابهم وتشتتهم. إذ هذا هو النهج الوحيد ليصبحوا طبقة موحدة.

وبدأ تحول سارتر في اتجاه الحزب مع مطلع العام ١٩٥٢ خلال حملة لمصلحة البحار السجين هنري مارتان. إذ بعد «الشيوعية والسلام» والقطيعة مع كامي نشرت مجلة «لي ليتر فرانسيز» التي هاجمته دون توقف منذ العام

١٩٤٥ بوادر ذوبان الجليد بين سارتر والحزب، وجاء ذلك مباشرة بعد أن نشرت إلزا تريوليت في العام ١٩٥١ عرضا نقديا رفضت فيه «الشيطان والرب الرحيم» لأنه يثير قضايا زائفة، ويعيد تأكيد ملاحظات عادية. وفي ١٨ سبتمبر كتب رئيس التحرير كلود مورغان تعليقا على الجزء الأول من «الشيوعيون والسلام» والذي رآه مدافعا عن التعايش السلمي: «أنا لا أحب أعمال سارتر الأدبية أو فلسفته. ولكن حين يشجب موقف من يعملون وراء قناع مناهضة الشيوعية من أجل الإعداد لحرب، أرى ـ وأنا سعيد لأن أرى ـ أن باستطاعتنا، بل وينبغي أن نعمل معا لحماية السلام».

وفي ٨ أكتوبر نشرت مجلة «لي ليتر فرانسيز» عرضا إيجابيا لأحد كتب سارتر. وقال الناقد إنه دليل على حدوث تغير أساسي في فكر سارتر أو في زماننا، حتى أن خاتمة الصيغة الجديدة لفيلم «المومس المحترمة» أعاد سارتر تنقيحها. واشتغل في هذا مع كل من بوست وأستروك بحيث إن المومس الشقراء ليزي والرجل الأسود تشابكت أيديهما وتصديا بجرأة للغوغاء البيض العنصريين. ورأى الناقد الذي كتب العرض أن هذا الفيلم الذي يتضمن موقفا نبيلا للغاية يعبر عن اللاتماثلية على خلاف «التماثلية الوضيعة» في «الأيدي القذرة»، يعلمنا الكثير جدا عن تطور سارتر تماما مثلما تعلمنا من الخلاف المدوي الذي حدث بينه وبين كامي في الصيف الماضي. صفوة القول إن القطيعة أكسبت سارتر نقاطا مع الحزب.

والجدير ذكره أن «التحول المذهبي» لسارتر، والصداقة الجديدة مع الشيوعيين في اتجاه مثقفين غير حزبيين أدخلاه عالما جديدا وأعطياه دورا جديدا. ونعرف أن مؤتمر السلام العالمي في فيينا في ديسمبر كان جزءا من استراتيجية ستالين لخلق حركة دولية ضد الحرب النووية ومن أجل التعايش السلمي. وأوضح المناهضون للشيوعية عدم تماثل الحدث ومشاركيه: أشخاص اختارهم الحزب من الشرق عاجزين عن أي عمل مستقل أو نقد حر لحكوماتهم، وإنما انتقاد الحكومات الغربية، وسوف يجري هؤلاء حوارا مع أفراد من الغرب لهم استقلاليتهم (بمن فيهم أعضاء في الأحزاب السياسية الفرنسية من اليمين والوسط) وكذا مع شيوعيين ورفاق طريق. وأصبح سارتر مع وصوله إلى فيينا نجم المؤتمر. وطلب المنظمون للمؤتمر منه أن يتكلم في الجلسة الافتتاحية. وعقد مصالحة مع الشيوعيين الذين سبق لهم أن هاجموه

في الماضي، بمن فيهم ألكسندر فاديف، الذي سماه في العام ١٩٤٨ «ضبع يمسك قلما». وساهم سارتر بنشاط في المداولات: وأدلى بالعديد من الأحاديث للصحف، وأمضى وقتا طويلا مع المثقفين الشيوعيين من كل أنحاء العالم بمن فيهم إيليا أهرنبرغ وبابلو نيرودا وجورج أمادو.

وكان مطلوبا لسارتر تذكرة دخول كونسرفاتوار فيينا، حيث انعقدت لقاءات كثيرة. وكان مقررا تمثيل «الأيدي القذرة» على مسرح آخر في فيينا أثناء انعقاد المؤتمر. وسبق للشيوعيين ومنذ وقت طويل اعتبار هذه المسرحية، وربما لأسباب شخصية بحتة، هجوما عليهم. والملاحظ أن سارتر قرر منع تمثيلها على الرغم من أن أحدا لم يطلب منه ذلك، بل دفع تعويضات مقابل ما تم من نفقات. وأكد أن أي إخراج للمسرحية، وأيا كان مكان تمثيلها، لابد من أن يقترن بموافقة الحزب الشيوعي المحلي. واعتبر سارتر هذا الشرط تنازلا منه عن حقائق تاريخية وليس انتهاكا لحريته أو لسلامة موقفه ككاتب. والجدير ذكره أنه في أثناء مؤتمر صحفي خاص بأداء للمسرحية من دون إذن سابق منه في فيينا بعد سنتين من ذلك التاريخ، قال سارتر موضحا: «أصبحت مسرحيتي ساحة قتال سياسي وأداة للدعاية السياسية. ونظرا إلى جو التوتر الراهن لا أظن أن تمثيلها في بعض المناطق الرئيسية الحساسة مثل برلين أو فيينا يمكن أن يفيد قضية السلام».

وعندما قام سارتر ليتكلم في فيينا ركز حديثه على ما دار في الاجتماع من هجوم ضد الشيوعية. ترى هل كان يحس وكأن كامي يتطلع إليه من خلف وهو يلقي كلمته؟ وحاكت قضيته الأولى ما يردده كامي ولكن مع تحويل سارتري: «الفكر والسياسة اليوم يقوداننا إلى مذبحة لأنهما جهد نظري مجرد... كل إنسان هو الآخر، العدو المحتمل، ونحن لا نثق به. ونادرا ما نلتقي في فرنسا، بلدي، رجالا، نلتقي شعارات وأسماء». واستطرد في محاجّته ضد ثنائية الحرب الباردة، وشرح كيف أن المؤتمر العالمي للسلام يسهم في الحد منها. وأن من يظنون أن الحرب العالمية الثالثة «ستكون صراع الخير ضد الشر» مخطئون. لقد رأى الناس بعضهم، وتكلم بعضهم إلى بعض، ولمس كل منهم الآخر وأثر فيه، واتحدت كلمتهم، إذ قالوا «إنهم يريدون السلام وسوف يحققونه لأنه الخير. ولن يفرض أحد علينا قسرا تلك الحرب الصليبية ثانية». وبعد أن رفض سارتر أي نزعة سلامية من شأنها أن تسمح بفرض

السلام من خلال الإرهاب، بدا كأنه يحاج كامي مباشرة. وعاد، على الرغم من كل شيء، إلى خلافهما الذي امتد أربع سنوات بشأن غاري دافيز الطيار الأمريكي السابق الذي أعلن المواطنة العالمية، ودافع عنه كامي لكن سارتر اكتفى بإظهار قدر بسيط جدا من التأييد له. «لسنا مثل غاري دافيز، إذ نعرف ضرورة الانغماس في السياسة وأن السلام ليس حالة ثابتة مستقرة، ونريد يوما الحصول على ميدالية السلوك الحسن، بل السلام جهد طويل وشاق من أجل البناء الذي يتعين إنجازه على صعيد عالمي، ويستلزم تعاون شعوب العالم كلها».

وختم سارتر خطابه أمام مؤتمر السلام العالمي في كونسرفاتوار فيينا بينما عقله في باريس، حيث مناهضة الشيوعية، وبشكل ملحوظ أكثر على المصالحة عند عودته إلى الوطن:

> «شخصيا، أعرف الكثيرين ممن كان ينبغي أن يشاركونا هنا ولم يحضروا. لماذا؟ بسبب نزعة التشاؤم والإذعان، ثم تخويفهم بأن المؤتمر مجرد حيلة... وكان عليهم أن يقولوا لأنفسهم: أردنا السلام، وثمة رجال مخلصون اجتمع شملهم لتحقيق السلام ولم نكن معهم... إن اليوم الذي يؤدي فيه شعورهم بالأسف إلى انجلاء فقدان الثقة والخوف قليلا، وتراجع العداء للشيوعية، سوف يكون هو اليوم الذي يمكن أن نقول فيه علينا قبل أن نسهم في تهدئة دولية أن نسعى لتحقيق مصالحة داخل الوطن».

وما أن عاد سارتر إلى أرض الوطن حتى رأيناه من خلال الأحاديث والخطب يفيض بحماسة بالكلام عن مؤتمر ڤيينا، باعتباره من أهم أحداث حياته، ومؤكدا قبل كل شيء على الاتصال المباشر بالناس من جميع أنحاء العالم، وعلى خبرة مناقشة القضايا الرئيسية معهم بحرية وصراحة. ولكن إلى أي مدى وبأي ثمن تكون الصراحة؟ واقع الأمر أن هذا ليس سؤالا نظريا مجردا، أن نسأل ما إذا كانت الوفود الشيوعية استطاعت أم لم تستطع الكلام بحرية، ولكن ثمة حدثا مباشرا تماما ونذير شؤم. ذلك أنه قبل أسبوعين من انعقاد المؤتمر صدر اتهام ضد رودولف سلانسكي وغيره من القادة الشيوعيين التشيك، وأغلبهم من اليهود، وثبت بعد محاكمة استعراضية أنهم مذنبون، وجريمتهم الخيانة، وراج الحديث عن مؤامرة يهودية دولية. واعترف سلانسكي بالتهم الموجهة إليه وبأنه عميل صهيوني يتجسس لمصلحة الغرب.

وتم إعدامه شنقا هو وعشرة آخرين في براغ في ٣ ديسمبر. والجدير بالملاحظة أن سارتر قبل سفره إلى المؤتمر أجاب عن سؤال وجهته المجلة المحافظة «لو فيغارو» إلى عديد من الشخصيات الفرنسية البارزة: «هل سترسل برقية إلى الرئيس جوتوالد لإنقاذ حياة من دانتهم براغ؟» وكان جوابه: «أرفض منهجيا أن أقدم أي بيان إلى «لو فيغارو». وكانت هذه الإجابة هي بطاقة الدخول الثانية له. لم يعترض سارتر ضد القتلة الحقراء ولا ضد المؤتمر. ولم يشأ سارتر الاعتراض على «مؤامرة الأطباء» وموجة معاداة السامية التي بدأت في الاتحاد السوفييتي قبل وفاة ستالين في مارس. ونعرف أن سارتر في رسالته «عزيزي كامي» شرح انحيازه إلى الشيوعيين: «لكي يكون لك حق التأثير في المناضلين يجب عليك أولا أن تشاركهم نضالهم. ويعني هذا قبول أشياء كثيرة إذا كنت تأمل في تغيير القليل منهم». وواضح أن هذا الصمت، وإلغاء عرض «الأيدي القذرة»، كانا من بين أمور كثيرة قبلها هو.

ويكتب كامي تأملات موجودة في مذكراته: «في فيينا أقام الحمام عشه فوق المشانق». وتحدث في مواضع أخرى ولكن بشكل خاص، بتفصيل أكثر وربما على نحو مباشر أكثر، عن نهج صديقه السابق والتزامه بـ «العجل الذهبي للواقعية»: «طبيعي أن الذهاب إلى فيينا يعني مشاركة في عمل من أعمال الحرب الباردة. ولكن الذهاب إلى هناك وعلى الخلفية أحد عشر مشنوقا أمر يتجاوز حدود الوصف... ومثلما وقع أعضاء الجناح اليميني في بلدنا أسرى قوة هتلر، كذلك حال اليساريين هنا الذين أذهلتهم السطوة الشيوعية، والتي اقترنت بكلمة «الفعالية».

ونشر سارتر في يونيو ١٩٥٣ مقالا يتضمن احتجاجا غاضبا على إعدام جوليوس وإيثيل روزنبرغ. وتجاهلت الولايات المتحدة الحملة العالمية التي تطالب بالرحمة، وادان سارتر «الجنون القاتل» الذي «بإمكانه غدا أن يلقي بنا في عشوائية واندفاع في حرب إبادة».

> «إن قتل عائلة روزنبرغ هو ببساطة محاولة لإيقاف التقدم العلمي مقابل تضحية بشرية. السحر ومطاردة السحرة (*)، وتنفيذ العقوبات من قبل سلطات مدنية، هي تضحيات: لقد بلغنا هذه النقطة. بلدك أعياه الخوف. أنتم تخافون كل شيء: الروس والصينيون والأوروبيون. تخافون بعضكم بعضا. وتخافون ظل قنبلتكم التي تملكونها.

(*) تسمية روّجتها سلطات العصر الوسيط الأوروبي لوصف أحرار الفكر الذين تطاردهم [المترجم].

وفي اليوم الذي ظهرت فيه مقالة سارتر أطلقت حكومة شرق ألمانيا النار على عمال متظاهرين. وتحدث كامي أثناء اجتماع احتجاجي انعقد في نهاية الشهر. ووجه حديثه ضد الصحافة الموالية للشيوعية، إذ دان بقوة غير مسبوقة دور ضمير اليسار الذي بسببه سخر منه سارتر في الصيف الماضي. وتأسيسا على مقال سارتر (المنشور في «ليبراسيون» وحرره عدو كامي القديم أسيتير)، ومقالات أخرى مماثلة يعرفها تعمد كامي أن يشدد النكير ضد «العاملين في صحافة الجناح اليساري ومعاونيهم الملتزمين الحياد في موقفهم من مأساة برلين، بينما ركزوا كل اهتمامهم على عائلة روزنبرغ». ونلحظ أن كامي ربما استأسد على سارتر نفسه، وراوغ بذكاء في تأكيده على الحاجة إلى تناول القضيتين معا.

«إذا اعتقدت أن من المستحيل أن تنسينا أحداث الشغب في برلين عائلة روزنبرغ، فسوف يبدو من المخيف أكثر أن من يسمون أنفسهم «يساريين» يكون باستطاعتهم إخفاء الألمان الذين أطلقت السلطات عليهم الرصاص في ظل أحداث عائلة روزنبرغ. بيد أن هذا هو ما شاهدناه وما نشاهده كل يوم، وإنه لهذا السبب تحديدا نحن هنا. نحن هنا، لأننا إذا تخلفنا عن الحضور فلن يحضر من يجاهرون بالدفاع عن العامل. نحن هنا لأن عمال برلين يخاطرون بالوقوع ضحية خيانة بعد قتلهم، وإن من يخونونهم هم أنفسهم من عقدوا عليهم الأمل في التضامن.

وعندما يزعم امرؤ أنه نذر نفسه لتحرير العمال، فإن انتفاضة العمال في ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، العمال الذين يرفضون زيادة ساعات العمل ويطالبون بانتخابات حرة وبذا يؤكدون لجميع المثقفين أصحاب الفكر الدينامي الذين يعظونهم بالنقيض تماما ويبشرونهم بأن العدالة لا تنفصل عن الحرية، أقول إن هذه الانتفاضة والدرس العظيم الذي نتعلمه منها والقمع الذي أعقبها، أليس هذا كله أمرا جديرا بالتفكير والتأمل؟ ألا يستحق هذا بعد كل المواقف التي ترددت على الأسماع في كل مكان تأكيدا جازما وواضحا للتضامن؟ إن أي عامل في أي مكان في العالم حينما يرفع قبضته المجردة في

وجه دبابة ويصرخ بأعلى صوته أنه ليس عبدا، فأي نوع من البشر نكون نحن إذا التزمنا موقف اللامبالاة؟ وماذا يعني أن نتدخل لمصلحة عائلة روزنبرغ ونلتزم الصمت إزاء ويلي جوتلنغ [الذي أعدمته فرقة عسكرية سوفيتية رميا بالرصاص بتهمة أنه محرض ممالئ للغرب]؟».

ولم يهدأ لسارتر بال على الرغم من أن استفزازات كامي استهدفت المناصرين للشيوعية، وربما استهدفته هو مباشرة. وحدث أن أجرت معه مجلة «كومبا» حديثا في شهر نوفمبر بمناسبة نشر كتاب قضية «هنري مارتان»، وسأله الصحافي عن دور المثقف، وهنا أعاد سارتر تدوير فكرته الأصلية عن الالتزام وقال إن «واجب المثقف شجب الظلم حيثما يكون». وأصبحت هذه الكلمات عنوانا للمقال على الرغم من أن سارتر كان معنيا أساسا ببيان أسباب عدم شجبه للمظالم الواقعة في البلدان الشيوعية. وبعد أن تحول عن كامي بنسبة ١٨٠ درجة، قال إن احتجاجات المثقفين الغربيين ليس لها تأثير على الحكومات الشيوعية، وأنها في ضوء الحرب الباردة تحولت إلى «أعمال حرب». وأراد من المثقفين الفرنسيين التعليق على أحداث نصف العالم الذي بوسعهم التأثير فيه، وألا يجدوا أنفسهم في صف القوى البورجوازية ضد الاتحاد السوفييتي. وأحل بسهولة هذه البيعة «للعجل الذهبي للواقعية» محل الأخلاق بناء على حساب سياسي وفي تباين صارخ مع قرار كامي التأثير في الاتحاد السوفييتي بكل الوسائل المتاحة. ونلحظ أن سارتر عند هذه النقطة التي يوضح فيها تبنيه للشيوعية إنما يسخر من ندائه هو بشجب المظالم في أي مكان كانت. وواضح أنه، عن وعي كامل، عامل الشرق والغرب على أساس معيارين مختلفين.

وقبل سارتر المشاركة في كثير من الشرور ابتغاء تغيير العالم، تماما مثلما كانت صياغته المسرحية في «الشيطان والرب الرحيم»، وأيّا كان الأمر فإن خياراته وبياناته تزايد ما فيها من تنافر. لكن تفكيره، على الرغم من كل التوترات، انصب على مسؤوليات المثقف، ونبع من قرار بناه عن تأمل وتروٍّ: قبول شرور الشيوعية بغية المشاركة في مشروعها من أجل تحويل العالم، مع العمل في الوقت نفسه على تغيير الشيوعية إلى الأفضل. ويتسق هذا مع ما ذهب إليه في توضيحه في مقاله في العام ١٩٦١ عن ميرلو ـ بونتي، إذ قال إن المرء خارج الشيوعية «يواجه حلفا غير مقدس من البورجوازية والزعماء

الاشتراكيين». وهنا لا مفر أمامه وبشكل مطلق من وضع تفرقة إيجابية. ويبدو هنا أنه في وجوده مع الشيوعيين يجد بعض الأمل حتى وإن بدا أملا واهيا. ومن ثم فإن سذاجته لا تكمن في الزعم بأن الشيوعية لا تشوبها شائبة، بل في طموحه إلى أن يؤثر فيها نحو الأفضل. ونراه باستثناء كلماته الجسورة لم يفسر لنا كيف حدد هدفه لأداء هذا الدور.

وعلى الرغم من كل ما يتصف به سارتر من عدم الواقعية، لكنه يرى أن الولاء للشيوعية ليس «عبودية» كما ذهب كامي، بل هو عمل سياسي من منظور مستقل. ويساعدنا هذا على تفسير حقيقة كثيرا ما نلحظها عن أنشطة سارتر في علاقتها بالحزب الشيوعي الفرنسي: انتقل سارتر إلى الشيوعية شأن كثيرين آخرين خرجوا منها. وسبق أن تمرد ميرلو ـ بونتي وشجب الاتحاد السوفييتي في هذه الآونة. وحدث قبل ذلك بقليل أن طرد الحزب من صفوفه إدغار مورين. كذلك كان شارلس تيلون، وأندريه مارتي، وهما زعيمان تاريخيان للحزب الشيوعي الفرنسي، كانا من بين المزمع تطهير صفوف الحزب منهما في الوقت الذي يتحول فيه سارتر ليكون أشهر رفيق طريق. ومع الوقت الذي ارتبط فيه سارتر بالحزب كان سحر الشيوعية قد تبدد وأزاحت صورتها التنبؤات التي راجت بشأن معسكرات العمل في الاتحاد السوفييتي والمحاكمات الاستعراضية في شرق أوروبا، وهستيريا الكومنفورم ضد تيتو، ومؤامرة الأطباء والإعدام رميا بالرصاص لعدد من العمال الألمان في يونيو ١٩٥٣. وبلغ الأمر مداه إذ سرعان ما سيطرد الحزب بيير هيرفي عدو كامي اللدود بسبب ندائه الجسور لمزيد من الديموقراطية داخل الحزب. ولن يمضي سوى وقت قليل ليطلق خروشوف «خطابه السري» عن جرائم ستالين. ومع نهاية الخمسينيات لم يبق سوى عدد قليل من المثقفين غير الشيوعيين لا يزالون يرون أن الاتحاد السوفييتي بصدد التحول إلى مجتمع المستقبل الحر.

وإن الوقت الذي اختاره سارتر لتبني الشيوعية يدعو إلى الحيرة بسبب سجله النقدي القوي على مدى تاريخه منذ العام ١٩٤٤. وتجلى نقده في المقالات وأعماله الفلسفية والروايات والمسرحيات والأحاديث الصحفية حتى أنها جعلت منه العدو الأيديولوجي الرئيسي للشيوعية على مدى الفترة التي أعقبت الحرب. والجدير ذكره أن صورة «الأيدي القذرة» التي أيدها أعضاء الحزب تنقل لنا علاقة سارتر الممتدة مع الحزب. ولكن يتضح لنا توقيت

انحيازه إذا أدركنا أن الأسباب عنده مختلفة عنها بالنسبة إلى المثقفين الآخرين. ذلك أن سارتر رأى الشيوعية ليست دليلا على المستقبل ولا هي مناط الأمل - إنه لم يتبنّها كفكرة جذابة استهوته - ويمكن تحقيقها في الواقع. ونعرف أن مقال ميرلو - بونتي عن المعسكرات السوفييتية الذي أيده فيه سارتر ذكر عبث الحديث عن الاشتراكية في بلد يجبر واحدا من كل عشرة من أبنائه على السخرة في معسكرات العمل القسري. وإذا كان الكثيرون من المثقفين في الثلاثينيات بل وفي الأربعينيات رأوا الشيوعية كفكرة أو قوة معنوية، فإن سارتر كان على دراية بواقعها القبيح.

صادفت الشيوعية هوى لدى سارتر لأن العمال موجودون داخل الحزب، والاتحاد السوفييتي هو الدعامة الرئيسية خارج فرنسا. وأشار جينسون إلى هذا في مقال له في العام ١٩٥١. إن الالتزام عند سارتر - على نحو ما أكد مرارا في «ما هو الأدب؟» وكرره في «الشيوعيون والسلام» - يعني ارتباط الكاتب بجمهوره الطبيعي، أولئك القادرين على تغيير المجتمع: الطبقة العاملة.

> «في فرنسا اليوم، الطبقة الوحيدة التي لها مذهب وعقيدة هي الطبقة العاملة. إنها الطبقة الوحيدة التي تتجلى «خصوصيتها» في تناغم كامل مع مصالح الأمة، ويوجد حزب كبير يمثلها. وهو الكيان الوحيد الذي له برنامج، ويتضمن برنامجه ضمان سلامة المؤسسات الديموقراطية وإعادة تأكيد السيادة القومية، والدفاع عن السلام، وهو الحزب الوحيد المهتم بتجديد الاقتصاد ومضاعفة القدرة الشرائية، وهو الحزب الوحيد في الحقيقة الذي تدب فيه الحياة ويعج بمظاهر الحياة، بينما الأحزاب الأخرى تعج بالديدان، ولنا أن نتساءل بأي معجزة يلتزم الغالبية العظمى من أعضائه العمال بأوامره؟».

والالتزام السياسي لا يقتضي المداولة حالة بعد حالة في شأن الاختيار الأخلاقي الصحيح. وإنما، كما قال سارتر، يقتضي فهما للمصدر الرئيسي الذي تنبع منه أمراض العالم - النظام الرأسمالي - والقوى والاتجاهات الكفيلة بالتغلب عليها. إنك لكي تعمل على نحو أخلاقي ومؤثر لمصلحة المقهورين، فإن هذا يعني الانحياز إلى هذا الحزب وقبول الجانب القبيح منه، وتقدير أساليب العنف التي يتبعها بل وتحمل أعباء العمل السياسي. هذه جميعا لوازم حتمية لكي يصبح

المرء واقعا حيا وللعمل بشكل جاد. وها هنا نرى المصدر الذي نبع منه عنف سارتر في هجومه على كامي وكذا صمته بشأن المشكلات الكبرى التي تعاني منها الشيوعية وأعمال القهر التي تمارسها.

ويتسق هذا مع ما سوف يكتبه في العام ١٩٦١ من أن اتجاهه فرض عليه تساؤلات كثيرة بشأن الشيوعية مع كل لحظة يعيشها: «إنه سؤال واحد أن نسأل: إلى أي مدى يمضون؟ وإلى أي مدى أستطيع أن أتبعهم؟ هل هذا العمل أم ذاك أو هذه السياسة أم تلك من أعمال وسياسات الاتحاد السوفييتي من شأنهما أن يفضيا في النهاية إلى تدمير البشر وحريتهم، بحيث يكف الاتحاد السوفييتي عن استحقاق أقل قدر من الامتياز أو لنقل النظر إليه في الحقيقة باعتباره نظاما شريرا؟ وكانت هذه بطبيعة الحال المسألة المثارة بين سارتر وكامي التي أوجزها سارتر بنفسه مع قدر نسبي من الصدق في تأبينه لميرلو - بونتي بعد وفاة كامي بعام: «ثمة أخلاق في السياسة - وهو موضوع صعب ولم يعالج بوضوح - وحين تضطر السياسة لزوما إلى خيانة أخلاقها فإن اختيار الأخلاق يغدو خيانة للسياسة. والآن ابحث لك عن مخرج في ضوء هذا الرأي، خاصة حين تتخذ السياسة هدفا لها سيادة الإنسان». ولقد خان كامي فعالية أو سياسة عالم الواقع. ولكن الأمانة الكاملة تستلزم قلب المعادلة: ماذا لو أن اختيار السياسة في مثل هذه الظروف، كما فعل سارتر، من شأنه أن يدمر الأخلاق؟ اختار كامي دربا بينما اختار سارتر دربا آخر.

ودخل سارتر أخيرا عالم الواقع حين تهيأت له الفرص، وعاش مع التعقدات والتناقضات حتى بلغ نقطة التواطؤ مع الستالينية. وإن سارتر لم ير نفسه كشخص بين آخرين إلا حين شعر برابطة ما منظمة تربطه بالعمال. وبعد أن وضع قدمين راسختين على أرض سياسية واقعية قرر الانخراط في عمل سياسي ذي جدوى، وهنا قبل الواقع لكي يغيره. ونجده في ختام «الشيطان والرب الرحيم» حل هذه المشكلة بشكل نظري مجرد، لكن الإعلان الجريء الذي أعلنه جويتس لم يكن سوى البداية. وعاش سارتر ولأول مرة، خلال العامين التاليين، التزامه بشكل عملي وبعيدا عن الاكتفاء بتأمله نظريا.

وعبر عن هذا المزاج فوق المسرح من خلال تكييف مسرحية كين لدوماس. ونعرف أن هذه المسرحية التي تم تمثيلها في نوفمبر ١٩٥٣ تعرض قرار الممثل إدموند كين بترك المسرح والتفرغ للزواج. وتعنى مسرحية كين بالتوتر بين

الواقعي والخيالي، وهي المسألة المحورية في المسرح والأدب الخيالي عند سارتر. ولكنها، على خلاف أعماله الأخرى لا تدخل في صراع مع العوائق بغية تحقيق إنجاز ما. لقد حول كين الممثل نفسه إلى شخص غير واقعي تماما. إنه كان يتوق «لكي يكون له قيمتي نفسها في العالم» و«أداء أفعال واقعية»، لذلك فإنه يقرر هجر حياة التمثيل على المسرح وما فيها من عظمة مصطنعة وأن يصبح مواطنا متواضعا رزينا له خصوصيته. وتمثل مسرحية كين نجاحا كبيرا على الرغم من أنها من أقل مسرحيات سارتر إغراقا في التأمل. ونلحظ أن سارتر حين كيف وعدل مسرحية دوماس تبنى طاقته التفاؤلية. ونجد أن كلاً من مسرحياته الثلاث التالية استهدفت أن تكون بمنزلة عمل إنجازي مثلما كانت في النهاية جميع كتاباته السياسية والنظرية التي كتبها بعد ذلك.

* * *

في هذه الأثناء شغل كامي نفسه بمشروعات من النوع الذي يمكن لكاتب مشهور أن يفقد نفسه فيها بسهولة؛ جمع ونشر كتابات قديمة، كتابة مقدمات، إلقاء خطب وأحاديث، كتابة رسائل للنشر. وعاد أيضا لإدارة المسرح أثناء الاحتفال الصيفي في أنجرز. وأضحت حياته أشبه بجولة من الأنشطة ليس بينها ما هو إبداعي بشكل مميز، وهذا هو الوصف الذي ردده بعد ذلك في قصة قصيرة له بعنوان «الفنان أثناء العمل». ونقرأ في هذه القصة عن رسام استوعبه بالكامل نجاحه الخاص حتى فقد قدرته على الرسم. واقترب كامي سياسيا مع جماعة من النقابيين ـ الفوضويين اجتمع أمرها حول «الثورة البروليتارية»، وهي جماعة هامشية ولكنها تضم راديكاليين أذكياء ومثاليين في فكرهم. وعزم على أن يواصل النشر من خلالهم، ومن خلال صحيفة مماثلة لهم وهي صحيفة شهرية سويسرية تحمل اسم «تيموان»، ورأى أن يدع اسمه يظهر ضمن أسرة تحرير الصحيفة.

ولم تكن القطيعة مع سارتر بعيدة أبدا عن أفكار كامي وأنشطته، ولم يكف في مذكراته عن توجيه النقد الشديد لباريس والوجوديين والمثقفين الثوريين ومثقفي الجناح اليساري والعدميين والمثقفين بعامة. ويقول عن العدميين: «أغبياء صغار، دعاة مساواة، عشاق محاجَّة، يفكرون في كل شيء لينكروا كل شيء، لا يشعرون بأي شيء بينما يتركون كل شيء للآخرين ـ

الحزب أو قادته - لكي يشعروا نيابة عنهم. وإذ قرأ فقرة من كتاب توكفيل «الديموقراطية في أمريكا»، فذكرته بتلك «الأرواح التي تحيل مذاق العبودية إلى نوع من مكونات الفضيلة». وهو ما ينطبق على سارتر والتقدميين. وتصور تمثيل «كوميديا ديل آرت» لمسرحية هزلية من نوع الفارس التي كتبها في العام ١٩٤٦، والتي تضمنت «الكلام المرتجل للفلاسفة» والذي يشير إليه هو نفسه وإلى سارتر وإلى المناخ الثقافي في زمانه. وسجل في ملاحظة تبدو أكثر كآبة قائمة بالوقائع التاريخية المختلفة التي أقرها أو أغفلها أو قبلها «المعاونون من الجناح اليساري»، ورأوا أنها حتمية بدرجة أو بأخرى. وهنا نجد إشارة شديدة المرارة إلى الفرنسيين المتعاونين مع النازي أثناء الاحتلال، وتتضمن القائمة:

- ترحيل عشرات الآلاف من الأطفال اليونانيين.
- التصفية الجسدية لطبقة الفلاحين الروس.
- الملايين من نزلاء معسكرات الاعتقال.
- الخطف السياسي.
- عمليات إعدام شبه يومية وراء الستار الحديدي.
- معاداة السامية.
- الغباء.
- القسوة.

وهناك الكثير مما يمكن إضافته، ولكن هذا يكفيني».

وأفرط بعد ذلك في الثناء على «مهنته النبيلة» التي أدت إلى قبول إهانات الخدم من دون رد. «كان للمرء في أوقات أخرى، نعتبرها متخلفة، الحق على الأقل في التحدي [أن يبارز]، وأن يقتل دون أن يكون موضع سخرية. من البلاهة أن يكون المرء على يقين، بيد أن هذا يجعل الإهانة أقل سهولة».

وفي أكتوبر ظهر عدد مجلة «أكتويل٢» ويتناول السجال الدائر حول «الإنسان المتمرد». وأوضحت أن هذا الكتاب الذي هو أصلا مقالات وأحاديث منشورة لكامي استهدف تصفية حسابات مع من انتقدوه. والجدير بالملاحظة أن كلا من المقدمة وأحد الأحاديث يتطلعان إلى ما وراء النزاعات الخاصة بالشيوعية، ويركزان على الفنان وهدفه الأول، وهو الإبداع. وإذ يضع كامي في الاعتبار أن «زمن الفنانين الذين يظلون جلوسا قد انتهى» - وهنا ولا شك

إشارة معماة إلى إغفاءة سارتر في الكوميدي فرانسيز ـ فإنه يناشد الفنانين التطلع إلى المستقبل من دون إحساس بالمرارة. إن الفنان وهو واحد من بين كثيرين يعملون ويناضلون، يلتمسون سبيلا «لفتح السجون والتعبير عن أسباب سعادة وتعاسة كل إنسان». إن الفن يسعى لتغذية عملية تجدد وإعادة ميلاد العدالة والحرية. وغني عن البيان أنه «من دون الثقافة ومن دون الحرية النسبية التي تفترضها مقدما يصبح أي مجتمع، حتى المجتمع الكامل، مجرد غابة. وهذا هو السبب في أن جميع أشكال الإبداع الأصيلة هي منحة إلى المستقبل».

وفي خريف ١٩٥٣ عقد كامي الأمل، تماما مثلما عقد الأمل في نهاية «الدفاع» قبل ذلك بعام، بأن يترك السياسة ويعود إلى الإبداع الفني. ونراه في مذكراته وتحت عنوان يقول «أكتوبر ٥٣»، يكتب: «نشرة أكتويل ٢. قائمة الجرد اكتملت ـ التعليق والحوار. ومنذ الآن فصاعدا... إبداع».

9

كل يستعيد دوره وإنتاجه

مع انتصاف العام ١٩٥٤، كان كامي قد فقد دوره وتوقف إنتاجه. إذ على الرغم من بياناته الجسورة التي تؤذن باستئناف الكتابة كان يحس بأنه معقود اللسان وعلى شفا الجدب. وحاولت فرانسين مرتين خلال الشتاء أن تنتحر، ولزمت فيما بين المحاولتين الفراش في المستشفى ما بين بكاء ونوم وحديث عن ماريا كاساريس. وعلى الرغم من تأثر كامي بحكم الالتزام، لم يكن ليجد في نفسه الحب العميق المتسق الذي يمكنه وحده، حسب اعتقاده، أن يكون السبب في حدوث فارق. ولقد كان منذ صدور «الإنسان المتمرد» عاكفا على قصتين، «المرأة الزانية» - بتكليف من «ناس» في الجزائر - التي توفر حسا قويا بالعزلة والخيانة. والثانية «يوحنا، أو الفنان في مرسمه»، وهي عن رسام هام على وجهه في صخب الشهرة في باريس حتى توقف عن الرسم. ونظرا إلى أن كامي صارع في صمت طوال العام ١٩٥٤، فإنه بدأ يعد الأيام في مذكراته محاولا من دون جدوى الاهتداء إلى سبيل للعودة إلى الإبداع. وفي يوليو أخبر روجر كوييو أنه أصبح عاجزا عن العمل طوال السنة. وبعد

«وعلى الرغم من أنه لا يقتبس كلمات من (السقوط) ليعيدها كما هي في (مجرم الطونا) وهي من أهم أعماله، إلا أنه كما يبدو يشغله عمل من أعظم أعمال كامي»

المؤلف

أن أكمل كتابة تصدير قصير قال لصديقه رنيه كار «لم أعد أعرف كيف أكتب». ووصف نفسه في إحدى الرسائل أنه أشبه بمن لم يشب عن الطوق بعد»، وفي رسالة أخرى أنه لا يعرف متى يمكنه العودة إلى الكتابة. ولم تكن فرانسين لتتحسن في مأكلها، كما أن أمها التي انتقلت إليها لرعايتها، طلبت من كامي أن يرحل. وقال بانفعال وبإبداع: «أشعر جففت تماما... كما الحبر في منشفة من الورق».

كذلك حال سارتر، إذ كانت السنوات عقب القطيعة أكثر سنواته فراغا ككاتب. وبدا صمته أشبه بشيء مفروض على نفسه، إذ كيف لنا بغير ذلك أن نفسر حظر سارتر تمثيل مسرحيته في فيينا؟ ألم يكن هذا أشبه بمن يقطع لسانه؟ وماذا عن صمته إزاء فظائع السوفييت مثل محاكمة سلانسكي: و«مؤامرة الأطباء» وانتفاضة برلين الشرقية؟ ربما كان الأمر مجرد توافق عرضي، ولكن سارتر حين زار الاتحاد السوفييتي بدا منهكا وانتهى به الوضع بقضاء عشرة أيام في المستشفى. ثم عاد بعد ذلك وقدم روايات وردية عن الحياة السوفييتية.

والجديرة ملاحظته أن سارتر على مدى الأعوام الأربعة بعد رده على كامي لم يكتب أي شيء ذي قيمة سوى ما كتبه عن «التحول المذهبي» وهو «الشيوعيون والسلام». ونجد في هذه السلسلة المؤلفة من مجموعة مقالات ليس بينها رباط قوي والمنشورة في «الأزمنة الحديثة» ما بين العامين ١٩٥٢ و١٩٥٤ أن الكتابة الطنانة المهتاجة تكشف عن العناء من جانب سارتر في سبيل الدفاع عن الشيوعية والعنف. وتمثل الدراسة المؤلفة من أربع وثمانين صفحة، الدراسة الأصيلة الأخيرة عن تاريخ الطبقة العاملة الفرنسية. إنها أول كتابة ماركسية لسارتر اعتمادا على مؤرخين واقتصاديين على نحو غير مسبوق أبدا وتفسر بعمق شديد كيف أن تاريخ وهيكل الرأسمالية الفرنسية قادا البروليتاريا إلى التطور على هذا النحو، بحيث أصبح الحزب الفرنسي هو التعبير الضروري والملائم عنها. وبدأ سارتر يمتلك ناصية لغة جديدة. ولكن على الرغم من أن الأسلوب أكثر واقعية وتحديدا وأقل تكلفا من الأجزاء السابقة من «الشيوعيون والسلام» فإن تفكيره وتعبيره لايزالان بعيدين عن وصفهما بالأناقة والوضوح شأن أعماله الفلسفية.

ويمثل هذا المقال المثال الوحيد في فترة ما بين القطيعة ووفاة كامي والذي يذكر سارتر فيه كامي بشكل مباشر على نحو ما. إنه يصف هنا الحاجة إلى السلم التراتبي للعمال المهرة الذين انعقدت لهم الهيمنة على الطبقة العاملة الفرنسية في

مطلع القرن، ويوضح كيف أن العمال غير المهرة الذين هيمنت عليهم عملية الإنتاج كانوا في حاجة إلى هيئة مثل الحزب الشيوعي توحدهم وتعبئ طاقاتهم. وأوضح كيف أن العمال أنفسهم في السابق تولوا بأنفسهم إنشاء النقابات وإدارة شؤونها للدفاع عنهم آنذاك. «يبدو وكأن هذا هو الزمان الجميل: وبعد أن انتهى بربع قرن اكتشفت «أرواحنا الجميلة» النقابات الثورية، ولا تزال تدفع بها إلى الأمام». وطبيعي أن «الروح الجميلة» الكبرى هي كامي، حسبما وصفه سارتر (اقتداء بجينسون) في «عزيزي كامي». ونذكر أن كامي في ختام «الإنسان المتمرد» دافع عن النزعة النقابية الثورية باعتبارها البديل عن الثورة الشيوعية. ولكن سارتر المنحاز إلى الطبقة العاملة الصناعية أحس مرحليا بأنه مضطر إلى الإخلال بالعهد الذي قطعه على نفسه بالتزام الصمت إزاء كامي. لم يعد قادرا على مقاومة الرغبة في اتهامه بالتشبث بالماضي في سبيل توضيح أن تطور الرأسمالية، شاء أم أبى، الذي أدى بها اليوم إلى خلق عمالها الصناعيين غير المهرة، استلزم بالضرورة إنشاء الحزب كهيكل شبه مستقل لثوريين محترفين.

* * *

انتهت صداقة كامي ـ سارتر دون أن تنتهي العلاقة بينهما. لم يلتق كل منهما بالآخر ثانية، ولكن كما قال سارتر في تأبينه لكامي أن القطيعة بينهما فتحت «سبيلا جديدا للعيش معا من دون أن يغيب أحدهما عن بصر الآخر داخل العالم الضيق المحدود الذي نعيشه». ولكن من ناحية كامي فقد ظلت عاطفته السياسية من دون تغيير على نحو ما توضح إشارة كتبها عقب سقوط دين بيين فو في ٨ مايو ١٩٥٤. بدا هنا وكأنه التزم موقفا وسطا بين اليسار واليمين، بينما يتعمد بشكل فاضح تشويه اليسار باعتباره مسؤولا عن موت الجنود الفرنسيين في المعركة: «لقد وضع ساسة الجناح اليميني هؤلاء البؤساء في موقف لا سبيل للدفاع عنه، بينما أعضاء الجناح اليساري يطعنونهم من الخلف». ونعرف أنه أصدر في سبتمبر السابق عددين خاصين يتضمنان دراسات نقدية عن الحرب وكتب في العدد الراهن هجوما على السياسة الفرنسية، إلا أن «الأزمنة الحديثة» كانت على وجه القطع واليقين من بين «عناصر الجناح اليساري» المشار إليهم. ووجه كامي بعد بضع صفحات في مذكراته هجمات محددة ضد تفكير سارتر في شأن القضايا الاجتماعية باعتبارها تناقضات مع أفكاره عن الحرية والمسؤولية:

«حسبما يرى أصدقاؤنا الوجوديون، فإن كل إنسان مسؤول عن الوضع الذي هو فيه. وهذا هو ما يفسر اختفاء التراحم من عالمهم الخاص بكبار السن العدوانيين. بيد أنهم مع هذا يدعون النضال ضد الظلم الاجتماعي. لذلك نجد من هم غير مسؤولين عن وضعهم؛ الفقير غير مسؤول عن فقره. حسن، ماذا بعد؟ المرأة البتراء القبيحة الخانعة. وفي النهاية، هل التراحم وكل شيء انتهى ثانية؟»

وسافر كامي في أواخر خريف العام ١٩٥٤ إلى إيطاليا حيث قضى أسبوعين ضيفا على الرابطة الثقافية الإيطالية. وعلم وهو في روما يوم ١٢ ديسمبر أن رواية بوفوار «الماندارين» التي صدرت حديثا فازت بأعلى جائزة فرنسية للأدب. ورأى في كل من الكتاب والنجاح الذي حققه أمرين موجهين ضده هو:

«اطلعت مصادفة على صحيفة «الكوميديا الفرنسية» التي نسيت كل شيء عنها. مهزلة جائزة الجونكور هذه المرة عن رواية «الماندارين». يبدو أنني بطلها، نقرأ وصفا لراعيها في السياق (مدير الصحيفة التي بدأت خلال المقاومة)، لكن كل ما عدا ذلك هو زيف سواء منه ما يتعلق بالأفكار أو المشاعر أو الأعمال. ولعل ما هو أفضل تلك الأفعال المريبة التي تمخضت عنها حياة سارتر التي ألقيت بسخاء على كتفي وتحملت عبئها. إذ إنها، من دون هذا، مجرد هراء، ولكن ليس قصدا، بل على نحو طبيعي كما يتنفس المرء».

ومضى يومان وهو لا يزال يستشيط غضبا: «الوجودية. إنهم حين يتهمون أنفسهم، نستطيع نحن أن نكون على يقين من أن هذا دائما لإدانة الآخرين». «تائبون ـ قضاة» ولم يكن كامي ينتقد لمجرد الانتقاد حين هاجم ما بدا من بوفوار (ومن قبلها سارتر) كشفا عن مكنون نفسها، ورأى في ذلك حيلة للهجوم على الآخرين. وإذ مضى كامي في تفكيره على أساس مفهوم «تائب ـ قاض» للرد على «الماندارين»، اكتشف جرثومة ما سوف تحمل بعد بضعة أشهر اسم «السقوط».

وعلى الرغم من أن كامي أسر برأيه هذا إلى مذكراته، فإنه حمى نفسه بالتظاهر باللامبالاة، مستهلا اليوم بالتأكيد على وجود مسافة تفصله عن باريس وحماقاتها، وأنهى يومه بتسجيل أشد الإدانات: «البطل هو أنا في الواقع»، ذلك لأن الشخصية الرئيسية في الرواية، والمدعو هنري بيرون، هو روائي ظهر من بين صفوف المقاومة في صورة رئيس لتحرير الصحيفة الرائدة المناهضة

للشيوعية ضمن الجناح اليساري، وهي صحيفة «لسبوار». واشتهر عنه الأخلاق ولم يعد يحب المرأة التي يشاركها الحياة (إذ أصبحت مريضة عقليا)، ويتوق إلى أن ينأى بنفسه عن السياسة ويعود إلى الكتابة الإبداعية. ويقطع بيرون صداقته مع صديقه الحميم روبرت دوبريل زوج أخت آن، وهو كاتب أكبر سنا وأكثر شهرة، وذلك بعد أن دأبت «لسبوار» على طبع تنبؤات عن معسكرات العمل السوفييتية.

ونلحظ أن الرواية التي تركز على المثقفين الفرنسيين اليساريين في الفترة ما بين التحرير والعام ١٩٤٨ مملوءة بمتوازيات مع كل من كامي وسارتر وبوفوار وآرثر كويستلر. وتتضمن القصة المؤلمة عن علاقة تشبه القصة الغرامية التي جمعت بين بوفوار ونيلسون ألغرين. ولا يزال القراء يقرأونها حتى يومنا هذا، باعتبارها نوعا من الروايات المقنعة، التي تقدم عرضا فيه تعمية عن أشخاص في فترة ما بعد الحرب والعلاقات بينهم ومواقفهم المختلفة ـ خاصة القطيعة بين كامي وسارتر، وقصة الحب بين بوفوار وألغرين. والجدير ذكره أن بوفوار في حوارات عديدة أجرتها آنذاك، ثم في صفحات عديدة سطرتها تفصيلا في مذكراتها، جاهدت بشق النفس لتؤكد الطبيعة الخيالية لرواية «الماندارين». ونلحظ أنها قرب خاتمة الرواية تفصح على لسان هنري عن موقفها الذي ستعبر عنه فيما بعد للمراسلين. واشتكت نادين ابنة آن وروبرت من أن هنري جال في كل مكان «ليبلغ القاصي والداني قصتنا».

> قال هنري: «انظر. أنا لم أكتب عن هذا. أنت تعرف جيدا أن جميع الشخصيات مختلقة». وقالت: «هراء. إن عشرات الأمور في روايتك تنطبق عليك أنت وعلى أبي. وعرفت بوضوح شديد ثلاثة أسطر تتحدث عني». وهز هنري كتفيه وقال: «حديثهم يجري على ألسنة أناس لا علاقة لهم بك». «طبعا، أردت أن أصور أناسا يعيشون في أيامنا هذه، من الرجال والنساء الذين يعيشون في أوضاع مثل أوضاعنا. ولكن الحياة بها الآلاف من الناس الذين يعيشون هكذا. ولم أصور نفسي ولا أباك. بل على العكس، نجد الشخصيات في أغلب الأحوال لا يشبهوننا في شيء على الإطلاق».

هكذا ترد شخصية كامي مقدما على اعتراضات كامي. أرادت بوفوار قراءة الرواية باعتبارها من الأدب الخيالي، ووصولا إلى هذا الغرض أدخلت إضافات يكتشفها بسهولة أي قارئ معاصر. من ذلك مثلا أنها غيرت الترتيب الزمني

للأحداث الواقعية عن طريق التداخل بين الصدمات التي ترويها القصة عن فترة ما بعد التحرير وبين جهود روبرت وهنري لتشكيل منظمة يسارية غير شيوعية؛ في الوقت الذي لم يكن فيه التجمع الثوري الديموقراطي قد بدأ فعلا وحتى ظهور الحرب الباردة.

وتكثف القصة في أربع سنوات سلسلة من الأحداث التي استغرقت في واقع الحياة ضعف هذه المدة، وتختزل النزاعات السياسية لفترة ما بعد الحرب بين عناصر اليسار فيما لم يعد يمثل قضية في واقع الأمر ـ سواء كان القصد هو الكشف أم عدم الكشف عن المعسكرات السوفييتية ـ بيد أن هذه المسألة الخيالية موضوعة في الواقع التاريخي المعيش لصدمة ما بعد التحرير وتقلص مساحة فرنسا للمناورة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. والملاحظ أن كلا من الشخصيات الأربع مبنية على أساس شخصية واقعية غير أن معتقدات وأفعال كل منهم تم تطويرها لأسباب خيالية لا تمت بصلة لوقائع سيرة حياة الشخص نفسه. وهكذا أضحت الرواية عملا خياليا غنيا ومعقدا بحيث أن الخاتمة لا علاقة لها بالأشخاص الواقعيين الذين كانوا نقطة انطلاقها. ويتصالح في النهاية هنري وروبرت ويبدآن العمل لإصدار صحيفة يسارية جديدة، ويتزوج هنري ابنة روبرت وآن ويصبحان أبوين.

ويشارك روبرت يقينا فضول سارتر المعرفي واهتمامه بالعالم والحماس الشديد في العمل. ولكن الشخصية أكبر سنا من سارتر بعشرين عاما، ويعود تاريخ انغماسه في السياسة إلى العشرينيات. أما عن هنري، فتقول لنا بوفوار:

> «فرحة الوجود، مرح النشاط، لذة الكتابة، كل هذه الصفات أسبغتها على هنري. إنه يشبهني على الأقل بقدر ماتشبهني آن وربما أكثر.
>
> ولكن مهما قال الناس عن هنري فإنه ليس كامي، أبدا على الإطلاق. إنه شاب، أسود الشعر، ويدير صحيفة. وإلى هنا يتوقف أي وجه للتشابه. حقا كان كامي، شأن هنري، كاتبا مستمتعا بالحياة، معنيا بالسياسة، بيد أن كليهما يشاركان من حيث هذه السمات الكثيرين جدا غيرهما ومن بينهم سارتر وأنا نفسي. والملاحظ أن لغة هنري ومواقفه وشخصيته وعلاقاته مع الآخرين ونظرته إلى العالم وتفاصيل حياته الخاصة وأفكاره ـ كل هذه الأمور مختلفة تماما عن صفات نموذجه الزائف ـ وإن عداء كامي

العميق للشيوعية ربما يكفي وحده لبيان الهوة العميقة بين الاثنين. إن البطل في روايتي يشبه سارتر وميرلو - بونتي من حيث علاقته بالحزب الشيوعي وموقفه من الاشتراكية ولا يشبه كامي في أقل القليل. وتسكنه في أغلب الأوقات عواطفي وأفكاري أنا... إن الحميمية الموجودة بين هنري وروبرت أشبه كثيرا بتلك الحميمية التي كانت موجودة بالفعل بيننا وبين بوست أكثر من كونها تشبه الصداقة القديمة التي جمعت بيننا وكامي. واضطرتني الظروف إلى وصف كيف كان العراك الأخير بين كامي وسارتر هو المرحلة الأخيرة ضمن خلاف طويل في الرأي بينهما. كما أن القطيعة التي حدثت بين هنري ودوبروي مختلفة تماما عن القطيعة بين سارتر وكامي. وكتبت تصورا أوليا لها العام ١٩٥٠، وأعقبها تصالح، وهذا ما لم يحدث بين سارتر وكامي. وبعد أن تحررنا مباشرة بدأت مواقفهما السياسية في التباعد».

أرادت بوفوار بهذا العمل من الأدب الخيالي أن تنقل خبرات ونزاعات واقعية، ولكن ليس على أساس من التطابق مع تقلبات حياة الناس في الواقع الحياتي من أمثال كامي. ترى هل بوفوار مرغت كامي في الوحل كما يؤكد أنصاره؟ إن كامي باعتباره ضحية هجوم سارتر ليس في وسعه إلا أن يرى هنري شخصية تناظره. ويظهر هنري كشخصية متماسكة وكأن نموه الشخصي والسياسي يمثل على الأرجح الخيط الأقوى في الرواية. ونراه في ختام الرواية يدمج بنجاح التوترات الدافعة له: إذ يجمع بين إرادته للحياة بسعادة وبين فهمه أن ليس بالإمكان تجنب العمل من أجل أن يكون العالم مكانا أفضل. ونراه على مستوى المشاعر والنظرة العامة أكثر جاذبية بكثير من روبرت الذي يملك ردا فلسفيا على كل مسألة ولكن من دون ذاتية أو لحم ودم. وثمة حدثان انطويا على تجاوز في حياة هنري، وهما عشيقته بولا ومغازلته لمثلة فاتنة كانت على علاقة غرامية مع ضابط ألماني ثم كذبه أمام المحكمة لإنقاذ هذه الممثلة. ولكن تجاوزات هنري هذه لا تظهر في سياق الرواية باعتبارها أخطاء وإنما تطور أصيل في حياة الفرد الأخلاقية والسياسية. ولكن إذا أصر كامي على أن يرى هنري هو نفسه، فإن في وسعه أن يلحظ أن بوفوار كافأته بنهاية سعيدة، إذ تخيلت صلحا معه أعاده إلى «أسرتها»، وجعلته هو وخصمه السابق يعملان معا من أجل إصدار مجلة أسبوعية يسارية غير أسبوعية.

بيد أن كامي، شأن ألغرين، لديه سبب وجيه للشكوى. لماذا تسمى صحيفة هنري باسم «ليسوار»، وهو اسم السلسلة التي أشرف على تحريرها كامي لدى دار غاليمار، إن لم تكن تريد توجيه ذهن القارئ إلى كامي؟ لماذا تفتح آن على صفحة تجعل الذهن يستحضر بقوة مجلة «كومبا» وترى ـ مثلما رأى أي من قارئي الرواية في سبتمبر ١٩٥٢ ـ «الرسالتان اللتان تبادل فيهما روبرت وهنري كلمات سباب وقذف؟ وتمادت بوفوار كثيرا في مواضع عديدة إلى حد استعارة كلمات حقيقية تداولها سارتر وكامي أثناء القطيعة. إن هذا يجبُّ زعمها بأنها خلقت عالما خياليا. إما أن ثمة شيئا عميقا كان يعتمل في نفس بوفوار تجاه كامي مثلما كان باديا تجاه ألغرين ـ ربما محاولة للتخلص من هواجس، أو التحويل الخيالي لعلاقات أليمة معينة كانت تهمها وتعني الكثير بالنسبة إليها ـ وإما أنها أرادت استثمار تفاصيل علاقات شخصية حميمة خاصة بكامي وترجع إلى المحادثة التي دارت بينهما في وقت متأخر من الليل. وهنا يمكن القول إن بوفوار، في أقل القليل، مذنبة بافتقارها إلى الحساسية واغتنام علاقاتها كمادة للتعبير الخيالي.

ربما كان حتميا أن يرى كامي الرواية بمنزلة تصفية حسابات. وقال لأحد أصدقائه: «ألقوا كل أوساخهم الملعونة على ظهري». واقترح الشاعر البولندي كزيسلاف ميلوسز على كامي أن ينشر ردا ولكن كامي رفض: «لأنك لا تناقش الأمور مع خادم». وسبق له، قبل ذلك بعامين، أن أحجم عن نشر رده السياسي على هجوم سارتر ضده حتى لا يبدو أضحوكة. والآن وبعد العام تقريبا من عجزه عن مواصلة الكتابة يبدو غير مستعد بالقدر نفسه.

* * *

وفي ديسمبر، انتخب سارتر نائبا لرئيس رابطة الصداقة الفرنسية السوفييتية. ومضت السنة التالية بالنسبة إلى سارتر ـ على نحو ما ـ كسابقتها إلى حد كبير: خطب وأحاديث يمتدح فيها الاتحاد السوفييتي، علاوة على رحلة إلى الصين نشر عنها تقريرا متوهجا. وكتب في العام ١٩٥٥ مسرحيته التي يتذكرها الناس أقل من مسرحياته الأخرى، وهي «نكراسوف». وتتضمن المسرحية هجاء للصحافة المناهضة للشيوعية، ونجد مسافة طويلة بينها وبين المسرحيات التي تتسم بالنظرة الثاقبة التي كتبها قبل القطيعة مع كامي.

ويمثل النزاع لحظة حاسمة في حياة كل منهما. إذ ظل كل منهما مخنوقا من حيث هو كاتب على مدى سنوات. شرع سارتر آنذاك في تحويل ذاتيته بحيث تكون السياسة محور نشاطه. وهكذا ظلت حتى وفاته. وأصبح هذا التحول

العميق بعض كيانه مما حرمه دوره على مدى سنوات طويلة، وأدى بالمقابل إلى توقف قدراته النقدية وأنطق لسانه بكلمات مستوردة من مكان آخر. ودارت مناقشة في العام ١٩٧٣ تحدث فيها سارتر عن أنه في ذلك الوقت استطاع التغلب على «النزعة الأخلاقية» التي التزم بها في السابق.

«بدأت أفسح مجالا للواقعية السياسية... عند الشيوعيين: وهو كذلك، أن تفعل هذا لأنه الأسلوب الفعال، وتجري مراجعة وتقييما له في ضوء فعاليته قبل أن يكون في ضوء أفكار غامضة يتعين عليك أن تنفذها على أساس أخلاقي. ومثل هذا الأخير من شأنه أن يؤخر إنجاز أمورك. ولكن لك أن تتخيل أن هذه الفكرة إجمالا لا تتوافق معي، إنها لا تحقق هدفا على الرغم من حقيقة أنني مضيت بها إلى غايتها ثم وصلت أخيرا إلى واقعية محضة: إن ما هو واقعي صواب، وما هو صواب واقعي. وعندما بلغت هذا الحد، رأيت أن هذا يعني أنني كففت عن كل أفكار عن الأخلاق».

ها هنا يقول سارتر إن مناصرته للشيوعية في الخمسينيات ـ وبالتالي قطيعته مع كامي ـ تعني إبدال «الأفكار القديمة ذات الصلة بالأخلاق» بـ «واقعية محضة». وذهب إلى أن هذا الإبدال استلزم اتخاذ عدة خطوات في وقت واحد. أولا، شفي من عصابه الذي لازمه طوال حياته، وهو «أن لا شيء أجمل من الكتابة، وأن تكتب يعني أن تبدع أعمالا خالدة، وأن حياة الكاتب ينبغي أن نفهمها من خلال عمله». ثانيا، حرر نفسه «بشكل مباشر تقريبا، من كونه مثاليا أخلاقيا، وقلقا مع العالم الواقعي وسبله المختلفة». وجدير بالملاحظة أنه من دون أن يذكر اعتبارا ثالثا، وهو معاملته مع كامي، نراه الآن يقر بأنه مضى بعيدا جدا خلال هذه الفترة في سبيل قمع جانب أصيل من نفسه والذي سيعاود الظهور مرة أخرى في النهاية. ولم ير أن التزام صديقه الصمت مرتبط بالتزام هذا الجانب من نفسه بالصمت أيضا.

وإلى أي مدى ارتبط صمت كامي العميق، أي ما بدا له فقدانا لذاته ككاتب، بالقطيعة بينهما؟ إن حارس بوابة باريس طرد الفرنسي الجزائري؟ وتعرض الكاتب المتحفظ للتشهير والتنديد به علانية على يد إنسان قادر على أن يقول أي شيء في الصحافة؛ وأصبح اليساري المناهض للشيوعية الذي لا يشعر بالأمان على جمهوره موضع ازدراء من المثقفين أبناء الجناح اليساري؛ وسخر رجال الإدارة من الوافد الجديد بسبب تعليمه الزائف وكسله الفكري. وها هي قصصه التي حاول كتابة

مسوداتها خلال العامين ١٩٥٤ و١٩٥٥ تتحدث عن الخيانة والعزلة والمعاناة الشديدة، وعن حياة تفتقد الخصوصية، وعن العقم الفني. وتصف أكثر قصصه تشوشا، «المرتد»، مثقفا «تقدميا» - ربما يشبه سارتر، وربما يشبهه هو - ذهب مبشرا إلى شمال أفريقيا، فإذا المواطنون الذين قصد خلاصهم يلجمون لسانه. وتتضمن آخر لوحة كانفاه للفنان واسمها «يوناس»، كلمة واحدة بخط صغير جدا حتى ليعجز المرء عن تمييزها، هل هي: وحيد أم متضامن solitaire or solidaire. كيف سينتهي الأمر بالنسبة إلى الفنان - وحيدا تماما أم متضامنا مع الآخرين؟ ويبدو أن كامي سأل نفسه مثل هذا السؤال على الأرجح حتى وإن لم تحدث القطيعة مع سارتر خاصة بسبب مرض فرانسين وشعوره بالذنب تجاهها، وكذا بسبب المتطلبات الطاغية التي تستلزمها شهرته وشعوره الملازم له بالشك في نفسه. بيد أنني أعتقد أنه تلقى نهاية صداقته مع سارتر وكأنها نوع من الطرد السياسي والشخصي، ومن ثم ضاعفت من إحساسه بالعزلة وجعلته يشعر بالخيانة كما عمقت شكه في نفسه. وفي منتصف فبراير ١٩٥٥ قال كامي لناشره الجزائري «لم أعد أستطيع الكتابة ثانية». ولكنه خلال هذا الربيع تهيأت له أهم فرصة للتعبير عن رأيه السياسي، والتي لم يتهيأ له مثلها منذ نشر «الإنسان المتمرد»، ذلك أنه تلقى دعوة لكتابة مقالات للصفحة الأخيرة بانتظام في مجلة أسبوعية تلتزم أسلوبا يساريا أمريكيا معتدلا، وهي الـ «إكسبريس». وكان ناشرها، جان - جاك سيرفان شرايبر، يأمل بأن يعود بيير منديس فرانس، الصديق الشخصي الأثير لدى كامي، إلى رئاسة الوزارة. والجدير ذكره أن تمردا وطنيا وقع في الجزائر خلال نوفمبر السابق، وكان منديس فرانس، الذي أشرف على تحقيق السلم في الهند الصينية، واحدا من القلائل الذين يعتلون المشهد السياسي والذي يحظى بثقة كامي من حيث القدرة على حسم النزاع. وتناولت غالبية مقالات كامي موضوع الجزائر.

ولكن، قبل أن يستقر كامي في شأن هذا الموضوع أحس بنفسه مدفوعا إلى الكتابة عن المسألة «الأخرى» باعتبارها القضية «الواقعية». إن هجوم سارتر و«خيانة» المثقفين المناصرين للشيوعية من أمثال سارتر لا تزال تشغل فكره. وفي مطلع العام ١٩٥٥ كان لا يزال يدافع عن نفسه في مذكراته ضد اتهام سارتر له بأنه أصبح بورجوازيا، الأمر الذي يعتبر «استحالة خلقية». وتأمل في مرارة «تفوقه العظيم على المخادعين»؛ ويتمثل في حقيقة عدم خوفه من الموت، وأن جهودهم «من أجل الحفاظ على المبدأ الثوري في الاتحاد السوفييتي والعمل على

مراحل لتصويب انحرافاته بررت مقدما الأساليب الشمولية للشيوعية. وعاد بحلول شهر مايو إلى الحديث علانية ضد أمثال هؤلاء المثقفين اليساريين، وبذا ورط نفسه في سجال مع صحيفة «لوبزرفاتور». إذ في ٢٦ مايو خصصت الصحيفة مقالا إلى «كامي والصحافة»، زعم فيه محررو المجلة الأسبوعية أن غضب كامي نحوهم يرجع تاريخه إلى قطيعته مع سارتر، وانتقدوا «محوريته الذاتية». وأعاد بدوره إلى الأذهان «افتقارهم إلى الموضوعية في المحاجَّة التي أوغرت صدري ضد سارتر». وكتب مقاله الثاني لمجلة الـ «إكسبريس» تحت عنوان «الحوار الواقعي»، وقال فيه إنه على الرغم من أنه أنهى كل ما يتعلق بهذا النزاع من دون مناقشة «شعوره الخاص إزاء الكيفية التي سار بها وانتهى إليها»، إلا أن ثمة شيئا يتجاوز عراكه الشخصي مع سارتر لا يزال يمثل ضرورة، وهو «الانحطاط الثوري». وأكد فيما يتعلق بهذه النقطة أن صحيفة «لوبزرفاتور» لا تزال منحازة إلى الموقف نفسه شأن سارتر، وأن كامي سيواصل معارضتهما.

> «أعتقد، من ناحيتي، أن فكرة الثورة سوف تستعيد عظمتها وفعاليتها فقط لحظة تخليها عن نزعة السخرية والانتهازية التي كانت شريعتها السائدة على مدى القرن العشرين، وحين تصلح من مادتها الأيديولوجية التي استخدمتها وحطت من شأنها على مدى نصف قرن من المساومة، وعندما، في نهاية الأمر، تكون حماستها التي لا تلين من أجل الحرية محور اهتمامها ودعوتها».

ولكن الوفاء بهذه الشروط يستلزم، من بين أمور أخرى، «رفض التعاون مع الشيوعية الراهنة». وحيث إن الشيوعية كانت «المشكلة الكبرى لعصرنا» يصبح لزاما ألا نخفي القضية وراء هجمات شخصية. كذلك فإن كامي في انطلاقته لاستعادة دوره السياسي العام، عاد إلى صراعه مع سارتر. وأكد من جديد في صحيفته الـ «إكسبريس» الاختلاف الأساسي بينهما، ووسع من نطاق تقدمه ليشمل «الصحافيين العاملين في مجلة لوبزرفاتور وكل من يشبهونهم».

ويرى كامي أن من بين هؤلاء دان ـ ماري دوميناك، المحرر في صحيفة «لي سبريت» الكاثوليكية الشهرية. ويرجع تاريخ سجاله مع دوميناك إلى الصيف السابق عندما كتب كامي تصديرا موجزا لكتاب عن المقاومة، دعا فيه إلى التغلب على الكراهية، وهاجم في الوقت نفسه بمرارة المثقفين الموالين للشيوعية. وأعادت مجلة «تيموان» الفوضوية نشر التصدير في عدد ربيع العام ١٩٥٥، تحت

عنوان رئيسي «رفض الكراهية». وكانت مجلة «تيموان» قد أدرجت اسم كامي ضمن هيئة تحريرها. واتهم كامي المثقفين الشيوعيين بأنهم متعاونون محتملون مع الاتحاد السوفييتي حال وقع غزو. وقال إنهم ـ سياسيا وأخلاقيا ـ يشبهون المتعاونين الموالين للنازي في العام ١٩٤٠. وأحس دوميناك في هذا بالإساءة إليه. والجدير ذكره أن دوميناك صاحب واحدة من أكثر المناقشات ذكاء وتوازنا التي دارت بشأن نزاع كامي ـ سارتر قبل ذلك بثلاثة أعوام. وأرسل ردا لاذعا إلى مجلة «تيموان»، متهما فيه كامي باستخدام احتفال بذكرى المقاومة ليحيي معركته الأدبية مع سارتر. «حري بالإنسان ألا يحسم معاركه عند بوابات المقابر».

ورد كامي، كما هي عادته الآن، برسالة ليست موجهة إلى دوميناك، بل إلى رئيس تحرير مجلة «تيموان» جي. بي. سامبسون. وتوقع أن تكون المحاذير هي ذاتها، شأن عراكه مع سارتر، ولذلك عاد ليؤكد من جديد موقفه الأصلي صراحة: «إن هذا الصراع بين اليسار الحر واليسار التقدمي هو المشكلة الجوهرية لحركتنا». أما عن صديقه السابق فقال:

> «سارتر ليس عدوا، لم يحدث بيني وبينه نزاع أدبي، لقد كان خصمي فقط بشأن نقطة واحدة أعتبرها محورية لنا جميعا. وأرى أيضا، وهذا صحيح، أنه لم يكن خصما صادقا، بيد أن هذا أمر يخصني أنا وحدي. ولكن أجد من ناحية أن النزاع الذي فرق بيننا يتجاوزنا نحن الاثنين، وسوف أواصل المعركة ضد سارتر، إذا كان ذلك ضروريا، وضد مواطنينا التقدميين بعامة. وحيث إنني كنت أتكلم في تصديري للكتاب عن المثقفين التقدميين، فإني أقول إذا كان سارتر من بينهم، فكذلك أيضا دوميناك».

تكشف ملاحظات كامي كيف أن الشخصي والسياسي لا يزالان متداخلين في موقفه من سارتر بعد مضي ثلاث سنوات على القطيعة. ويرى من ناحية أن سارتر لم يكن أمينا، وأن هذه مسألة شخصية بين الاثنين. ويرى من ناحية أخرى أن نزاعهم انصب على موقف كل منهما من حيث القضايا السياسية الكبرى. وتؤكد جملته الأخيرة أن كامي رأى نفسه بحلول العام ١٩٥٥ ـ وسوف يظل هذا صحيحا طوال بقية حياته ـ يقف ضد كتلة واحدة قوية فكريا من المثقفين اليساريين المتعاطفين بدرجة أو بأخرى مع الشيوعية، أو أنهم ـ على أقل تقدير ـ معارضون لمناهضة الشيوعية، واشتملت هذه الكتلة على «الأزمنة الحديثة» و«لوبزرفاتور» و«لوسبريت»، وأن سارتر هو القوة المهيمنة عليها.

وكف كامي، بحلول العام ١٩٥٥، عن أن يحارب وحده تيارا طاغيا. وكتب إلى المجلة الأسبوعية ذات الاتجاه السائد لليسار المعتدل بما يعني أن له هو أيضا مؤيدين وزملاء وجمهورا. وأحس، في الحقيقة، بثقة كافية تؤهله لتوجيه أقسى اتهام ممكن من عضو سابق في المقاومة إلى آخر - إذ قال إن سارتر وزملاءه، بما في ذلك مجلتا «لوبزرفاتور» و«اسبريت»، يشبهون المتعاونين مع النازي في العام ١٩٤٠، الذين فتنهم بلد أجنبي زعم أنه يجسد مثلهم العليا. ورأى كامي أن هذا هو المحك الصحيح الكاشف: إذا قرر الاتحاد السوفييتي غزو فرنسا، هل دوميناك والآخرون سوف يقاومون أم يرحبون بالغزاة؟ لكن نظرا لأنه يكافح من أجل روح اليسار، فإنه لن يقطع صلته باليسار الذي أدين له بالولاء. «لقد ولدت في أسرة، هي اليسار، وسأموت بينها».

* * *

بعد أن أكد كامي من جديد حضوره السياسي، استقر على تناول القضايا الملحة المطروحة. وكتب على مدى الأشهر الثمانية التالية اثنين وثلاثين مقالا للمجلة الأسبوعية، ثم لمجلة الـ «إكسبريس» اليومية. وكان نصف هذه المقالات عن الجزائر، وظهرت أساسا خلال شهر يوليو، وأكتوبر، ونوفمبر. وكان النزاع الجزائري - إذ لم تكن كلمة «حرب» مستخدمة بعد حتى على لسان اليسار - هو السبب الرئيسي في عودة كامي إلى الصحافة. وتمثل هذه المقالات مداخلته الكبرى الثالثة في شأن الجزائر. ونعرف أن كامي في المداخلتين الأولى والثانية في العامين ١٩٣٩ و١٩٤٥ كان بعيدا عن الرأي السياسي الأكثر صقلا. وقال أشياء لم يكن ليجرؤ كاتب على مناقشتها علانية، بما في ذلك أشد الصحف راديكالية. لكن كل جهد من أجل الإصلاح كان يجري تدميره في الجزائر، ولذا أخذ القوميون الراديكاليون المبادرة الآن. وفي أول نوفمبر ١٩٥٤، دعت جبهة التحرير الوطني إلى «استعادة الدولة الجزائرية ذات السيادة كدولة ديموقراطية واشتراكية داخل إطار مبادئ الإسلام». وبدأت ثورة، وهاجمت مؤسسات الحكومة في أنحاء الجزائر كلها.

وقامت السلطات الفرنسية على الفور بمحاصرة آلاف الجزائريين، وردت بعنف على هجمات جبهة التحرير. ووسعت الجبهة من نطاق هجماتها لتشمل العرب العاملين في الإدارة. وارتكبت أيضا أعمالا إرهابية ضد المستوطنين الفرنسيين، خاصة المقيمين في الضواحي. وعلى الرغم من أن الرسوم البيانية تكشف عن تصاعد عدد الحوادث في الجزائر فإنها لم تحتل العناوين الرئيسية

في صحف باريس. وهكذا نجد أن المقالين اللذين نشرهما كامي خلال شهر يوليو يمثلان استعراضا للموقف في الجزائر، ووضعاه مرة أخرى في صورة من يقوم بدور رسول صاحب بصيرة.

ولكن مع فارق. إذ على الرغم من أن كامي كان لا يزال في مقدمة الرأي السائد، لكنه بحلول منتصف العام ١٩٥٥ تخلف كثيرا عن الموقف الفعلي. لقد حاول، كما حدث في مقالاته السابقة، تناول «الأسباب العميقة لمأساة اليوم»، وخرج عن أسلوبه المعهود ليقول إنه يشعر شخصيا أنه «أقرب إلى فلاح جزائري، أو راع قبلي منه إلى رجل أعمال من مدننا الشمالية». وتحدث عن الفرص الضائعة، وعن الحاجة إلى وضع النزعة الاستعمارية في متحف الماضي. بيد أنه كان أكثر غموضا، قياسا إلى مقالاته الأولى، كما كان عازفا عن التصدي لبيان كيف تطور الموقف. والجدير ذكره أن تفسيره لدافع العرب إلى الإرهاب - «اليأس» - بدا له رنين سيكولوجي ويستلزم رعاية، وكأن كامي لا يزال يفسر الجزائريين العرب للقراء الفرنسيين حتى بعد أن مكنت جبهة التحرير جموع الجزائريين من أن يضعوا الأمور بين أيديهم. ولكن مهما كان تعاطف كامي أصيلا مع شعب يعيش «بدون مستقبل ويعاني من الإذلال»، فإنه لم يستوعب الدروس المصيرية لمعركة دين بيين فو، وهي الدروس التي استوعبتها - يقينا - جبهة التحرير الجزائرية. وأهم من ذلك أنه لم يفهم معنى التمرد الذي بدا مع أول نوفمبر العام ١٩٥٤.

وتجلى هذا واضحا بصورة مذهلة في الاقتراح الرئيسي الذي تضمنته المقالات. إذ رفض «الخطأ الدموي» للإرهاب مثلما رفض «القمع الغاشم والعشوائي» للحكومة، وطالب بعقد مؤتمر يكون له هدف واحد: وقف طوفان الدم. من يشارك فيه؟ ذكر كامي اسم المنظمات القديمة ذات الخط الديني القومي الاستيطاني من دون أن يذكر جبهة التحرير الجزائرية - التي كانت آنذاك تستوعب كل فرق المعارضة الموجودة - وبدا كامي كذلك غافلا عن نوايا التمرد الجزائري، ذلك لأنه اقترح عقد المؤتمر بعد وقف إطلاق النار وبدء إصلاحات اقتصادية والدعوة إلى انتخابات جديدة تديرها الحكومة الفرنسية، باعتبارها «صاحبة الدور الفيصل والحكم». ويعرف هو أن انتخابات العام ١٩٤٨ خربتها الإدارة الاستعمارية ذاتها، وألقى باللوم على الحكومة بسبب أغلب الأخطاء الحادثة في الجزائر. لكنه لا يزال يتصور أن الدولة الفرنسية في وسعها

أن تكفل نزاهة الانتخابات الجديدة، وأن الثوار في وسعهم أن يدركوا ذلك. وهكذا افترض أن جبهة التحرير الجزائرية، التي رفض ذكر اسمها، سوف تلقي سلاحها بناء على هذا الوعد.

وصادف كامي إنكارا. ومضى بعيدا أثناء النقاش إلى حد أنه ضمن مقاله بخط مميز خاتمة ختم بها مقالاته العام ١٩٣٩ عن القبائلية: «إذا كان في وسع الاستعمار أن يجد مبررا، فإن ذلك المبرر هو أنه شجع شخصية الشعب المستعمر». قال هذا بعد أن وصل إلى نتيجة مفادها أن الاستعمار الفرنسي لم يفعل شيئا من هذا. لذلك فإن كامي، في ضوء الموقف الجديد جذريا، أعطى انطباعا بأن تفكيره عن الاستعمار لا يزال ثابتا عند الثلاثينيات.

واتخذ سبيله إلى الواقع الجديد، ولكن بأسلوب كشف مكنون فكره. ونعرف أن بيانه في العام ١٩٣٩ تضمن نصا لم يعد له مجال الآن: إذ كان في الأصل يتكلم صراحة عن «السيطرة الاستعمارية» وتبريرها بأنها تساعد «الشعب الخاضع للسيطرة على الحفاظ على شخصيته». ولكنه الآن في العام ١٩٥٥ انتقل من «السيطرة الاستعمارية» و«الخاضع للسيطرة» إلى «الاستعمار» والمستعمر». وأخفت الصياغة الجديدة تدمير الحرية وطمس معالم العنف. وأكثر من هذا أن الشعب «الخاضع للسيطرة له عن أصالة حق الإطاحة بالمسيطرين عليه وأن ما عاناه طويلا من عنف يمكن ـ وعلى نحو مشروع ـ أن يؤدي إلى الرد عليه بعنف مثله كما يعرف جيدا مؤلف «الإنسان المتمرد». بيد أن الصياغة الجديدة طمست هذه الحقائق. كذلك فإن الانتقال من «الحفاظ على» إلى «تشجيع» ليس أقل من حيث وضوح الرؤية. ونجد كامي أكثر من مرة في مقالات العام ١٩٥٥ يشير إلى أن الاستعمار الفرنسي فعل كل ما في وسعه لقمع الشخصية الجزائرية، ولكن لأن الجزائريين احتفظوا بشخصيتهم فإنهم الآن في سبيل تأكيدها. وإذ رفض كامي «إرهاب» الجزائريين، فإنه تجنب ذكر جانبين رئيسيين لأسلوبهم في تأكيد شخصيتهم: مطالبتهم بالاستقلال، وتنظيمهم جبهة التحرير الوطنية.

ووقعت في ٢٠ أغسطس مذبحة دموية ضارية راح ضحيتها عشرات الأوروبيين في بلدة فيليب فيل، وأعقبتها عمليات قمع شرسة ضد آلاف العرب على أيدي الجيش والمستوطنين. وقضت هذه الأحداث على وهم إمكان احتواء النزاع. وإذا بالجزائر التي اختفى اسمها قبل ذلك من الصفحات الأولى تعود من جديد وبشكل مثير، وأصبحت على الفور القضية المحورية للانتخابات القادمة.

وظلت على مدى السنوات السبع التالية مهيمنة على الحياة الفرنسية. واستمرت الحكومة في الاعتماد على أسلوب الانتقام الشامل والتعذيب الجماعي لسحق الثورة، وضاعفت من وجودها العسكري من حين إلى آخر، حتى جاوز نصف مليون جندي. هذا بينما حرصت جبهة التحرير على مواصلة وتشديد النضال عن طريق الإرهاب ضد المستوطنين وكذا ضد الجزائريين المساندين للفرنسيين بمن فيهم من يعيشون في فرنسا.

وبعد مذبحة فيليب ڤيل كتب كامي إلى صحيفة الـ «إكسبريس» التي أصبحت يومية، وفي نفسه شعور متزايد بأن الأمر بات عاجلا وملحا. وقال في ٢٥ أكتوبر «إن المواجهة الحرة بين القوى» الفاعلة على الساحة هي السبيل الوحيد، في الوضع الراهن، للوصول إلى حل. وكتب في ١٨ أكتوبر، حيث بات من المستحيل على الفرنسيين والعرب العيش معا، فقد أصبح ضروريا جمع كل الأطراف معا «من المستعمرين إلى الوطنيين». وأكد أن الصورة العامة للمستعمر الذي يحمل سوطا ويقود سيارة كاديلاك لا تحمل أي شبه بينها وبين الغالبية الساحقة من المليون نسمة من الفرنسيين الجزائريين الذين ضربوا بجذورهم راسخة في البلاد وغالبيتهم من العمال والموظفين المدنيين، ويجنون ما هو أقل كثيرا مما يجنيه نظراؤهم في فرنسا.

وحلت الذكرى السنوية الأولى لانفجار العمليات العسكرية، وكان هناك ٦٠ ألف جندي على أهبة الاستعداد لكي ينضموا إلى قوة قائمة في الجزائر تعدادها ١٢٥ ألفا، وبدأت الصحف اليومية تكتب تقارير عن هجمات وعمليات إعدام. وحاول كامي هنا التصدي لحالة «الهوس المعادي للأجانب» الآخذ في الازدياد. وعاد ليؤكد من جديد أهمية الجمع بين الطرفين المتصارعين وجعل همه الحد من الضحايا المدنيين إلى أقل عدد ممكن. وإذ لحظ كامي تفاقم العنف باطراد كشف عن اقتراح بشأن عقد هدنة مدنية. ورأى أن تعهد كل من الطرفين باحترام حياة المدنيين من شأنه أن يقلل المعاناة، وربما يفضي إلى حوار.

وفي ٢٠ يناير ١٩٥٦ فازت الجبهة اليسارية الجمهورية المعتدلة بعدد كاف من الأصوات يؤهلها لتشكيل الحكومة. ولكن الراديكاليين أتباع منديس فرانس داخل الجبهة خيبوا آمال مؤيدي الجبهة الذين وعدوهم بالفوز بأصوات أكثر من الاشتراكيين، وبذا كان منصب رئيس الوزراء من نصيب جي موليه الاشتراكي. وبينما كان موليه عاكفا على تشكيل حكومته الجديدة طار كامي إلى الجزائر ليضع نفسه

على مسار إنجاز اقتراحه. والجدير ذكره أن الأصدقاء في الجزائر، ومن بينهم عرب بارزون، غير معروفين لدى كامي، وهم أعضاء في جبهة التحرير الجزائرية، كانوا قد توحدوا في صورة لجنة من أجل هدنة مدنية. وعقدوا الأمل على خلق تأييد واسع النطاق لدعم الفكرة والجمع بين الجزائريين والفرنسيين معا. وانعقد لذلك اجتماع جماهيري ليلة الأحد ٢٢ يناير في سيركل دي بروجريه على حدود القصبة.

امتلأت القاعة عن آخرها بحوالي ما يزيد على ألف ومائتي شخص يمثلون قسمين متساويين من الأوروبيين والجزائريين. وأحاط بالاجتماع في الخارج حشد عدائي من الفرنسيين الجزائريين احتجاجا على الاجتماع، يقودهم جو أورتز، وهو مالك حانة وعنصري متطرف، وسيكون له دور بارز في أحداث التمرد ضد الحكومة مستقبلا. وأحاط بهذا الحشد الغاضب حشد من الجزائريين صامت ومنظم للغاية. وبدا أن مقاتلي منظمة التحرير الجزائرية تولوا حراسة الاجتماع علاوة على الشرطة الفرنسية المنتشرة لحفظ الأمن. وكان كامي الذي أصبح أشهر أبناء الفرنسيين الجزائريين في الجزائر هو المتحدث الرئيسي داخل القاعة المزدحمة المتوترة. وأخذ المتطرفون في الخارج يصيحون «كامي إلى المشنقة»، ورددوا شعارات تهديد ووعيد ضد منديس فرانس وعمدة الجزائر العاصمة الليبرالي. ودخل القاعة فرحات عباس الجزائري المعتدل وأحد معارف كامي القدامى؛ وكان قد حضر بعد بدء الاجتماع، وانضم إلى كامي وأصدقائه والزعماء الدينيين على المنصة. وتعانق الاثنان، وبينما تعالت الأصوات في الخارج أكثر فأكثر، بدأ المشتركون في الاجتماع يسمعون صوت أحجار يقذفها الغاضبون في الخارج وتصطدم بالنوافذ.

ورأس الاجتماع شارلس بونشيه، الصديق المقرب إلى كامي. ونهض كامي ليتكلم شاحب الوجه. وبدا إلقاؤه رسميا أكثر مما ينبغي وهو يقرأ كلمة مكتوبة، وإن كانت أفكاره قوية واضحة. وتحدث عن الموقف الجزائري باعتباره «مأساته الشخصية»، وأشار إلى أن كل من في داخل القاعة يربطه بنا «حب ترابنا المشترك». وتحدث عن «الأصول القديمة والعميقة للمأساة الجزائرية»، مشيرا بحزن وأسى إلى «الأطماع الأجنبية» التي تهدد فرنسا بالخطر. وأطلق كامي «نداء أخيرا للالتزام بالعقل، قبل اندلاع حرب الأخوة ضد الأخوة»، وقبل أن يتفسخ الوضع ويتحول إلى «جنون العداء للأجانب». وشدد على أن العرب والفرنسيين «جديرون بالاحترام على قدم المساواة». وأعلن أن «التضامن الفرنسي العربي حتم «لا مفر منه» خاصة إذا نجح اقتراحه بشأن هدنة مدنية في تغيير «جوهر طبيعة الصراع». وإذ أرغمته الضوضاء الغاضبة في

الخارج على الإسراع، فاكتفى كامي بدعوة مستمعيه بأن «لا ينحنوا أمام الواقع»، وأن يرفضوا أي شكل من أشكال القدرية التي من شأنها أن تقضي على حريتهم ـ وأن عليهم قبل كل شيء أن «يرفضوا ممارسة أو معاناة الإرهاب».

وهكذا عارض كامي الإرهاب في شجاعة، مؤكدا الاعتراف المتبادل، كما تحدث بإسهاب وسخاء غير معروفين لدى زملائه من الفرنسيين الجزائريين، وأصبح كامي العظيم من جديد يشدد على ضرورة السباحة ضد التيار، وخلق الفرص والإمكانات حيث نظنها معدومة. لكنه أيضا حام حول لب المشكلة دون أن يذهب تفكيره إلى ما هو أعمق من «اللاعقلانية» و«الكراهية»، ولزم الصمت إزاء الأساس والسبب الحقيقي، وهو النظام الاستعماري نفسه. وحث كامي على حماية المدنيين كما عمد في الوقت نفسه إلى رفض الاعتراف بأن القضية وراء إرهاب كل من الطرفين هي ـ تحديدا ـ وجود المدنيين من كل من الطرفين ـ حيث هناك مليون نسمة من ذوي الامتيازات، بينما تسعة ملايين نسمة محرومون من حقوق المواطنة. والجدير بالملاحظة أن المنطق السوداوي لكل من الإرهاب الجزائري والفرنسي نابع من واقع أن كل طرف يرى جماهير الطرف الآخر هي الخطر الذي يتهدده. ولم يشأ كامي الاكتفاء بالنظر إلى ما وراء أساطير المستوطنين والتحدث بأمانة عن القهر المنظم الذي يعيش في ظله العرب الجزائريون، بما في ذلك عشرات الامتيازات اليومية للفرنسيين الجزائريين. ولم يشأ كذلك التصدي لهشاشة وضع الفرنسيين الجزائريين في الجزائر.

وبعد أن ختم كامي كلمته أرغم الضجيج في خارج القاعة بونشيه على إنهاء الاجتماع سريعا. ووافق المستمعون على مطالبة جميع الأطراف بـ «ضمان حماية المدنيين الأبرياء»، ثم بدأوا في الخروج من القاعة، وكل يلتمس طريقا آمنا عبر الفرنسيين الجزائريين الذين يتوعدونهم، وقد مضوا في مسيرة عبر المدينة يواصلون الصياح معلنين شعاراتهم. وطرح كامي في اليوم التالي فكرة الهدنة على الحاكم العام جاك سوستيل الذي أنهى مدته وفي سبيله إلى العودة إلى فرنسا، لكنه رفض الفكرة مؤكدا أن المتمردين لن يوافقوا عليها. وهكذا كانت نهاية آخر جهد مهم من أجل عقد مصالحة فرنسية ـ عربية عرفها التاريخ الجزائري. وابتأس كامي لفشل المهمة. واستقال من صحيفة الـ «إكسبريس» ووضع نهاية لآخر فترة عمل خلالها بالصحافة بكتابة عمود في مطلع فبراير امتدح فيه ما توافر في موسيقى موتسارت من مواساة.

* * *

بعد مضي خمسة أيام على مؤتمر الفرصة الأخيرة الحاشد في الجزائر وقع حدث آخر يعادله أهمية في قاعة صال واغرام في باريس. إذ أعلن جنود الاحتياط احتجاجهم عدة مرات خلال بضعة أشهر على إرسالهم إلى الجزائر، ولكن كان هذا أول اجتماع حاشد لهم في العاصمة ضد الحرب. ونعرف أن اجتماع الجزائر الذي تحدث فيه كامي انعقد يوم الأحد، وهو يوم عطلة الراحة للفرنسيين الجزائريين، ولهذا حضره عدد كبير. ولكن اجتماع باريس المشار إليه هنا، المنعقد لمساندة الحركة الوطنية الجزائرية، انعقد يوم عطلة الراحة الأسبوعية للمسلمين، وهو يوم الجمعة، ولهذا حضره حشد كبير يمثل العرب ثلاثة أرباعه. وتحدث عدد كبير من تيارات وتوجهات عديدة من بينهم جزائريون وشيوعيون ومثقفون يساريون مستقلون وسارتر وأستاذ راديكالي من جامعة الجزائر يدعى أندريه ماندوز الذي وجه التحية باسم جبهة التحرير الجزائرية.

اعتلى سارتر المنصة، وألقى كلمة محكمة الانتقاء والتسبيب عن «الاستعمار كمنظومة». واعتزم كامي الصمت إزاء صراع عجز هو عن الحد من توتره. ولكن سارتر كاد يخرج عن فلك الحزب الشيوعي لأول مرة منذ ما يقرب من أربع سنوات، إذ لم يكن الحزب على استعداد لدعم الحركة الوطنية الجزائرية ـ ومع ملاحظة أنه خلال ستة أسابيع سيوافق على منح سلطات الطوارئ لحكومة موليه لتهدئة الوضع في الجزائر. وحاول سارتر، على النقيض، وضع أساس نظري لما يمكن أن يمثل عاطفته السياسية على مدى السنوات العشر التالية، أي تحرير العالم الثالث.

ونستطيع أن نميز في خطابه ردا على كل نقطة من نقاط مقال كامي في مجلة الـ«إكسبريس». وكان سارتر قد قرأ مطالبة كامي بالاعتراف المتبادل في ظل استمرار الحكم الفرنسي، ثم دعوته إلى عقد هدنة مدنية، ولذلك نجد سارتر يرفض مثل هذه المطالب بالكامل، وإعلان إدانته للنظام «القاسي الذي لا يعرف الرحمة» والذي سبق أن عرضه تفصيلا كل من فرنسيس جيتسون وكوليت جيتسون في كتابهما المناصر لجبهة التحرير الجزائرية، وتحدثا فيه عن الثورة. وأقر سارتر في أحد الهوامش أن صغار الموظفين والعمال الأوروبيين ليسوا فقط «متربحين» من النظام الحاكم، بل هم أيضا ضحاياه. إنهم يجسدون «الدائرة الجهنمية» للاستعمار: مليون مستوطن، «أبناء وأحفاد المستوطنين الذين صاغهم الاستعمار ويفكرون ويتحدثون ويعملون وفقا لمبادئ النظام الاستعماري ذاتها». لقد كانت حياتهم حياة عنصرية حتى النخاع، ويجعلون «من الجزائري من هو أدنى من

الإنسان»، ثم يستخدمون هذه «الدونية الإنسانية» لتبرير إنكار أبسط حقوق الإنسان على الجزائريين. إن الاستعماريين أقلية صغيرة، وملاذهم الوحيد هو استخدام القوة للحفاظ على أنفسهم». صفوة القول «ليس هناك استعماريون طيبون واستعماريون أشرار. الاستعماري استعماري». وتعلم الجزائريون الدرس جيدا نتيجة الحياة في ظل هذا القهر: «وهكذا صاغ المستوطنون بأنفسهم خصومهم، ورأوا أن ليس بالإمكان أي حل سوى الحل عن طريق استخدام القوة».

وكان سارتر يجيب على «واقعي رقيق القلب» لم يذكر اسمه. وتحدث كامي عن «إصلاحات» ؛ وسخر سارتر من الاستعماري الجديد الساذج، الذي لا يزال يؤمن بأن بإمكاننا أن ندير النظام الاستعماري إدارة أفضل». وسعى كامي لتحقيق تقارب بين الشعبين. وأعلن سارتر أن مثل هذه الحلول «الوسط» هي «تعمية إصلاحية». وتحدث كامي عن استعمار يشجع شخصية الشعب المستعمر»، وشدد سارتر على أن الجزائريين صاغوا شخصيتهم «كرد فعل لعملية العزل ومن خلال النضال اليومي». وعقد كامي الأمل في إجراء إصلاحات اقتصادية فورية لتحسين ظروف حياة الجماهير الجزائرية. وأكد سارتر أن الاستعمار والحكم الفرنسي يجب قمعه أولا. وأصبح واضحا أن مهمة كل أبناء الشعب الفرنسي المتعاطف ليست الحد من قسوة الاستعمار، بل «المساعدة في موته». إن الأمر متروك للجزائريين لكي يجروا هم ما يرونه من إصلاحات، وإن سارتر وزملاءه من المواطنين الفرنسيين عليهم أن يناضلوا معهم «لتخليص كل من الجزائريين والفرنسيين من الطغيان الاستعماري». ونشرت مجلة «الأزمنة الحديثة» هذه الكلمة في عدد مارس ـ أبريل ١٩٥٦. ويكشف هذا عن أن علاقة سارتر والماركسية أضحت أفضل كثيرا الآن عما كانت عليه يوم أن كان سارتر في أول عهده كرفيق طريق. ونلحظ هنا أن القوة الأخلاقية المؤثرة لفلسفته بدأت تندمج وتتوحد مع نظرته الاجتماعية والتاريخية، كما أن دعوته إلى السلام نابعة من تحليلاته الواقعية. وهكذا اجتاز سارتر الدرب المتعرض لتطوره السياسي، ومنه التلمذة للمثالية في التجمع الثوري الديموقراطي، ثم إلى الواقعية (حيث الحزب الشيوعي الفرنسي)، وها هو الآن يقترب من الغاية والمصير.

* * *

أخيرا بدأ كامي خلال هذه الفترة التغلب على عقدة الكتابة. وكتب خلال السنة الماضية تعليقين بشأن قطيعته الأخيرة مع سارتر، في الوقت الذي انشغل فيه بنزاعين علنيين أقل حدة أحدهما مع مجلة «لوبزرفاتور»، والثاني مع

دوميناك. واعتاد في الماضي الدخول بانتظام الساحة العامة ككاتب لافتتاحية والانخراط بعمق في أقرب القضايا إلى قلبه وهي الجزائر، والكتابة عنها وفق ما تقتضيه قناعاته من شجاعة. وعاد الآن إلى العمل كروائي. وثمة قصة بدأها في منتصف العام ١٩٥٥، ولكن خطتها الأصلية توسعت وتحولت إلى رواية قصيرة. وتخلى كامي هذه المرة عن منهجه المعتاد وبدأ يكتب في عجلة كأنه يلهث مقطوع الأنفاس مع أدنى حد من التخطيط والتنقيح. ووقع العقد مع دار غاليمار بعد بضعة أيام من ظهور مقاله الأخير المنشور في الـ «إكسبريس»، وقدم خلال أسبوع رائعة من روائعه. وظهرت رواية «السقوط» في يونيو ١٩٥٦، وأصبحت على الفور حدث الساعة. وبيع منها خلال ستة أشهر أكثر من ١٢٥ ألف نسخة. ونال مؤلفها بعد عام جائزة نوبل في الأدب.

ولا ريب في أن أي إنسان تابع حياة كامي عن كثب ستستولي عليه الدهشة عند فتح الصفحات الأولى من الكتاب. إذ يجد في كل صفحة من صفحات الكتاب النزاع مع سارتر، وكذا في الاقتباس المكتوب على صدر الكتاب المأخوذ من ليرمانتوف، وحتى وصف الراوي لنفسه باعتباره «تائبا ـ قاضيا». نجد النزاع معروضا في ذكاء ورقة وتألق، ولكن دون إغفال للمضمون. ونعرف أن ليرمانتوف حين كتب «بطل من عصرنا» قصد تصوير «رذائل جيلنا كله في أكمل تعبير». وحازت رواية «الماندارين»، جائزة جانكور قبل ذلك بثمانية عشر شهرا لوصفها جيل بوفوار وكامي. وها هو كامي الآن، شأن ليرمانتوف، يصف الجيل، ويكشف في الوقت ذاته عن رذائله. ولكن كامي يقتبس من ليرمانتوف وكأنه يذكرنا بأن الكثيرين من جمهوره أساءوا فهمه. ترى هل اعتبر رواية «الماندارين» التحدي لعرض واقعي لجيله؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن رواية «السقوط» هي إجابته.

وتحدد الجملة الأولى أسلوب الكتاب ووجهة نظره: الراوي كليمنصو يفرض نفسه مباشرة على القارئ الذي يصبح من الآن فصاعدا نصيرا متخيلا في بار في أمستردام، وأمين سر الراوي. ويصف كليمنصو في الجملة الثانية صاحب البار بأنه «قرد مبجل». وحري بنا أن نتذكر هنا ما حدث منذ أربع سنوات إذ نقرأ كلاما من أكثر الكلام غموضا في هجوم سارتر على كامي: «التفوق الذي تضفيه على نفسك ويعطيك الحق في ألا تعامل جينسون كإنسان لابد أنه تفوق عنصري». وهنا ليس في وسع القارئ أن يفوته التلميح. ويصف كليمنصو بعد ذلك صاحب البار بأنه يصدر خوارا، ويتحدث عن «صمته الذي يعود إلى غابات

العصور الأولى»، وعن جهله «باللغات المتحضرة»، ويسميه «مخلوقا» في مقارنة بينه وبين إنسان كرو ـ ماغنون «الذي يسكن برج بابل». ويصور كامي كليمنصو في صورة من يجسد المواقف العنصرية التي اتهمه بها سارتر.

أصبحت اتهامات سارتر وجينسون، وهي الأكثر إيلاما، مادة ما قيل إنه شخصية كامي. وسرعان ما يذكر كليمنصو القارئ بنقد جينسون لرواية «الإنسان المتمرد» لضعف محتواها الفكري وجمال أسلوبها، وكذا بكلمات سارتر: «إن ما يزعج في رسالتك تلك الحذلقة في كتابتها». ويستغرق كليمنصو في تفكير عميق بعد أن أدرك استخدامه لصيغة عرضية: «أعترف بضعفي بالنسبة إلى هذا المزاج وبالنسبة إلى الحديث المنمق بعامة. صدقني هذا ضعف أنتقده في نفسي... الأسلوب يشبه الحرير الشفاف الذي يخفي غالبا نوعا من الأكزيما». لقد كان مشهدا غريبا حتى أن الانتقادات العامة، كما زعم راعي كامي، أسكت كامي نفسه ثلاث سنوات. ووجد الفنان الإبداعي كامي نفسه خلال مونولوج مثير للمشاعر بحدة كبيرة، يعود أدراجه ويجد سبيله ثانية من خلال شخصية تعترف بالخطايا التي هاجمها المؤلف.

ومهما بدت رواية «السقوط» مريرة، بل وعنيفة، فإن لها أيضا جانبها المرح. سبق أن قال سارتر عن كامي «المدعي العام الرئيسي لجمهورية القلوب والزهور». وها هو كليمنصو، ممثل الادعاء العام في المحاكمة يتحدث الآن عن مكنون النفس من دون مواربة: «أنا واثق بأنك معجب بصراحة لهجتي، وملاءمة وصواب عواطفي، والإقناع والدفء، والتحكم في مشاعر السخط البادية في كلامي أمام المحكمة». سارتر: «يا إلهي، كامي! يالك من جاد، وإذ استخدمت كلمة من كلماتك أنت، يا لك من تافه». كليمنصو: «يقينا، أنا أتظاهر بين الحين والآخر بأنني آخذ الحياة مأخذا جادا. ولكن سرعان ما تصدمني تفاهة الجدية، وأمضي لألعب دوري قدر المستطاع». سارتر: «ذلك لأنك بورجوازي يا كامي مثلي. أي شيء آخر يمكن أن تكون؟». كليمنصو، الذي يلعب دور من يتحرى عن محاوره: «أنت حسن الهندام بأسلوب يتسق مع الناس في بلدنا؛ ويداك ناعمتان. لذا أنت بورجوازي في الأسلوب». سارتر: «لم تكن بعيدا عن أن تصبح قدوة ومثالا». كليمنصو، بعد أن يعترف بأنه سرق لوحة عنوانها «القضاة العدول»، من بار أمستردام، وقد تخيل أنه صدر ضده حكم بالإعدام شنقا: «لكأن ترفع رأسي الذي لا يزال دافئا، ترفعه عاليا من فوق رؤوس الجمع الحاشد حتى يجدوا أنفسهم فيها وأستطيع

أنا أن أهيمن ثانية ـ قدوة ومثالا». سارتر: «افترض أن كتابك شهد على جهلك الفلسفي؟ افترض أنه تضمن معارف جمعت على عجل ومن الدرجة الثانية؟» كليمنصو: «هل يمكن القول إن ثقافتك تعج بالثغرات؟».

وهكذا، ينثر كامي بشكل ليبرالي هذا الاعتراف على لسان مدافع منافق عن الفقراء والضعفاء على نحو يتردد معه صدى كلام جينسون وسارتر، ويكشف كامي من خلال ذلك عن سخرية أكثر عمقا. ونلحظ أن السمات السلبية التي يتصف بها كليمنصو لا تتطابق فقط مع انتقادات سارتر وجينسون، بل إن سماته الإيجابية أيضا تعيد لنا صورة كامي العامة بعد الحرب. ويصف كليمنصو ذاته الناجحة، وبأسلوب يذكرنا على نحو مثير وصف سارتر لصديقه «القدوة والمثال» في رسالته إلى كامي.

«كنت دائما في اتساق وتناغم، أليفا عند الاقتضاء، صامتا عند الضرورة، قادرا على السلوك الحر السهل وكأن هذه طبيعة شأن الكبرياء. ومن هنا كانت شهرتي واسعة النطاق، ونجاحاتي في المجتمع لا حصر لها، كنت مقبولا في ظاهري، كشفت عن نفسي بحيث كنت في آن واحد راقصا لا يعرف الكلل، وعالما في غير تطفل أو ادعاء. وعرفت كيف أحب في آن واحد النساء والعدالة، وهذا ليس بالأمر اليسير. وانغمست في الرياضة وفي الفنون الجميلة. باختصار لن أستطرد خشية أن تشك في أنني أتعمد إطراء ذاتي. ولكن أرجوك فقط أن تتخيل إنسانا في ذروة مجده في كل شيء، من حيث الصحة الكاملة والمواهب الفياضة، والمهارات البدنية المتميزة شأن مهارات العقل، وليس غنيا ولا فقيرا، ينام نوما هادئا، راض سعيد بنفسه دون أن يظهر هذا كله إلا في صورة روح اجتماعية هنيئة، هكذا في وسعك الآن أن تعرف كيف لي أن أتكلم من دون تواضع، عن حياة ناجحة.

نعم كائنات قليلة كانت أكثر طبيعية مني. كنت في آن واحد أنعم بالتناغم والاتساق مع الحياة، أتلاءم معها من القمة إلى القاعدة دون أن أرفض أيا من سخرياتها أو عظمتها أو عبوديتها. وأخص بالذكر أن الجسد، المادة، وكل ما هو طبيعي باختصار، الذي يكدر ويثبط حياة الكثيرين من الرجال في الحب أو في

الوحدة، إذ إنها لا تستبعدني بل حققت لي الفرحة والبهجة دائما وأبدا. لقد خلقت ليكون لي جسد. ومع توافر التناغم في باطني يسر لي ذلك وضعية السيادة التي أحس بها الناس حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا لي أحيانا أن هذا ساعدهم على الحياة، ومن ثم كانت صحبتي مطلوبة دائما. وكثيرا، على سبيل المثال. ما ظن الناس أنهم التقوا بي قبل ذلك. الحياة ومخلوقاتها ومواهبها دانوا لي جميعا، وقبلت مظاهر الولاء بنوع من الكبرياء. وأقول الصدق إن كوني إنسانا كاملا وبسيطا جعلني أنظر إلى نفسي باعتباري أشبه بالإنسان فائق القدرات (سوبرمان)».

وبعد أن أعاد بذلك إلى الذاكرة تسبيحات سارتر بالشكر في العام ١٩٥٢ (إلى رئيس تحرير مجلة «كومبا» السرية... بالاشتراك مع ميرسو)، يذكر كامي اتهاما مقترنا به وجهه سارتر، ويفيد بأن كامي بعد هذا النجاح كان عازفا عن تغيير التاريخ. كليمنصو: «لقد حلقت عاليا بالمعنى الحرفي للكلمة على مدى سنوات، ولذا، بحق، بقيت طويلا صادقا تماما مع نفسي». ويشير كامي إلى سخرية أخرى في مديح سارتر، سبق أن قال سارتر عن كامي أنه يحمل دعامة متنقلة، ووصف كامي الهجوم بأنه «دعامة تشغيل». ومع هذا كان سارتر في العام ١٩٤٥ واحدا من أهم الدعائيين لمصلحة كامي. ويتأمل كليمنصو في مرارة ويسأل: «من رفعه إلى هذا المستوى؟ لتحمِنا السماء، السيد العزيز، متى أن يضعنا أصدقاؤنا فوق دعامة».

ويوضح كامي أيضا ـ على نحو ما أشار كليمنصو إلى الرقص وإلى شهوانيته الحسية، وإلى حبه للنساء ولعبة الرجبي والمسرح ـ أن الشخصية الخيالية تشتمل على ما هو أكثر من آراء سارتر وجينسون عن مبدعها. ويتضمن كليمنصو أيضا عناصر من ذاتية كامي الخاصة. لذا نجد أحد جوانب أسلوب كامي في إدراكه لسجال العام ١٩٥٢ واردا في قصة كليمنصو التي يقول فيها أنه وجد نفسه أسيرا خلف موتوسيكل معطل أمام ضوء المرور الأحمر. وعندما تغير الضوء إلى أخضر رفض راكب الموتوسيكل الركون إلى جانب الطريق وهو يحاول إدارة المحرك. وحاول كليمنصو المهذب أن يدفع راكب الموتوسيكل للركون إلى جانب الطريق فلم يلق منه إلا اللعنات. وبعد أن ضاق كليمنصو بالأمر وعجز عن التفكير خرج من سيارته ليناقش راكب الموتوسيكل، وهو رجل قصير أقصر من

كليمنصو، ولكن ما أذهله أن أحد المارة في الطريق قفز ليدافع عن الآخر بينما انطلق من صف السيارات الطويل عزف أبواق مغيظة. وأحس كليمنصو بالصدمة وعاد إلى سيارته وانطلق. وهكذا بدلا من أن أعلم أي إنسان آخر الدرس «استسلمت لما أصابني من أذى من دون رد، ولكن لا يمكن اتهامي بالجبن. ونظرا إلى أن الدهشة استولت عليه بعد أن بدأ الجانبان يوجهان الكلام إليَّ، اختلط كل شيء في ذهني ووضعت أبواق السيارات اللمسة الأخيرة لحالة الحرج التي ألمت بي». وطبيعي أننا سمعنا هذا في السابق، العام ١٩٥٢، وقت إذلال كامي علانية وعجزه عن الرد.

والجدير بالملاحظة أن الرواية إجمالا تنطلق من، وتمضي إلى تجربة محورية ليست مستمدة من نزاع سارتر ـ كامي، بل إنها كامنة في مجال أعمق من حياة كامي الخاصة. إذ يصف كليمنصو كيف أنه ذات يوم مر بامرأة شابة أثناء سيره فوق أحد جسور باريس الكثيرة ـ وواصل السير وسمع صوت قفزتها إلى الماء، وهنا توقف من دون أن يستدير. «سمعت فجأة صرخة تكررت عدة مرات وهي تغوص إلى قاع النهر، ثم توقفت فجأة». وبعد أن جمد كليمنصو في مكانه لفترة، ومضى في طريقه بعيدا، لم يخبر أحدا بما جرى. أحس بعد ذلك وكأن حياته انهارت، وترك اشتغاله بالقانون، وانتقل أخيرا إلى أمستردام ليستقر في هذه الحانة الرثة، ويقضي بقية أيامه يتهم نفسه، ويدفع الاتهام في قضيته، وتتحرك الرواية بقوة دفع إحساس كليمنصو القوي بالذنب وجهده المتصل للاعتراف، على الرغم من تفادي ذلك، وملاحقتها له، ثم لعبة المرايا التي يسعى من خلالها إلى دفع الآخرين للكشف عن ذنوبهم. وها هنا كليمنصو في آن واحد يمثل الدفاع والادعاء والقاضي. وقرأت فرانسين الرواية، بعد أن أبلت وأصبحت في وضع أفضل إثر محاولتي الانتحار في العام ١٩٥٣ و١٩٥٤، وكان ردها: «أنت مدين لي بهذا العمل».

وطبيعي أن كامي إذ يجعل محور الرواية تواطؤ كليمنصو كشريك في محاولة انتحار المرأة الشابة إنما تجاوز كثيرا نطاق مقارعة اتهامات سارتر وجينسون. إنه يأخذهما مأخذا جادا، ويكشف لنا الآن عن أنه في أثناء أزمته خلال السنوات الأربع الماضية صارع طويلا، وبشكل قاس على النفس، مع انتقاداتهما التي أصاب بعضها الهدف. ونجد أحدها مادة تجسد شخصية وأعمال كليمنصو. ونذكر أن سارتر في العام ١٩٥٢ تحدث عن اتهام كامي للكون ليتجنب الإدانة.

«ارفق بي لأن لي ضميرا يؤنبني (وهو غير صحيح)، ولكن حتى وإن سمم بدني الخزي سوف أشعر بأنني أقل اغترابا وأكثر رحابة عقل منك، إذ لكي تحتفظ بضمير نقي يلزم أن تدين نفسك. مطلوب طرف مذنب، إذا لم تكن أنت، فلابد أن يكون العالم. أنت تنطق بأحكامك والعالم لا ينبس بكلمة. ولكن أحكامك بالإدانة تلغي الواحدة منها الأخرى. لذلك عليك أن تبدأ ثانية لأنك إذا توقفت فسيكون بوسعك أن ترى نفسك. لقد أدنت نفسك لكي تدين، يا سيزيف».

أصبح القضاء جوهر محامي الدفاع. وأدرك كليمنصو على الفور بعد إذلاله بصورة علنية أن حلمه بأن يكون إنسانا كاملا - «نصف سيردان [الفرنسي الجزائري بطل العالم في الملاكمة وزن المتوسط]، ونصف ديغول، إذا شئت القول» - لم يكن قائما على حقائق. لقد تصور نفسه وكأنه شخص يتحلى بالشهامة. «ولكن بعد الضربة التي تلقاها علانية من دون رد فعل لم يعد ممكنا بالنسبة إلى التطلع إلى أن تكون صورتي مثل هذه الصورة». ونتيجة لذلك أتوق إلى القصاص، وأن أضرب وأهزم. وأصبح بطل المتهم هو المدعي أو صاحب الاتهام، «والذي يريد بغض النظر عن جميع القوانين سحق المعتدي وإجباره على الركوع». وبعد انتحار المرأة الشابة وجه حكمه إلى نفسه وراوده شعور بأن أصدقاءه «اصطفوا صفا، وكأنهم وقوف أمام طاولة القضاة. صفوة القول أن اللحظة التي أدركت فيها أن ثمة شيئا بداخلي يستوجب المقاضاة، أدركت أن بداخلهم دافع باطني لا يقاوم لإصدار حكم». وتحدث في المحكمة عن ذنبه هو، ولكن لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد. وأحس كليمنصو أنه خارج مجال اهتمامه المعني «بالحديث عن الأخلاق والأحكام»، وأن هذا خرج به إلى البحث عن وسائل «لتوسيع نطاق الأحكام لتصدق على كل شخص حتى تخف وطأتها عن كاهلي».

وكتب كامي بنفسه «كلمة» هذا الكتاب لتعريف الناشر بالكتاب على الغلاف، وهي كلمة توضح الإستراتيجية المقصودة:

«يقول الراوي في «السقوط» اعترافا محسوبا... لاجئ يعيش في أمستردام، مدينة القنوات والضوء الباهت حيث يدعي أنه ناسك ونبي. وهذا المحامي السابق ينتظر مستمعين يتعاطفون معه في حانة قذرة. صاحب فكر حديث، بمعنى أنه لا يحتمل إصدار

حكم ضده، ومن ثم يتسرع في الادعاء على نفسه، ولكن فقط لإصدار حكم أفضل على الآخرين. ويتطلع لنفسه في مرآة، ولكن ليدفع بها أخيرا تجاه الآخرين. أين يتوقف عن الاعتراف ويبدأ في اتهام الآخرين؟ هل يحاكم الراوي نفسه أم يحاكم عصره؟ هل يمثل قضية خاصة محددة أم أنه هو رجل الساحة؟ ثمة حقيقة واحدة فقط في لعبة المرايا هذه. الألم، وكل ما يعد به».

ترى ما الذي كان يريد كامي من قرائه أن يستخلصوه من لعبة المرايا عند كليمنصو؟ يقول كليمنصو نفسه: «كم هو عسير للغاية فرز الصادق من الزائف فيما أقول. وثمة ناقد أدبي واحد هو جيتان بيكون الذي أوضح أن كامي كان يصارع ضد اتهامه بأنه «روح جميل» الذي دفعه العنف إلى الثورة، وأراد أن يحتفظ بيديه نظيفتين مهما كان الثمن. وقال بيكون «رفض كامي في «الإنسان المتمرد» الثوريين الذين لطخوا أياديهم بينما أطرى على أمثال ريو ورفاقه في «الطاعون»، الذين حرصوا على البقاء متكاملين أخلاقيا مع حربهم ضد الشر في الوقت نفسه».

وبعد وفاة كامي، قالت سيمون دى بوفوار إنها في العام ١٩٥٦ طالعت «السقوط» وفي نفسها قدر كبير من الفضول. وقالت: «أولا تعرفت على كامي الشخص الذي عرفته العام ١٩٤٣: حركاته وإيماءاته وصوته وسحره، صورة دقيقة خالية من أي مبالغة، صورة شخص يتصف بقسوة عرف كيف يخفيها بشكل ما ويخفف منها بما يتصف به من غلو شديد. وتأثرت بعمق للبساطة التي يتحدث بها عن نفسه الآن». ولكن الكتاب تضمن شيئا أغضبها. «ثم فجأة نضب معين الإخلاص. إذ بدأ يموه بشأن إخفاقاته بسلسلة من الحكايات التقليدية، وتحول من دور التائب إلى دور القاضي؛ وأفرغ اعترافه من كل أسباب الألم بأن وظفه صراحة في خدمة ضغائنه».

وإذ سعدت بوفوار بلهجة الاعتراف وبالجانب المستضعف من ذاتية كامي، أحست بقدر من الكآبة إزاء شيء آخر له تأثيره. سبق أن رأينا كامي نفسه ينشئ رابطة صريحة في مذكراته: «التائبون القضاة» الأصلاء هم سارتر و«الوجوديون» بمن فيهم بوفوار نفسها. وضرب كامي على الوتر استجابة إلى رواية «الماندارين». ذلك أنه يقول قبل أن يقدم كليمنصو نفسه مباشرة: إذا أردت أن تعرف فأنا كنت محاميا قبل أن آتي إلى هنا. الآن أنا «تائب ـ قاض».

والجدير ذكره أن الشيء الذي لمحته بوڤوار بالكاد بشأن اهتمامها بالإخلاص الذي جاء في غير موضعه هو أن كليمنصو بدأ وكأنه كامي الذي تعامل مع سارتر وجينسون، ثم اكتسب القسمات المميزة لذاتية كامي شخصيا، ليتحول في النهاية إلى سارتر نفسه! ونذكر هنا أن كامي في العام ١٩٥٧ فسر في مجلة «نيويورك تايمز بوك ريڤيو» أن:

> «الشخصية عندي بناء متطور. ثمة لمسات من مصادر مختلفة. ويمثل الوجوديون مصدر الهوس من أجل اتهام الذات، ولهذا يمكنهم اتهام الآخرين بسهولة. وبدا لي هذا دائما حيلة صغيرة مفرطة القذارة، إنها ما يصدمني أكثر من أي شيء في أنشطة هؤلاء السادة. وينتهي دائما الولع بالاتهام بالدفاع عن العبودية التي هي القضية المباشرة للوجودية».

إن من عرفوا سجل سارتر أيام الحرب، وقرأوا مقاله في فترة ما بعد الحرب «باريس تحت الاحتلال»، والذي يصف فيه المقاومة باعتبارها «الحل الفردي» الرمزي، وكذلك كل من يذكرون أن سارتر حمل لقب «بابا» الوجودية بعد التحرير، كل هؤلاء لابد أن رأوا سارتر في شخصية كليمنصو. ويحكي لنا كليمنصو أنه جُنِّد إبان الحرب، ولكن «لم أستوعب العمل قط». وبعد سقوط فرنسا أخذ سبيله عائدا إلى باريس، ثم سافر إلى المنطقة غير المحتلة، ربما للاشتراك مع المقاومة. «أذهلتني المهمة باعتبارها جنونا غير ذي خطر، أو في كلمة واحدة: رومانسية». ونظرا إلى إعجابي ببطولة أصحابها وإن كنت عاجزا عن محاكاتهم، عبرت إلى شمال أفريقيا، وعندي نية غامضة للذهاب إلى لندن». ويتطابق الجزء الأول من الوصف مع سارتر، على الرغم من أن جينسون هو الذي حاول الوصول إلى فرنسا الحرة، ولكن اعتقلته السلطات في إسبانيا. وحين قبض الألمان على صديق كليمنصو المشترك مع المقاومة، تم القبض على كليمنصو أيضا. وأرسلت السلطات الاثنين إلى معسكر اعتقال، حيث توج فرنسي مخبول كليمنصو بابا، وتعاون معه في ذلك الآخرون «على سبيل المزاح مع قدر من الجدية أيضا». ولعب كليمنصو دور البابا على نحو جاد.

يحاكي كليمنصو سارتر: إذ نلحظ منذ البداية ذرابة لسان كليمنصو في الحديث على نحو يذكرنا جيدا بسارتر وقدرته اللانهائية على الكلام باستفاضة على عكس كامي، فإنه أكثر تحكما في انتقائه للكلمات. ولكن كليمنصو بعدما

أحس بالخزي علانية أصبح على الفور مشغولا بإصدار أحكام والمراوغة للإفلات منها. ويتحول اعتراف كامي عند كليمنصو في وصف «مهنة التائب ـ القاضي»، إلى اعتراف سارتر الذي تبينه كامي بوضوح في «عزيزي كامي».

«لا تأخذ على سبيل المزاح تلك الفترة التي حدثتك عنها طويلا على مدى خمسة أيام. لا، فقد اعتدت في الماضي أن أتكلم كلاما كثيرا غير منطقي. والآن فإن لكلماتي هدفا. وإن هدفها واضح وهو إسكات الضحك، وتجنب إصدار حكم شخصي على الرغم مما يبدو ظاهريا أنه لا مهرب. أليس الشيء المهم الذي يعوق سبيلنا إلى الهرب هو واقع أننا أول من يدين أنفسنا؟ لذلك فإن الشيء الضروري هو أن نبدأ بتوسيع نطاق الإدانة لتشمل الجميع، دون تمييز، حتى يبدو منذ البداية رقيقا خفيفا».

يحدد بعد ذلك كليمنصو جوهر تأملات كامي عن الوجودية على مدى السنوات الماضية، وذلك في «باروديا»، أي حديث ساخر يحاكي سارتر، يعرض فيه فكرة سارتر عن المسؤولية على نحو يذكرنا بكتابي «الوجود والعدم» و«لا مفر».

«لا معاذير لأحد، هذا هو مبدئي منذ البداية. لا صحة عندي للنية الطيبة والخطأ الجدير بالتقدير، والحماقة والظرف الذي يستلزم التلطيف. ولا مجال عندي لمنح غفران أو بركة. كل شيء يتراكم ويزداد، ثم: «يصبح أكثر من اللازم. أنت آثم فاسق، كذوب بطبيعتك، شاذ جنسيا، وفنان... إلخ». تماما على هذا النحو. تبدو مسطحا بغير معنى. في الفلسفة وفي السياسة، أنا مع أي نظرية ترفض منح إنسان البراءة، ومع أي نظرية تعامله كمذنب. ها أنت، يا صديقي العزيز جدا، ترى في مدافعا مستنيرا عن العبودية».

بعد أن ضمن كامي كلمتي (فاسق، وفنان) بين التصنيفات المستمدة بصورة أخرى وعلى نحو مباشر من «الوجود والعدم»، يذكر كليمنصو الآن الوقت عندما «كنت دائم الحديث عن الحرية. اعتدت مع الإفطار أن أبسطها على سطح الخبز المحمص لآكله، واعتدت أن ألوكها طوال اليوم، وحرصت على أن يحمل تنفسي عطر الحرية. وأستطيع بفضل هذه الكلمة المفتاح أن أقهر كل من يناقضني: جعلتها تخدم أغراضي وسلطاتي». ولم تغب عن ذهن كامي حقيقة أن سارتر أجرى عدة مخاطر حقيقية خاصة إذا ما قارناه بكامي. ويقول كليمنصو إنه دافع

عن الحرية «مرتين أو ثلاث مرات دون التمادي حتى الموت دفاعا عنها، ولكنني خاطرت من أجلها عدة مرات». ويمضي فيلسوف الحرية ليصف جاذبيته للعبودية وينتهي بتذكر أول تعليق لكامي على كتابه بعد الانفجار العام. ويقول كليمنصو إن من يبالغون في إطراء الحرية عليهم أن يتدبروا أمر أنفسهم، وماداموا لا يريدون الحرية أو أحكامها، فإنهم يطلبون من يضرب على أصابعهم، ويخترعون قواعد مروعة، ويندفعون لتكوين حزم العصي بديلا عن بناء الكنائس. ولكنهم وحدهم المؤمنون بالخطيئة دون النعمة الإلهية. ويرى كامي أن وجودية سارتر قادت إلى العبودية الشيوعية، وها هو الآن كليمنصو المؤمن بالحرية «قرر خلسة ضرورة التخلي عنها دون إبطاء لأي عابر سبيل».

وبعد أن فرغ كليمنصو من اعترافه بما في ذلك رواية قصته بشأن سرقة اللوحة، يتجه إلى مخاطبه وينصب شركه «ثم احك لي من فضلك ما حدث لك عندما كنت ذات ليلة على رصيف ميناء نهر السين، وكيف تدبرت أمرك بحيث لا تخاطر بحياتك». ويلقي كامي بقارئه في الجحيم كما اعترف بذلك النقاد الأوائل. ويوضح الرابطة القائمة صراحة على لسان كليمنصو في حرارة مع نفسه:

> «هل لحظت أن قنوات أمستردام المتحدة المركز تشبه دوائر الجحيم؟ جحيم البورجوازية المسكونة بطبيعة الحال بأحلام شريرة. حين يأتيها وافد من الخارج ويمر كما هي العادة تدريجيا عبر تلك الدوائر، فإن الحياة ـ وبالتالي جرائمها ـ تغدو أكثر كثافة وعتامة. وها نحن الآن في الدائرة الأخيرة. دائرة... آه، هل تعرفها؟»

ويتذكر محاور كليمنصو كوميديا دانتي، ويحاول أن يجيب ويقول إن آخر دوائر الجحيم عند دانتي كانت محجوزة للخونة. خان كامي زوجته، وخان سارتر كامي، كل خان أصدقاءه وما أكثرهم، وخان دعاواه بسبب الغرور والجبن والنفاق. ويستطرد كليمنصو في مونولوجه الموجع بلا نهاية، والمشحون بتعذيب الذات، ويجذب من خلاله قارئه إلى هذا الجحيم.

إنها رؤية كابية كما وعد كامي. وعمد، لكي يبدعها، إلى الغوص في قطيعته مع سارتر، وتعميم ما رآه خاصا بسارتر وخياناته، وبيان الصلة الوثيقة بين نزاعهما والإنسانية جمعاء. واستطاع كامي كذلك بفضل هذه الرواية القاسية أن يتحدى أعظم تصور معاصر للجحيم، الذي عرفه خلال التجارب التي أجريت في غرفة بوفوار في الفندق في أثناء الشتاء الأخير لفترة الاحتلال. وأراد كامي

منافسة مسرحية «لا مفر» لما تتسم به من خلود، فأبدع جحيما عصريا تماما للخونة والمنافقين وصناع الكلمة المتحذلقين والإنسانيين السياسيين الذين يضلون سبيلهم في كل لحظة ويحاولون الإفلات من أحكامهم الذاتية على أنفسهم. ولكن على الرغم من اعتراف كليمنصو، وبسبب هذا الاعتراف، فإنه يفتقر إلى أدنى أمل في الخلاص، ويتحول إلى شرير يائس. وينجح كشخصية معقدة متعددة الشرائح لأنه حي، ويشق طريقه داخل الوعي بكل ما فيه من قوة، ووعيه الذاتي، وادعاءاته، وأمانته، وذنبه، وسوء طويته. وهكذا بعد صمت كامي الأليم سنوات أصبحت الرواية انتصارا إبداعيا، انتصار الروح - وقصاصا في الآن نفسه، وفهما ذاتيا ورؤية حديثة للإدانة.

* * *

أعتقد أن الأمر لم يكن من قبيل التوافق العرضي في أن يكون العام ١٩٥٦ هو أيضا العام الذي عاد فيه سارتر إلى نفسه. لقد بدأ عامه بتحيات رفيق طريق بمناسبة العام الجديد في صحيفة برافدا تحت عنوان «أصدقاؤنا السوفييت». ثم بدأت الأحداث التاريخية تحقق آثارها. الجزائر أولا: ورأينا في قاعة صال واجرام في ٢٧ يناير تأكيده الذاتي المتنامي كمفكر ماركسي مستقل عن الحزب الشيوعي. إذ شرع سارتر وآخرون في تعبئة الرأي العام ضد الحرب، وتخلى موليه عن وعده بالتحرك في اتجاه السلم بعد أن قذفه الفرنسيون الجزائريون الغاضبون بالطماطم في أثناء زيارته للجزائر في فبراير. وأجازت الجمعية الوطنية اقتراح موليه بمنحه سلطات استثنائية، ومن ثم بدأ في تصعيد الحرب دون هوادة. وبدأت معركة الجزائر في سبتمبر.

ولم تكن الأحداث في العالم السوفييتي أقل إثارة. إذ في شهر فبراير ألقى خروشوف «الخطاب السري» الذي فضح جرائم ستالين. ها هو ستالين الذي ظل موضع توقير على مدى خمسة وعشرين عاما يتنصل منه السوفييت أنفسهم ومن «عبادة الفرد». ومن ثم إلى أي مدى بعد ذلك يمكن للشيوعيين التظاهر بعدم المبالاة إزاء الحمية الأخلاقية التي انتقد على أساسها اليسار المستقل ومعهم كثيرون من الكاثوليك الحرب الجزائرية؟ متى يحين الوقت الذي يعبر فيه الشيوعيون عن غضبهم، وقد شعروا بعد طول انتظار بأن لديهم إمكان التحدث ضد الستالينية؟ ووجد يسار الحزب فسحة أمامه. وأحست فرنسا مثلما أحس الشيوعيون بالاستفزاز. ماذا عسى أن يقول ويفعل سارتر العظيم الذي اختار

الحزب باعتباره الصوت الوحيد الفعال المعبر عن المقهورين، وقد احتجب صوته زمنا طويلا؟ وفي صيف العام ١٩٥٦ أضافت رواية كامي الجديدة عنصرا جديدا إلى المزيج القابل للاشتعال.

عرف سارتر بصدورها، وتكلم على الفور، وقال: «السقوط» إحدى الروائع ـ رواية كشف فيها كامي نفسه تماما مثلما أخفاها تماما في آن واحد. وبعد ذلك، في أثناء كلمته لتأبين كامي، قال عنها «ربما كانت أجمل كتب كامي وأقلها فهما». وإذا كان قد فهمها على حقيقتها فإنه دون شك قد رأى نفسه وقد وضعه كامي على السفود. ولعله رأي في كليمنصو ردا على وعده الخاص في «عزيزي كامي»، ويأتي اليوم الذي فيه «أتحدث بنفسي وباللهجة ذاتها» التي استخدمها سارتر في وصف كامي. لقد عرف أن كامي يتحدث عن رسالته عندما يتهم كليمنصو نفسه «من كل النواحي، فوق وتحت»، ولكن، كما يقول كليمنصو «دون أن يضرب وحشي بقسوة». لا، أنني أبحر بمهارة، أضاعف الكم بما أقدمه من تفرقة واستطرادات، أيضا ـ باختصار ـ إنني ألائم كلماتي مع المستمع إلي، وأقوده ليعود إليّ أفضل».

والجدير ذكره أن بيكون في عرضه النقدي في يوليو ١٩٥٦، كان الوحيد أيضا الذي أدرك أن كامي ضاعف المحاذير في موضوع سارتر ـ كامي. وأشار بيكون، دون ذكر اسم أي منهما، أن سارتر وجينسون اعترفا صراحة باستخدام وسائل هذا العالم الرهيب لبناء عالم أفضل. لقد أراد كليمنصو تعميق الحوار، فعمد إلى نخسهما باعتباره شخصا ذا نوايا إنسانية وأصبح متواطئا مع الشر. ويبحث كليمنصو بعد ذلك عن وسيلة لإزالة رائحة الشر وذلك باتهام الآخرين، وإذا به يصبح شرا كاملا. إنه يتخلى عن حريته وينذر نفسه لوضع شباك للآخرين. ولكن نزعته التشاؤمية الأخيرة لا تخص كامي: إذ يقول بيكون موضحا ذلك، واضح أن عرض كامي للمشكلة هو التماس لمخرج يتجاوز كلا من «الأيدي القذرة» لسارتر و«يديه النظيفتين» هو بشكل عمدي مقصود.

هل أثر كامي الآن في سارتر؟ سبق أن رأينا سارتر يعترف بأنه أغفل «حكمه الخاص الأفضل»، وأنه «كف جميع الأفكار عن الأخلاق» بضع سنين. ومع انتهاء العام ١٩٥٦ لم يكن فقط في مواجهة انتقادات من أصدقاء سابقين وخصوم جدد، بل في مواجهة العالم نفسه الذي يتغير تحت قدميه. وتحول الراديكاليون غير الشيوعيين إلى قوة سياسية نظرا إلى تلكؤ موقف الحزب من الجزائر. ما هو «الواقعي» الآن؟ في خريف هذا العام، ومع غزو السوفييت للمجر، بدأ سارتر بغتة يرى الأمور على نحو مختلف.

وأجرت مجلة الـ «إكسبريس» حوارا مع سارتر، بينما كان القتال لا يزال جاريا في بودابست. وأعلن سارتر موقفه الجديد تجاه الاتحاد السوفييتي. «آسف تماما، ولكني بصدد قطع علاقاتى تماما مع أصدقائي من الكتاب الروس الذين لا يدينون (أو هم عاجزون عن إدانة) المذبحة المجرية. لم يعد بالإمكان أن أتخذ موقفا وديا تجاه العصبة الحاكمة من البيروقراطية السوفييتية». وبدا نقده اللاذع مثيرا للغاية في نظر قادة الحزب الفرنسي الذين برروا الغزو: «ليس بالإمكان، ولن يكون بالإمكان أبدا إعادة تأسيس علاقات مع من يقودون الحزب الشيوعي الفرنسي الآن. إن كل جملة نطقوا بها، وكل إيماءات أشاروا بها هي النهاية لثلاثين عاما من الكذب وتصلب الشرايين».

وأحيط سارتر علما بالمزيد عن أحداث المجر، وبناء عليه أكمل ما كان بسببيله أن يصبح اختراقا سياسيا وأيضا شخصيا. ونشرت مجلة «الأزمنة الحديثة» عددا مؤلفا من ثلاثة أجزاء في ٤٨٧ صفحة عن انتفاضة المجر، متضمنا تعليقات بأقلام عشرات المجريين. وكتب سارتر مقدمة هذا العدد بقلمه في دراسة من ١٢٠ صفحة تحت عنوان «شبح ستالين». وهكذا كان إعلانه الاستقلال بعد أربع سنوات من التلمذة للماركسية والشيوعية. وظل سارتر على إيمانه بأن «الشيوعية تظهر لنا ـ على الرغم من كل ما حدث ـ لتكون هي الحركة الوحيدة التي تحمل في داخلها إمكان أن تقود إلى الاشتراكية». بيد أن الأمانة هي السبيل الوحيد للوصول إلى أهدافها. وهكذا انتهت أيام الرقابة الذاتية والواقعية في حياة سارتر.

وتهلل لاستقلاله وكأنه وجد أخيرا الساحة الأخلاقية والسياسية التي يمكنه أن يرتاح إليها، وأن يكون هو ذاتَه بكل الصدق. وعاد سارتر إلى الحوار القديم عن الوسائل والغايات، موجها طعنة نجلاء إلى جميع الأطراف بمن فيهم كامي: «نحن ممن يقولون: الغاية تبرر الوسيلة؛ بيد أننا نضيف تصحيحا لا غنى عنه: هذه الوسائل تحدد الغاية».

وإذ عاد سارتر إلى الأخلاق، فقد عمد إلى دمجها في التزاماته الفكرية والسياسية الأكثر حداثة في فكره. وأدان الغزو السوفييتي للمجر لأنه هجوم على المقهورين، ولأنه دمر فرص الاشتراكية الجديرة بأن نسميها كذلك. ويوضح في القصة التالية قوة العمال المجريين حتى في هزيمتهم:

«بعد سحق الانتفاضة في ٦ نوفمبر، تحدث عبر إذاعة بودابست ممثل للجان الصناعة مطالبا زملاءه بالعودة إلى العمل بشروط. تحدث وكأنه غاز وفي نفسه كبرياء مثيرة للعجب. يجب إنهاء الإضراب لكي نذهب لمساعدة سكان بودابست. وسوف نستأنف الإضراب مباشرة إذا لم تستجب السلطات لمطالب المضربين. وأضاف الكلمات التالية وهو داخل مبنى يعج بقوات الشرطة، وفي مدينة تملأ شوارعها دوريات الدبابات الروسية: «العالم كله يعرف قوتنا».

عانى سارتر مشقة دحض تفكير زملائه السابقين في الحزب الشيوعي الفرنسي الذين برروا الغزو، وعمد إلى إبراز الدور المحوري الذي تؤديه المخاطرة والاحتمالات الطارئة والاختيار: «ليس من حق أحد أن يقول إن أحداث المجر جعلت التدخل العسكري أمرا حتميا». والحقيقة أن سارتر الذي أعلن فطامه قسرا على تورطه مع الضرورة، رأى أن الدرس الكاشف والأهم هو الذي تعلمه من غزو المجر ويدور حول الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها الزعماء السوفييت».

وهكذا فإن عبقرية سارتر الأصيلة والعريقة في الفلسفة وفي الأخلاق وفي الخطابة والمحاجاة عادت إليها الحياة قرينة إحساس جديد بالواقعية التاريخية، ومعها ولعه بالعمل لمصلحة المقهورين. وقادته هذه العاطفة العام ١٩٥٢ لتأييد الحزب، وقادته العام ١٩٥٧ لمهاجمة الحزب باعتباره «أداة تعاني من تصلب الشرايين الذي أعجزها عن حشد أعضاء جدد من الشباب». بيد أنه كان لا يزال يؤكد أن الاتحاد السوفييتي كان، وبوسعه أن يكون ثانية، قوة دافعة إلى الاشتراكية. «هل لابد للاشتراكية أن تكون هذا الوحش الدموي الذي يقطع أوصال نفسه إلى أشلاء؟ أجيب في غير تحيز: نعم. هكذا كانت الاشتراكية حتى في طورها البدائي. لم يكن هناك بديل آخر، ربما غير مدينة أفلاطون الفاضلة في السماء، وعلينا أن ننشدها بحالها كما هي أو نعزف عنها تماما».

* * *

استهل «شبح ستالين» أهم فترة مثيرة في حياة سارتر. ونراه الآن، وقد ناهز الخمسين من العمر، ونظر العالم إليه منذ زمن طويل باعتباره واحدا من أعظم مفكري العالم يتفجر نشاطا سياسيا وإبداعيا. ومثلما تخلص كامي من آثار القطيعة، وقاده هذا إلى جائزة نوبل في الآداب، كذلك فإن قطيعة سارتر

مع الشيوعية أفضت به إلى سلسلة مذهلة من الأعمال التي أكسبته العام ١٩٦٤ الجائزة نفسها. وظل سارتر طوال هذه الفترة وحتى نهاية حياته يتصرف ويفكر على نحو غير مألوف لأي مفكر معاصر. خرج من الفلك الشيوعي وأصبح يشعر بقدر من الخزي تجاوز ما كان في العام ١٩٤٥ أو العام ١٩٥٢. ورفض أن يكون «متعقلا» أو «واقعيا»، وإنما أصبح دعامة لغضب ثوري باسم المقهورين. ونبذ متطلبات شهرته ولم يأخذ نفسه على نحو جدي مفرط. وإنما ظل سارتر متصلبا إزاء النظام الرسمي حتى النفس الأخير. واحتفظ سارتر بحيويته حتى بعد أن أصبح كهلا، وعلى الرغم من مظاهر الضعف الكثيرة التي اعتورته، كما احتفظ بجاذبية كبيرة لدى الشباب. وارتكب أخطاء، ربما أمورا غبية وأحادية الجانب، ولكنه ظل جسورا لا يخشى المخاطرة بشهرته بل وبأمن حياته. وبعد أن وجد طريقة إلى التاريخ، لم يفقد أبدا اتصاله مع زمانه: وناضل لينتزع أسلوبه من أجل التزام سياسي فعال، وظل ملتزما حتى بعد أن كف بصره بغتة. وبعد أن فقد دوره ثم استعاده ثانية ظل، على غير ما هو متوقع، مستقلا حتى وافته المنية.

والجدير ذكره أن سارتر على مدى السنوات العشر التالية، وبأسلوبه الذي تفرد به، كان يشبه الصورة التي اصطنعها سارتر عن كامي القدوة بعد التحرير. ومثلما كان كامي من العام ١٩٤٤ وحتى العام ١٩٤٧، كذلك كان سارتر بعد العام ١٩٥٧ «الرابطة المثيرة لشخص جامع للنشاط والعمل». وأصبح سارتر الآن قوة سياسية مستقلة رئيسية، يتحدث إلى الأحزاب السياسية دون حاجة إلى الانتماء إلى أي منها. وأصبح له حضوره المعنوي، وآراؤه التي تحظى بالاعتبار من خلال تعليقاته الحرة على القضايا الراهنة. وجمع بين الفلسفة والسياسة والأدب في دور واحد اتسم بالعمق وتفادي الخطأ.

وحقق سارتر لنفسه مكانة غير عادية كماركسي خلال هذه الفترة. وأرادت بولندا تحاشي مصير المجر لذا شرعت في أكتوبر في التفاوض التماسا لطريقها من أجل حكومة قومية بزعامة جومولكا، والذي شجع على ما يسمى «ربيع بولندا» العام ١٩٥٧. وأرادت صحيفة بولندية مسايرة الانفتاح الجديد فدعت سارتر لكتابة مقال عن الوضع الراهن للوجودية. وكتب مقالا أصبح يحمل فيما بعد عنوان «البحث عن منهج». وطور سارتر فيه موضوعين متناقضين ظاهريا، وهما أن الماركسية كفت عن التطور، وأنها كانت «فلسفة عصرنا» ويجب على

الوجودية أن تواصل بقاءها كأيديولوجية شبه مستقلة داخل الماركسية، وفي موازاتها إلى حين يبدأ «الماركسيون الكسالى» في استخدام أقوى الأدوات المتاحة لهم وإلى أن، وهو الأهم، تحقق الماركسية العدالة.

ها هنا كان سارتر نفسه يكتب كمرجع غير حزبي عن الماركسية. وشرع يستخدم الأدوات الماركسية ـ التي استثمرها في كتابة السيرة الذاتية لفلوبير (*) ـ لبيان كيف أن فردا بذاته يمكن فهمه من خلال قراراته الاجتماعية. ومضى خطوة أبعد وطرح بعض الموضوعات الرئيسية الخاصة بالمنهج تقديرا لكل من الوجود الاجتماعي للفرد وتقرير مصيره. وأضحت أفكاره جوهرية لجهود المستقبل الرامية إلى تطوير التيارات الماركسية غير الشيوعية خاصة خلال الستينيات والسبعينيات. وعكف سارتر دون توقف على كتابة «نقد العقل الجدلي»، والذي يعتبر مقال «البحث عن منهج» بمنزلة مقدمة له. ونراه في هذا الكتاب يرسي الدعائم الفلسفية للماركسية، ثم يحاول فهم الأسباب السياسية والتاريخية التي أدت إلى توقف الماركسية عن التطور. إنه بذلك كان يحاول أن يفهم الستالينية. ويقدم سارتر في المجلد الثاني من كتاب «نقد العقل الجدلي» إجابة كاملة على كتاب كامي «الإنسان المتمرد»: شرور الشيوعية ليس سببها مشروعا عنيدا، بل سببها على الأصح بحث الثورة البلشفية عن سبيل للبقاء في وضع مستحيل.

والجدير ذكره أنه على مدى هذه السنوات، وهي سنوات صراع تحرر وطني وسلبية شيوعية، حول كثيرون من مثقفي الجناح اليساري الأوروبي، من أمثال سارتر، بؤرة اهتمامهم من آمال الطبقة العاملة إلى آمال شعوب المستعمرات. وأصبح سارتر المتحدث الرئيسي الأوروبي باسم العالم الثالث بفضل غضبه وخطابه البليغ ومزجه الحر بين الماركسية والأخلاق. وأصبحت هذه القضية همه السياسي الأكبر من «الاستعمار كنظام» إلى نشاطه مع محكمة جرائم الحرب الدولية (التي انعقدت مع برتراند رسل)، والتي عبر عن نتائجها في كتابه عن «الإبادة الجماعية».

وكان من ثمار التدفق الإبداعي والسياسي الجديد لسارتر مسرحية «مجرم الطونا»، وتجري أحداثها في ألمانيا بعد الحرب بهدف التركيز الدرامي على قضية أساسية تتعلق بالحرب الفرنسية في الجزائر ومسألة التعذيب. هنا يمثل

(*) فلوبير Floubert : أديب فرنسي واقعي (١٨٢١ ـ ١٨٨٠)، مؤلف رواية «مدام بوفاري» [المحرر].

بيت عائلة جيرلاك جحيما جديدا حيث الابن الأكبر فرانز، وهو كابتن سابق، حبس نفسه في غرفته لكي يهرب من إحساسه بالذنب بسبب تعذيبه وقتل بعض الأنصار على الجبهة الشرقية. وثمة أربعة آخرون محبوسون داخل هذا الجحيم: العجوز جيرلاك، رئيس أحواض السفن المملوكة للأسرة في الطونا؛ ولينى أخت فرانز، والأخ فيرنر، وجوانا زوجة فيرنر. ونلحظ أن موضوعات الشعور بالذنب، والمسؤولية والحكم والتهرب، مثلما هي الحال في «لا مفر» و«السقوط»، هي لب المسرحية، وهي بالكامل وسيلة لاستخدام الآخرين كمرآة لحكم المرء على نفسه والمناورة كوسيلة للتهرب.

واتهم كامي سارتر بأنه يلوم الآخرين ليهرب هو من الإدانة، ولكن سارتر قلب عليه الطاولة. وهنا يلوم فرانز القرن الذي يعيش فيه. ويغدو الادعاء والدفاع في خطابين يسجلهما ويعيد سماعهما. ولكنه على خلاف كليمنصو ينهي محاولات التهرب ويقدم اعترافا كاملا إلى جوانا. وترى أن لا مجال للصفح عنه، ويدفع هو الثمن لمواجهة ماضيه في شفافية بأن يلقى حتفه مع أبيه. ولم يكن العجوز جيرلاك أقل إثما، إذ تعاون مع النازي لأنه تنبأ بحكم كونه واقعيا ساخرا، أن مشروعه لبناء السفن سوف يبقى بعد زوال النظام، وسوف يواصل نجاحه. وإذا كان كليمنصو يقدم لنا كامي الذي يستوعب في آن واحد نقد سارتر ويقبل «الأيدي القذرة»، فإن فرانز يقدم كليمنصو الذي بات عاجزا عن المناورة مع تواطؤ الآخرين مستخدما لعبة المرايا، ومن ثم أصبح مرغما على مواجهة الإثم.

ويمضي سارتر خطوة أخرى تتجاوز رواية «السقوط»: القرن أيضا مذنب. أو لنقل بعبارة أصح أن النظام الاقتصادي الرأسمالي يفرض متطلباته على من يظنون أنهم يديرونه؛ وإن نظمه السياسية والعسكرية تخلق «جرائم معدة مسبقا وفي انتظار مجرميها». وإذا كان الابن البكر العقيم، ابن الأسرة القوية المدعو فرانز يكتشف أن «الحرب قدري ومصيري»، فإن سارتر يندد بقوة بالسياسات وبالنظم التي تسقط كل إحساس بالمسؤولية لدى أفراد من أمثال فرانز، بينما تعهد إليهم بمهام سرية وغير إنسانية. وتنتهي المسرحية بفرانز وأبيه يمضيان ليلقيا منيتهما بعيدا عن أنظار الجمهور بينما جوانا وفيرنر يتمتعان بحرية ليعيشا حياتهما، وتغلق ليني على نفسها باب غرفة أخيها بينما شريط التسجيل يعيد إذاعة نداء فرانز إلى القرن الثلاثين ليبرئ ساحة القرن الذي يعيش هو فيه.

إن مسرحية «مجرم الطونا» تتحدث عن أشياء كثيرة في وقت واحد. صورة لبعض من أسوأ قسمات القرن؛ ورؤية تأملية جديدة عن التعذيب، وهي فكرة شغلت سارتر لسنوات عدة؛ وهجوم حاد على سلوك فرنسا في الحرب الجزائرية (إذ يرمز فرانز إلى فرنسا)؛ واتهام موجه إلى الرأسمالية، وعرض درامي لاستبصارات نافذة في ما هو اجتماعي وفردي وسبق أن عرضهما سارتر إجمالا في «البحث عن منهج». ويبدو أن سارتر إذ يبني جحيما عصريا إنما يعيد تفكيره بشأن مسرحية «لا مفر» في ضوء كل ما تعلمه وما فعله على مدى السنوات الخمس عشرة منذ ظهور هذا العمل. وعلى الرغم من أنه لا يقتبس كلمات من «السقوط»، ليعيدها كما هي في «مجرم الطونا»، وهي من أهم أعماله، إلا أنه كما يبدو يشغله عمل من أعظم أعمال كامي. ويمكن القول بعيدا عن نزاعهما ونتائجه المروعة أن سارتر وكامي ظلا مرتبطين في المرحلة التالية من حياتهما الإبداعية. ولعل من المهم بيان أن «مجرم الطونا» ـ وهي أغنى ما أثمرته عملية تحرر سارتر من الواقعية المقيتة والتي هاجم بسببها كامي ـ هي بوضعها هذا رد على «السقوط»، الرواية التي حرر فيها كامي نفسه من آثار هجوم سارتر عليه.

10

لامفر

شق كل من سارتر وكامي طريقه متجاوزا آثار القطيعة بينهما، وعاد كل إلى نفسه كاملا. وانتقد كل منهما الغزو السوفييتي للمجر، كما خفت حدة أسوأ التوترات التي شهدتها الحرب الباردة. وتخيلت بوفوار عقد مصالحة خيالية بين الصديقين السابقين تماما مثلما أصبح هنري صهرا لآن وروبرت. ولكي نكون أكثر واقعية نقول إن سارتر وميرلو ـ بونتي لم يكونا أبدا قريبين جدا من بعضهما شأن سارتر وكامي، لكنهما تباعدا بسبب «الغلو البلشفي» عند سارتر، ووجدا نفسيهما في مارس ١٩٥٦ على طاولة المتحدثين في مؤتمر في فينيسيا يرأسه أغناتسيو سيلون. وأدرك سارتر إلى أي مدى لا يزال هناك ما يجمع بينه وبين زميل الدراسة القديم، وبدأ سارتر محاولة لإعادة الارتباط بينهما. وظلت هذه المحاولة متصلة إلى حين وفاة ميرلو ـ بونتي العام ١٩٦١. وأليس لنا أن نتصور أن سارتر وكامي اللذين

«إنني أؤمن بالعدالة، ولكنني سأدافع عن أمي قبل دفاعي عن العدالة»

كامي

يحتفظان بعلاقتهما مع دار غاليمار، ولا يزالان يسكنان الحي اللاتيني في باريس، يمكن أن يلتقيا مصادفة ويقدم كل إلى الآخر تحية على حياء وأن يلاحق هذا أو ذاك الآخر بمذكرة؟

إن مذكرة روبرت إلى هنري في «الماندارين» توضح بعضا من القضايا الشخصية التي كان يتعين بحثها. «قرأت توا رسالة وداعك إلى صحيفة «لسبوار». إنه لعبث حقا أن يؤدي موقفنا فقط إلى تفاقم ما بيننا من اختلافات، بينما أمور كثيرة تدفعنا إلى أن نتلاقى. أما عن نفسي فأنا لا أزال صديقك». وهنا تقتبس بوفوار بجرأة من رسالة سارتر عن القطيعة لتبتكر إيماءة روبرت من أجل المصالحة، وتغير الفعل الماضي (دفع) إلى فعل مضارع (تدفع). ولابد من أن هذا أثار ثائرة كامي. لقد تحمل هجوم جينسون على فكره وحكمته السياسية، كما تحمل دور سارتر في تمزيق شخصيته في أواخر العام ١٩٥٤. وتعاملت بوفوار مع التزامه السياسي وحياته الشخصية كمادة تعود عليها بالفائدة. وحيث إنه يعيش في مأزق التوقف عن الكتابة، فقد خلص إلى نتيجة، وهي أن سارتر ورفيقته قد يستخدمان أي شيء ضده بما في ذلك عواطف سارتر السابقة نحوه.

وصارع كامي بحلول العام ١٩٥٦ للعودة إلى سيرته الأولى، بيد أنه لن يغفر لسارتر ما اقترفه ضده شخصيا. وبدأ في العام ١٩٥٥ يشعر أكثر بالثقة بنفسه. وتحدث كامي علانية عن غدر سارتر. ونجد في رواية «السقوط» البعد السارتري الذي يجسده كليمنصو يوجز سوء الطوية. وإن ما هو أسوأ أن كليمنصو يسعى ليوقع الآخرين في شرك ويعذبهم. إنه التجسيد العصري للشيطان. وعلى الرغم من مزج عناصر شخصيتي سارتر وكامي في شخصية كليمنصو، أصبح سارتر بالنسبة إلى كامي الشخص الذي يكن له أعظم الكره، والصورة السلبية لإحساس كامي بنفسه ـ إنه الآخر بالنسبة إليه.

وعلى الرغم من أن الاختلافات بينهما كانت تجعل أحدهما يكمل الآخر، فإنهما منذ القطيعة أصبح كل منهما يضع الآخر في صورة المثال الذي لم يختره لنفسه. ودان كامي سارتر نصف المختلق ونصف الواقعي: موال للسوفييت، عنيف، منافق، مفكر نظري تجريدي، يهاب الموت، سطحي في استخدام الكلمات والمفاهيم، مفتون بهيغل وماركس والتاريخ كقوة غيبية، عازف عن المخاطرة، يلوم الآخرين ليخفي آثامه هو، غادر، يطلق هراء عن

الحرية بينما يجيز القهر، بورجوازي، باريسي، صاحب امتيازات. وأقام كامي ذاتا شخصية وأخلاقية وسياسية حول معارضته للأشخاص الذين يشتركون في هذه السمات: «المثقفين اليساريين»، أو «الوجوديين». لقد ظهر استقطاب الحرب الباردة قرين استقطابات شخصية. ولكن ما أن بدأت الحرب الباردة في الذوبان، حتى ظهر نزاع جديد فرض نفسه ـ وهو الحرب الجزائرية.

* * *

وخلال العام ١٩٥٦ تزايد عدد رجال المقاومة في جبهة التحرير الوطنية من حوالي ٦ آلاف إلى ٢٠ ألف مقاتل، بينما زادت القوات الفرنسية في الجزائر من ١٨٠ ألفا إلى ٤٠٠ ألف. خلق هذا حاجة ملحة هي التوقف عن مواجهة الموقف بمزيد من جنود الاحتياط؛ وبذا أصبح جنود الجيش العاملين ضرورة. وبدأت مرحلة جديدة في حرب الجزائر مع نهاية شهر سبتمبر، وبعد أن قصف مقاتلو جبهة التحرير بالقنابل ميلك ـ بار والكافيتريا. وبدأ الثوار يتجهون إلى مهاجمة المدنيين، وكان الرد الفرنسي هو التعذيب والإرهاب ـ تماما ما حاول كامي تفاديه. وكانت السلطات الفرنسية العسكرية لا تزال تحاول خلق منطقة وسطى بينهم وبين جبهة التحرير وأن تشغلها بجزائريين مقبولين من الطرفين. ولكن على الرغم من هذا كانت القوة الغشوم هي الوسيلة الاستعمارية التقليدية للهيمنة على الموقف. وهكذا حولوا وبشكل حتمي المواطنين ضدهم. وحدث في أكتوبر أن اعترض الجيش طائرة مغربية في الجو في طريقها إلى تونس وعلى متنها أحمد بن بيلا وآخرون من قادة جبهة التحرير. وسجنتهم السلطات في سجون فرنسا طوال فترة الصراع. وبدت هذه الضربة العسكرية الرائعة بمنزلة كارثة سياسية، إذ قضت على الأمل في الوصول إلى حل عن طريق التفاوض. علاوة على هذا أن الجزائريين الذين لا يزالون يحاولون شغل الساحة الوسطى أو العمل مستقلين ووجهوا بهجوم من جبهة التحرير بلغ أقصى درجات القسوة في مذبحة راح ضحيتها مئات من أعضاء جيش تحرير منافس في ميلوزا العام ١٩٥٧. وهكذا تحولت رؤية كامي في شأن عقد مصالحة بين أكفاء تحت العلم الفرنسي إلى رؤية خيالية. وتبددت قبل أن تتبدد رؤية سارتر إما/أو: العنف الاستعماري الفرنسي لن ينتهي إلا بعنف من جانب جبهة التحرير الوطنية.

وبحلول سبتمبر ١٩٥٧ كسب التعذيب والإرهاب الفرنسيان المدعومان بالتفوق التقني والعددي معركة الجزائر. واستطاع ما سمي «خط موريس» الممتد على الحدود مع تونس أن يغلق الحدود الجزائرية تماما في وجه قوات الثوار المتنامية القابعين على الجانب الآخر من السور المكهرب. وإذ كسب الفرنسيون المعركة عسكريا، فقد خسروها سياسيا، ذلك لأن جبهة التحرير بفضل قيادتها المنظمة بانضباط وتوجهها الثوري الصارم انعقدت لها الهيمنة بين صفوف الجزائريين، وحظيت باعتراف دولي. وبدأت الحرب في هذه الأثناء تفقد التأييد داخل فرنسا بعد أن بات واضحا أن الشجاعة العسكرية لم تهزم جبهة التحرير الوطنية. وفي فبراير ١٩٥٧ أعلن موريس توريز زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي، ولأول مرة، كلمة مصيرية هي الاستقلال. كذلك في صيف هذا العام أصدر ريمون آرون المفكر الرسمي الرائد في فرنسا، كتيبا يضم مقالاته في الصحيفة المحافظة «لوفيغارو»، والتي يدعو فيها إلى استقلال الجزائر باعتبار هذا هو النهج الواقعي الوحيد. وهنا بدأ المليون فرنسي جزائري الذين ترتهن هويتهم بأسطورة قومية اسمها «الجزائر فرنسية»، ومعهم العسكريون المحبطون الذين مُنوا بالهزائم المتوالية خلال القرن العشرين، بدأ هؤلاء وهؤلاء يخشون الخيانة من جانب اليسار والمثقفين والسياسيين الجبناء في باريس. ومن ثم شرع هؤلاء في تدبير مؤامرة، وتمخض هذا عن مشروع يهدف إلى الإطاحة بالجمهورية الرابعة، وإعادة شارل ديغول إلى السلطة: إنه هو الذي سينقذ «الجزائر الفرنسية»، بتكسير القيود التي عاقت الآلة العسكرية.

* * *

هنا حانت لحظة تاريخية، وقتما بدا أن القدر هيأ لسارتر وكامي أن يلعبا دورين رئيسيين مع بقاء كل منهما في نطاق بصر الآخر. وكما سبق أن رأينا، فإن أول تعليق عام لسارتر عن الجزائر في يناير العام ١٩٥٦ كان بمنزلة رد نقطة بنقطة على «مفكر واقعي صاحب قلب رقيق». ودان كامي خلال هذا الشهر نفسه المثقفين الذين وقعوا التماسا إلى سوستيل احتجاجا على الحرب. وانتقد في رسالة إلى صديقه جان دانييل، «العيش الدموي» في هذه الرؤية عن أمة جزائرية محتلة تحاول تحرير نفسها من المحتل ومن ثم لها الحق في استخدام كل الوسائل المكنة للحصول على حريتها حتى وإن اقتصت من غير المسلمين». وكان سارتر واحدا من بين مئات الموقعين.

وبلغ سارتر الآن أوج شهرته من حيث قيادته لصحيفة كبرى، ونزعته الراديكالية، وكلمته المدوية. والجدير ذكره أن مجلة «الأزمنة الحديثة» بعد أن استهلت العام بأعداد خاصة عن المجر وبولندا، نشرت عشر مقالات عن الاستعمار والجزائر على مدى الشهور العشرة التالية. وطلبت صحيفة «لوموند» من سارتر في ربيع ١٩٥٧ التعقيب على كراسة وصف فيها جنود الاحتياط العائدين إلى الوطن من الجزائر عمليات التعذيب والإعدامات بعد محاكمات صورية وقتل المدنيين. ورفضت الصحيفة مقال سارتر لأنه شديد العنف، ومن ثم نشره هو في «الأزمنة الحديثة»، ثم قدمه في اجتماع انعقد في يونيو. وتحدث فيه عن «المسؤولية غير المسؤولة» لأي شخص تحاشى إدانة جرائم الجيش: «ها هو البرهان، ها هو الرعب، وها نحن: ليس بوسعنا أن نراه من دون أن ننتزعه خارج أنفسنا ونسحقه».

ولم يؤد نجاح رواية «السقوط» إلى أن يغير كامي قراره بشأن التزام الصمت إزاء الجزائر. وأكثر من هذا أن الكشف عن عمليات التعذيب لم يغير من تفكيره. وعلى الرغم من مضي واحد وعشرين شهرا منذ انعقاد مؤتمر الجزائر لم يتكلم كامي إلا مرة واحدة حينما واجه انتقادا في صحيفة «أنكاونتر» بسبب صمته إزاء الجزائر بينما دان الغزو السوفييتي للمجر. وتحدث في رده عن سجله، وأعلن ضرورة إنهاء الاستعمار وإنشاء اتحاد كونفدرالي على غرار أسلوب سويسرا الذي يمنح جميع المجتمعات المحلية درجة عالية من الاستقلال الذاتي.

والجدير ذكره أن زميلا لكامي من شمال أفريقيا يدعى ألبرت ميمي كان قد كتب أول رواية له تحت عنوان «أعمدة الملح»، وتفضل عليه كامي وكتب له مقدمة، هذا الزميل استحدث مصطلحا جديدا يفسر نوع الصمت الذي يلزمه كامي، وقال «مستعمر حسن النية». كان ميمي قد اتفق في الرأي مع كامي في أثناء نزاعه مع سارتر، ولكن الآن، في أبريل ١٩٥٧، نرى مجلة «الأزمنة الحديثة» تعرض الفصلين الأولين من كتاب له على وشك الصدور بعنوان «المستعمِر والمستعمَر». وذهب ميمي إلى أن «المستوطن المنتمي إلى الجناح اليساري يتعاطف مع ورطة المستعمَر، ولكنه عاجز أصلا عن دعم نضاله من دون الهجوم على وجوده هو ووجود طائفته. إن هناك، في اعتقادي، مواقف تاريخية مستحيلة، وهذا أحدها». إن المستعمِر إذ بات عاجزا عن تصور نهاية

لشعبه، وعاجزا عن التماهي بشكل كامل مع المستعمَر، فإنه، وانطلاقا من نيته الحسنة، يكاد يشعر بالعنة السياسية ويدرك شيئا فشيئا «أن الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يفعله هو أن يبقى صامتا». وظهر كتاب ميمي في فترة متأخرة من هذا العام تتصدره مقدمة بقلم سارتر. ونشر ميمي في ديسمبر مقالا قصيرا بعنوان «كامي، أو المستعمر حسن النية». هنا، وبقدر كبير من التعاطف، أوضح الحلقة الرابطة. «إن عجز كامي عن التحدث عن شمال أفريقيا لأنه وافد من هناك تجلى صمتا، ذلك لأن كل ما يمس شمال أفريقيا يصيبه بالشلل». عجز كامي عن التعالي فوق قبيلته، وبقي على المستوى العالمي. «وهذا في الحقيقة موقف كامي، إذ تأكد له أنه سيصبح هدفا للشك من جانب المستعمرين، وازدراء يسار فرنسا الدولة (المتروبوليتان) الأم، ثم غضب شعبه هو».

وبينما كان الفرنسيون يقرأون هذا المقال في فرنسا، كان «المستعمر حسن النية» في استوكهولم لتسلم جائزة نوبل. وطلب منه البعض التعليق الآن على جميع الموضوعات المطروحة، وهنا كسر كامي حاجز الصمت إزاء الجزائر. والتقى كامي في ١١ ديسمبر، وهو اليوم التالي لتسلم الجائزة، بعدد من طلاب جامعة استوكهولم. وأثار موضوع الجزائر، وهنا ساد القاعة توتر مفاجئ، إذ أمطره طالب شاب جزائري بالانتقادات، وقاطعه مرارا. غضب كامي، وطالب بالسماح له باستكمال أفكاره، وأكد أنه عمل دائما من أجل «جزائر عادلة يعيش فيها الشعبان في سلام وتكافؤ». وأشار إلى أن الطالب الذي استأسد عليه له من دون شك زملاء هم الآن على قيد الحياة بفضل تدخله. ثم ما لبث أن صدم جمهور مستمعيه: «دنت دائما وأبدا الإرهاب. ويجب أن أدين أيضا الإرهاب العشوائي في شوارع الجزائر - على سبيل المثال - الذي يمكن في يوم ما أن يضرب أمي أو أسرتي. إنني أؤمن بالعدالة، ولكنني سأدافع عن أمي قبل دفاعي عن العدالة».

وأثارت أمانة كامي على الفور هزة في المشاعر في فرنسا، وعاد ليؤكد كلماته في رسالة إلى صحيفة «لوموند». أمه قبل العدالة: شجاعته في عرض ما يحس أنه الاختيار الواقعي دون أن يقترن عرضه بأي فهم لأسباب الهجمات التي تأتيه من كل الجهات. إنه يلومهم هم بدلا من أن يفكر في الكيفية التي ستبدو فيها الأمور في نظر من لم يواجهوا اختياره هو. وليس

الأمر قاصرا على الجزائريين الذين يكافحون من أجل قضيتهم هم، على الرغم من أشد الأيام هولا وصعوبة. وأعلن كامي في رسالته إلى «لوموند» أنه شعر أنه أقرب إلى الطالب الجزائري الذي أزعجه «من كثيرين من الفرنسيين الذين يتحدثون عن الجزائر من دون أن يعرفوها».

ولم يكف سارتر عن كونه هدفا يرصده كامي. ودخل كامي في جدال مع سارتر بشأن خطابه لدى جامعة أوبسالا، وذلك بعد أربعة أيام من تسلمه جائزة نوبل. وأعرب عن شكواه أول الأمر من أن «كتّاب اليوم» يتلقون الهجمات لأنهم لا يتحدثون بصوت مسموع وجسور عن القضايا السياسية، ثم يهاجمون ثانية عندما يتحدثون بجرأة. وكان كامي يستهدف فكرة سارتر عن الالتزام. وعاد ليؤكد بقوة انتقاده القديم، ولكن هذه المرة مع التأكيد على أن نظرية الأدب الملتزم حطمت حرية الكاتب بمطالبته بالانغماس السياسي: «يبدو لي أن عبارة «أداء الخدمة قسرا» هي الأدق في هذا المضمار من مصطلح «الالتزام». إذ بدلا من التوقيع على خدمة طوعية، إذا بالفنان يؤدي خدمة قسرية. وهكذا نجد كل فنان اليوم على متن مركب العبودية العصرية».

وعلى الرغم من أن كامي حائز الآن جائزة نوبل لكنه، فيما يبدو، يرى سارتر عقبة على الطريق، وكأنه أحد آلهة الانتقام والعقاب عند الإغريق. وتجلى واضحا أن تلميحاته عن سارتر ليست مقصورة على موضوع الالتزام، بل وأيضا في عبارة معماة مثل قوله «انتهى عصر العبقري الجالس على كرسي التأمل النظري». وتتمثل الفكرة الأساسية في خطاب كامي لدى جامعة أوبسالا في رفضه لإصرار كاتب مجهل الاسم - إذ نستخلص فقط من ظاهر الكلام أنه سارتر - والذي يرى أن الفنانين عليهم الالتزام سياسيا وبوسائل معينة تحديدا. وأكد كامي إحساس الفنان عنده من أن حريتهم بحكم طبيعتها ذاتها ستقودهم حتما إلى الانغماس في زمانهم «ويبدعون ما هو محفوف بالأخطار».

* * *

خلال الأشهر القليلة التالية، كتب سارتر عرضا نقديا مثيرا نشرته مجلة الـ «إكسبريس» عن كتاب «السؤال» تأليف هنري أولليغ، وهو رواية عن تعذيبه على أيدي جنود المظلات في الجزائر. واستهل العرض بتذكرة القراء بتعذيب الألمان للفرنسيين في مقر قيادة المخابرات (الغستابو) الألماني في العام

١٩٤٣. وذكر سارتر أن الفرنسيين أعلنوا أن من المستحيل «أن يأتي يوم تنطلق فيه صرخة ألم بسبب تصرفات من يعملون باسمنا». ولكن لا توجد كلمة المستحيل؛ ذلك أنه في العام ١٩٥٨ جرى تعذيب الناس في الجزائر بانتظام وعلى نحو مبرمج مدروس. وعرف بعض القراء أن هنا إشارة إلى مقالات كامي في مجلة «كومبا» قبل ذلك باثني عشر عاما.

«والمثير للجزع أن الفرنسيين يكتشفون هذه الحقيقة المروعة: إذا لم تملك أمة وسائلها لحماية نفسها فلن تحميها تقاليدها ولا ولاءاتها ولا شرائعها، وإذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، فإن سلوكها ليس إلا مسألة فرصة ومناسبة. ومن ثم فإن أي إنسان، في أي وقت، يمكن أن يجد نفسه، وعلى قدر متساو، إما ضحية وإما جلادا».

لم ينس سارتر المقالات التي أعقبت مشهد كامي العنيف مع ميرلو ـ بونتي في حزب ڤيان. وأدى شجبه شديد اللهجة للتعذيب إلى مصادرة السلطات لمجلة الـ «إكسبريس» في ٦ مارس ١٩٥٨. واشتهر المقال خلال الأسابيع التالية حتى أنه صدر في صورة كراسة مستقلة، وصودرت الكراسة، ثم عادت إلى الظهور في صورة لفيفة لا يمكن قراءتها إلا بعدسة مكبرة. ثم صدرت أخيرا في سويسرا كمقدمة لطبعة ثانية من كتاب لمؤلفه أولليغ. ونشر سارتر أيضا في مارس مقالا يحتج فيه على عقوبة الإعدام الموقعة على زوج وزوجة جزائريين بتهمة التواطؤ في عملية تخريبية.

استبد الغضب بكامي في هذه الأثناء من سارتر وزملائه، وتحليل ميمي له والهجوم على صمته، ومن ثم تهيأ للرد الأخير. واختار من كتاباته عن الجزائر عددا من المقطوعات لكي تظهر في كتاب تحت عنوان «تقارير جزائرية». وقدم كامي في التصدير وفي الختام ردا عاما مدافعا عن نفسه ضد منتقديه، وشرح لماذا صمت بعد أن انخرط كثيرا في مسألة الجزائر. وأكد بوضوح طبيعة موقفه في شأن الموقف الراهن. وسوى حساباته في الوقت الذي برهن فيه على أنه ظل طوال حياته ملتزما إزاء العرب الجزائريين، مبينا أن «صوته لو كان مسموعا على نطاق أوسع منذ عشرين سنة مضت لما حدث سفك الدماء الذي نشهده اليوم». ثم أعلن نهاية الكلام.

وقام كامي باستعراض فيه إدانة لكل من اليمين واليسار، وعمد في أثناء ذلك إلى تقديم تعليقات منها عن اليمين، وهي ذات طابع شكلي عام، بينما كان انتقاده لليسار محددا ويكشف عن ضغينة لا لبس فيها. ورفض الاحتجاج ضد التعذيب وهو في رفقة أولئك الذين قبلوا أحداث ميلوزا أو مذبحة الأطفال الأوروبيين». واتهم اليسار بقوله يعتقد اليسار أن العرب الجزائريين «اكتسبوا حق الذبح والبتر، بينما ظل هو يشكو منذ سنوات مضت من» بؤس العرب وقتما كانت لا تزال فسحة من الوقت لعمل شيء ما، في وقت كانت فرنسا قوية، بينما ساد الصمت صفوف من يرون الآن أن من اليسير إثارة النقمة من هنا ومن هناك، حتى من الخارج ضد بلدهم الضعيف». ثم وجه كامي الحديث مباشرة إلى من يتحدثون، من أمثال سارتر، عن مسؤولية الجميع ـ كل الفرنسيين، عما يجري في الجزائر:

> «إذا رأى بعض الفرنسيين أن فرنسا نتيجة استعمارها لبلد ما (وفرنسا وحدها دون بلدان كثيرة مقدسة مطهرة) وقعت في خطيئة تاريخية، فليس لهم الإشارة إلى الفرنسيين في الجزائر باعتبارهم كباش فداء. «اذهب إلى حيث تريد ومت، فهذا هو ما تستحقه»، وإنما يجب أن يقدموا أنفسهم كفارة. ويبدو لي، في حدود اهتمامي، أن رفض الصراخ «أعترف بالذنب نادما» كما يفعل «القضاة ـ التائبون» مع لطم صدر شخص آخر، عمل لا جدوى منه لإدانة قرون عدة من التوسع الأوروبي».

وأجاب كامي على ميمي بوضع نفسه داخل قبيلته وإعادة تأكيد اختياره للأسرة دون الفكر التجريدي. واعتقد أن بإمكانه أن يكون صادقا مع مبادئ العدالة الكونية، وكونه أيضا عضوا في طائفته.

> «حين تواجه أسرة المرء خطر الموت المباشر، فإن المرء ربما يفضل البقاء داخل أسرته حيث يشعر بقدر أكبر من السخاء والإنصاف على نحو ما توضح هذه المقالات الآن. ولكن (مع التسليم بكل ذلك) لا يزال المرء يشعر بتضامن طبيعي مع الأسرة على الرغم من هذا الخطر المميت، ويحدوه الأمل على الأقل في أن تبقى على قيد الحياة، إذ ربما يكون بقاؤها فرصة لإثبات نزاهتها. وإذا لم يكن هذا هو الشرف والعدالة حقا، فإنني إذن لا أعرف شيئا ذا جدوى في كل هذا العالم».

كانت مقالتي المقدمة والخاتمة جهود فرنسي جزائري لتحقيق العدالة لكل من المجتمعين العربي والجزائري في الجزائر عن طريق التشبث بحل وسط على الرغم من اختفائه عن المشهد السياسي والفكري؛ وذلك بالحكم على عنف الطرفين بمعيار واحد والتماس المساواة بين الشعبين ورفض عدالة للعرب ثم ظلم للفرنسيين. ولقد كانت نواياه جديرة بالتقدير، ولكن كامي رفض «الوطنية الجزائرية» باعتبارها مفهوما نابعا جملة من «العاطفة وتولد عن نزعة ناصر عن القومية العربية، وسياسة روسيا التي تملك استراتيجية معادية للغرب». وعمد إلى تأكيد هذه الدعاوى الثائرة تأسيسا بعضها على بعض: «لم يكن هناك أبدا بلد جزائري». ولكن ريمون آرون قال في رده على كامي في كتابه (وهو الثاني عن الصراع الجزائري) «إن «لا واقعيتهم القومية تبدو لي واقعية بشكل مأساوي»، وسط مقاتلي جبهة التحرير. والجدير ذكره أن آرون، الواقعي العظيم وغير المعروف عنه تأييد قضايا اليسار، ما فتئ يدحض كامي: هؤلاء المسلمون لم يكونوا أمة في الماضي، ولكن أصغر الشباب من ذويهم يريدون لأنفسهم أمة. مطلب عاطفي؟ طبعا، شأن جميع المطالب الثورية. وولد هذا المطلب في حجر ثورة ضد الفقر وضد وضع استعماري». وأفضى تحليل آرون إلى نتيجة لا مفر منها: «الوطنية الجزائرية ليست ابعد عن الواقعية من مطالب الفرنسي الجزائري التي يؤكدها كامي. ثم استطرد آرون قائلا، وقد استعار كلماته من ميمي - لقد كشف كامي نفسه باعتباره «مستعمِرا حسن النية»، وذلك بزعمه أنه يدعو إلى حل وسط، بينما يرفض في الوقت نفسه مشروعية القومية الجزائرية وإصراره على «عدم التخلي عن حقوق الفرنسيين الجزائريين». وطبيعي أن كل هذا جعل الحل الوسط الأصيل لا مجال للتفكير فيه.

وساند كامي الحل المعروف باسم خطة لوريول Lauriol Plan، الذي يعتبر من روائع سوء النية. أراد كامي أن تعلن الحكومة الفرنسية «انتهاء حقبة الاستعمار» وحان وقت «منح العدالة الكاملة لعرب الجزائر». وتعتزم الخطة الاستعمارية الجديدة إعطاء كل طائفة استقلالا ذاتيا في مناطق خاصة ومخصصة لكل فريق وحده، ولكن الجمعية العامة الفرنسية في الأرض الأم (فرنسا)، والتي سيجري توسيعها بإضافة ممثلين عرب، سوف تقرر جميع القضايا ذات الصلة بكل من المجتمعين. وسوف تظل المجالات الحاسمة، من

مثل الجيش والشرطة والسياسة الاقتصادية والخارجية، خاضعة لإدارة السلطة المركزية في باريس. وزعم كامي أنه بذلك يخدم العدالة مثلما يخدم شعبه، بينما هو في الواقع العملي لا يخدم أيا منهما. وطبيعي أن كان من المستحيل إنهاء الاستعمار بينما تترك الحقوق الفرنسية القائمة كما هي دون أن تمس، وهذا واقع لم يتصد له كامي أبدا. بيد أنه، بدلا من ذلك، حذر من عواقب مروعة إذا لم يسد الحل الذي اقترحه. «هذا هو التحذير الأخير من كاتب نذر عشرين عاما من حياته لخدمة الجزائر، وفي وسعه أن يعلن رأيه قبل أن يعود إلى صمته».

ولكن لماذا كان الصمت ضروريا؟ السبب الحقيقي عند كامي يعود إلى أسرته وإلى الإرهاب كما تجري ممارسته في الجزائر. خشي كامي من أن «بيان السلسلة الطويلة من الأخطاء الفرنسية يمكن أن يكون عذرا، دون أن أخاطر بنفسي، لمجرم مجنون يلقي قنبلة وسط حشد بريء يضم من بين من يضم أسرتي». ويذكر كامي، بعد أن قال هذا، ملاحظته عن «أمي قبل العدالة»، ثم يفصل، سواء عمدا أو لا، نفسه عن نقاده وذلك بأن يختم بكلمة تشير لا شعوريا إلى السجال الذي دار حول «الإنسان المتمرد»، وإلى الصفحات الأولى من رواية «السقوط»: «ولكن أولئك، وتعرفهم، لا يزالون يفكرون بطريقة بطولية بأن الأخ يجب عليه أن يموت دون مبادئه، فإني لن أمضي بعيدا أكثر من مجرد الإعجاب بهم عن بعد. إنني لست من جنسهم».

لندع الإشارة إلى الجنس جانبا، ولكن ملاحظات كامي في حاجة إلى نظرة مدققة عن كثب. أعقبها حديثه عن «التضامن الطبيعي» مع أسرته التي تواجه خطرا والتزامه أولا بضمان بقاء الأسرة قبل القلق على الإنصاف. ولكن كيف لشيء كتبه كامي أن يمثل «عذرا» لقاتل من جبهة التحرير أو يشكل خطرا على أسرته؟ نذكر أن كامي في مناقشته مع الطلاب في استوكهولم قال إن مداخلاته ربما خاطرت «بتفاقم الإرهاب». وإذا حدث واضطر إلى التعقيب علانية ربما كان سينتقد ليس فقط سياسة الحكومة الفرنسية كما فعل كثيرا في الواقع، بل ربما سينتقد أيضا ما هو أهم، وهو تصلب مجتمعه المحلي، وهو ما لم يذكره أبدا صراحة. وإذا سمع انتقاداته أعضاء «مجانين» من جبهة التحرير، فإنهم سيشعرون بمبرر لقتل المدنيين الفرنسيين. معنى هذا أن كامي إذا شاء حماية مجتمعه من الخطر فإن عليه تجنب ذكر ما يدور في عقله.

ولكن التزام الكتمان لا يعني البقاء بعيدا دون الانخراط في العمل. والجدير ذكره أنه بعد أن تسلم كامي جائزة نوبل بات واضحا أن الحرب أصبحت شغله الشاغل. وتحدث إلى أصدقاء بشأنها، وكتب مذكرات عنها، وتأمل طويلا أحداثها ومسارها. ونظم في مارس ١٩٥٨ لقاء مع ديغول حاول فيه إقناعه حال عودته إلى السلطة بأن الحل الوسط الذي اقترحه كامي هو الحل الأفضل. وفعل كل ما يستطيع، بشكل خاص ومن وراء الكواليس، للتدخل لمصلحة عشرات الجزائريين المتهمين أو المدانين من جانب السلطات الفرنسية. ووضع كامي الجزائر محورا لروايته الجديدة «الإنسان الأول»، التي عرضت صورة شاملة وكاملة عن تجربة الفرنسيين الجزائريين ابتداء من المستوطنين الأوائل حتى اندلاع الحرب. وتضمنت ذكريات طفولة جميلة لفرنسي جزائري فقير ولكنه موهوب مثلما روت أساطير فرنسية جزائرية عن الطبقة العاملة وعن مستوطنين اشتراكيين في الحقيقة يبنون بلدهم بأيديهم.

* * *

وبينما كان كامي يعد كتابه «تقارير جزائرية» أقيمت المتاريس في كل أنحاء الجزائر، ودوت في الأجواء شعارات ثورية وشعارات مقاومة باسم النزعة الاستعمارية الآفلة. والملاحظ أن ديغول لم يصر فقط على الصعود إلى السلطة بشكل دستوري، بل إنه وبعد أن زار الجزائر أدرك رويدا رويدا أن «الجزائر الفرنسية» لم تعد ممكنة. ولذلك نراه في تردد وعلى مراحل، في العامين ١٩٥٨ و١٩٥٩ عرض ما عرف باسم «سلام الشجعان» على جبهة التحرير، ثم عرض «حق تقرير المصير»، ثم بدء مفاوضات السلام. ووجه من اليمين بمزيد مطرد من المؤيدين المتطرفين لفكرة «الجزائر فرنسية»، خاصة بين ضباط الجيش والفرنسيين الجزائريين. لقد أتوا به إلى السلطة، ولكن ما أن اشتموا رائحة خيانة، حتى بدأوا في تدبير المؤامرات ضد حياته. وووجه من اليسار بسارتر بين من يقودون الهجوم، وسبق أن عارض بعضهم صعود ديغول إلى السلطة ضمن حركة صغيرة مناهضة للحرب، وكذا الشيوعيون.

وبدا، مع انتصاف العام ١٩٥٩، أن حزن كامي على الجزائر بدأت تخف وطأته. ذلك أنه في أكتوبر السابق، وبعد عشرين سنة من شعوره بالنفي خارج الجزائر مشردا بلا بيت في باريس استثمر قيمة مكافأة جائزة نوبل،

واستغرق بكل جوارحه في العمل من جديد وكتابة «الإنسان الأول». ويبدو أنه روض نفسه على فقدان أرض الوطن. وعلى الرغم من أن كامي في محاولة منه لاستعادة الماضي، احتفى بالجزائر الفرنسية في الرواية الجديدة، فإنه التزم بوعده بألا يقول المزيد عن الصراع.

* * *

وبينما كان كامي عائدا من لورمارين إلى باريس في ٤ يناير ١٩٦٠ دهمته سيارة أودت بحياته. كان في السادسة والأربعين من عمره. وكانت المخطوطة التي يكتبها داخل حقيبة جلدية سوداء داخل السيارة. وأذهل موته باريس والجزائر والكثيرين في العالم. ووصفت بوفوار بعد ذلك إحساسها الطاغي، عند سماعها النبأ، بالخسارة الفادحة، وهو الإحساس الذي غلب تدريجيا على قرارها بألا تجعل من موت كامي حدثا جسيما إلى أن استطاعت أن تكف عن التفكير فيه في صورة «مجرد إنسان من دون عدالة»، وإنما أصبح من جديد «رفيق سنواتنا الزاخرة بالأمل، صاحب الوجه المشرق الضحوك، يبتسم في سهولة ويسر، الكاتب الشاب الطموح، نهم للاستمتاع بالحياة واستيعاب ملذاتها وانتصاراتها، والرفاقة والصداقة والحب والسعادة».

ونشرت مجلة «فرانس أوبزرفاتور» يوم ٧ يناير كلمة سارتر في وداع كامي. والملاحظ أنه منذ البداية تحدث بتهويل عن صمت كامي بشأن الجزائر مع احترامه لصراعاته، ولكن دون أن يعتبر ملاحظاته الأخيرة نهائية: «كان مهما أن يخرج على صمته وأن يقرر وأن يحسم». وافته المنية قبل أن تتاح له الفرصة. وجدير بالملاحظة أن سارتر الآن يحشر نفسه بين «جميع من أحبوا» كامي. ويتسق هذا مع ما ذهب إليه من أن عراكهما كان مجرد «وسيلة أخرى للعيش معا دون أن يغيب أحدهما عن بصر الآخر في هذا العالم الصغير المعطى لنا». وأصاب إذ قال: «لم تمنعني القطيعة من التفكير فيه». ذلك لأننا عرفنا كيف أن الرجلين واصلا «العيش معا» على مدى السنوات السبع التي مضت منذ المعركة الفكرية.

وتمثل أقوى ذكريات سارتر عن كامي حضوره الأخلاقي الذي وجد لزاما عليه إما أن يتفاداه أو أن يجاريه. وجد كامي «هذا القرار الصارم الذي لا يهتز. إذ على الرغم من قلة عدد من يقرأون أو يتأملون، إلا أنهم يتصادمون مع القيم الإنسانية التي اعتاد أن يحتفظ بها داخل قبضة يده المغلقة. ووضع

الفعل السياسي موضع تساؤل». وهذه تقدمة تحمل معنيين متناقضين. إذ قال سارتر إنه وجد صمت كامي «حكمة بالغة، وأحيانا صمتا مؤلما». وأشار إلى أن كامي حارب «ضد التاريخ». لقد «أبى أن يغادر الأرض الثابتة للأخلاق، والالتزام بالدروب غير اليقينية للممارسة العملية». ولكن السلبي أصبح إيجابيا. «إن نزعته الإنسانية العصية المحدودة والنقية، الحازمة والحسية، خاضت معركة مريبة ضد أحداث هذه الأزمنة. ولكن على النقيض فإن صلابة رفضه أدت إلى التأكيد من جديد على الواقع الأخلاقي داخل قلب حقبتنا وضد الماكيافيلية وضد العجل الذهبي للنزعة الواقعية».

لم يشأ سارتر التسليم بأنه بالتزامه بما هو «عملي» مارس هو نفسه عباداته أمام مذبح الواقعية لأكثر من أربع سنوات، ثم ثاب وعاد إلى طريقه الخاص في ربط الأخلاق بالسياسة. ولقد عاد بعد سلسلة من الأحداث التي تضمنت قراءة رواية «السقوط»، التي وصفها بقوله «لعلها، على الرغم من كل شيء، الأجمل والأقل فهما» من كتب كامي، ومن دون الصخب المعتاد الملازم لتغيراته. وسبق له أن ألمح إلى أنه في طريقه، الذي لم يعد على النقيض تماما لطريق كامي، بدأ هو الآخر خوض معركة مع الواقعية. واعترف بأهمية كامي كواحد من «القوى الرئيسية في مجالنا الثقافي». وكمفكر صاغ أطر المسائل والقضايا للآخرين «رجل عاش مع أو ضد فكره... ولكن دائما من خلاله».

وفي فترة متأخرة من هذا الشهر، هب الفرنسيون الجزائريون ثانية في ثورة بدأت تعتمل نيرانها بعد أن واجه ديغول المتآمرين بجرأة وتصميم. واتخذت الحكومة إجراءات قانونية ضد جينسون والشبكة التي تعمل معه. ولكن سارتر المتمرد مع غيره من المشاهير وقعوا «بيان ـ مانيفستو ـ الـ ١٢١» يحرضون فيه جنود الجيش العاملين على ترك الخدمة. وشرعت الحكومة أيضا في اتخاذ إجراءات قانونية ضد الموقعين على النداء، وأصبحت العملية كلها قضية ذائعة الصيت، حتى أن المتظاهرين بدأوا يصيحون «أطلقوا النار على سارتر». ولكن ديغول أسقط الاتهامات بكلماته «ليس بوسعكم أن تسجنوا ڤولتير». وفي ربيع العام ١٩٦١ حاول القادة العسكريون القيام بانقلاب عرف باسم «محاولة الجنرالات» في الجزائر، ولكنها فشلت. وظهرت «منظمة الجيش السري» بين المستوطنين المتطرفين والجيش، وتمثلت إستراتيجيتها في محاولة قتل أكبر عدد ممكن من العرب لتخريب أي اتفاق.

وبينما سارعت الحكومة في خطواتها من أجل عقد مفاوضات السلام، أعدت منظمة الجيش السري لشن حملة ذبح بين الجزائريين ومؤيديهم، حتى أنها خلال أكثر قليلا من سنة قتلت عددا يعادل من قتلهم «رجال» جبهة التحرير على مدى سبعة أعوام. ودبرت مؤامرات ضد ديغول وآخرين في فرنسا، ومن بينهم سارتر. وأدى هذا السعار في الجزائر إلى تهيئة الظروف الملائمة تماما بحيث إذا ما تولت جبهة التحرير السلطة سوف ترغم الفرنسيين الجزائريين على الرحيل عن الجزائر تماما. لقد كان حمام دم. وبعد أن تم إعلان استقلال الجزائر أخيرا في يوليو ١٩٦٢، كان مليون جزائري فرنسي في حالة هرب إلى فرنسا وإسبانيا، وعمدوا إلى تدمير وتخريب كل شيء عجزوا عن حمله معهم، وكان كامي قد مات، وكذا حلمه عن الجزائر.

* * *

استهدفت أول قنبلة لمنظمة الجيش السري سارتر، وذلك في يوليو ١٩٦١، ولكنها وضعت خطأ فوق أرضية الحجرة التي تعلو الحجرة التي يعيش فيها. وألقيت الثانية في يناير، ودمرت شقته. وتصادف أن كان سارتر وبوفوار يبيتان في شقة أحد معارفهما بينما أم سارتر كانت في البيت. ولحسن الحظ أنها كانت داخل الحمام وقت انفجار القنبلة ولم تصب بأذى. أعلن كامي قلقه وضيقه من عنف جبهة التحرير الوطنية ضد أمه، ولكن أم سارتر هي التي كانت على بعد شعرة من أن تلقى حتفها بسبب عنف منظمة الجيش السري. وتشير هذه السخرية إلى السبب الأعمق الذي من أجله كانت المصالحة مستحيلة بين سارتر وكامي. وبدا الاختلاف واضحا جليا منذ أن التقيا العام ١٩٤٣ - ولنتذكر أورستس يتبنى العنف في «الذباب» كوسيلة ليكون واقعيا، وكامي يبرر عنف المقاومة في «رسائل إلى صديق ألماني». وأصبح العنف اللازمة الموسيقية التي يتردد صداها على طول صفحات القصة وبلغت ذروتها في الجزائر. وليس الأمر أن كامي لا يؤمن بالعنف بينما سارتر يؤمن بالعنف، ولكن الأول حريص على أن تظل يداه نظيفتين، والآخر يقبل تلطيخ يديه فقط عند الضرورة.

وسبق أن قال كامي العام ١٩٣٩، ثم حاول التنصل مما قاله العام ١٩٥٥، إن قضية الجزائر الفرنسية هي قصة «غاز استعماري». ومع مرور الوقت بالنسبة إلى حرب الجزائر فهم سارتر، بينما حاول كامي التجاهل، حقيقة أن

العنف ضد المواطنين ليس فقط خطيئة، بل قسمة يومية تميز العلاقات بين العرب والفرنسيين في الجزائر. وعمد المستوطنون دائما إلى أن يؤكدوا من جديد هيمنتهم على المواطنين، وما فتئوا يؤكدون زعمهم بشأن الواقع المادي للمكان الذي يخص المواطنين أصلا. ونجد أن المستوطنين بمن في ذلك أفقرهم، وبكلمات ميمي، يستمتعون في كل لحظة «بأوهى الأمور» التي تميزهم عن المواطنين. ونذكر أن شخصية ميرسول في رواية كامي العظيمة المعبرة عن الجزائر الفرنسية «الغريب» كان يبتهج ويعربد بالمعنى الواقعي الحسي وقد اندمج في سمائها وبحرها وفي حرها ومشهدها الطبيعي. أو بعبارة أخرى كان عنف ميرسول وقتله دون سبب واضح للعربي مجهول الاسم التزاما بتواطئه مع ريمون في ضرب الأخت الصغرى للرجل، رسالة تعبر عن القوة الاستعمارية الغشوم في الجزائر التي لا يحمل نسيجها أوهى مشاعر عاطفية. ونجد كامي في كل من روايتي «الغريب» و«الطاعون» يعيد خلق العوالم الشخصية والسياسية للمستوطنين باعتبارها، ويا للغرابة، خلوا من غير الأوروبيين، ويصور شاغليها الأصليين وكأنهم حضور موسمي صامت ولود وخطر.

وحاول كامي الصحافي أن يعطي المواطنين استحقاقهم، ولكنه في النهاية يدخل في جدال مع عائلتي ميرسول ورايموندس، رجال بلا عقل. وأخيرا وبعد وقوع التمرد الوطني، وعلى الرغم من أمله في وضع نهاية للاستعمار وللمظالم، نراه يتجنب إبلاغهم الحقائق الأقسى والأكثر إلحاحا. وأخيرا إذ استشعر كامي منهم عنادا وموقفا يتعذر الدفاع عنه لم يجسر على الكلام مع زملائه الفرنسيين الجزائريين سواء عن امتيازاتهم أو عن عنفهم. وهكذا الرجل الذي دان العنف والتمس يدين نظيفتين لم يستطع الإفلات من التواطؤ والمشاركة في القسوة الوحشية التي أضحت شيئا عاديا في الحياة اليومية لبلده.

وعرض كامي، في حفل تسلمه جائزة نوبل، عقيدته ككاتب حدد دوره الأساسي «خدمة الحق والحرية»، وقال إن هذا ينبني على «التزامين يصعب التقيد بهما: رفض الكذب فيما نعرف، ومقاومة القهر». الحق والحرية. بيد أنه في مكابدته لإنجاز هذين الهدفين لزم الصمت إزاء حقائق معينة من مثل هؤلاء المثقفين الذين ازدراهم بمن فيهم سارتر. ولم يدرك كامي أبدا أن

التزامه الصمت عن مساعدة شعب يشعر أن الجيش يحاصره يختلف قليلا عن صمت سارتر بالنسبة إلى الشيوعية. وطبيعي أن كامي عندما سمع عن أحزاب شيوعية أو ثورات جديدة عبر البحار لها مبرراتها عرف أن أنصارهم من المثقفين تحدثوا بلسان مزدوج ـ وهذا ما فعله سارتر بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي الفرنسي فيما بين العامين ١٩٥٢ و١٩٥٦. ولكن كامي بأمانته الانتقائية وبصمته الخاص تصرف بالأسلوب نفسه بالنسبة إلى الجزائر الفرنسية فيما بين ١٩٥٥ وتاريخ وفاته. غير أن كامي فرض معيارا مختلفا على الشيوعية السوفيتية والديموقراطية الرأسمالية الشيوعية منذ العام ١٩٤٦ ـ تماما مثلما فعل سارتر إزاء الديموقراطيات الرأسمالية والحركات المعادية للاستعمار ابتداء من العام ١٩٥٦.

وجدير بالملاحظة أن ميمي هو الذي فسر منطقة الخطأ عند كامي. إذ حاول كامي قبل صمته المستحيل، وأعلن انتهاء الاستعمار، بينما يؤكد ضرورة الاحتفاظ بعلاقاته السياسية الجوهرية. وتحدث عن المساواة بين العرب والفرنسيين، بينما يقر بامتيازات الفرنسيين ويغفل المطلب المحوري للعرب، ووصل به الأمر إلى حد عدم ذكر ممثليهم. وتحدث عن اعترافه بكرامة الجزائريين، بينما يتصور قيام حكم فرنسي دائم. هنا عدم أمانة، أو وهم وخداع قائم على حقيقة أساسية ـ الوضع الضعيف للجزائر الفرنسية. وهكذا ما أن فاض الكيل بالنسبة إلى الحكومة الفرنسية تحت قيادة ديغول حتى واجه الفرنسيون الجزائريون طريقا مسدودا. وعبرت منظمة الجيش السري، تلك الحركة التي تضم قتلة فاشيين، تعبيرا صادقا عن جدلها الكارثي. وهكذا وجدنا دعاة «الجزائر فرنسية» إذ رفضوا إعادة صوغ هويتهم كقوة مهيمنة تغتذى على العنف، فاختاروا انفجار نار الإبادة الجماعية ثم الانتحار السياسي والاجتماعي بدلا من المخاطرة بتحويل أنفسهم إلى أقلية غير حاكمة.

وكانت هناك حلقة باطنية بين الصمت الأخير لهذه الروح السخية العظيمة وبين وضعية منظمة الجيش السري بعد وفاة كامي. ربما لم يكن بإمكان أي شخص أو أي شيء أن يستحث مليون مستوطن على التخلي عن امتيازاتهم، خاصة امتياز بشرتهم البيضاء، والمضي على طريق الإصلاح المؤدي إلى تحولهم إلى أقلية داخل مجتمع خاضع لحكم عربي. ومنذ شارك

الفرنسيون الجزائريون في المذابح بعد مذبحة بلدة سطيف العام ١٩٤٥، وجهزوا كل ما يلزم لانتخابات العام ١٩٤٨، وقاوموا بشراسة أي تنازل للأغلبية بعد نوفمبر ١٩٥٤، إلى أن أصبح الوطنيون الجزائريون بالقوة والصلابة والعناد على النحو الذي كانوا عليه. ولم يحدث أن واجهوا صاحب رأي منصف، وإنما جميعهم سياسيون ضلوا رؤيتهم وسبيلهم، من أمثال منديس فرانس. لهذا استمر الفرنسيون الجزائريون على عهدهم يخدرون أنفسهم بالتغذي على أسطورة الجزائر فرنسية، وأغفلوا الواقع، إلى أن بات الوقت متأخرا جدا وبدأ تسعة ملايين من المواطنين يؤكدون هويتهم الجزائرية ردا على الهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية للمستوطنين. وإذا كان كامي الذي رأى، كما أعلن على الملأ، أسوأ ما يمكن بالنسبة إلى الشيوعية، والذي عرض نفسه لخطر شخصي محدق، بات عاجزا عن قول الحقيقة البسيطة لشعبه هو.

وبحلول العام ١٩٥٨ ضعفت كثيرا قضية شعب كامي. إذ ثار عنف عنصري بعيد الغور وسط طائفته. ولابد أن سمع كامي صياح الغوغاء بقيادة جو أورتيز يطلبون موته، وذلك في يناير ١٩٥٦. ولابد أنه علم بأن الغوغاء اعتلوا المتاريس في ربيع العام ١٩٥٨. وإذ ظهرت منظمة الجيش السري باعتبارها التعبير المهيمن لقضية الجزائر فرنسية، فقد أعلنت برنامجها النهائي بعد موت كامي باغتيال روح كريمة أخرى من دعاة التصالح، وهو بيير بوبي المدعي العام الفرنسي الجزائري. وحددت أهدافها في قتل الباقين من ذوي النوايا الحسنة على الجانبين، وإشاعة مناخ القصاص والعنف الشامل الذي يهدم محادثات السلام والعمل، إذ انتصر مخططهم على تأسيس نظام قائم على الفصل العنصري «الأبارتيد». والجدير ذكره أن الروائي الجزائري والمعلم مولود فرعون، صديق كامي، وصف تنظيمهم المقترح بأنه «استمناء في أحد الأركان». ونجد من المفارقات أن انغماسهم المفرط في العنف إلى حد العربدة الذي توجوا به رفضهم الكامل لأي تلاؤم مع الموقف منذ العام ١٩٤٥، كل هذا جعل من الحتمي وقوع ما حاولوا يائسين تفاديه. إذ في أثناء يوم من أكثر الأيام دموية، شنت إحدى فرق الموت لمنظمة الجيش السري هجوما مفاجئا حضره فرعون مع معلمين فرنسيين وجزائريين. ونودي على أسماء فرعون وخمسة آخرين، وأخرج الستة إلى

خارج القاعة وأوقفوهم أمام جدار وقتلوهم رميا بالرصاص. حدث هذا في ١٥ مارس ١٩٦٢، وخلال أربعة أشهر كانت الجزائر مستقلة، والجزائر الفرنسية من ذكريات الماضي.

إن الشيء اليقيني أن كراهية كامي للشيوعية كانت مشروعة، وأججتها - كما هو مفهوم - معارضته للعنف. بيد أنه، شأن كثيرين آخرين عارضوا الشيوعية، حطم اتساقه وتماسكه أخلاقيا وسياسيا حين تجنب الحديث عن مجتمعه الخاص. ويبدو أن كامي إذ ألقى اللوم على أطماع الاتحاد السوفييتي تصور أنه بذلك حلل كل شيء، بينما أغفل تحليل التحولات الأساسية اللازمة لإنهاء الاستعمار. وعجز عن التحدث عما يتعين على عشيرته التنازل عنه لكي يصبح أهله مجرد مواطنين على قدم المساواة. أو ليكونوا في حقيقة الأمر أقلية داخل جزائر ما بعد الاستعمار. ولذلك لزم كامي الصمت.

* * *

إن ما كان يفتقر إليه كامي، وكذا رجال الحرب الباردة الليبراليون، هو حكمة التحفظ التي ناضل سارتر وصولا إليها ابتداء من «الأيدي القذرة»: حيث عالمنا في كثير من هياكله الأساسية مؤلف من العنف. ونجد سارتر في «الشيوعيون والسلام» الذي كتب الجزء الأول منه قبيل القطيعة مع كامي، يواجه عنف النظام الرأسمالي الديموقراطي. وعندما حول سارتر انتباهه إلى الاستعمار في العام ١٩٥٦ أوضح كيف أن العنف في المستعمرات خلق النظام الاجتماعي وشعبه. وأعلن حقيقة الجزائر التي أغمض كامي عينيه عنها. وقدم سارتر أقوى بيان له بعد وفاة كامي بعام ضمن تصديره لكتاب فانون «المعذبون في الأرض». وبينما كان كامي، بحكم تكوينه، عاجزا عن الاستماع لوجهة النظر الجزائرية، نجد سارتر يدعو قراءه إلى عالمهم: «أيها الأوروبيون، واجبكم أن تفتحوا هذا الكتاب وتدخلوه. إذ بعد بضع خطوات وسط الظلام سترون غرباء تحلقوا حول نار. اقتربوا منهم، واستمعوا إليهم، لأنهم يتحدثون عن مصير سوف يتقاسمون حصصه مع مراكزكم التجارية والجنود المأجورين المدافعين عنهم». وبينما أنكر كامي أي ذنب، وسع سارتر شبكة المسؤولية. «حقا إنكم لستم مستوطنين، ولكنكم لستم أفضل. إن الرواد ينتمون إليكم، ولذلك أرسلتموهم إلى ما وراء البحار، وأثروكم أنتم». ثم اتجه سارتر إلى القضية المحورية:

«العنف في المستعمرات لا يجعل هدفه فقط الإبقاء على هؤلاء المستعبدين تحت إمرته، إنه يحاول تجريدهم من إنسانيتهم. ومن ثم نراه عمل كل ما من شأنه محو تقاليدهم، وإبدال لغتهم بلغتنا، وتدمير ثقافتهم دون أن نعطيهم ثقافتنا. الإنهاك البدني الصارخ سوف يخدرهم. تراهم جوعى ومرضى إذا ما بقي فيهم بقية من رمق أو روح، وسيكون الخوف هو الدافع لإنهاء المهمة، والبنادق مصوبة إلى الفلاح، ويأتي المدنيون للسيطرة على أرضه وإجباره قسرا بقوة السوط وقسوته على حرث الأرض لهم. وإذا قاوم أطلق الجنود عليه النار ويصبح في عداد الموتى. وإذا خضع فإنه حط من قدر نفسه ولم يعد إنسانا على الإطلاق. العار والخوف يمزقان شخصيته، ويدمران جوهر الشعور بالذات».

والشيء الحتمي أن المواطنين أهل البلد سيجعلون عنف المستوطنين طريقهم، إذ يستدخلونه ليكون أسلوبهم، ومن ثم سيهبون ضد سادتهم. ويقول سارتر: «نحن نعيش اللحظة التي سيشتعل فيها الكبريت». وسوف يؤدي الانفجار إلى قلب كل شيء رأسا على عقب، بما في ذلك اليسار.

«إنهم يحسنون صنعا إذا قرأوا فانون لأنه يوضح بجلاء أن هذا العنف الذي يتعذر كبته ليس صوتا وثورة غضب، ولا بعثا لغرائز همجية، ولا هو حتى مجرد نتيجة السخط والاستياء، إنه الإنسان يخلق نفسه من جديد. أحسب أننا فهمنا هذه الحقيقة يوما ما، ولكننا نسيناها ـ التهذيب لا يمحو آثار العنف، وإنما العنف ذاته هو الذي يمحوها. إن المواطن ابن البلد يبرئ نفسه من العصاب الاستعماري بدفعه المستوطن إلى خارج البلاد وبقوة السلاح. وحين تثور ثائرته ويبلغ الغضب ذروته يكتشف براءته المفقودة ويجاهد ليعرف نفسه على النحو الذي يعيد به خلق نفسه. ونظرا إلى أننا بعيدون جدا عن الحرب التي يخوضها، فإننا نعتبرها انتصارا للهمجية البربرية، ولكن المتمرد بفضل الإرادة يحقق بخطوات وئيدة ولكنها مؤكدة حريته، يحرر نفسه لأنه رويدا رويدا يدمر من داخله ومن حوله الظلمة الاستعمارية. وما أن تبدأ الحرب فإنها لا تبقي

ولا تذر. وإنك ربما تخيف أو تخاف، أي أن تسلم نفسك لتفكك وجود زائف أو أن تنتزع امتياز الوحدة الذي اكتسبته بحكم الميلاد. وحين يمسك الفلاح ببندقية في يديه، تتهاوى الأساطير القديمة ويبدأ نسيان المحظورات واحدة بعد الأخرى. إن سلاح المتمرد هو برهان إنسانيته. ويتعين عليك أن تقتل في الأيام الأولى للثورة، وإذ تصرع أوروبيا تكون قتلت عصفورين بحجر واحد، إذ تقضي على قوة قاهرة وعلى الإنسان الذي يقهرك في الوقت نفسه: ويبقى إنسان ميت وإنسان حر، والباقي على قيد الحياة يشعر لأول مرة بأنه يقف بقدميه فوق التراب الوطني».

الآن سيتبين الفلاحون حقيقة موقفهم واقعيا، يخلقون «هياكل جديدة سوف تصبح أول مؤسسات للسلم». ورأى سارتر أنهم يستكشفون إنسانيتهم «بعيدا عن التعذيب والموت» ويجعلون أنفسهم شعبا على حسابنا: «إنسان مغاير مختلف من نوعية أرقى» يخلق مجتمعا اشتراكيا. ولكن سارتر ينهي هنا ملاحظاته التفسيرية على رواية فانون لأنه يعرف أن الحوار مستمر داخل قارئه. ويزعم أن الأوروبيين أنفسهم أصبحوا مستعمرين من خلال الحرب الجزائرية: «المستوطن الكامن في نفس كل واحد منا ضارب بجذوره في وحشية في الخارج». ثم يذكر سارتر كلمات كامي عن السنوات الخمس عشرة السابقة:

«إنهم لمشهد جميل أيضا، أولئك المؤمنون بعدم العنف، القائلين إنهم ليسوا ضحايا ولا جلادين. حسن جدا إذن، إذا لم تكونوا ضحايا عندما تكون الحكومة التي انتخبتموها، وعندما يكون الجيش الذي يخدم فيه إخوتكم الشباب مع السمع والطاعة أو دون تأنيب ضمير، قد تولوا جميعا مهمة قتل سلالة، هنا ودون أدنى ظل من الشك، تكونون جلادين قتلة».

وإذ يصف سارتر قراءه «مستغلين» ومذنبين لإيمانهم «بنزعة عنصرية»، نراه يحكي كيف أن العنف الفرنسي المحصور داخل الجزائر يتسرب إلى داخل فرنسا: «الغضب والخوف لهما السيادة بشكل صاخب؛ إنهم يستعرضون أنفسهم صراحة من خلال مطاردة وقتل العرب في الجزائر. والسؤال الآن أي جانب هو الممثل للوحوش الهمج؟ أين البربرية؟ إنهم لا يعوزهم شيء حتى دقات الطبول، وأبواق السيارات كلها تدق «الجزائر فرنسية»، بينما الأوروبيون يحرقون المسلمين أحياء».

وها نحن صحبنا سارتر عبر تلك الرحلة التي لا يصدقها عقل من استبصاراته الثاقبة بشأن الاستعمار، وصولا إلى رؤيته ولما يسببه من دمار نفسي وحتى بيان كيف أن هذا الدمار تجري معادلته من خلال عنف أبناء البلد، والغرق في هذا العنف، وهجومه الجامع بين الابتهاج وجلد الذات ضد الأوروبيين! والجدير ذكره أن سارتر في واحدة من أقوى كتاباته يقدم حججه ونظرته العالمية في صياغة قاسية قسوة لغته. وإذا كان كامي أنكر عنف المستوطن، فها هو سارتر الآن ينظم أغنية القرن العشرين التي تتغنى بالعنف باعتباره تحريرا وعلاجا. وإذا كان كامي قد حاول إرساء قواعد لإدارة النزاع، فها هو سارتر الآن يصدق على حق أبناء البلد الأصليين في التخلص من الاستعمار «بكل وسيلة متاحة لهم». وإذا كان كامي قد لاءم آراءه وفق إحساسه بتسامح مجتمعه، فها هو سارتر الآن يهاجم، انطلاقا من إحساسه بالذنب، مجتمعه هو، وجعل من نفسه المتحدث الأوروبي باسم العالم الثالث. وإذا كان موقف كامي المناهض للشيوعية قناعا يخفي عجزه عن الاستماع إلى أصوات أبناء البلد الأصليين، فها هو سارتر الثوري، البعيد عن ساحة المعارك، يوقع شيكا على بياض للدعم والتأييد حتى لأكثر الأعمال قبحا ووحشية ضد الاستعمار.

ويمثل موضوع «الأيدي القذرة» سبيل سارتر لقبول العنف ضمن أشكال النضال للتغيير الاجتماعي، غير أنه بناه الآن في صورة أخلاق النضال، حتى بعيدا عن الزعم بأن الغايات تبرر الوسائل. أضفى سارتر الآن قيمة على العنف، ودورا تحريريا. وقال سارتر أخيرا أنه بالغ ليدخل السرور على صديقه فرانز فانون. ولكن أفكاره الرئيسية لم تكن ضربا من الزيغ الوقتي. والجدير ذكره أنه منذ «الأيدي القذرة» لم يكن سارتر مهموما بهذا القدر الكبير من أجل فرض حدود على العنف كأداة للصراع الاجتماعي. وهكذا نرى أن قتل غويتس الدرامي للضابط الذي أوقفه فجأة بناء على أمر منه تحول ليكون مقدمة وبشارة أولى بما سيكون عليه الأمر مستقبلا. انحاز سارتر إلى الحزب الشيوعي جزئيا بسبب ميله المزعوم إلى العنف. وكان فهمه للحزب الشيوعي الفرنسي جزءا أساسيا من عملية استكشاف مثيرة لمعان واستخدامات ومصادر وهياكل العنف. إن العنف في أعمق جذوره خاص «بالندرة»، واقع أن وسائل العيش كانت دائما عاجزة عن الوفاء بالحاجات البشرية. وطبيعي أنه في مناخ الندرة يمثل كل امرئ، من حيث الإمكانية المحتملة خطرا يتهدد كل إنسان آخر.

«لا شيء ـ بما في ذلك الوحوش الضارية والميكروبات ـ يمكن أن يكون أشد ترويعا للإنسان من نوع يتصف بالذكاء وأكل اللحوم والقسوة، ويمكنه فهم الذكاء البشري والتفوق عليه، وهدفه تحديدا تدمير الإنسان. بيد أن هذا كما هو واضح نوعنا نحن كما تبدو صورته في عيني كل فرد من الآخرين حال العيش في إطار الندرة».

العنف منقوش في عالمنا داخل عيون الآخرين، في الأشياء ذاتها. وهذا العالم ذاته هو عالم مانوي أي قائم على الصراع بين الخير والشر، وكل المجتمعات الطبقية تضرب بجذورها في هذه الحقيقة. وشعوب العالم موزعة كسلسلة من حلقات في تعاقب ـ معزولة وغريبة بعضها عن بعض بفعل هياكل القهر. ولهذا فإنها لا تترابط معا على نحو طبيعي، وإنما فقط بفعل الخطر الجمعي للموت. وهكذا يقوم العنف بدور عامل التوحيد ضمن نظرة شاملة إلى العالم تؤكد التطاحن وتغفل آلاف الوسائل اليومية للتعاون غير القسري.

كيف يتسنى لنا إذن تغيير مثل هذا العالم إلى الأفضل؟ هنا نذكر حديثا غير منشور يرجع تاريخه إلى العام ١٩٥٨، أدلى به سارتر إلى جان دانييل. تساءل سارتر عما إذا كان من الممكن لحركات مناهضة للاستعمار، مثل الحركات الثورية بل والمقاومة الفرنسية أن تعمل دون أن تلجأ إلى السرية والإرهاب، ونظرا لأن المثقفين من أمثاله هو نفسه الذين يؤيدون هذه الأهداف ليس بوسعهم التأثير في سلوكهم، فقد خلص سارتر إلى نتيجة مفادها أن «ليس من الملائم» نشر وقائع قبيحة بذاتها من مثل مذبحة ميلوزا، ذلك لأن الحقائق تساعد العدو. ويتعين إخفاؤها، لأننا نعمل على أساس سياسي. وعلينا قبول أن تفرض السياسة قيودها بالالتزام بالصمت إزاء أمور بعينها. هذا وإلا فسيكون المرء «روحا جميلا»، وهو ما يعني ألا يعمل بالسياسة.

إن عجز كامي وسارتر عن التصالح لم يكن مجرد استمرار للاختلاف في الآراء بينهما. لقد اتصف كل منهما بسوء القصد إزاء ما أصبح فيما بعد موضوعهما السياسي الرئيسي، وهو العنف. وعمد سارتر، على أحسن الفروض، إلى كسر التابو الذي يحظر مناقشة العنف القائم في حياتنا اليومية، ورأى ووصف العنف المنظم للرأسمالية والاستعمار. بيد أنه رأى أيضا

جميع صور الحياة الاجتماعية، باعتبارها صراعا مريرا من أجل الهيمنة. وخلق من العنف صنما معبودا لا حيدة عنه يمثل ضرورة للتحرر الإنساني وللتغيير الاجتماعي من دون حساب لكلفته. وعمد كامي على أحسن الفروض إلى فهم النتائج الإفسادية والتدميرية للعنف، خاصة داخل الحركات التي زعمت أن جهدها مرصود لتحرير البشر، وساند أهدافها بعيدة المدى. بيد أنه أيضا أنكر العنف وقمعه مادام ظل محورا للحياة في جزائره، والعمل بكل ما يملك من قوة لمصارعته في أي مكان آخر.

لذلك، لن ندهش لما كتبه كل منهما في مقدمات الكتب: مقدمة كامي لكتاب «تقارير جزائرية» العام ١٩٥٨، ومقدمة سارتر لكتاب «فانون» في العام ١٩٦١، بعد وفاة كامي ـ كتب كل منهما عن العنف، وهاجم كل منهما الآخر. أفرد كامي «التائبون ـ القضاة»، بينما أفرد سارتر أولئك الذين ادعوا أنهم «لا هم جلادون ولا هم ضحايا». وتفاقم العداء بينهما على مر السنين بحيث اتخذ كل منهما الآخر مثالا يجسد الموقف الذي يحاربه. وبدا الموقف ضربا من السخرية المأساوية. قبل سارتر القهر باسم خدمة المقهورين. وصمت كامي عن شجبه المعتاد للقهر باسم حب عشيرته. وكان كل منهما نصف خطأ ونصف صواب، وكلاهما كانا محصورين في منظومتين من سوء الطوية، متباعدتين عن بعضهما، ولكن بينهما دعم متبادل. ولم يكن بإمكان أحدهما أن يتعلم من الآخر.

خاتمة

امتد العمر بسارتر عشرين عاما بعد تاريخ وفاة كامي، وبذا كانت له الكلمة الأخيرة ـ أو لنقل في الحقيقة الكثير من الكلمات الأخيرة ـ عن علاقتهما. وكان سارتر قد قال لأحد طلابه بعد أيام قليلة من وفاة كامي إن «كامي، في حدود علمي، لم يفعل قط أي شيء يؤذيني، وأنا أيضا لم أفعل له أي شيء كهذا». ويبدو أن مرض النسيان عنده نابع من حقيقة أن سارتر، على خلاف كامي، لم يتشبث بصداقاته بقوة مع الرجال، وكم من صداقات أنهاها مع كثيرين ممن كانوا يوما زملاء له خلال الأربعينيات والخمسينيات، وجميعها انتهت لأسباب سياسية. ونذكر من هؤلاء الأخيرين آرون وألتمان وروسيه واتيميل وليفورت وميرلو ـ بونتي.

«أن نختم القصة بتخمين أي من الرجلين «كسب» يشبه طريقة إما/أو في السياسة التي أبقت علاقاتهما برمتها بعيدا عن الأنظار خمسين عاما»

المؤلف

وبعد وفاة كامي ظل سارتر المناهض للنزعة القومية على موقفه النقدي من صديقه السابق، يسخر من المستوطنين في الجزائر الذين حاولوا أن يكونوا لا ضحايا ولا جلادين، رافضا «المثقفين المزيفين» الذين ظنوا أن بوسعهم تجنب

جميع أشكال العنف في فيتنام وفي الجزائر. ونجد تناقضا واضحا ومذهلا بين مقال سارتر العام ١٩٦١ عن ميرلو ـ بونتي، زميل الدراسة السابق والذي اعتبره سارتر معلمه السياسي من دون أن يصفه أبدا بالصديق الحميم، وبين كلمة تأبينه لكامي. ونلحظ أن المقطوعة المؤلفة من مائة صفحة تمثل تقديرا متصلا ودافئا تجنب النظر بعمق من خلاله التماسا لمعرفة حوافز زميله السابق، وإن تحدث بإسهاب عن تأثيره في سارتر. إنه يبدي، قبل كل شيء، احتراما طوعيا لميرلو ـ بونتي كمفكر ـ إذ إنه في النهاية فيلسوف زميل وخريج مدرسة المعلمين ـ وهذا هو ما نفتقده في كتابات سارتر عن كامي. وتكشف رسائله لعام ١٩٥٣ حول قطيعته مع ميرلو ـ بونتي عن جانب آخر في علاقة سارتر به، وهو الجانب الغائب في علاقته مع كامي: عاطفة مهنة قوية. وكان الهدف أن تكون هذه الرسائل خاصة، ولم تنشر إلا العام ١٩٩٤. واتسمت بدفء شخصي مع رفع كل مظاهر الكلفة عند الخطاب. وظل سارتر يتمتع بقدرة على القول مع نهاية دراسة سياسية بارزة عن الاتجاه الصحيح إزاء الشيوعية: «أنا صديقك وأريد أن أبقى كذلك». والتقى الاثنان مرتين أو ثلاث مرات في لقاءات قصيرة قبل وفاة ميرلو ـ بونتي. وتميزت هذه اللقاءات بروح ودية جمعت بين الألم وكبح جماح النفس. وعلى الرغم من أن ميرلو ـ بونتي نشر كتابا يؤنب فيه سارتر «لغلوه البلشفي»، فإن هذا الافتراق وما ترتب عليه لا يتضمن أي شيء نقارنه بما كان في الدراما التي شهدناها في قطيعة سارتر وكامي ـ حدة الغضب، والتصرف علانية على الملأ، وصيحات الخيانة والجدل المستمر.

وقدمت بوفوار في العام ١٩٦٣ رؤيتها بشأن نهاية علاقة سارتر ـ كامي، وكذا عن تطور كامي. وهذه رؤية جديرة بأن نقتبسها كاملة:

> «حقيقة الأمر أنه إذا كانت هذه الصداقة قد انفجرت بعنف شديد، فإنه لذلك السبب ظل جزء غير كبير على حاله زمنا طويلا. والمعروف أن الاختلافات السياسية والأيديولوجية التي كانت قائمة بين سارتر وكامي في العام ١٩٤٥ قد تفاقمت سنة بعد أخرى. كان كامي مثاليا، أخلاقيا، ومناهضا للشيوعية، واضطر في لحظة إلى الخضوع للتاريخ، وحاول بأسرع ما يمكن الانسحاب منها، ونظرا إلى حساسيته إزاء

معاناة الناس فقد عزا ذلك إلى الطبيعة. وجاهد سارتر منذ العام ١٩٤٥ لإنكار المثالية، ولكي ينتزع نفسه بعيدا عن نزعته الفردية الأصيلة والعيش في التاريخ. وكانت معارضته في اتساق مع الماركسية، ورغب في تحالف مع الشيوعيين. وكان كامي يكافح من أجل مبادئ عظيمة، ولهذا جذبه حماس غاري ديفيز. واعتاد أن يرفض المشاركة في الأعمال السياسية المحدودة والتفصيلية التي ألزم سارتر نفسه بها. إذ بينما آمن سارتر بحقيقة الاشتراكية، أصبح كامي أكثر فأكثر مدافعا صلبا عن القيم البورجوازية. ويمثل كتاب «المتمرد» بيانا لتضامنه معهم. وأصبح الموقف الحيادي بين الكتلتين مستحيلا آخر الأمر. لذلك اقترب سارتر أكثر إلى الاتحاد السوفييتي، وكره كامي الروس على الرغم من أنه لم يكن يحب الولايات المتحدة، وصادف قبولا من الناحية العملية لدى الجانب الأمريكي. وحدثته عن تجربتنا [التراجع عند رؤية جنود أمريكيين في أواخر العام ١٩٥١] في شينون. قلت له: «أحسست في الحقيقة أنني عدت ثانية إلى الاحتلال». تطلع إليّ في دهشة تجمع بين الإخلاص والادعاء. وابتسم قائلا في تساؤل: «حقا؟ انتظري قليلا، سوف ترين احتلالا حقيقيا فورا ـ نوعا آخر مختلفا تماما».

هذه الاختلافات في الرأي هي الأسباب الحقيقية وراء تصدع الصداقة. هذا علاوة على اختلافات شخصية أيضا.

«الحل الوسط لم يكن بالشيء اليسير بالنسبة لرجل له شخصية كامي. يذهب بي الظن إلى أنه أحس بموقفه المستضعف بشكل ما. لم يكن ليتحمل الطعن، ولا يكاد يرى شخصا آتيا حتى يهرب متخفيا وراء إحدى ثورات غضبه النظرية التي تبدو ملاذه. وظهر إمكان لعقد شكل من أشكال التصالح بينه وبين سارتر وقت صدور «الشيطان والرب الرحيم»، ونشرنا مقالته عن نيتشه في مجلة «الأزمنة الحديثة» على الرغم من عدم رضانا عنها تماما. بيد أن هذه المحاولة

التمهيدية لم تدم. لقد كان كامي على استعداد، لأوهى الأسباب، لأن ينتقد سارتر لتسامحه إزاء «الاشتراكية التسلطية». وظل سارتر لزمن طويل مؤمنا بأن كامي خطأ على طول الخط، وأنه علاوة على هذا أصبح، كما قال له في رسالته، «لا يطاق على الإطلاق». ولكن من ناحيتي الشخصية فإن هذه القطيعة لم تؤثر فيّ. ذلك أن كامي الذي كان عزيزا علي لم يعد له وجود في نفسي منذ زمن طويل».

ومع مرور الوقت، بدأ كل من سارتر وبوفوار يعتبران القطيعة جوهر العلاقة. وتكشف ذكريات سارتر، أنها مثل الرؤية العامة التي حكتها بوفوار تحمل رائحة التبرير الذاتي. ذكر كامي باعتباره صورة المرآة السلبية التي حدد نفسه في ضوئها، كما قال في مناقشة جرت العام ١٩٧١ مع جون جيراسي المرشح ليكون كاتب سيرته. وقال سارتر وهو يتأمل حياته في الماضي في العام ١٩٤٣:

«كنت آنذاك مثل كامي في الخمسين... لم أكن أفهم أن الحرب نتيجة مترتبة على صراعات داخلية معينة داخل المجتمعات البورجوازية. العمال لا يذهبون إلى الحرب، والفلاحون لا يذهبون إلى الحرب ما لم يكونوا مدفوعين إليها دفعا عن طريق زعمائهم المسيطرين على وسائل الإنتاج وعلى الصحافة والمواصلات بعامة وعلى النظام التعليمي، أو بكلمة واحدة: البورجوازية. وأنني حين أفكر في كامي زاعما بعد سنوات أن الغزو الألماني أشبه بالطاعون ـ يأتي للاسبب ويرحل للاسبب ـ أقول أي حمق هذا!».

ويمثل هذا تحولا مذهلا، لأننا نعرف أن سارتر اعتبر كامي نموذجا له العام ١٩٤٥ وامتدح بحرارة روايته عن المقاومة.

وبدا سارتر من خلال حديث أدلى به العام ١٩٧٥ مثابرا على النكوث بالعهد إزاء الصداقة، خاصة فيما يخص علاقته مع كامي. إذ ما فتئ يشعر بأن لديه المبرر تماما في هجومه لأنه، كما قال، «ناداني السيد المدير ورأسه مليء بأفكار مجنونة عن مقال فرنسيس جينسون». ولكن سارتر في هذا الحديث نفسه، وعلى غير عادته، أفلتت منه ملاحظة جد مختلفة،

والتي ذكرتها أكثر من مرة في هذه القصة: «لعله كان آخر صديق جيد عرفته». وبعد أن أقر سارتر بأنه رد «بخشونة شديدة» على كامي، أفاد ضمنا بأن حبه الشخصي استمر باقيا في موازاة الاختلافات القائمة بينهما. «احتفظت له في نفسي بقدر من الحب على الرغم من أن سياسته كانت غريبة تماما عني، خاصة موقفه إبان حرب الجزائر». وجدير بالذكر أن كلمة «خاصة» هذه هي ذكرى غريبة، ذلك لأن خلافاتهما بشأن الشيوعية قبل ذلك على مدى خمس سنوات، وليس الجزائر، هي التي باعدت بينهما. ترى هل يشير الآن إلى أن موقفه من كامي خفت حدته بعد أحداث المجر وذوبان جليد الحرب الباردة، وأن افتراقهما دعمته من جديد اختلافاتهما السياسية الجديدة؟

لقد احتفظ سارتر يقينا بمشاعر إيجابية تجاه كامي. وحدث أنه حين سمع بفوز كامي بجائزة نوبل في أواخر العام ١٩٥٧ قال لسكرتيره «إنه لم يسرقها». وسبق أن رأيناه في تأبينه لكامي يمتدحه ككاتب وكرجل أخلاق. وجدير بالملاحظة أن سارتر بعد أن استعاد حسه الخاص بأهمية الأخلاق في السياسة عمد إلى مواصلة تطوير هذا المنظور في اتجاهات جديدة. علاوة على هذا فإن المجلد الثاني الذي لم يكتمل من كتاب «نقد العقل الجدلي» يطرح بدقة وتحديد السؤال نفسه الذي طرحه كتاب «الإنسان المتمرد»: «كيف يمكن لثورة تهدف إلى تحرير البشرية أن تخلق الجحيم على الأرض؟».

أما عن رأي كامي الأخير عن سارتر، فقد سبق أن شاهدنا تعقيبه المباشر والأخير في العام ١٩٥٥ حيث قال إن «سارتر لم يكن خصما أمينا». كما عرفنا تأملاته المختلفة وغير المباشرة، خاصة في رواية «السقوط». ظل سارتر في صورته السلبية على المرآة حتى النهاية فيما يختص بعلاقته بالجزائر. وسبق أن كتب كامي في العام ١٩٥٨ تصديرا لطبعة جديدة لكتاب «الجزر» Les iles تأليف معلمه جان غرينييه. ويتضمن التصدير آخر إشارة له إلى سارتر. ويقول المثقفون تفتنهم نصف الحقيقة، حيث كل وعي يلتمس موت الآخر. وإن الصياغة الفرنسية الجديدة لصراع السيد ـ العبد عند هيغل هي تصور سارتر لصراع الذات ـ الآخر في كتاب «الوجود والعدم». وجسد هذه النتيجة على المسرح الإدراك الأخير لغارسين في مسرحية «لا مفر»،

والمتمثل في أن «الجحيم هو الآخرون» ـ وهذا أحد الآراء التي أعاد كامي سردها إبان الحرب، وهو في غرفة بوفوار في الفندق. وها هو الآن كامي يرد الجميل لأستاذه غرينييه، وذلك بالحديث عن «علاقة الاحترام والعرفان بالجميل» بينهما، والتي هي على نقيض علاقة العبودية أو الطاعة. وبدا غريبا أن كامي ينتقي عراكا فلسفيا غير مباشر مع سارتر ثم يحاول تعميمه بالإشارة إلى علاقته هو مع غرينييه. وطبيعي أن هذا باستثناء الإشارة إلى المفارقة بين علاقته مع غرينييه وعلاقته مع سارتر: الأولى قائمة بسعادة على الإعجاب، أما الثانية فهي من بين تلك العلاقات القائمة على الكراهية في تكافؤ بين الاثنين.

ولكن ثمة تتمة للجانب الشخصي من القصة. إذ بحلول العام ١٩٦٣ كانت الحرب الجزائرية قد انتهت ومضى على وفاة كامي ثلاثة أعوام، ولم يعد لشعار «الجزائر فرنسية» وجود. ولو كان كامي لا يزال حيا فإنه من دون شك سيشهد مثالا أخيرا لغدر سارتر به. ذلك أن سارتر وهو يختتم «عزيزي كامي» قال: «إذا وجدتني قاسيا لا تخف. الآن سأتحدث عن نفسي وباللهجة نفسها. سوف تحاول دون جدوى أن ترد الضربة إلي، ولكن كن على ثقة من أنني سأرد الصاع صاعين. أصبحت الآن لا تطاق أبدا، ولكنك لا تزال «رفيقي الإنسان» بحكم قوة الظروف». وتحدث سارتر ساخرا بأن وعد كامي بتحليل ذاتي قاس بالقدر نفسه. قال هذا وفي ذهنه السيرة الذاتية في مراحل تطورها «الكلمات».

ترى هل أوفى سارتر بوعده لرفيقه الإنسان؟ إنه لكي يفعل هذا في السيرة الذاتية كما هي الحال في مستهل رواية «السقوط»، كان عليه أن يعري نفسه كاشفا عن خططه الماكرة وأساليب الرياء، وما كان يخفيه وراء هذه وتلك. كان لزاما على سارتر أن يتبنى الموقف النقدي نفسه الذي تبناه في «عزيزي كامي»، بل وربما ليثبت سوء نيته في الوقت الحاضر. اضطر سارتر في «الكلمات» إلى استكشاف الطريقة التي تشكل بها خداع الطفولة في حياته وهو في كنف جده وجدته وأمه بعد وفاة أبيه. ويصف بعد ذلك كيف أصبح كاتبا وهو لا يزال صبيا تعلم كيف يخط بالقلم على الورق ويكتب قصصا، وحول نفسه بذلك إلى مخادع مقبول اجتماعيا. لقد أحاط به عالم من المعاناة والظلم لم يعرفه إلا بعد ذلك بزمن طويل، وإذا بقصة الصبي التي

يرويها بأسلوب جميل تكشف رويدا رويدا عن طفولة أليمة. تحكي لنا القصة كيف أصبح طفلا محتالا، ليست له هوية حقيقية، عاطلا من أي حس بالانتماء. ويبدو سارتر حتى الآن وفيا بوعده لكامي.

بيد أن اعتراف سارتر الذي يشبه كثيرا اعتراف كليمنصو يحول الأمانة والصدق المباشر لروايته إلى شيء آخر. إن ألمه الذي كان حقيقيا أصيلا أول الأمر يعيد تشكيله جماليا، مثلما أن قصة الطفل تتحول لتشبه ليس فقط رواية بل ولعبة المرايا. ثم يبدأ سارتر في الوصول إلى خاتمتها، واعدا باستكمالها. وما أن يصل إلى النهاية حتى نجد المسرحية ذات المستويات المتعددة تكون لها الغلبة على الكشف عن مكنون الذات. يكتسب ألم الطفولة مظهرا جذابا مع تحول قصة الصبي إلى قصة مبهمة ومبهجة. ويقول سارتر لقرائه: توقفت في الوقت الحاضر عن اعتبار قلمي سيفا، ولكنه لم يوضح أبدا ما الذي يعنيه بالدقة. وحقق قدرا من الفهم العميق لنفسه عند مرحلة من سنين نضجه، ولكن ما هو وكيف؟ إن سارتر لم يختم القصة.

إن سارتر إذ خلق هذا النجاح الأدبي العظيم استطاع في آن واحد أن يحتفظ وأن يخفق في الاحتفاظ بوعده إلى كامي. كشف نفسه، ولكنه نأى بنفسه عن الشرك. ولكن على الرغم من، أو ربما بسبب، هذا الغموض ساد على الفور الاعتراف بأن «الكلمات» إحدى الروائع الأدبية. وبعد العام نال سارتر جائزة نوبل عن الأدب. وأثارت سعادة غامرة تفوق ملاحظة كامي «الأم قبل العدالة». ولكن سارتر رفض الجائزة بحجة أنها أصبحت إحدى أدوات الحرب الباردة. وهكذا فإن واحدا نشأ وترعرع وسط فقر الجزائر بلغ ذروة النجاح بحصوله على جائزة أفادت في الوقت نفسه أيضا أن حياته العملية انتهت، واستثمر المال لشراء بيته الدائم الوحيد، بينما الآخر، الطفل الذي نعم بحياة ميسورة إذا به يرفض الجائزة والمال وكل شيء باعتبار موقفه احتجاجا سياسيا.

* * *

سيظل كامي بين الرجلين هو الأكثر كسبا لتعاطفنا. ذلك نظرا إلى أنه مات شابا، وعلى حين بغتة، ولذا لن يبدو كهلا في نظرنا، بينما نستطيع أن نرى سارتر وقد بلغ من السن عتيا، أصبح شيخا مستنفدا منهك القوى، وكأنه

عمر أكثر من المفترض وخلف وراءه عراكات غير لائقة، سواء كانت كلماته الأخيرة هي التعبير الصحيح عن نفسه وفكره أم لم تكن. وعلى الرغم مما بدا من أن نجاح كامي أدار رأسه وأغاظه الجدل الخشن المفرط، إلا أنه كان دائما شخصا واضح المشاعر والمعاناة والشك في ذاته، ومستضعفا. وأكثر من هذا أن قدراته الأدبية حصاد جهد شاق، وأكثر إنسانية من مواهب سارتر الفكرية المذهلة.

ولكن أن نختم القصة بتخمين أي من الرجلين «كسب» يشبه طريقة إما/أو في السياسة التي أبقت علاقاتهما برمتها بعيدا عن الأنظار خمسين عاما. ويبدو أن المناخ السياسي اليوم يفرض مثل هذا السؤال في ضوء حملة ما بعد الحرب الباردة وما تكيله من لوم ومديح. وإذا كانت دار غاليمار في العام ١٩٥٢ تؤكد أن سارتر سجل لمصلحته نقاطا أكثر، ومثلما فازت جبهة التحرير الوطنية في الجزائر بعد عشر سنوات من هذا التاريخ، كذلك أصبح مؤكدا أن كامي هو الفائز اليوم حسب رأي من «يجمعون أخطاء سارتر». ونجد، بنص كلمات أشهر هؤلاء، أن سارتر السياسي كان «متعصبا»، و«واعظا يبشر بالعبودية الطوعية»، وعانى من «هذاء الشمولية»، بينما كان كامي على صواب مع كل تحول تقريبا.

وبدأ هذا التغير في الأحكام بينما كان سارتر لا يزال على قيد الحياة. ونشهد إحدى اللحظات الدالة والأساسية في يونيو ١٩٧٩، عندما تجمع فريق من المثقفين الرواد لعقد مؤتمر صحافي أعقبته زيارة لقصر الإليزيه لحث الرئيس جيسكار ديستان على التدخل لمصلحة ركاب مركب ڤييتنامي. التقى سارتر، الذي يعاني من تدهور بدني سريع وحاد، زميله القديم في الدراسة ريمون آرون لأول مرة منذ أكثر من عشرين عاما. طالب سارتر مساعدة الناس من منطلق «أزمة أخلاقية خالصة... ويتعين إنقاذ حياة الناس». ورأت كاترين ابنة كامي، وقد كانت حاضرة، كيف أن سارتر يلقي بآراء أيديولوجية في الهواء دون تفكير، ويضع الإنسانية في موضع الأولوية قبل السياسة. وبدا سارتر وكأنه استسلم لما سبق أن أنكره جينسون في السابق على كامي، واصفا إياه باتباع «أخلاق أعمال الخير أو الصليب الأحمر».

وشهد شهرا نوفمبر ١٩٨٩، وأغسطس ١٩٩١ لحظات رئيسية أخرى في هذا التحول - وهذان هما تاريخ الانهيار الشيوعي. إن التغير الذي طرأ اليوم على خطوط كل من كامي وسارتر في النجاح لا يمكن فصله عن عمليات المراجعة والتنقية في فترة ما بعد الحرب الباردة. ولعل من أهم هذه العمليات محاكمات للشيوعية على لسان كتاب صدرت أعمالهم بعد وفاتهم، من مثل كتاب «تجاوز الوهم» تأليف فرانسوا فوريه، واطردت هذه العمليات على أيدي ستيفان كورتوا ومعاونيه في كتاب «الكتاب الأسود للشيوعية». ونجد في هذه الكتب وفي غيرها مديحا قويا لكامي، وازدراء لسارتر. أصبح سارتر الثوري في رأيهم بمنزلة لعنة، بينما من يعرفون أكثر قليلا عن سياسة كامي يسمعون المديح الذي يكال له لنظراته الثاقبة بشأن العنف والثورة.

وتشبه أنصاف الحقائق الرائجة الآن نظرة الرجلين أحدهما إلى الآخر بعد القطيعة: إنها تبرر وتتهم أكثر مما تفسر، وتحول دون الوصول إلى فهم أكمل. غير أن القصة التي رويتها وفرغت منها فورا تشير إلى ما هو أعمق من حيث النقد والتقدير لكل من الرجلين. وواقع الأمر أن كلا منهما مضى شططا إلى حد بعيد. حدد كامي اختياره بطريقة صريحة ومطلقة: أمي أو العدالة. ولكن بعد أن أعلن كامي صراحة ومن دون مواربة أن اهتمامه بحرية الجانب الآخر يتعين أن يكون في إطار ضمان بقاء عشيرته هو، نجده ينكر على الجزائريين هذا الإحساس نفسه بالنسبة إليهم. وقال سارتر لا عدالة من دون عنف. ولكن بعد أن كد سارتر واجتهد لشق طريقه على الرغم من استحالة أن ينعم العالم بالسلم والنور دون الإطاحة بهياكل القهر والظلم الاجتماعيين، أعلن أن الشر والعنف عند الضرورة، خير إيجابي.

ولكن على الرغم من أخطائهما تميز كل منهما بقوة البصيرة والقدرة على التعبير وقوة الموقف السياسي - الأخلاقي مما وضعهما في مصاف عظماء التراث الفرنسي من أمثال فولتير وهوغو وزولا. إن الاثنين بعد أن حققا شهرتيهما غرقا في السياسة، والتزم كل منهما وفقا لشخصيته وطاقته واقتناعاته، مشروعا متسقا للفهم والعمل في الإطار السياسي. ولم يكن هذا مجرد اشتغال بالشكل والعناية بالسطح والمظهر، بل استنفد هذا كل

طاقتيهما. وليس بالإمكان وضع خط تمييزي بين أعمال كامي وسارتر في الأدب أو الفلسفة أو السياسة، ذلك أن أعمق أفكارهما امتزجت بالسياسة ونبعت منها وأججتها. ومن ثم لا غرابة إذ استحالت المصالحة بينهما. وجدير بالملاحظة أن كلا منهما كمثقف سياسي كان راغبا في المخاطرة، وفي أن يبدو غير متناغم، وأن يقع في أخطاء وأن يصبح إنسانا غير محبوب لدى الناس أو غير مقبول بل ومكروه. وخاطر كل منهما، عند الضرورة، بأمنه الشخصي مبديا شجاعة منقطعة النظير ككاتب ذائع الصيت أكثر مما لو كان أي منهما شابا غير معروف.

كل منهما وقف شامخا، وتحدث صراحة من دون مواربة، وأنصت المستمعون لهما... كامي في إدانته الصلبة للروح الشمولية، وسارتر في إدانته التي لا تقل صلابة للاستعمار. وكامي من أجل سياسة للحرية وضبط النفس، وسارتر من أجل الهجوم الشرس ضد القهر. كامي ضد تبريرات العنف السياسي، وسارتر ضد العنف المنظم. وهكذا أيضا عندما نال كامي وسارتر جائزة نوبل في الآداب العامين ١٩٥٧ و١٩٦٤ ساد الاعتقاد على نطاق واسع أن الجائزة اعتراف بإنسان كامل ـ ليس فقط إنتاج كل من الأدب الروائي والمسرح والفلسفة والكتابات السياسية والصحافة والنشاط السياسي، بل والاعتراف بحضور كل منهما على صعيد فرنسا والعالم أجمع.

كل منهما تحدد كيانه من خلال المحاجاة مع الآخر، وبهذا السبيل فقط أصبح كل منهما المثقف السياسي كامل النضج والتطور حتى اعترف العالم بكل منهما: كامي وسارتر: القطبان النقيضان اللذان حددا اختيارات جيلهما. تميز كل منهما بموهبة بالغة العظمة، والاستغراق في العصر إلى أعمق الأعماق، والالتزام السياسي على أشد وأحكم ما يكون، والحافز الذي يحدو كل منهما لتوضيح وجهة نظره بقوة وجلاء، بحيث تجلى هذا كله مجملا في صورة كامي أو سارتر. وجاءت نهاية صداقتهما كحدث حتمي لهذه العملية نراها منقوشة على صفحات القضايا التي باعدت بينهما.

وتشوهت القطيعة بسبب زعم الكثيرين منذ أيامهما حتى الآن بأن القطيعة تولدت عن نهجين متعارضين تعارضا أساسيا في التعامل مع الحياة. وقدم هؤلاء مثالا على ذلك التعارض الأبدي بين الإصلاح والثورة، العياني

والمجرد، اللاعنف والعنف، موقف الفنان وموقف الفيلسوف ـ المتمرد والثوري. إن إبدال خلافات الرجلين الشخصية والتاريخية والاستراتيجية بالمبادئ الأنطولوجية من شأنه أن يجعلنا نخطئ في النظر إلى الشعارات الناتجة عن صراعهما ونضعها بديلا عن الأسباب. لقد نبعت اختياراتهما المختلفة من الحرب الباردة، والإمكانات التي أضفاها عليهما تاريخ ومجتمع فرنسا، ونقاط الانطلاق عند كل منهما، والدروب التي سلكها كل عبر العالم، وتعارضهما الواحد مع الآخر. تمثل القطيعة بينهما واقعة تاريخية وليست أكثر من ذلك. إن كلا منهما وقد صاغ نفسه على النحو الذي أصبح عليه، وفي المسيرة مع الحرب الباردة، والحاجة إلى الاختيار من كل منهما لطبيعة المسار، وهكذا كان لكل من هذين المفكرين المتميزين أسبابه المتمايزة للاستجابة ولمحاولة التأثير في جماعتهما السياسية وفي عالمهما الأوسع.

هل حسم التاريخ القضايا التي حددت لكل منهما فكره وشخصيته ثم دفعهما إلى الافتراق؟ نعم. هل حسمت الأحداث موقفنا الراهن الذي تغير على نحو كامل بحيث يمكننا الآن أن نعلن نهاية الصراع بين كامي وسارتر؟ لا.

إن القضايا الأعمق التي حفزت كامي وسارتر وفرقت بينهما لا تزال بيننا. وما فتئ القطاع الأكبر من الإنسانية يناضل من أجل حق تقرير المصير، أو بسبب المظالم من حيث الثروة والسلطة، أو بسبب هيمنة الشمال على الجنوب. ويبدو أن الإرهاب يمضي في ترابط وتوافق مع الاقتصاد العالمي. العنف والحرب لا يزالان «قانون العصر»، والإرهاب النووي يؤكد وجوده. وما أكثر ما هو منحرف بشكل راديكالي عن الخط المستقيم في عالمنا، ومادمنا نحن في صراع معه سيظل كامي وسارتر نصب أعيننا ـ وعلى نحو ما كانت علاقتهما، وحججهما، وحكمة كل منهما، ومواضع القصور في فكرهما. لقد هزمت الرأسمالية الديموقراطية الشيوعية، وزالت غالبية أشكال الاستعمار. وانتهت الحرب الباردة. واختفت القضايا المحددة التي فرقت بين الاثنين، ونحن إلى هذا الحد نعيش في عالمين مختلفين. وأصبح بوسعنا الآن أن نقيم كلا من كامي وسارتر، ونرفض طريقة إما/أو التي باعدت بينهما. واتساقا مع هذا أجدني مضطرا إلى القول لقد حان الوقت لظهور نمط جديد من الفكر

السياسي بوسعه أن يؤالف بين قوى كل من الاثنين ويتفادى ضعف كل منهما. أصبح بوسعنا تصور شخص يقول الحقيقة في كل الأوقات، ويعارض القهر في كل مكان، ويوحد القدرة المميزة لكل من الاثنين على الرؤية الثاقبة التزاما بمعيار أخلاقي وحيد. إن مثل هذا المثقف سوف ينير الطريق ويكشف حقيقة العنف المنظم الراهن مع قبول تحدي الدخول في صراع مثمر وفعال ضده دون خلق شرور جديدة. هل من كامي واحد؟ وكما قال سارتر ذات يوم، ولكن في مجال آخر، هذا أشبه بمن يتخيل وجود ملاك، تجسيدا نظريا مجردا لما نحن في حاجة إليه على وجه الدقة والتحديد في موقفنا. والملائكة أيا كان الرأي والعقيدة بشأنهم يمكن أن تكون صورتهم معيارا يهتدي به البشر.

تذييل

بينما كان هذا الكتاب بسبيله إلى الطبع سافرت إلى مقاطعة إيكس في فرنسا لدراسة مسودة العمل المهم الباقي دون نشر لألبير كامي، وهو مسرحية من فصل واحد بعنوان «ارتجالات الفلاسفة». وأدهشني أني وجدت هذه المسرحية المؤلفة من فصل واحد مكتوبة العام ١٩٤٦، وأنها شديدة الجاذبية، ومسلية، وزاخرة بالتلميحات عن سارتر. وسبق أن كتب كل من أوليڤير تود وهربرت لوتمان مختصرات لهذه المسرحية الهزلية المبهجة فيما كتباه من سيرة ذاتية لكامي. ولكن كلا هما انتهيا إلى رأي شديد الغموض بشأنها حتى أنني تشككت في أنها تستحق عناء السفر إلى فرنسا. بيد أنني تصورت أن من المحتمل أن أجد فيها شيئا أضيفه إلى القصة، ولهذا عزمت أخيرا على أن أستشير المسودة بنفسي، والتي لم يكن من المقرر نشرها حتى تاريخ ظهور الطبعة الجديدة لدار بلياد من أعمال كامي.

وما أن حسمت رأيي بالاطلاع عليها حتى أذنت لي كاترين كامي بسخاء بالغ بالرجوع إلى المسودة المكتوبة على الآلة الكاتبة المؤلفة من أربعين صفحة،

«يعرف الجميع أن النقاد لا يدرسون أبدا الكتب التي يتحدثون عنها، وأن الباريسيين أيضا مشغولون جدا بمناقشة الأفكار بحيث لا يقرأونها»

المؤلف

ومخطوطة من خمس وثلاثين صفحة في مكتبة ميجانس العامة في محافظة إيكس. ويسرت لي هذا مارسيل ماها سيلا مديرة مركز توثيق أعمال ألبير كامي. ودارت بيني وبينها حوارات عديدة بشأن المسودة، وكذا بشأن علاقة كامي وسارتر. وساعدتني هي وهيئة العاملين معها وأيضا كاترين كامي على فك شفرات خط كامي بيده بما في ذلك الصفحات العديدة من الهوامش التي أضافها العام ١٩٤٧.

وتوصلت إلى مسرحية «ارتجالات الفلاسفة» في وقت متأخر لسبب آخر: الحرب في العراق. إذ تم تجنيد زوج ابنتي في الجيش وقت الإعداد للغزو في مطلع يناير ٢٠٠٣، بعد أن وضعت ابنتي طفلها بأيام قليلة. وانتقلت عائدة إلى البيت لقضاء عدة أشهر تحظى خلالها برعاية أبويها وليساعداها على رعاية طفليها، وهو ما يعني أنني لن أستطيع السفر إلى فرنسا إلا بعد أن يكتمل الكتاب. وأدى هذا الحدث العرضي التاريخي إلى أن أضع حواري بشأن المسودة في صورة تذييل للقصة المعقدة والمأساوية لصداقة ولنهايتها. إذن لقد كان لتقلبات الرأي وللصدق دور جعل القارئ الآن لديه فرصة لتذوق لحظة من اللحظات المهمة والمبهجة في العلاقة، بينما القصة إجمالا في خاطره. ونستطيع هنا حسبما قالت لي كاترين كامي، أن نستمتع بالوقت، الذي كانا لا يزالان فيه خليلين. ولكن بعد أن نرى العلاقة قد طوح بها الهواء ومزقتها رياح التاريخ الذي أبدعها، فإن هذه المسودة غير المنشورة تذكرنا بلحظة أكثر هدوءا وصفاء وقتما كان كامي بوسعه أن يسخر من نفسه ومن سارتر ومن صحافيي باريس وتجار الموضة الذين وضعوا ما بدا لهم من عبارات غاضبة على لسان كل من الرجلين.

* * *

السيد ڤين صيدلاني وعمدة ريفي يملك من الغرور أكثر مما يملك من الفهم السليم. زاره «بائع جوال يروج مذاهب جديدة» هو مسيو نيانت (التي تعني العدم). وطبيعي لو أن هذه المسرحية وجدت طريقها للتمثيل على المسرح لشدت انتباه النظارة على الفور إلى الاسم الأخير وإلى بضاعته. إذ من آخر في باريس أو في فرنسا سيتجه إليه فكر الناس عند سماع اسم السيد نيانت، وهو الاسم المختار عمدا من سفر سارتر العظيم؟ ونقرأ حبكة تذكرنا بكوميديا موليير «طرطوف»، وكيف أن المثقف المحتال الذي يحتال على الناس بكسب ثقتهم ينقض على الأحمق ڤين ويخدعه «بالإنجيل الجديد» الذي يحمله معه من باريس ويتضمن السفر الكبير الذي يكدسه نيانت حوله ـ وهذا تلميح شبه واضح إلى كتاب سارتر «الوجود والعدم».

ويسخر كامي من شهرة آرائه وآراء سارتر ومن سوء الفهم الرهيب الذي تعرضت له أفكارهما في الصحافة. ووصل الأمر إلى حد أن مراسلة صحافية معروفة عنها حصافة الرأي مثل جانيت فلانر تكتب باسم «جينيه» في صحيفة «ذي نيويوركر» لم تجد ما هو أفضل من قولها في رسائلها من باريس أن حكمة كامي قوامها «الاعتقاد أن الحياة مدعاة للسخرية». وبعد ذلك ببضعة أشهر: «ظن بعض البلهاء، حسب ما يمكن استنتاجه على وجه التقريب، أن لابد من تأسيس فلسفة فرنسية جديدة مهمة على قاعدة تتجاوز «النفور من الإنسانية»، ونعرف أن صيغة الوجودية عند سارتر تبنى في الحقيقة على «نفور من الإنسانية». وعلاوة على هذا الهراء المثير للسخرية، فإن البائع المحتال ابن العاصمة الذي يثب مرحا، والريفي الأحمق يكشفان عن قدر من السعادة لقلب المعتقدات والقناعات رأسا على عقب، إنها البهجة للهراء، ونزوع لصياغات متناقضة ـ وكذا إثارة دعابات ساخرة بالعديد من أفكار سارتر.

والأفكار في باريس سلع، ولهذا يتعهد ڤين بأن يسدد لنيانت مقابل أتعابه. وقال ڤين، المتحمس لعقيدته الجديدة، لابنته صوفي أن صديقها ميلوسين سوف يطلب منها، إذا كان يحبها حقا، أن يشاركها غرفتها، وقد يفضي هذا إلى حمل وإنجاب طفل سفاحا، مما يهيئ لها فهما أعمق لمعنى أنها موجودة. وهنا يحاكي كامي تأكيد سارتر الفلسفي على المواقف المتطرفة، ويلعب بشكل مباشر بكتاب سارتر «عصر العقل» الذي أحدث إثارة أدبية في خريف العام ١٩٤٥. وتدور هذه الرواية حول حمل مارسيل، وبحث ماثيو عن حل ييسر له تفادي الزواج بها (ووصل به الأمر إلى حد سرقة المال لدفع تكاليف الإجهاض). ويخبر ڤين ابنته أن فتاها لا يمكن أن يحبها من دون أن يكون ملتزما، ولن يكون ملتزما دون أن يضعها في موقف مروع. إن المرء لا يمكنه أن يحب من دون مسؤولية ـ وقد أخفق ماثيو في هذا الاختيار ـ ولا يمكن للمرء أن يكون مسؤولا دون حالة حمل.

افتتن ڤين بمثل هذه الأفكار، ومن ثم أمر زوجته أن تعد غرفة لنيانت الذي سينتقل إليها معهم. والتهم نيانت الشره فخذ خنزير. وبينما كان ڤين يتحادث مع العمدة بشأن حالة الغم التي يعانيها، أحضر ڤين «أفضل شيء في العالم»، إذ يهيئ هذا الشيء للمرء إحساسا بأنه موجود، خاصة أن الميت لا يعرف الحزن: «الحزن ومزيد من الحزن والحزن دائما»، بهذا سوف يتحقق لنا ولڤين الخلاص». وأثار ڤين ونيانت انزعاج أحدهما للآخر، وحث المحتال ڤين على إنكار شرعيتها. وأخذ قلبه يدق كابن العشرين، وهنا أعلن ڤين أنه متحرر من التزاماته.

وبينما كان الصيدلاني ـ العمدة يتحدث إلى ابنته شدد على أن الشاب ليس هو هو ـ هنا لعب على فكرة سارتر أننا دائما في حالة صيرورة، ولا نكون ما نحن عليه بشكل ثابت ومستقر إلا في حالة الوفاة. ويرد ميلوسين منقطع الأنفاس بحيث يقدم في كلامه موجزا لأفكار نيانت علمتها له صوفي لإقناع أبيها مرددة كلمات سارترية طنانة ملأت الآفاق مثل «المسؤولية» و«الالتزام» و«الحرية». ويجيب ڤين على ميلوسين الملتزم بالقوانين بأن فحص صوفي سيفيد إذا كانت سرقت شيئا أو أنها قاتلة. وما هو أكثر، أن عليه التسليم برغباته الجنسية إزاء المحارم، بل وأيضا، إزاء رجال آخرين. هنا يمزح كامي على سبيل السخرية من الإحساس بالفضيحة التي تمثل التحية التي تتلقاها أعمال كامي وسارتر في أغلب الأحيان، كما يسخر باهتمامات الاثنين بالشخصيات الشاذة، وكذا بافتتان سارتر بالشواذ جنسيا. ويتحدث ڤين بلغة سارترية ويخبر الشاب أن رضاه رهن ميلاد طفليهما غير الشرعي. «إذا لم يكن ثمة طفل فأنت بغير مسؤولية، وإذا كنت بغير مسؤولية فأنت غير ملتزم على الإطلاق. وإذا كنت غير ملتزم فإنك لا تحب ابنتي... هذا واضح». إنها لم تكن أقل من هذا وضوحا بالنسبة إلى أي إنسان شاهد المسرحية في العام ١٩٤٦، حيث إن صحيفة كامي «كومبا»، قدمت سلسلة من التأملات لعدد من مشاهير الكتاب عن موضوع الالتزام هذا، والذي أصبح ملء الأسماع منذ أن كتب سارتر مقدمة لمجلة «الأزمنة الحديثة» في أكتوبر السابق.

ويتذكر كامي في إحدى التبادلات فكرة سارتر المشهورة عنه، وهي أن الفرنسيين لم يكونوا أكثر حرية مما كانوا عليه في ظل الاحتلال الألماني، وهو ما يتمثل في قول نيانت إن حرية المرء رهن كونه مقهورا. ويعمد المحتال، مثلما هي الحال عند «طرطوف»، إلى إشاعة البؤس بين الأسرة. ذلك لأن الشاب لم يضاجع صوفي، ولهذا رفضه ڤين زوجا لابنته: إن عليه أن يمارس حبه للإنسانية خلف أبواب مغلقة. ها هنا تلميح واضح بواحدة من أشهر مسرحيات سارتر، حيث يتسلى بفكرتها وهي أن الجحيم هو الآخرون. ويعلن ڤين أنه انفصل عن زوجته ويرغب في أن يأتي نيانت وصوفي بطفل لهما غير شرعي. إنهما الآن في ذروة النضج لكي يعلن نيانت أن مثل هذه المعاناة تعني أنهما معا يعيشان بإحساسهما وعلى نحو مثير الوضع الإنساني ـ وهنا أيضا صدى لـ «جمهورية الصمت».

ويتحول الأمر بعد ذلك ليتضح أن نيانت هارب من مصحة عقلية. ويعكس هذا نهجا للرأي الشعبي الذي رأى في سارتر وكامي وكذا في شخصياتهما عناصر مخبولة. ونعرف أن ڤين لم يكن أول من دخل المصحة: إن نيانت له أتباع كثيرون في

باريس. ولكن إذا كان هو مجنونا، فماذا عن كتابه؟ إن ڤين لم يقرأه، وكذا نيانت. وهذا من شأنه أن يثير ضحك الجمهور، إذ فيه إشارة إلى أشهر كتاب في فرنسا، وهو الأكثر من حيث امتلاك الفرنسيين له، والأقل من حيث قراءتهم له، وهو كتاب «الوجود والعدم». وقبل أن يصبح نيانت ملتزما نعرف أنه يتكسب رزقه بالعيش كناقد. ويعرف الجميع أن النقاد لا يدرسون أبدا الكتب التي يتحدثون عنها، وأن الباريسيين أيضا مشغولون جدا بمناقشة الأفكار بحيث لا يقرأونها.

* * *

ووقع كامي باسم مستعار «أنطون بيلي» على مسرحية «ارتجالات الفلاسفة». وعكف على هذه المسرحية فترة من الزمن خلال العام ١٩٤٧، بحيث أضاف هامشا في وقت متأخر من صيف هذا العام. ولكنه لم يفكر أبدا في إخراجها على المسرح، حتى وقتما كان هو مديرا لشركة المسرح الخاصة التي يملكها هو. بيد أنه عاد للتفكير فيها ثانية في الخمسينيات، باعتبارها أحد مشروعاته التي لم تكتمل، وفكر في إخراجها على المسرح باعتبارها كوميديا فنية.

ويبدو مهما أن نفكر في ما إذا كان كامي عرض المسرحية على سارتر، وفي السبب في أن كامي لم يحاول أبدا إخراجها على المسرح. ويبدو مهما بالقدر نفسه لماذا ظلت بالنسبة إليه أمرا ينبض بالحياة حتى بعد القطيعة مع سارتر. بيد أن الحقيقة الأكثر إثارة بالنسبة لمسرحية «ارتجالات الفلاسفة» هي ببساطة أنها موجودة، وتمثل شهادة بريئة على غير العادة عن لحظة بعينها في حياة كامي وفي علاقته مع سارتر، وفي التاريخ الفرنسي.

وتمثل الباروديا فيها، أي المحاكاة بطريقة ساخرة لفلسفة سارتر سلوكا ذا طبيعة ودية، حتى وإن أخذناها بمعنى أن كامي يرى أن حديث سارتر هراء، ذلك لأن هذا أمر يمكن ببساطة أن يكون موضوعا للضحك المشترك بين صديقين. والجدير ذكره أن كامي، حتى وهو يمايز نفسه عن الوجودية خلال هذه الأشهر، فإنه سيستهل هذه المسرحية الهزلية بمحاكاة الفهم الشعبي لفكر كل من سارتر وكامي تحت عنواني العبث والبطولة. إن كامي وهو حريص كل الحرص على ألا يبدو في صورة تابع لسارتر وضع مسودة مسرحية كان من المقدر لها، إذا ظهرت على المسرح، أن تبدو وكأنها في آن واحد تسخر، وتحكي دعابات عن ظاهرة سارتر في العامين ١٩٤٥ و ١٩٤٦. وهنا نذكر «زبد الأيام»، تأليف بوريس ڤيان المنشور في ربيع العام ١٩٤٦، وفيه يصور البطل الفيلسوف جان ـ سول بارتر، مؤلف «القيء»،

والذي ينشر ما لا يقل عن خمس مقالات أسبوعيا، وعاكف على إنجاز «دائرة معارف الغثيان» من عشرين مجلدا، وأنه كان محور محاضرة عامة صاخبة. وها هنا كامي الآن أيضا يرسم شخصية مبالغا فيها، بل ومضحكة لشخص بهر أنظار باريس والعالم، ثم ينتهي به الأمر إلى تعبئته وإرساله إلى مصحة عقلية.

وطبيعي أن تثير كلمات مدير المصحة انتباه المشاهدين لو أن المسرحية مثلت على المسرح، إذ يقول: «حذار، أبعدوا أطفالكم عن التفلسف.» وهنا نجد الفيلسوف صاحب «أسطورة سيزيف» الذي أقلع عن الفلسفة! هل المفكر الجاد، وهو كاتب مسرحي، يسخر من التفكير الجاد. أم أنه يوضح استحالة تطبيق التفكير الجاد على أمور الحياة اليومية مثلما يشدد سارتر على ضرورة الفعل؟ وتبقى المسرحية قريبة جدا من السطح، وتغوص في كم هائل من التلاعب بالكلمات، مما يجعل من العسير على المشاهد استنتاج أن كامي ينتقد جديا أفكار صديقه. ونلمس في الواقع حمقا هنا وهناك، بينما الهجاء خال من العمق الفكري إلا قليلا. لماذا نجد مدير المصحة الحكيم العجوز يستنتج أن أي طائفة من الأفكار هي أفكار جيدة، شأنها شأن أي طائفة أخرى غيرها، وأن الفلسفة لا نفع لها في الحياة اليومية، وأن الواجب يقتضينا تحاشي الفلاسفة؟

هل كان كامي يقصد الدعابة فقط؟ أم أن المسرحية تلمح من طرف خفي إلى ما سوف يكون فيما بعد من تباعد حاد بين الرجلين، بل وربما يشير إلى تصدع العلاقة والافتراق؟ نلحظ بعد ستين عاما تقريبا، وعلى الرغم من أن النية لم تتجه أبدا إلى أن ترى المسرحية النور، أن الحياة العامة التي تحكيها مسرحية «ارتجالات الفلاسفة» لم تبدأ بعد. إن الإجابات عن هذه الأسئلة ربما تبدأ في الظهور تدريجيا إذا ما تيسرت قراءة المسرحية مرة ومرتين، والأهم من ذلك، إذا ما أتيحت مشاهدتها على المسرح ومناقشتها. وحري بنا التطلع إلى هذا بسرور بالغ.

المؤلف في سطور

رونالد أرونسون

- أستاذ دراسات البحوث البينية interdisciplinary في جامعة Wayne State.
- مؤلف ومحرر سبعة كتب سابقة، من بينها:

ـ الطبعة الإنجليزية لكتاب «الحقيقة والوجود عند سارتر».

ـ النقد الثاني لسارتر.

ـ ابق خارج السياسة: رؤية فيلسوف لجنوب أفريقيا.

وقد صدرت جميعها من جامعة شيكاغو.

المترجم في سطور

شوقي جلال

- مواليد ٣٠ أكتوبر ١٩٣١ ـ القاهرة.
- عضو المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ـ لجنة الترجمة ـ منذ العام ١٩٨٩.
- عضو المجلس الأعلى للمعهد العالي العربي للترجمة ـ جامعة الدول العربية ـ الجزائر.
- عضو المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ـ لجنة قاموس علم النفس في السبعينيات.
- له عشرة مؤلفات من بينها:

العقل الأمريكي يفكر، التراث والتاريخ، الفكر العربي وسوسيولوجيا الفشل، الترجمة في العالم العربي: الواقع والتحدي، المجتمع المدني وثقافة الإصلاح، رؤية نقدية للفكر العربي.

● له أوراق بحث في ندوات ومؤتمرات ومقالات ثقافية وفكرية في الصحف والمجلات العربية.

● له أكثر من ٤٥ كتابا مترجما، منها:

ـ المسيح يصلب من جديد (رواية نيكوس كازانتزاكس).

ـ الثقافات وقيم التقدم (لمجموعة من العلماء).

● ترجم لسلسلة «عالم المعرفة» عددا من الكتب، منها:

أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي، العالم بعد مائتي عام، تشكيل العقل الحديث، بنية الثورات العلمية، الآلة قوة وسلطة، التنين الأكبر، بعيدا عن اليسار واليمين، التنمية حرية، جغرافية الفكر، الثقافة والمعرفة البشرية.

كما راجع عددا من كتب السلسلة أيضا.

سلسلة عالَم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام ١٩٧٨.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الأفكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية: اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات.

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة.

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

هذا الكتاب

ألبير كامي وجان بول سارتر مفكران مبدعان في تنوع: في الأدب والفلسفة، في الرواية والمسرح، في السياسة والصحافة، وكذا في المقاومة. صاغا إطار الفكر الثقافي الذي دار في فلكه المثقفون في العالم إبان الحرب العالمية وبعدها على مدى الحرب الباردة. اتفقا وتحالفا، واختلفا وتباعدا، ودارت بينهما معارك فكرية هي شهادة على ثقافة عصر، وعلى كل ما عاشته ثقافة العالم من توتر وأمل وإحباط. وظلت قصة الصداقة والإعجاب المتبادل ثم الخصومة والقطيعة والصراع قصة غير معروفة بالكامل. إنها قصة الصراع السياسي والفكري على الصعيد العالمي، وقصة الصراع بين السياسة والأخلاق، بين متغيرات السياسة وثوابت الأخلاق. تقاسما معا مواقف مثقفي العالم: سارتر أم كامي... مع السياسة والوسيلة أم الأخلاق والمبادئ... مع العنف طريقا للحرية، أم مع الحرية وسيلة وغاية... أم هناك موقف ثالث؟ المثقف الملتزم ومعنى الالتزام: للمبادئ أم للأخلاق... للغاية أم للوسيلة... التمرد أم الثورة؟ وأين تقع مسؤولية المثقف في خضم هذا الصراع: مسؤوليته عن الحرية... عن التمرد... عن المبادئ... عن الأهداف والوسائل... عن العنف والقسر من أجل الهدف وإن أدى إلى التضحية بالحرية... عن الإنسان بعيدا عن قيود العصبية والعرق وغيرهما.

ولا نزال نعيش هذه التوترات، إذ لا تزال هذه هي قضايا ثقافة العصر على الرغم من أن الحرب الباردة باتت من ذكريات الماضي، ولا تزال الحروب قائمة... إذن هناك دلالات وأسباب أعمق... رحل كامي وسارتر وبقيت القضية معلقة.

وها هنا قصتهما في التحالف وفي الصراع، في ضوء الوثائق والسيرة الذاتية وشهادات كتاب ومفكرين وشهادة كتبهما.

الكتاب دراما واقعية... دراما الإنسان الملتزم متعدد الأبعاد في توتر بين الغاية والوسيلة... والكتاب مراجعة واقعية لتاريخ الثقافة والسياسة على مدى عقود لا تزال أصداؤها ممتدة في إلحاح، والكتاب سؤال أو استجواب إلى كل مثقف: أين كنت وأين أنت الآن، ولمن الموقف والفعالية والالتزام؟ الكتاب ساحة للمراجعة وللمشاركة في المراجعة... إنه قصتنا أيضا.

ISBN 99906 - 0 - 203 - 4
رقم الإيداع (٢٠٠٦/٠٢٦)